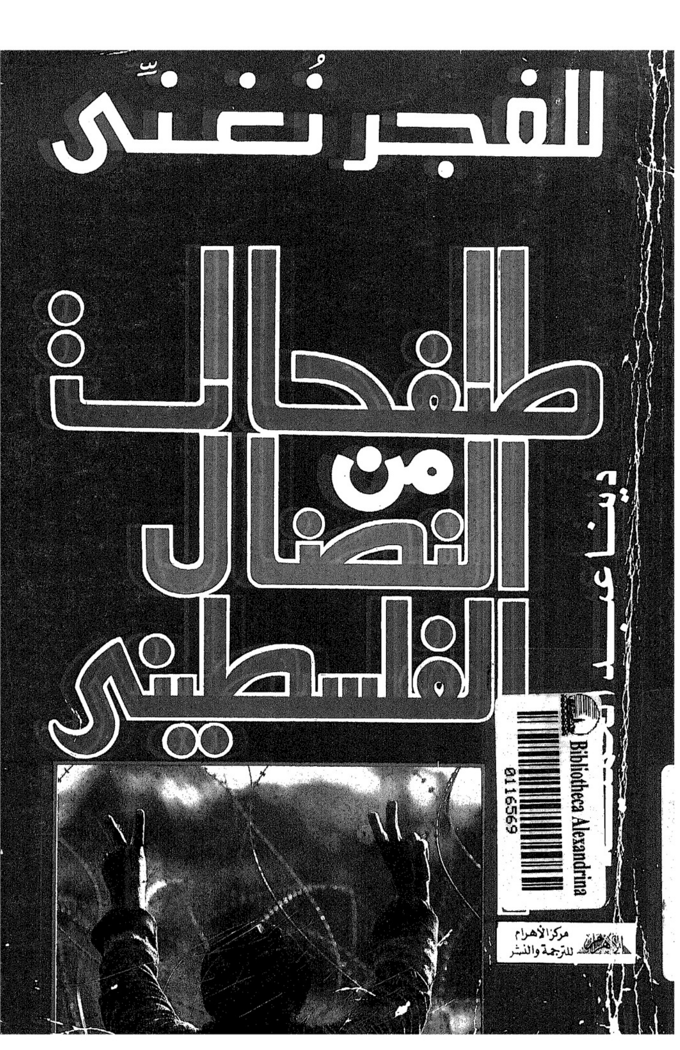

للفجر نغني
صفحات من النضال الفلسطيني
Bibliotheca Alexandrina
0116569
مركز الأهرام
للترجمة والنشر

للفجر نُغنّي

صفحات من النضال الفلسطيني

دينا عبد الحميد

الطبعة الأولى
١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩ م

الناشر : مركز الأهرام للترجمة والنشر
مؤسسة الأهرام - شارع الجلاء - القاهرة
تليفون : ٧٤٨٢٤٨ - تلكس ٩٢٠٠٢ يوان

المحتويات

الصفحة

مقدمـــة

يأتى كتابى هذا فى مرحلة بدأ فيها اليأس العام والشخصى من أى تطور ملموس فى القضية الفلسطينية ، وفى توحيد الجهد العربى وتحركه ، ينحسر ، وإن كـان انحسارا حثيثا ، مما حرّرنى ، الى حد كبير ، من مكبلات الإحباط ، ومكننى من تسجيل ونقل تجربة اعتبرها من صميم النضال العربى العام ، إلى جمهور آمل منه المشاركة والتعاطف .

وتجربتى التى تحكى ، فى الدرجة الأولى ، ملحمة « أشجار الصنوبر الشامخة فى أنصار » ـ أى معتقلى أنصار ـ الذين ، نسجوا من لحمهم حبلا لصعـودهم من هاويـة اليأس الى قمة الصمود ، ثم الحرية ، ليست إلا إسهاما متواضعا فى حقل الشهادات التى صدرت عن تلك التجربة .

كانت الكتابة هى طموحى الوحيد منذ الِصّغَرْ . . . فقد أسرتنى الكلمة منذ نعومة أظفارى كأداة للتـواصل بـين البشر والأمم . فكنت أتـأمل فى سحـر وقوة تلك الأداة مشدوهة بقدرتها وحَوْلِها . غير أن ما جُبلتُ عليه من تحفظ كان يُغلْ يدّى ويُشكِّل ستارا حائلا دونى ودون ما كنت أطمح إليه ، فى الكتابة عن بلادنا وقضايانا . حتى جاء صيف عام ١٩٨٢ وألفيت نفسى وسط أعاصير العدوان والطغيان ، وصور البطش والبشاعة التى صاحبت الاجتياح الاسرائيلى للبنان ، ففجرت وضعا بقى فى درجة الغليان منذ أعوام طـويلة ، مع مـا صاحب ذلـك من عدم استقـرار ، مما كـان كفيلا « بـإنطاق الحجـر الصخرى » ! عندئذ وجدتنى مدفوعة لأن « أنطق » .

فمهما استشعرت من ألم أثناء استرجاعى للتجربة خلال عملية الكتابة ، وبعد أن عشتها وعشت توابعها طيلة خمسة أعوام متواصلة ، وأنا أحث الخطى خـلال العامـين

الأولين مسرعة عبر دهاليز المطارات ، صاعدة وهابطة أدراج الطائرات ، مفتقدة أعز الناس إليّ ، مصطدمة عند كل منعطف بمسخ البيروقراطية وعدم المبالاة ، التى كانت تعتبر الآدميين مجرد أرقام أو كتل بشرية ، من السهل أسْرها وسجنها وتعذيبها وإبعادها ، وإهمالها ، مهما استشعرت من ألم عند استعادة الذكرى ، فقد كنت بالرغم من ذلك ، قانعة بضرورة أداء واجبى نحو الآلاف من أبناء أمتنا الذين طُحِنَتْ حياتهم بين رحى الحرب ، وذلك عن طريق تسجيل ما عاصرت وعايشت وخضت من أحداث وتجارب ، متوخية ما استطعت البساطة والدقة والأمانة فى كتابى . وقد تركت الوقائع وانسيابها خلال ذاكرتى تحدد مضمون « القضية » وشكلها وإطارها .

حرصت فى بادىء الأمر على صدور الطبعة الانجليزية قبل الطبعة العربية لافتقار الساحة حينذاك إلى شهادة عربية ، وسرد موضوعى للأحداث ينقل حقيقة وقائعها للرأى العام الأجنبى الذى لا يخلو من التأثير على السياسة العالمية .

فقد شاء القدر ، كما شاء للآلاف غيرى من بنى قومى ـ العرب ـ أن أجد نفسى فى قلب دوامة الإعصار العاتى الذى هز دعائم الحياة فى لبنان ، ومزّق كيانها الاجتماعى فى أوائل الثمانينات ، وما زال مستمرا دون أن ينال من إيمان أهل المنطقة أو أن يزعزع قناعاتهم الوطنية .

كما شاء القدر أيضا أن يقع زوجى « صلاح التعمرى » فى أسر الإسرائيليين بعد تجربة نفسية وجسدية مضنية ، وهو يحاول الحفاظ على معنويات الأهالى والمقاتلين فى صيدا ، والإفلات من براثن العدو فى محاولة لتجميع الطاقات الصامدة فى المدينة والمناطق المجاورة . . ومن ثم خلق مقاومة محلية جديدة تصمد ما استطاعت فى وجه العدوان الاسرائيلى .

وبذلك اكتسبت القضية بالنسبة لىّ بُعداً شخصيا أكثر عمقا ، بالإضافة إلى التزامى السابق الراسخ . ومن هنا جاءت تسمية الطبعة الانجليزية للكتاب « لحن ثنائى فى سبيل الحرية » . وذلك من خلال تلاحم أصداء كلمات صلاح ونضاله فى الزنزانة الانفرادية فى الأراضى المحتلة ، ومن ثم فى معتقل « أنصار » متحدثا بصوت الآلاف من رفاقه المعتقلين ، مع صوتى وجهودى خارج الأسوار والأسلاك لإيصال ندائهم إلى العالم الخارجى .

ومنذ صدور الطبعة الانجليزية للكتاب ، دخلت الانتفاضة فى الأراضى

الفلسطينية المحتلة عامها الثانى . وأحرزت على الساحة تطورات وانجازات جعلتنا فى العالم العربى ، أكثر أملا فى الصمود وفى التلاحم العربى المستديم ، ومن ثم فى مستقبل أفضل للشعب الفلسطينى المكافح على أرضه . . وفى وطنه ، ولكل عربى فى بلده .

أما بالنسبة للطبعة العربية . . الحالية ، التى حرِصْتُ أيضا على صدورها فى فترة متزامنة مع خضم الأحداث ، فالمستجدات على الساحة ما بين يوم وآخر لا تجعلنى راضية عما بذلته فيها من جهد ، فمهما حاولت أن أولى الأحداث ومن ساهم فيها حقهم ، أشعر بالتقصير لأن تناولى لتجربة الإخوة المناضلين من المعتقلين ، رغم معرفتى لأعداد كبيرة منهم معرفة شخصية ، ومعايشتى وتفاعلى مع التجربة عن كثب ، لم يستطع سبر غور أبعادها ومعاناتها كما عاشوها هم .

ومن الجدير بالذكر أن معظم التعليقات اللاحقة للطبعة الانجليزية قد جاءت إيجابية ومؤيدة . وعلى رأسها تعقيب رئيس « هيئة الصليب الأحمر الدولية » السيد « جان هوفليجر » الذى عاصر التجربة وكان من الأعلام البارزين فيها ، والذى اعتبر كتابى شهادة موضوعية هامة وضرورية للأحداث ، وقد أسعدنى أن يلمس غالبية من وصلتنى آراؤهم من القراء ما بذلته من محاولة جادة للالتزام بالحقائق .

كانت هناك قلة تتوقع منى أن أتحدث عن فترات سابقة فى حياتى !! غير أن ذلك لم يكن واردا فى تصورى إطلاقا ، فأنا لا أكتب سيرة ذاتية ، وإنما هدفى الرئيسى هو جلب اهتمام القارىء إلى قضية ربما طواها النسيان بالنسبة للبعض ، وأعتبرها البعض الآخر قضية هامشية ، لعدم معرفتهم لكثير من تفاصيلها وأبعادها الهامة .

وما يهمنى تأكيده والتركيز عليه أيضا هو أن صلاح وأنا لم نعتبر فى أية مرحلة من المراحل أن تجربة « أنصار » - وهى لُب الكتاب - تجربة محدودة بل رأيناها نموذجا حيا ومستمرا لمقاومة شعبنا الباسلة للممارسات الاسرائيلية العدوانية التوسعية القمعية التى تستهدف تحطيم « الذات » العربية ، وإلغاء الشخصية الفلسطينية وطمس وإنكار تاريخها .

وها هى تجربة معتقل « أنصار - ١ » على الأراضى اللبنانية تتجدد فى معتقلى « أنصار - ٢ » فى قطاع غزة و « أنصار - ٣ » فى صحراء النقب . . ، اللذين أقيما خصيصا لاستقبال أبطال الانتفاضة ، من الأطباء والمحامين والحرفيين والأساتذة والطلبة والموظفين والمزارعين وغيرهم من جميع قطاعات المجتمع الفلسطينى فى الأراضى

المحتلة . كما انتهى المطاف النضالى بالعديد من معتقلى « أنصار ـ ١ » السابقين الى واحد من هذين المعتقلين حيث يمارسون وراء أسلاكها أساليب الرفض والصمود التى تشربوها وأبتدعوها فى مدرسة « أنصار ـ ١ » .

وقد خرجت أول رسالة من معتقل « أنصار ـ ٣ » أو معتقل « الموت البطىء » كما أصبح يسمى على غرار الرسائل التى تلقيتها ، وتلقاها بعض أسر المعتقلين من « أنصار ـ ١ » (١٩٨٢ ـ ١٩٨٣) . . . تقول :

« . . . نناشدكم إنقاذنا من معتقل البطش . . . معتقل « أنصار ـ ٣ » . . . (فى صحراء) النقب نحن آلاف المعتقلين الفلسطينيين الذين حشدتهم السلطات الاسرائيلية فى معتقل « أنصار ـ ٣ » دون مراعاة لأبسط الاجراءات القضائية الشكلية بما فيها حقنا فى معرفة التهم الموجهة إلينا . . . وفى ظروف قاسية تحت لهيب الشمس الحارقة نهارا ، والبرودة القارسة ليلا ، حيث تصل إلى ما دون الصفر ، فى منطقة تنتشر فيها الزواحف والحشرات .

وإذا كانت هذه هى مظاهر قسوة الطبيعة فإن قسوة عساكر المعتقل وميلهم الدائم للبطش والتنكيل لأشد قسوة ، حيث يمارس ضدنا البطش والتجويع والإذلال والتحطيم النفسى والجسدى . فلا يتركون وسيلة إلا ويمارسونها لتحقيق أهدافهم التى تتعارض مع كل الأعراف والمواثيق الدولية ، إلى جانب منافاتها لكل القيم الأخلاقية والانسانية . . . كما أننا نجبر على البقاء داخل الخيم من الخامسة صباحا وحتى منتصف الليل » .

أما الانتفاضة . . . التى لا يسمح هذا الحيز الضيق بالإسهاب فيها يشعر المرء نحوها من فخر ، وما يلاقيه أبطالها من نساء ورجال وأطفال من عسف العدو وبطشه ، فتجعل أى وصف لمعاناة أو مقاومة سابقة ربما تبدو باهتة بالمقارنة بها !! غير أن ما أعود لتأكيده هو أن مسيرة النضال واحدة ومستمرة . . تكمن جذورها فى رفض أبناء فلسطين للاحتلال والقهر ، وتصميمهم على الاستقلال على أرض وطن يضمن لهم الاستقرار والأمان من الشتات الذى عاشوه أربعين عاما ! ذلك أن أطفال الحجارة الذين صرح أحدهم بأنهم إن نفدت ذخيرتهم من الحجارة فلديهم حجارة بيوتهم الصامدة يلجأون عند الضرورة إلى استعمالها فى مقاومة العدو المحتل ، والذين غيروا موازين السياسة

العالمية ، هم خلفاء أطفال « الآر بى جى » ـ الأشبال فى لبنان الذين تصدوا لـلاجتياح الاسرائيلى وحطموا دباباته بإيمانهم وبسلاحهم المحدود .

رحم الله شهداء المسيرة المجيدة منذ بدايتها . . وبارك فى أبنائها الصامدين .

ورحم الله أبا جهاد . . نصير الانتفاضة وراعيها . . . الذى أفُلت ابتسامته الهادئة التى تصدت لكل الخطوب حتى نالتها أخيرا يد العدوان . . تاركة وراءها وهج نضال مستمر ومتصاعد .

وبارك الله فى كل من ساهم بحجر أو بكلمة أو بفكرة لنصرة القضية العادلة . . قضية الوطن . .. والأمن والسلام الشامل . . قضية العزة والتوحد العربى . .

والله ولى التوفيق . . والحمد لله . .

دينا عبد الحميد

١ الغـــــزو

كانت البـداية فى اليـوم الخامس من شهـر يونيو عام ١٩٨٢ عندما وقفت مع زوجى « صلاح » عـلى سطح دارنـا فى مـدينـة صيـدا ، التى كنـا نقيم فيها منذ عشرة أعوام . كنت قد وصلت لتوى من القاهرة حيث كانت أمى تصارع مرضا عضالا . وقفنا مع جيراننا مذهولين نتبادل منظارا مكبرا نحاول من خلاله استطلاع السماء . كانت هناك طائرة اسرائيلية حـربية تحلق ، وتمـطر المدينـة دون تمييز بقنابلها التى ملأ دويها الفضاء .

دهمنا جميعا الوجوم والتوجس ، فقد كنا بالإضافة إلى التزامنا الوطنى والقومى ، ندرك مدى ما يتهدد حياتنا ومستقبل عالمنا العربى من أخطار . وكان من بين المجموعة التى وقفت متضامنة بمصائرها ومشاعرها ، شـاب من حركـة المقاومـة اتخذ من اسم القـائد الجزائرى الكبير أحمد بن بيلا لقبا حركيا له ، وكان قد وصل فى نفس الصباح من بيروت ليسجل مع صلاح حديثا لإذاعة صـوت فلسطين بعـد الأحداث الـرهيبة التى أخـذت تتصاعد فى لبنان . . وكان من أواخر الأشخاص الذين استطاعوا العودة إلى مراكزهم فى بيروت فى نهاية ذلك اليوم المشهود .

كان بحر صيدا بزرقته الصافية ، التى لا يضاهيه فيها من بحار العالم سوى بعض شواطىء البحر الأبيض المتوسط الأخرى ، يشكل خلفية هادئة . . . كأنها ستار أو جزء من ديكور مسرحى للدراما التى بدأت تتفجر وتتفاقم من حـولنا . أمـا مشهد البـارجة الاسرائيلية التى راحت تذرع مياه الشاطىء جيئة وذهابا ، فقد بدا ، مع دوي طلقات المدفع اليتيم المرابط على تلة مواجهة قريبة ، وكأنه جزء من واقع لا يصـدق . وامتزج صوت زئير النفاثة بدوى انفجار قنابلها وطلقات مدفعيتنا ، وتصاعد إلى درجة لا تحتمل ،

ليشكل الخلفية الصوتية للكابوس الذى تلبد فى سماء صيدا ولبنان عامة ، و
أشهـر ، محطما بما ساد فيـه من قتل وأسـر وقهر وجـوع وعطش ، كيـان ال
الاجتماعية .

وأعترف بأننى بالرغم من كل الشواهد التى مرت بنا خلال الأعوام الس
لدى بعض الأمل فى أن يكون ما شهده ذلك اليوم ، مجرد صورة مكثّفة بعض
سبق أن عايشناه من أحداث أصبحت معتادة فى جنوب لبنان . فقد ظلت مد
الجبلية التى تبعد عن الساحل بحوالى ١٥ كيلو مترا ، تتعرض يوميا ـ ولأكثر
أعوام ـ لغارات العـدو وقصفه المـدفعى . وكان السكـان المدنيـون وسكان
الفلسطينية التى استهدفتها الغارات بصفة خاصة ، يحاولون ترميم بيوتهم الم
إعادة بنائها بعد كل غارة . كـان هذا منـوال الحياة فى جنـوب لبنان الصـام
استهداف مخيّم النبطية من الوحشية بحيث دمره وسـوّاه بالأرض تمـاما . وخ
المحنة ، عاش أهالى المخيمات معجزات لا حصر لها ، من أطرفها أنه عثر ب
الغارات على مخيّم النبطية ، على ملجأ صغير نجا من القصف ، وبداخله طفلة
أو ثلاثة ، تحتضن عنزة صغيرة ـ وقد كانتا من القلائل الذين بقوا على قيد الحيا

والنبطية ـ كما هو معروف ـ عاصمة الجنوب اللبنانى الشيعى حيث يُحت
بذكرى معركة كربلاء ، واستشهاد سيدنا الحسين بن على بن أبى طالب ، رضم
وأهله وجماعته .

أما صيدا ، عروس الساحل الجنوبى ، التى قاسمت مدينة صور الشهر
منذ عصر الفينيقيين ، والغنيّة بالآثار سابقا وبالحركـة التجاريـة فى قرننـا الحا
أصبحت الهدف الجديد للعدو . . . ولم تلبث أن تحولت بعد أيام إلى ساحة دمار
وكما كان الشأن فى النبطية ، كان مخيّم اللاجئين الفلسطينيين بعين الحلوة ، الهدف
للقصف الجوى الاسرائيلى . فقد شهد أحد الصحفيين الزائرين بأنه لم يشاهد
سوى فى فيتنام ـ حفرا بحجم تلك التى أحدثتها القنابل الاسرائيلية فى هذا المخيّ
مثل جميع المدن التى تعرضت خلال التاريخ لغزو المعتدين ، كان مصـير صي
والمعاناة ، إذ تعرضت لفظائع لا يستهان بها بالمقارنة بغيرها من الأهداف المحلية
عبر القرون .

وعلى الرغم من أن معظم مواطنى صيدا من الرجال قد أسروا مع أعداد
المقاتلين والمدنيين الفلسطينيين خلال الأيام الخمسة الأولى من الاجتياح الإسرائيل

صمود صيدا ومعركة عين الحلوة قد أخّرا الزحف الإسرائيلى نحو بيروت لعدة أيام . فقد كانت المدينة العريقة تشكل دوماً قلعة فى وجه الغزاة ، ونموذجا لمقاومة الجنوب اللبنانى للعدوان .

فى ذلك الصباح المصيرى ، الخامس من يونيو ، بدأت رحلتى نحو القدر عندما تركت والدتى المريضة - والتى توفيت بعد أيام قلائل - فى بيتنا فى القاهرة ، لألحق بزوجى فى صيدا ، محاولة أن أستخلص بعض المنطق من الأحداث العامة والخاصة التى بدأت تداهمنى وتجعلنى موزعة فى هذه اللحظة من الزمن ما بين والدتى التى كانت تصارع الموت فى مرضها ، وزوجى الذى كان يواجه ، مع شعبه ، مرحلة حرجة فى كفاحهم الوطنى . أمّا أولويتى الثالثة ، وإن لم تكن الأقل أهمية بأى حال من الأحوال ، فكانت ابنتى عالية التى كنت أعتبرها عندئذ فى مأمن فى كنف والدها . لقد كانت ارتباطاتى العائلية فى هذه الفترة تربطنى بثلاثة بلدان : مصر ، ولبنان ، والأردن . . وكنت بالرغم من توقى للاستقرار ، أجدنى بحكم الظروف دائمة التنقل بينها للاطمئنان على أقرب وأعز الناس لدىّ . وبالرغم من ذلك الشتات الأسرى ، فقد ظللنا وحدة أسرية متلاحمة .

□ اغتيال معروف سعد وبوادر عدم الاستقرار

وكانت بوادر عدم الاستقرار قد تفجرت فى لبنان بعد مصرع الزعيم معروف سعد ، أحد كبار الشخصيات السياسية فيه . كان الزعيم الشعبى ضابط شرطة متقاعد . . نشأ فى أسرة متواضعة ، واستطاع بعصاميته أن يصبح عضوا فى البرلمان اللبنانى . وكان ترشيحه حدثا غير عادىّ فى بلد يتوارث فيه أبناء العائلات الكبيرة وكبار الاقطاعيين المناصب بكل ما يتبعها من امتيازات ، كما كان من أوائل المتطوعين فى ثورة عز الدين القسّام فى فلسطين عام ١٩٣٦ . كان معروف سعد شخصية شعبية ، وضابطا استخدم سلطته للدفاع عن المظلومين لا للجور عليهم ، ودافع عن المحرومين من أهالى الجنوب الذين اعتبروه فارسهم وناصرهم . وقد سمعنا الكثير عن مناقبه قبل اغتياله ، إذ كانت قصص شجاعته فى الدفاع عن الحق تتردد على ألسنة الجميع ، ومنهم أم عيسى التى كانت تعمل عندنا ، والتى كانت آراؤها تعبر بصدق وعفوية عن مشاعر الطبقات المحرومة ، وكان زوجها يعمل أحيانا ماسحا للأحذية فى ساحة المدينة . . وأحيانا أخرى تاجرا متواضعا للخضراوات والفاكهة ليعول أسرته الكبيرة العدد .

وتأكدت لنا تلك الصورة الايجابية المشرقة لدى معرفتنا بمعروف سعد عن كثب ،

فقد كان يزورنا ويناقش هو وصلاح أوضاع الجنوب ومشاكله ، ويتباريان فى الشطرنج فى الأحيان التى تخف فيها وطأة الأحداث .

باستشهاد معروف سعد خسرنا صديقا ، وخسر الجنوب أحد كبار شخصياته الأصيلة . لقد سقط وهو يتصدر مسيرة سلمية فى شوارع صيدا الرئيسية احتجاجا على قرار الحكومة اللبنانية بالسماح لإحدى الشركات بصيد الأسماك بسفينة آلية ، مهددة بذلك تهديدا مباشرا وجذريا أرزاق صيّادى السمك الجنوبيين الذين توارثوا حرفتهم عن أجدادهم عبر قرون طويلة . وكان الزعيم الحالى مصطفى سعد شابا فى مقتبل العمر عندما ترك دراسته الجامعية فى أوروبا واستقر فى الجنوب كى يستكمل رسالة والده ، كما كان من أول وأبرز ضحايا الاجتياح الاسرائيلى إذ فقد خلاله بصره وابنته الطفلة ، وأصيبت زوجته بجراح بالغة . وقد اكتسب من خلال صموده ومواقفه الوطنية والقومية غير الاقليميّة تقديراً شعبيا يستحقه بجدارة ، وما زال زعيما مناضلا حتى اليوم .

وتتابع على لبنان منذ الاجتياح الإسرائيلى مزيد من التدخلات الخارجية مما أدى إلى تفسخ عام ، لم تنج منه حتى التحالفات الطبيعيّة البديهيّة ، فتحولت الحياة اللبنانية العامة إلى مستنقع من المصالح الشخصية والتناحر ، واضطر الوجود الفلسطينى ، فى محاولته الحفاظ على موقعه على الحدود اللبنانية - التى أصبحت ركيزته الوحيدة - إلى التزام موقف الدفاع فى مواجهة المؤامرات والمجازر المتكررة ، على خلاف ما تروجه الدعايات المعادية المغرضة ضد الشعب الذى لم ينس أرضه ووطنه ، ولم ولن يرضى بديلا عنها تحت أى ظرف .

لقد وضعت الحدود الحالية للبنان بصورة مفتعلة بموجب معاهدة سايكس - بيكو إثر الحرب العالمية الأولى . فبعد خمسة قرون من الحكم العثمانى - الذى وإن بطش بأهل البلاد فى بعض عهوده ، إلا أنه فرض عليها وحدة متماسكة - تم تقسيم ما كان يعرف بسوريا الكبرى إلى دويلات وضعت تحت الانتداب البريطانى والفرنسى ، وبقيت تحت الاستعمار الأجنبى إلى ما بعد الحرب العالمية الثانية ، حيث نالت استقلالها فى الأربعينات من هذا القرن ، وبدأت تواجه المشاكل العديدة التى تواكب عادة مراحل النمو فى حياة الشعوب .

وفى لبنان ، خلقت سلطات الانتداب الفرنسى ، وساندت نخبة محلية حاكمة تتسم بالميل إلى الغرب ، وإلى الثقافة الفرنسية بالذات . ومن أبرز تلك العناصر الطائفة المارونية فى الشمال ، التى حاباها الفرنسيون على حساب أهل الجنوب من المسلمين السنّة والشيعة والدروز . وقد أدى احتكار الموارنة لمعظم الامتيازات خلال الحكم الفرنسى إلى خلق

حزازات وحساسيات ، سرعان ما تحولت إلى عداوات ومجابهات حامية بين الأطراف المختلفة ، مثل التى سبق حدوثها بين الموارنة والدروز فى القرن التاسع عشر . وقد ترك الاستعمار الفرنسى ، بالرغم من قصر مدته نسبيا ، طابع الشقاق فى البلاد ، وبث ظاهرة التحلل والتفتت فى كيانها الاجتماعى . وحين جاء الاجتياح ثم الاحتلال الإسرائيلى فى صيف ١٩٨٢ ، عمّق تلك الخلافات وثبّتها بين الطوائف الدينية والجماعات الأيديولوجية السياسية حتى أدت إلى الانفجار الكامل فى لبنان .

وقد ساق المحللون تفسيرات وتحليلات وتبريرات شتى تختلف باختلاف زاوية المحلل والمبرر ، ومصالح الجهة التى ينتمى إليها . ونال الوجود الفلسطينى قسطه من اللوم ، مع ما فى ذلك من مغالطة وتجاهل لإسهامه الكبير فى الاقتصاد المحلى . ومن أمثلة ذلك أن المؤسسات الصناعية اللبنانية كانت تشيد مصانعها بالقرب من المخيمات للاستفادة من اليد العاملة الفلسطينية الرخيصة ، هذا بالإضافة إلى أن الفلسطينيين الذين حملوا خبراتهم فى الزراعة حيثما ذهبوا فى المهجر والشتات ، إلى لبنان وغيره من البلدان العربية ، ساهموا إسهاما كبيرا فى زراعة وإدارة « البيّارات » وحدائق الفاكهة ، وفى انتعاش الزراعة فى لبنان عامة . وقد ازدهر الطريق الساحلى الجميل ما بين صيدا وصور بسلسلة من البساتين التى كان يفوح منها أريج زهر البرتقال فى الربيع . . وربيع لبنان له نكهة خاصة رائعة . . غير أننى علمت فيما بعد أن القوات المحتلة قد أزالت الكثير من البيّارات وقطعت أشجارها ، وحفرت الخنادق على أرضها لتكفل الأمن لنفسها .

وبالإضافة إلى كل ذلك ، نجحت تآمرات الاحتلال فى إدخال نظرة إقليمية ضيقة إلى لبنان وغيره من البلدان العربية ، متجاهلة الأصل المشترك والروابط التى توطدت بالتزاوج والتنقل الحر والتجارة ، والتآخى على مدى الساحل الممتد من حيفا إلى بيروت ، مما خلق واقعا من التلاحم الوطيد . وقد جرت محاولات مماثلة للإيحاء بالفوارق وخلق الحساسيات بين أبناء وفئات الشعب الواحد فى الضفتين فى الأردن وفلسطين المحتلة . . كما لا يمكن أن تكون الفتنة الطائفية التى ترفع رأسها بين المسلمين والأقباط فى مصر بين الحين والحين أمرا عفويا أو طبيعيا ، بل تعود إلى مخططات استعمارية لتفتيت المنطقة . غير أن مثل هذه المحاولات وإن نجحت إلى حين أو فى بعض الظروف ، بعيدة عن أن تثبت أن العرب ما هم سوى فئات متفرقة متصارعة ، وإن كشفت فإنما تكشف نوايا سياسة الاستعمار بشتى أنواعه الطامعة فى السيادة من خلال التفرقة ، وخلق مناطق وجيوب تعتمد على المصالح الذاتية . . محدودة الأفق . . وهو وضع مصيره الزوال أمام حقيقة المصلحة العربية المتحدة الشاملة .

انتهت ستة أعوام من عدم الاستقرار فى لبنان إلى فترة من الهدوء النسبى عام ١٩٨١ بعقد اتفاقية هدنة بين منظمة التحرير واسرائيل من خلال الوسيط الأمريكى اللبنانى الأصل فيليب حبيب . ومن المعروف أن المقاومة الفلسطينية قد اضطرت إلى ترك الأردن عام ١٩٧١ وانتقلت إلى جنوب لبنان .

وقد أدى ذلك الوجود الفلسطينى مع سياسة الكفاح المسلح المعلنة إلى عمليات عبر الحدود ، وإلى قصف المستوطنات الإسرائيلية غير الشرعية والمقامة على أرض عربية فلسطينية ممّا كان يسفر عن خسائر للطرفين .

استمرت الهدنة « الهشة » أحد عشر شهرا ، إلى أن طالب اسحاق شامير وزير خارجية اسرائيل بالقضاء على منظمة التحرير الفلسطينية حتى لا تبقى حجر عثرة فى طريق إتمام مخططات اسرائيل للتسوية . وفى نفس اليوم أصيب السفير الاسرائيلى فى لندن بطلقات نارية وجراح خطيرة . ونفت منظمة التحرير أيّة علاقة لها بالحادث . وبعد حجز أربعة من العرب ، أردنيين وسورى وعراقى ، أكدت سكوتلاند يارد أن مندوب منظمة التحرير هو المستهدف الثانى على قائمة مهاجمى السفير الاسرائيلى شلومو آرجوف !!

غير أن السلاح الجوى الاسرائيلى بدأ فورا فى قصف منطقة غرب بيروت ردا على محاولة اغتيال السفير .

وتتالت أفواج من طائرات [ف ١٦] تلقى بقذائفها على مخيمات بيروت والمطار وغيرها من الأهداف فى لبنان . كما استهدفت النبطية وقرى جنوبية أخرى . وكان عدد القتلى والمصابين حسب احصائيات منظمة التحرير والسلطات اللبنانية الرسمية مائتين وسبعين قتيلا وأربعمائة جريح .

□ المنظمة تعلن التحلل من الالتزام بالهدنة

أعلنت المنظمة أنه لم يبق لها خيار أمام الهجمة الاسرائيلية الشرسة سوى التحلل من التزامها بالهدنة التى كانت قد عقدت بينها وبين اسرائيل فى الصيف الأسبق بناء على وساطة فيليب حبيب .

ناشدت وزارة الخارجية الأمريكية جميع الأطراف الكف عن العنف فورا ، غير أن الطيران الاسرائيلى رد بتكثيف غاراته فى اليوم الخامس من شهر يونيو حتى بلغت خمسين

غارة جوية على النبطية وقلعة شقيف ، وقرى عرنون وحاصبيا والعايشية . واشتركت البحرية الاسرائيلية بدوريات مراقبة على طول الساحل اللبناني حتى قرية الناعمة ، وقصفت منطقة الشوف الدرزية . ثم تحركت الدبابات الاسرائيلية إلى جيب فى منطقة الجنوب تسيطر عليه قوات سعد حداد ـ ابن المنطقة ـ الذى عاد إليها فى بداية الصيف ، وبدأ تعاونه مع الاسرائيليين .

واشتد القلق وعم ، وبدأت الأحزاب اللبنانية تطالب بإعادة الهدنة . كما تظاهر ألفا شخص فى اسرائيل ضد العدوان ، وتنديدا بالممارسات الاسرائيلية فى الأراضى المحتلة ضد العرب الفلسطينيين .

هذا فى حين أعلن عرفات ، الذى كان فى زيارة للمملكة العربية السعودية أن منظمة التحرير سوف ترد بعنف على العدوان .

وشمل بقية العالم الغربى ذهول وصمت مشوب بالحذر ، وناشد وزير الخارجية اللبنانى فى ذلك الحين ـ وكان من أكثر الشخصيات اللبنانية المعنية نشاطا ، ومن ثَمّ من أكثرها تعرضا للنقد ـ سوريا والأردن ، اللتين تتاخم حدودهما الأراضى المحتلة ، ألاّ تكتفيا بموقف المشاهد ، بل تقدمان عونا ملموسا ومساندة عملية . وساهم مجلس الأمن فى جلسة طارئة بالقرار رقم ٥٠٨ مصدرا دعوة عامة بوقف إطلاق النار . غير أن الولايات المتحدة واصلت كالمعتاد تزويد اسرائيل بالأسلحة خلال فترة الغزو التى استمرت حتى شهر أغسطس .

لقد توقع المحللون ـ على الأقل بصورة جزئية ـ كل هذا الذى حدث . غير أننى ـ لسبب ما ـ كنت أعتقد فى تفاؤل أن المخاوف والنبوءات مبالغ فيها ، حيث كنا قد تعودنا الإنذارات بصيف « ساخن » لمدة خمس سنوات على الأقل . أما صلاح فلقد كان يجزم لسنوات عديدة بأن صيف عام ١٩٨٢ سوف يكون حاسما ، وكان يؤمن بذلك من خلال وضوح رؤية وتحليل دقيق يمتاز بهما ، هذا بالإضافة إلى حس مرهف وقدرة على الحدس تتكرر خلال حياتنا فى كثير من الأحيان . فبينما كنا نرشف القهوة فى جو يوحى بالهدوء والطمأنينة فى شرفة جيراننا فى الطابق العلوى ، سرح صلاح بنظره عبر الحديقة إلى الطريق العام وقال : « **إنكم كالعادة سوف تعتبرون حديثى متشائما ، أو قد تعتبرونه دعابة ثقيلة . . ولكن الدم سوف يصل إلى الركب هنا عما قريب . . وهذا الطريق الآمن الآن سوف يصبح حدودنا مع العدو !!** » .

وكنا جميعا نستهول حديثه ، وكأنما كنا نوصد آذاننا ونغمض أعيننا أمام نذر الحرب

التى تتراكم وتلوح فى الأفق . فما كان لنا أن نتصور أن الجميع سيتحولون إلى محاربين مسلحين يقاتلون على عتبات بيوتهم دفاعا عن أنفسهم ، وعن أسرهم فى غيبة جيش يذود عنهم .

كنت فى الأيام الأولى من شهر يونيو قد أدخلت والدتى ـ للمرة الخامسة خلال ذلك الصيف ـ المستشفى . . ومن ثم إلى العناية المركزة . وكان الأطباء قد أشاروا بعملية نقل دم جديدة لها ثم ـ كحل أخير ـ محاولة إجراء عملية إذا ما سمحت حالتها الصحية المتدهورة بذلك . وبالرغم من هذا كله ، فإننى لم أفقد الأمل فى تلك اللحظات الحرجة بفضل معجزات ربى الكثيرة وعنايته ، وإيمانى به .

وقد نقلت ابنتى الوضع إلى والدها ـ كما أعتقد ـ إذ تكرم بالاتصال وعرض نقل والدتى بطائرة خاصة إلى حيث يمكن إجراء العملية الدقيقة لها . وبالنسبة لى كان إشراك صلاح فى أى قرار أمرا ضروريا وبديهيا ، فقد كنت أعلم كم يحب والدتى ، وكم هو عطوف عليها . وبالإضافة إلى ذلك ، لم يكن باستطاعتى لا البقاء فى القاهرة ، ولا مغادرتها مصاحبة لوالدتى إلى بلد آخر فى الوقت الذى تتراكم فيه الغيوم على لبنان وعلى بيتنا هناك . وشعرت بأن رغبتى وواجبى أن أكون إلى جانب صلاح أشاركه ما هو فيه ، وما هو مقدر لنا أن نواجهه . . وكان القرار صعبا ولكنه جاء تلقائيا .

وعلى ذلك توجهت إلى بيروت فى الصباح الباكر فى اليوم الخامس من شهر يونيو . وكانت المدينة الرياضية فى بيروت التى لا يبعد مكتب صلاح عنها سوى بضعة أمتار قد قصفت فى اليوم السابق .

وفى بيروت ، مرت بى سيارة الأجرة التى ركبتها من المطار ، بمدينة يلفها سكون ما قبل العاصفة . . إلى أن وصلت بى إلى شارع رهيب الهدوء ، كان منذ أيام يعج بالحركة والحياة . وبالرغم من وجودى فى مدينة حلّت بها لعنة الحرب ، فقد ظللت لفترة عاجزة عن استيعاب ما يجرى . كان مكتب صلاح الذى كثيرا ما زرته ، وشاهدته فيه ومن حوله « الأشبال » و « الزهرات » المتدفقين بالحياة والحماس والأمل ، خاليا تماما من الحركة والناس بينما وقف الحارس على الباب مشدوها ، وعندما سألته أنبأنى بأن صلاح قد اتجه إلى صيدا فى الليلة السابقة فور انتهاء الغارة الجوية على مخيم شاتيلا .

لم أستغرب ذلك إذ كنت أعرف أن الجنوب موقعه . . وكم يطمئن إلى أهل الجنوب الأصلاء فى وطنيتهم ، وكم يرتاح إلى سكينة بيتنا . . وإلى جيراننا الأعزاء . وعندما

استفسرت عن نائبه الأخ فهمى ، علمت بأننى سأجده ـ غالبا ـ فى مخيم شاتيلا حيث مقر الأشبال . وكنت قد زرت المخيم ومركز الأشبال مرارا خلال سنوات إقامتى بلبنان . كنا جميعا ، خاصة صلاح ، فخورين بفرقة الأشبال والزهرات الموسيقية ـ وهى ضمن نشاطاتهم الثقافية التى عنى بها صلاح ـ كما كان شبابها فخورين بالانتماء إليها . وكانت الفرقة قد قامت قبل شهرين فقط بزيارة لإمارة قطر حيث قدمت عدة عروض تحمست لها الجماهير وحازت إعجابها .

□ الأشبال والزهرات فى المعركة

توجهت فورا إلى مخيم شاتيلا حيث كان الأشبال والزهرات منشغلين عن تدريباتهم الموسيقية بتكديس أكياس الرمل وبناء المتاريس استعدادا للدفاع عن مقرهم الصغير . كان الخطر القادم أكبر بكثير من الإمكانيات المتوافرة . فلم تكن الملاجىء لتسع أهالى المخيم ، ولم تسمح ساحة المخيم المكتظة بالسكان بإنشاء ملاجىء أخرى .

وعندما وصلت أسعدنى رؤية تلك الوجوه البريئة المضيئة فى هذا الظرف الحالك ، وأملت أن يشعر أولئك الصغار والشباب بمدى الطمأنينة والشجاعة التى كنت أستمدها منهم فى تلك اللحظة وأمام المصير المشترك . ولم تكن هذه المرة الأولى التى أعرف فيها عن كثب الكثيرين من هذا الجيل من أبناء فلسطين المشتتين الذين كانوا يأملون ويعملون من أجل حياة مستقرة آمنة فى وطنهم . . لا يكونون معها موزعين بين مخيّمات اللاجئين فى أنحاء العالم العربى تحت رحمة العدو الذى لا يفوّت ذريعة إلا واستغلها للانقضاض عليهم ، وإعادة تدمير بيوتهم وتشتيتهم من جديد . إنهم مثل الجيل الذى سبقهم يواجهون الحياة بعزم وتصميم . . . ديدنهم العلم والمساهمة فى بناء البلاد العربية التى استقبلتهم وآوتهم . . شاعرين بالجميل وبوحدة القومية والمصير . واليوم . . وبعد مرور أعوام طويلة على ذلك اليوم ، يقشعر بدنى عندما أفكر فى الذين ذهبوا ضحايا مجزرة صبرا وشاتيلا من أولئك الشباب وأهلهم . . . تلك المجزرة التى هزت وحركت ضمير العالم بإجماع لا مثيل له فى تاريخ القضية الفلسطينية .

لم أجد الأخ فهمى ، نائب صلاح ، وكان علىّ أن أسرع إلى صيدا . توقفت لبضع دقائق عند حانوت البقالة الصغير فى مدخل المخيّم ، حيث جلس صاحبه الفلسطينى المهاجر المسن ، لأبتاع بعض الخبز والجبن وبعض المعلبات والشاى كى آخذها لحارس المكتب الذى عدت لأجده لا يزال يحاول استيعاب ما يحدث . كان الرجل من أصل كردى



صلاح مع مجموعة من « الأشبال » فى جنوب لبنان عام ١٩٦٨ .

وجزءا من البناء الفسيفسائى المكون من العديد من الجنسيات التى استوطنت لبنان . . وكان مثل الجميع . . يواجه الرعب وخطر الموت . وفى مثل هذه الظروف يزداد تلاحم الإنسان مع أخيه ، لذلك فقد صعب علىّ ترك هذا الشخص الغريب وسط ذلك الفراغ والصمت الرهيبين المخيمين على الضاحية ، ولكن كان علىّ أن أهرع إلى صيدا . . وكان سائق سيارة الأجرة التى حملتنى عبر الطريق الساحلى فى اتجاه الجنوب شجاعا للغاية .

كانت المعالم وذكريات أحد عشر عاما تمر بى كلما انطوى الطريق . . ذكريات يمتزج فيها حلو الحياة ومرها من مخاطر وتحديات . . حسبما مرت بنا خلال تلك الفترة . واستغربت للمظهر الطبيعى الذى كان يسود الطريق . . . . فالسيارات تجرى على الطريق بلا فزع وكأن كل شىء طبيعى !! ولكن ما أن اقتربنا من مشارف صيدا حتى خلت نفسى أحدق فى عين القدر . . . فهناك على بعد بضعة كيلو مترات معدودة ، ارتفع عمود من الدخان بدا لى أنه آت من قلب المدينة . يا إلهى !!! إن هذا الدخان إن كان متصاعدا من بيتنا ، أو من أحد المخيّمات ، أو من أى حى مأهول من أحياء صيدا . . فلابد وأن القنابل

قد أصابت أحدا ممن نعرفهم . . بل جماعة .. بمكروه . أحسست أننا نتلقى لطمة ، وإن كان شبابنا الباسل قد بدوا فى مستوى التحدى . . موجهين فوهات مدافعهم المضادة للطائرات نحو الطائرات المغيرة . كانوا شجعانا ومؤمنين ، ولكن لم تكن لديهم الإمكانيات لمواجهة تلك الهجمة . . ووجدت نفسى أردد بصوت شبه مسموع : « حماكم الله . . حماكم الله !! » .

وقد اشترك الطيران السورى فيما بعد فى محاولة لصد ذلك العدوان الجوى ، واستبسل طياروه فى القتال ، وشاهدت بعضا ممن نجا منهم فى مقابلات على شاشة التليفزيون ، وكانت نبراتهم نبرات إيمان . . لا دعاية ولا ادعاء .

لم أستطع فى تلك اللحظات وأنا اقترب فى كل ثانية من صيدا ، أن أجزم ما إذا كان الزمن قد توقف ، أم أنه كان يدفع بنا فى سرعة متصاعدة نحو كارثة جديدة .

وفى هذه المرحلة ، لم يكن لدىّ أى إحساس بالخوف أو إدراك لمدى الخطر الداهم . كل ما كنت أشعر به هو الامتنان للسائق الذى أوصلنى إلى دارنا بالرغم من الخطورة المحتملة فى ظل الغارة المستمرة .

وصلنا إلى ساحة صيدا العامة ، ثم انعطفنا فى طريق جزّين والمرتفعات الجبلية ، ومضينا فى طريقنا ، وأنا فى حالة ترقب وتوجس ، إلى أن أدركنا باب دارنا (فى حارة صيدا) حيث شكرت السائق مودعة وهرعت إلى الداخل من باب الحديقة الخلفى .

كانت هناك مجموعة من الفتيان فى الحديقة وفى الداخل ، وعلى الدرج المؤدى إلى الدور العلوى حيث يقطن جيراننا الأعزاء : محمود فارس وزوجته كاملة ، وابناهما أحمد وفادى . . وركضت إلى أعلى إلى أن بلغت سطح الدار حيث كان الجميع مجتمعين . امتزجت الدهشة بالسرور على وجوههم عندما فوجئوا بوصولى . وارتسمت على وجه صلاح نظرة ارتياح عميقة ، جعلت أية مخاطرة بالنسبة لى هينة .

وواصلت الطائرات قصفها . . وتداولت الأيدى المنظار المكبر . . كما استمرت السفينة الاسرائيلية فى مراقبتها للشاطىء . . واستمر المدفع العربى فى إرسال طلقاته المدوية فى اتجاهها .

◻ غارة قبل موعد الإفطار فى رمضان

كانت أول غارة اسرائيلية شهدتها فى صيدا فى السبعينات قبل موعد الإفطار فى أحد أيام شهر رمضان ، حين صعدت وصلاح إلى السطح لمشاهدة غروب الشمس وسماع أذان المغرب ، وفجأة . . اخترق سَكِينة تلك الساعة المقدسة دوى نفاثة انقضت إلى أسفل وقصفت موقعا على الساحل بقنابلها . وكان الهدف قريبا بحيث بتنا نعد فى حنق القنابل المتساقطة . وهرع صلاح إلى أسفل ، ثم فى اتجاه القصف ليحدد موقعه ، وعبثا انتظرناه على مائدة الإفطار . . وفى هذا اليوم - الخامس من يونيو أيضا - خرج صلاح وزملاؤه هارعين إلى مواقع القصف التى كان الدخان يتصاعد منها تارة على مشارف المدينة الشمالية ، وتارة فى الاتجاه الجنوبى مستهدفا مخيّم « عين الحلوة » ، ومخيّم « الميّه ميّه » . . وحينئذ شعرت بأنه مهما كان ارتياحه لوصولى وسروره به ، فإننى ولا شك سأشكل عبئا إضافيا عليه وسط كل ما كان يجرى . . حتى دارنا ، بحكم موقعها على الطريق الرئيسى بين صيدا وجزّين ، تحولت إلى خط أمامى يعج بالمقاتلين .

لم تكن أصوات الحرب غريبة علينا فى الواقع ، فقد شهدت الأعوام السابقة هزات وأحداث لم يقتصر تأثيرها علينا فقط ، بل شمل شعب لبنان وسكانه جميعا ، حتى دمغتنا الحرب بآثارها ، وأصبحت بشتى أنواعها ، جزءا من حياتنا . وضمن أشد ساعات القلق التى أذكرها ، تلك التى عشتها خلال الحصار الذى فرضه الجيش اللبنانى على المدينة القديمة فى صيدا عام ١٩٧٥ ، حيث كان يوجد تجمع للمقاومة الفلسطينية ، ولم يتمكن صلاح خلاله من الوصول إلى البيت لثلاثة أيام . وكان عدد من أفراد القيادة قد وصلوا من بيروت إلى صيدا وعاشوا فى الحصار ، من بينهم أبو موسى وأبو صالح والشهيد حسن سلامة الذى اغتالته الموساد لاحقا فى بيروت فى صيف عام ١٩٨٠ . وكنت قد حاولت أثناء الحصار أن أصل إلى المدينة القديمة للاطمئنان على سلامة الجميع ، ولكننى لم أتمكّن من الوصول إليها . واستمر دوى المدافع ليلا ونهارا حتى أصبح جزءا مألوفا من يومنا . . كدت افتقده بعد فك الحصار !!

غير أن القصف الحالى كان مختلفا . . مستفزا . . مثيرا . . وأصبح الجو خانقا . ونزل جارنا فى المنزل السيد فارس مع أسرته من الدور العلوى لنكون معا . وما أن حل العصر حتى كان الكثيرون من جيراننا الآخرين من سكان المنازل المجاورة قد انضموا إلينا : سيدتان من الشيعة . . وأسرة أبو جورج من جنود الجيش اللبنانى . . وسيدة مسيحية تدعى أم حسن - حيث كانت قد اختارت لابنها الاسم الإسلامى « حسن » -

وفاطمة وزوجها الحلواني أبو أحمد . . حضروا جميعهم للصحبة وبحثا عن مأمن . ومع تصاعد القصف واقترابه ، أخذنا نفكر : أي من زوايا المنزل أكثر أمنا ؟ ! . . واعتقدنا أن بئر السلم هو أنسب مكان . . فتوجهنا إلى هناك . غير أن أحد شباب المليشيا الذي كان يقوم بتفقد المنطقة ، لفت نظرنا إلى عدم صحة ذلك ، وأشار علينا بالبقاء في الداخل حيث الأعمدة الأسمنتية بين الغرف أكثر قدرة على تحمل القصف . . ويبقى أفراد شبيبة الأشبال في مكانهم يواجهون الخطر والقدر !!

هذا بينما كان أحمد وفادي ، ابنا جارنا السيد محمود فارس ، اللذان كانا عادة يفوران بالحيوية وحب المزاح مثل كل الصغار في سنهما ، يتنقلان بيننا في وجوم ودهشة ، وقد عقدت رهبة الموقف لسانيهما كما عقدت ألسنة الكبار . وما أن حل الليل ، حتى كنا جميعا نهمس كما لو كان العدو ماردا من الجان يحوطنا بجبروته من كل جانب . . يستطيع أن يسمعنا ويمسك بنا ، ويشتتنا ويقضي علينا . . غير أن أحمد بالرغم من كل ذلك كانت تغلبه روح المرح من آن لآخر ، فيعلق بكلمات ضاحكة تخفيفا لحدة التوتر الذي كان سائدا ، هذا بينما كان أخوه الأصغر المرح عادة ، يحاول أن يتقمص دور « الرجل » ثم لا يلبث أن يحل به التعب فيلجأ إلى ذراعيّ أمه . . يسكن بينهما ويحتمي بهما ، خاصة عندما يدوي انفجار إحدى القنابل العاتية . أما أمهما كاملة ، التي كانت لي دائما نعم الصديقة الكريمة مرهفة الحس رقيقة القلب ، فكانت تداوم على القيام لتعاونني في صنع الشاي أو تقديمه . . وفي الاطمئنان على توافر الراحة والدفء لباقي الجيران خلال الليل الذي وضح أنه سيكون حافلا وطويلا . وهكذا تحول النهار إلى حركة مائجة ، وفي أثنائه بدأ المدنيون ينبذون الملابس المدنية ويستبدلونها بالملابس العسكرية تدريجيا ، حيث لم تكن هناك خطوط مواجهة مع العدو بالمعنى المعروف في الحروب ، ولا جيش نظامي يصد الهجوم . . بل مجتمع بكامله من المدنيين بدأ يتحول مع مرور الوقت إلى جيش يقاوم . وبتصاعد الحرب على مدى الساعات القليلة التالية ، انقلب الى مقاتلين يذودون عن الأهل والديار . وصار من الأمور العادية رؤية أب يحمل سلاحه على كتفه بيد بينما تمسك يده الأخرى بيد طفله الصغير . وكان صلاح يرجع إلى البيت تارة ، ثم يعود فيخرج ، ليتأكد من تحصينات رجاله وتماسكهم وسلامة دفاعاتهم ، وللتنسيق مع زملائه في المنظمة .

ولم ينشغل الرجال بالدفاع عن مدينتهم فحسب ، بل كانوا مضطرين في مواجهتهم للضغط الزمني ، إلى نقل عائلاتهم إلى ما كان متاحا لهم من الملاجىء والمباني الراسخة البنيان التي اعتقدوا أنها سوف توفر لهم مزيدا من الأمان . وقد سمعت الكثير فيما بعد ـ من شهود عيان ـ لما حدث في صيدا ، عن انهيار العديد من تلك المباني على اللاجئين الذين

احتموا فى مخابئها ، وكيف دفنوا تحت أنقاضها ، وكذلك عن العمارات التى أصابتها القنابل وتركتها وقد تراكمت بين خرائبها أكوام من أثاث ومقتنيات ساكنيها التى دمرها الحريق بآثاره ، وعن الصواريخ التى كانت تخترق الجدران فتصيب من تصيب وينجو من قدر له أن ينجو من أبناء الأسرة الواحدة . كانت حربا عشوائية بشعة . وبالرغم من عدم خبرتى بأمور الحرب ، لم يكن من الصعب علىّ أن أدرك أننا كنا أمام حرب شنت ضد شعب لم يكن يملك وسائل مواجهتها . . فقد قاتل الفلسطينيون واللبنانيون جيشا كامل المعدات . . جيش دولة اسرائيل ، التى وضعت الدول الغربية الكبرى ترسانات أسلحتها تحت تصرفها . وفى مواجهة كل ذلك ، كنت أتمنى لو كان بمقدورى أن أسهم بأكثر من الاحتفاظ بالمبدأ . . وتقديم أكواب الشاى وعبارات التضامن لمن اجتمع فى دارنا فى تلك الليلة من المقاتلين .

وفى حالة الارتباك الشامل التى فرضها الاجتياح المباغت ، لم يكن هناك مجال فى تلك الساعات الأولى لتوجيه الطاقات من بيننا إلى عمليات الدفاع ، أو الإغاثة ، أو كل ما يتطلبه الوضع من استعدادات ، حيث كنا قد أخذنا جميعا على غرة ، وكان التحدى أكبر من ردة الفعل بمراحل . . كان تحديا وحشيا تواجهه مقاومة باسلة عنيدة .

لم تكن المفاجأة فى حدوث الهجمة بقدر ما كانت فى حجم قسوتها ووحشيتها . ولم أكن عادة من هواة سماع المذياع ، غير أننى بقيت فى ذلك اليوم ملازمة للجهاز بينما كنا جميعا نحاول متابعة الإذاعات العربية ـ التى بقيت صامتة . فانتقلنا إلى متابعة شاشة التليفزيون ، ولم يكن التيار الكهربائى قد أنقطع فى تلك اللحظة لحسن الحظ ، فتمكنا من مشاهدة تقدم الاجتياح عبر الحدود لحظة بلحظة . . ذلك المشهد الذى بدا لهوله غير قابل للتصديق .

□ معضلة عجزت عن حلها

كنت قد حضرت فى زيارة للاطمئنان على صلاح واستشارته بشأن والدتى ، فتحول الأمر خلال الظرف المتطور من لحظة إلى أخرى إلى معضلة عجزت عن حلها . فلقد كان مستحيلا أن أترك والدتى فى تلك المرحلة الحاسمة من تطور مرضها مهما بلغت عناية الأقرباء أو الأطباء بها ، ولم يكن بوسعى أيضا التخلى عن صلاح فى ظرف كان يتحول أمام أعيننا إلى عملية اجتياح كاملة . وبت حائرة . . عاجزة عن اتخاذ أى قرار بالسفر أو البقاء فى هذا الظرف الذى بلغت فيه مشاعر الجميع ذروة التوتر والإرهاف .

وبادر صلاح باتخاذ القرار عندما عاد إلى البيت يمشى على أطراف أصابعه حتى لا يزعج جيراننا المجتمعين فى الدار ، وهمس قائلا : « يجب أن ترحلى فورا . . فقد وصلوا . وهم على بعد أميال قليلة من صيدا . . يحاولون تطويقها ، وسد جميع مخارجها والطرقات المؤدية منها وإليها . »

يطوقون صيدا ؟! من كان يقصد ؟! لم يكن معقولا أن تكون الإشارة إلى الغزاة ! فقد شاهدنا دباباتهم تتقدم نحونا على شاشة التليفزيون ـ ولكنهم حسب تقديراتنا ، لا يمكنهم الوصول إلى صيدا بهذه السرعة ، إذ كنا واثقين من أن جيوب المقاومة سوف تتصدى لهم على الطريق ، حيث كان صلاح قد مر بالبيت فى المساء المبكر ليحكى لنا عن شجاعة وسرعة بديهة الشباب فى تخطيط أساليب لمقاومة الجيش الزاحف نحونا . وفى جولة أخيرة لاستطلاع المواقع فى تلك الليلة ، كان قد خرج إلى مشارف المدينة عندما فوجىء بإنزال فرقة من الدبابات الاسرائيلية على الشاطىء بالقرب من مصب نهر الأوّلى تحت غطاء كثيف من القصف الجوى والبحرى ، قطعت طريق الساحل الرئيسى متوجهة نحو المرتفعات لتطوق المدينة من جميع الاتجاهات . فروى لى قائلا : « لا تضيعى الوقت فى التساؤل والنقاش . . لقد قاموا بإنزال دباباتهم عند نهر « الأوّلى » . . حاولنا صدهم دون جدوى . . فالطائرات والبوارج حولت المنطقة إلى جحيم ، وهى خارج مدى أسلحتنا المضادة . أملنا أن يتقدموا على طريق جزّين ـ صيدا حيث الفرصة أفضل للاشتباك القريب معهم. » وكنت أعرف أن هذا هو ما كان الجيش الإسرائيلى يتجنبه . . حيث كانت قواته على الدوام هى الخاسرة عند المواجهة المباشرة .

رددت عليه بصوت مختنق : « كنت أنوى السفر . . للوجود بجانب أمى . . ولكننى الآن لا أستطيع ، أنا أرفض أن أتركك وسط كل هذا ! لا أستطيع أن أترك بيتنا وجميع الذين شاركناهم حلو المناسبات ومرها ـ خلال السنوات الماضية ـ من أعياد وجنازات . . وولادات . . خطورة . . وسعادة . . وروابط الجيرة . . »

ولكن بالنسبة لساعات السعادة ، لا أعتقد أن صلاح قد استمتع فى حياته بكثير منها ، فبحكم عمق شعوره بالمسؤولية ، وكأحد آلاف اللاجئين من وطنه ، وكعربى يشعر بأن وجوده مهدد . . لم يكن للمرح متسع فى حياته بالرغم من رحابة صدره . كنا متشابهين فى تكويننا النفسى ومنطلقنا إلى حد كبير . . كنا فى الحقيقة مثل « التوائم » كما كان يحلو له أن يسمينا . . خاصة فى ارتباطنا وما كنا نشعر به من التزام بقوميتنا العربية ، وعالمنا العربى الذى كنا نكن له الولاء العميق ، وكذلك فى توصلنا إلى تجاوز أى شعور إقليمى محدود من خلال معتقداتنا وإيماننا وممارساتنا وتجاربنا .

كانت مراحل الاجتياح الاسرائيلى التى شاهدناها على الشاشة باعثة للغضب والثورة أكثر منها للخوف فى نفوسنا . فقد كانت كل دبابة تعبر الحدود ويسجلها مراقب الأمم المتحدة بابتسامة كالصفعة على وجوهنا . . صفعة تلو صفعة . . باعثة فى أعماق النفس بغضب وألم أكبر من طاقة التحمل البشرى .

وعن هذا اليوم الرهيب ، قال أحد كبار أعضاء قوات الأمم المتحدة التى كانت مرابطة فى الناقورة خلال الاجتياح فى مجلة التايمز البريطانية الصادرة يوم ٦ يونيو : « لم أشاهد فى حياتى مثل هذا العدد من المصفحات ، ولا من الجنود المسلحين . . وكأنهم كانوا يستخدمون مطرقة من الفولاذ لتهشيم زجاجة هشة . . فقد وصلوا (الاسرائيليون) بدبابات وناقلات جنود فى أسراب متلاصقة على امتداد الطريق الساحلى لمسافة تزيد على الثمانية أميال . »

ولا شك فى أن الاجتياح الاسرائيلى كان سيلقى مقاومة وردعا أشد لو أنه جاء فى صورة زحف متواصل على الطريق الساحلى ، غير أنهم قاموا بعمليات إنزال فى أماكن متعددة حتى ضواحى بيروت ، بحيث جاءت ضرباتهم خاطفة ومفاجئة ، لم يتعرضوا فيها للمواجهة القريبة .

ولقد تعرضت وحدات من قوات الطوارىء الدولية لنيران الجيش المعتدى ، وحاول جنودها فيها بعد صد الدبابات الاسرائيلية فى تقدمها الذى أصبح واضحا أن أبعاده تتجاوز بكثير ما أعلنوا عنه عند بدء عمليتهم التى أسموها « عملية السلام للجليل » ـ وادعوا فيها أن هدفهم لن يتعدى الدفع بقوات منظمة التحرير مسافة خمسة وعشرين كيلو مترا داخل الحدود اللبنانية بهدف تأمين حزام أمنى لإسرائيل .

تقدمت القوات الاسرائيلية بثلاثة فيالق لتحاصر مدينة صور ، وتحتل النبطية ، وقلعة شقيف الأثرية ، وتتحرك من مرتفعات الجولان إلى أهداف أخرى . وتم إنزال إحدى الفرق شمال مدينة صيدا عند نهر الأوّلى ، كما حدث ذلك بالقرب من مخيّم الرشيدية ، وهو أحد المخيّمات الثلاثة الكبرى فى مدينة صور ، بينما تم إنزال المظليين فى مناطق أخرى.وألقت الطائرات المغيرة منشورات باللغة العربية تحذر سكان مدينة صور البالغ عددهم خمسين ألف نسمة من إيواء أفراد المقاومة الفلسطينية ، وهبطت علينا منشورات مماثلة فى عصر ذلك اليوم فى صيدا .

وبلغ شعورنا بالغضب والمهانة الذروة عندما قرأنا التعليمات إلى الأهالى برفع

الرايات البيضاء والاستسلام ، وبعدم إيواء « المخربين » وإلا دفعوا ثمن ذلك بتعريض حياتهم ومنازلهم للخطر . وقد كان ذلك بالطبع جزءا من سياسة تحطيم المعنويات،الصلفة المتعجرفة القاسية التى تتبعها جيوش الاحتلال فى كل زمان .

□ إبادة فرقة كاملة من المقاومة

ولم يخب أملنا فى شجاعة وقوة وثبات رجال المقاومة ، ومن شاركهم من المدنيين فى الدفاع عن مدينة صور التى دار فيها قتال شرس أجبر الجيش الزاحف على تخطى قلب المدينة . لقد كنا ونحن نسمع سرد تفاصيل القتال بالسلاح الأبيض حول المدينة وفى المخيمات ، نشعر وكأن كل طعنة تخترق أجسادنا وقلوبنا . . كان نهارا أسود معتما لم ينره سوى إيماننا بالله ، وبما كنا نعرفه عن تصميم رجالنا .

قاتلت صور وصمدت ببطولة أياما أبيدت خلالها فرقة كاملة من المقاومة الفلسطينية . وقد اشترك فى القتال كوادر مثل أبو على مسعود الذى شوهد يطارد الدبابات وهو حامل قاذف [الآر بى جى] المضاد للدبابات والمصفحات . لقد كان أبو على مسعود - مع كل صلابته - إنسانا هادئا دمثا مفكرا . . يهوى الاستماع إلى الموسيقى الكلاسيكية الغربية . كما استبسل واستشهد فى هذه المعركة القائد الشجاع « بلال » و « عزمى الصغير » وغيرهما من الكوادر البارزة . أما « أشبال الثورة » أو أطفال [الآر بى جى] كما عرفهم الإعلام الأجنبى ، فقد كانوا فى كل مكان . . يواجهون ويباغتون دبابات وأفراد الجيش المهاجم . . **وقد كتب أحد الضباط الاسرائيليين أنه كان جالسا داخل دبابته متقدما عبر الحدود عندما رأى شابا بل طفلا يظهر أمامه فى الطريق ، ثم لم يتذكر شيئا بعد ، حتى وجد نفسه فى المستشفى .**

وفى بداية القتال أُسقطت طائرة مقاتلة « سكاى هوك » اسرائيلية فى النبطية ، وأُسر طيارها الذى تم تبادله بعد عدة أسابيع . كما دمرت - حسب البلاغات الرسمية - اثنتان وأربعون دبابة وناقلة مصفحة ، ولكن مخيمات الرشيدية والبص والبرج دفعت ثمنا باهظا من الأرواح ، فى حين استمر القصف من قبل المقاومة على الجليل الأعلى وجيوب التآمر والتعاون مع العدو التى كان يديرها سعد حداد فى جنوب لبنان .

وذكرت البلاغات استشهاد ثلاثمائة شخص وإصابة خمسمائة بجراح بالغة خلال يومى الرابع والخامس من يونيو ، كما غادر آلاف من المواطنين اللبنانيين والفلسطينيين - أكثرهم من النساء والأطفال - دورهم فارين من قرى الجنوب تحت القصف الوحشى الذى

استمر فى ملاحقة قوافلهم العزلاء على الطريق الساحلى ، بينما قدرت خسائر الجيش الاسرائيلى فى تلك الفترة بمائتى جندى . أما فى الجليل الأعلى ، فقد بلغ عدد القتلى ثلاثة أشخاص والجرحى خمسة عشر ، غير أن الخسائر المادية كانت بالغة . وفى هذه الأثناء ركزت المقاومة قصفها على مستوطنة « كريات شمونة » الاسرائيلية وأصابتها إصابات بالغة .

ولكننى بالرغم من الخطر الزاحف نحونا فى ذلك اليوم ، لم أتمالك أفكارى من أن تتركز حول القتال الدموى الذى كان يدور فى صور . . صور الرائعة ذات البحر اللازوردى والأعمدة الاغريقية والرمال الذهبية . . حيث يغفو التاريخ وترقد الآثار تحت شمس البحر الأبيض المتوسط الدافئة . . ثم تبعث حية عندما يمر المرء بين معالمها الشامخة . التى تربط بين مواطن الحضارات فى العالم العربى فى لبنان ، وفلسطين ، والأردن ، وسوريا ، وآثار سَبْراتا فى ليبيا ، بالرغم من بعدها الجغرافى . . ومن ثم تربطها فى حلقة أكثر اتساعا بحضارات العالم . . خلال هذه الجولات النادرة (بالنسبة لنا) يكاد المرء ينسى الحروب التى كثيرا ما كانت تجتاح المنطقة بل العالم . . تحرض حضارة ضد أخرى حتى يلحقها الدمار والفناء . لقد كانت صور أول مدينة فى المنطقة تتعرض لغزوات الاسكندر الأكبر . . وكان الانسان يأمل فى العصر الحديث أن يدور فى القرن العشرين « حوار » أكثر منطقية وجدوى من الحروب والاقتتال بين البشر .

أما قلعة « شقيف » التى أطلق غليها الصليبيون اسم قلعة « بوفورت » ، فقد انتهت الغارات عليها باستشهاد المقاتلين الفلسطينيين الأحد عشر الذين كانوا مكلفين بالدفاع عنها تحت القصف ، بعد أن استبسلوا ـ رحمهم الله ـ فى الدفاع عن القلعة لساعات طويلة ، ونجحوا قبل استشهادهم فى إسقاط طائرة فانتوم ، وأخرى هليكوبتر . لقد قاتل الشباب بإيمان واستماتة دفاعا عن الأرض والمبدأ ، وحتى لا يرتفع علم العدو على القلعة العتيدة التى كانت معقلا ضد الغزاة الأجانب منذ الحروب الصليبية . . لقد قاتل أبطال « شقيف » حتى آخر رجل وظلوا أوفياء للقلعة وما ترمز إليه ، وإن كانت القوة غير المتكافئة قد أنهت المعركة باستشهادهم . . ويبدو أن الفلسطينى يقاتل بضراوة حتى النهاية من خلال حسه بما يواجه شعبه من مجازر ومحاولات الإبادة . . كما تثبت ذلك وقائع التاريخ الحديث .

وقد كانت قلعة « شقيف » قبل تدمير أجزاء كبيرة منها خلال العدوان الاسرائيلى واحدة من أبرز المعالم التاريخية فى المنطقة عظمة وشموخا ، فهى تطل على الوديان الممتدة من البقاع فى سوريا . . عبر لبنان وحدود فلسطين المحتلة . ولقد أخذتنى سفراتى وتنقلاتى

ـ حينما كانت المطارات تقفل لسبب أو آخر ـ عبر الوادى مرات عديدة ، كنت خلالها أنظر إلى الوراء . . إلى منظر القلعة الرابضة الموحية بالأمان . . الغنية بالذكريات التاريخية العربية المجيدة . . . حتى يأتى المنعطف الأخير فى الطريق وتختفى القلعة . ومن نفس مجموعة القلاع ، قلعة كرك الفرسان القريبة من تدمر فى سوريا ، وقلاع الكرك والربض فى الأردن ، وأذكر كيف أننى كنت أزورها وأصطحب إليها زوارنا كلما سنحت الفرصة .

أما مخيّم « عين الحلوة » الذى كان الزوار يحرصون على ارتياده للاطلاع عن قرب على أوضاع ساكنيه ، فقد كان لنا فيه معارف وأحباب نتزاور معهم إلى جانب صلات العمل مع سيدات وفتيات التنظيم اللاتى كن يحضرن معنا المحاضرات والمعارض . . وفى أوقات الخطر والشدة التدريبات الدفاعية والإسعافات الأولية وعيادة الجرحى فى المستشفيات . لقد كانت حياة بسيطة ، ولكنها غنية بمضمونها ، فقد كانت دور عين الحلوة ترحب بالضيف والزائر بكرم عربى أبى مهما كانت ضآلة إمكانيات أهلها . كانت نظافة البيوت من الداخل لافتة للنظر بينما المجارى المفتوحة تنساب على طرف الأزقة الضيقة . هكذا عاش اللاجئون الفلسطينيون منذ عام ١٩٤٨ . . كادحين مثابرين . . تعج شوارع المخيّمات ليلا ونهارا بالنساء فى أزيائهن الريفية البهيجة ، وبالرجال فى لباسهم العربى وأغطية رؤوسهم بعقالها الأصيلة . . وبالأطفال الذاهبين إلى مدارسهم والعائدين منها حسب دورات دراستهم الصباحية والمسائية .

كما كان لنا معارف بمخيم « الميّه ميّه » المطل على صيدا ، ومخيم « عين الحلوة » فوق تلّة حادة . وكثيرا ما كنا نستمتع فيه بضيافة « أبو جميل » مسؤول التسليح وأسرته ـ من بين معارفنا ـ ونستمع إلى أحاديثه الشيقة عن نضاله فى صفوف المقاومة . وكم شعرت بالحنق والمهانة عندما قرأت وصفا مستخفا ومتهكما لأحد الضباط الاسرائيليين عن أحداث اجتياح المخيّم ، واستشهاد بعض المقاتلين فيه . . إذ قال : « نعم . . لقد كفّ عربى آخر . . أو حفنة من العرب عن التدخين اليوم » !!

وفى أوائل صيف عام ١٩٨٢ ، أذكر أن صلاح طلب منى أن أصطحب الكاتب « جون لوكاريه » فى جولة فى الجنوب ، حيث كان قد حضر إلى لبنان لاستطلاع الأوضاع وجمع المادة لأحد مؤلفاته . . كان الزائر فى البداية ذا ميول اسرائيلية . . أو على الأقل جاهلا بالوضع العربى . . فأراد أن يرى الأمور عن كثب ، وأن يستجلى الحقائق . . .

وصلنا معا ضمن زيارتنا إلى « شقيف » التى كان علينا تدبير إذن خاص لزيارتها . . إذ كانت قد أصبحت منطقة عسكرية مقفلة ، فأذهلنى ما رأيت ، إذ وقفنا على بعد أكثر من

ميل منها وسط حقول جرداء حفرت فيها الخنادق ، ولم يبق فيها سوى شجيرات الشوك . . وفى الأفق الرمادى لاح شبح الصرح الشامخ ـ وقد كانت كآبة المنظر فى ذلك اليوم ، وكأنها تنبىء ببعض ما سيحدث فى المستقبل غير البعيد .

ولقد لازمتنى ذكرى شهداء « شقيف » الأحد عشر فيها بعد وسط كل مـا مررت به . . ولم يهدأ روعى حتى لمست بعض الاهتمام الذى يستحقونه من قبل الإعلام . . وخاصة فى خطاب القائد ياسر عرفات الذى صفق له الحاضرون طويلا عند ذكره للشهداء فى المؤتمر السادس عشر للمجلس الوطنى الفلسطينى فى الجزائر ، ووقفوا تبجيلا لهم .

هكذا كان معدن الرجال العرب الذين احترمتهم وتبعتهم . . شيمتهم الشجاعة المندمجة مع المثالية ، كتلك التى ربينا عليها فى أساطير البطولات العربية . . . واسم صلاح ـ وهو اسمه الحركى ـ قد اتخذه من اسم البطل صلاح الدين الأيوبى . وفى حروبنا المعاصرة كانت هناك بطولات كبيرة ، وتضحيات بين الجنود والضباط العرب فى الكونتيلا ، وفى القدس ، وفى السويس وغيرها ، أثبتتها الجيوش المصرية والأردنية والسورية والعراقية . وبالنسبة لى ، كان اجتياح لبنان عام ١٩٨٢ هو احتكاكى الثانى بالحرب عن قرب ، فقد كان أولها أثناء العدوان الثلاثى على مصر حيث كنت ـ وما زلت ـ مقيمة ، وحيث أسعدنى أن ألمس عن قرب بطولة أبنائها فى مقاومتهم للعدوان ، وأن أحاول الإسهام المتواضع فيها كانت تحاول سيداتنا تقديمه من جهد ومشاركة .

وفى مساء ٥ يونيو افترشنا وجيراننا الأرض فى بهو دارنا بصيدا فى ألم وقلق وصمت ، فقد كان كل منا سجين أفكاره وهواجسه الخاصة التى فضّـل أن تبقى حبيسة ، وكـان الصوت الوحيد الذى يخترق السكون ، سكون البشر ـ إذ كانت الطائرات لا تكف عن الضجيج والأزيز والقصف ـ هو صوت الببغاء الذى أسميناه « مرحبا » . ولذلك الطير الأليف قصة طريفة سمعتها لأول مرة بعد شهرين ، عندما كنت أحضر تجمعا ومحاضرة لبعض شهود العيان لحرب لبنان من ممرضات وصحفيين وغيرهم ، فقد حكى لى أحد معارفنا ـ وخلته فى بادىء الأمر يحاول مداعبة وجدتها غير مناسبة فى مثل هذا الظرف ـ أن الببغاء « مرحبا » قد حال دون دخول الجنود الاسرائيليين دارنا باحثين عن صلاح لمدة طويلة . وقال الصديق : « حتى الببغاء أثبت أنه مناضل ! » وتأكد لى فيها بعد من صلاح ومن جيراننا ، أن بعض الجنود بعد أن نادوا على السكان بمكبرات الصـوت ، حاولـوا اقتحام البيت ، فسمعوا صوتا من داخل الدار يقول : « مرحبا » . . فهرعوا إلى الخارج ، وظلوا يدبرّون وسيلة ، أو طريقة اقتحام أخرى . وفى نهاية المطاف ، أجبروا أحد الجيران

على الدخول إلى الدار أمامهم ، حيث فوجئوا بأن من أفزعهم لم يكن سوى البغاء « مرحبا » . . !!

فى هذه الليلة لازمنا « مرحبا » السهر . . وبدأ شبح الرهبة يتجسّد كلما طال الليل ، واستمر القصف المدوى وتعالى . . وازداد صمتنا ونحن جلوس قابعين . وكنا فى الدار فلسطينين ولبنانيين وشيعة وسنيين ودروز ومسيحيين موارنة . . رجالا ونساء وأطفالا ، قد زالت بيننا كل الفوارق إذ جمعنا المصير الواحد إلى جانب ألفة الجيرة . . وكنا نستمد الطمأنينة من تقاربنا بعضنا ببعض . حتى كلبنا الذى كان بعض الجيران يتذمرون منه فى بعض الأحيان ، بدا وكأنه يشعر بالخطر بنفس الحدة التى كنا نحسه بها ، والتصق بنا وتحول نباحه المعتاد إلى أنين متحشرج . وهكذا قاربت الحرب ووحدة القدر لا بين أفراد البشر فقط ، بل بين جميع الكائنات الحية . وقال صلاح فيما بعد ، إنه شعر فى تلك الليلة وكأن ـ حتى ـ الأشجار كانت تتقارب وتتلاصق طلبا للأمن !!

□ خيبة الأمل فى عيون الأشبال

استمر الأشبال الموجودون معنا يحاولون استشفاف بريق من الأمل من محطات الإذاعات العربية . . وإننى لا أبالغ إذا قلت إن خيبة الأمل التى لمستها فى أعين هؤلاء الشباب الذين قدموا حياتهم فداء لكرامة الأمة العربية ، فردت عليهم فى أحرج اللحظات بالعجز والصمت ، كاد يغطى على كل ما كان يجرى منذ بداية الصباح . . من مجازر « صور » إلى سقوط « شقيف » واستشهاد المدافعين عنها . فقد ظلوا يرددون : « **لقد تخلت عنا الدول العربية** » !! بنبرات مشدوهة ، وكأن صدمة تخلى الأهل والقوم فى هذا الظرف المصيرى بالنسبة للعالم العربى كله ، قد شلّت قدرتهم على التفكير . . وشعرت وأنا أشاهد تمزقهم وبحثهم عن وسيلة دفاعية فعّالة ومجدية ، كأننى أنظر إلى جثة جز رأسها ، ولا يزال النبض يدق فى عروقها . وإننى لأجزم بأنه ليس هناك شعور فى العالم أمر وأكثر تدميرا للإنسان من الشعور بالعجز فى أى مجال كان .

مرة أخرى دخل صلاح إلينا أثناء الليل ، واستطعت أن أنفرد به جانبا لثوان لأسأله عما كان يرى أن أفعله ، فأصر على إقناعى بالسفر فى أقرب وقت لأضمن إمكانية الوصول إلى والدتى التى كان قلقه عليها يوازى قلقى ، واقترح أن يصحبنى أحد الشباب ـ وهو شاب كان يعاون صلاح فى قيادة سيارته ، واسمه موسى ـ إلى بيروت . . ذلك إن تمكنا من مغادرة صيدا . غير أنه لم ينجح فى محاولاته إلا عندما قال لى : « **ساعدينى بسفرك . . إذ أننى فى وجودك . . سأكون مكبّلا . . قلقى عليك قد يؤثر على حرية تحركاتى . .** »

وهكذا تم التغلب على اعتراضاتى ، ولأننى عجزت فى تلك اللحظة الملبّدة بالمشاعر والأفكار التى لا مجال للتفريج عنها ، فقد بقيت ذكرى ذلك اليوم مصدر قلق وعذاب بالنسبة لى لأعوام طويلة . وكان دافعى للمغادرة ـ مغادرة البيت والزوج وأعز الأصدقاء بما كان فى ذلك من تمزق وألم وحيرة ـ ليس الخوف ـ الذى لا أنكر أنه كان يتخلل مسامى ـ بل تفهمى لما ألمح به صلاح ، والاستجابة بعدم الإضافة إلى مسؤولياته وهمومه بحيث يتمكّن من اتخاذِ القرارات الصحيحة بالنسبة للأوضاع ولكل من حوله ، ومنهم أخته ريم التى كانت تقيم معنا منذ عدة أشهر . . وكذلك لأتمكن من الوصول إلى والدتى وهى فى أشد ظروف حاجتها إلىّ وقلقى عليها . لكل هذه الأسباب ، كنت مستعدة أن أبدو جبانة فى نظر من حولى . . ولقد كان هذا القرار من أصعب القرارات فى حياتى ، غير أن تفهمهم الذى أثبتوه لى حينذاك وفيما بعد ، كان مصدر طمأنينة لى .

وفى حوالى الثالثة صباحا ـ فى ظرف من الصعب تحديد الوقت فيه تماما ـ عاد صلاح وهو يمشى على أطراف أصابعه حتى لا يقلق من كانوا قد استكانوا أخيرا لفترة من النوم بعد معاناة ذلك اليوم الشاق ، وقال لى هامسا : « **أرجوك أن تذهبى الآن وقبل أن يفوت الأوان . . كان الله معك . .** »

اصطحبته إلى الباب الخلفى ، وعند نهاية الحديقة . . وبكل المشاعر المشحونة داخلى . . فى ظلال أشجار البرتقال والبشملة المتشابكة أغصانها . . فى ضوء النجوم الذى كان يبدد شيئا من وحشة الليل والموقف . . كأن الصمت التام من حولنا ضجيج مدوى . . استودعته الله . . ومضى بين الأشجار مرفوع الهامة ثابت الإيمان . . ما لبث أن توارى فى حلكة الظلام . ولم نلتق بعد ذلك إلا بعد سنة ونصف السنة قضاها أسيرا فى سجون « الداخل » ومعتقل « أنصار » فى لبنان . وكانت هذه الحظة آخر عهدنا بمقرنا الثابت الوحيد ، وبفقده . . لم تعد حياتنا إلى طبيعتها حتى اليوم !!

سارت السيارة بموسى وبى عبر الطرق الجبلية المتعرجة ، إذ كنا قد تمكنا من بلوغها قبل أن تحكم كمّاشة الحصار حول المدينة وضواحيها . وكنت قد طلبت من موسى أن يمر بى خلال المدينة لألقى نظرة أخيرة على معالمها وأطمئن ما استطعت على مواقع شبابنا . . وعلى أمل أننى ربما أتمكّن من رؤية صلاح مرة أخرى . وكان ضوء الفجر قد بدأ ينير عتمة الليل عندما مررنا باثنين من كوادر المنظمة ـ فؤاد عواد وأبو يحيى ـ يحملان سلاحهما ويسيران فى الشارع المكفهر . خجلت من توديعهما ، ولكننى التقيت بهما سالمين بعد أكثر من عامين . وكان عدد المغادرين لصيدا موازيا لعدد من كانوا يحاولون العودة إليها .

استمر تحليق الطائرات الاسرائيلية فوقنا . . متحدية . . مُذِلّة . وتمنيت فى هذا المناخ « السريالى » لو كنت صاروخا انطلق وانفجر للحد من تساقط المزيد من الضحايا على الأرض العربية الغالية الممزقة . . هذا فى حين بدت لى أطقم المدافع المضادة للطائرات التابعة لقوات الردع العربية ساكنة فى مواقعها ، بسكونا لا ينسجم مع الضجيج الذى كان يخترق السماء والنار التى كانت تحرق الأرض . . إلى أن عرفت فيما بعد أن جهاز الرادار الخاص بها كان قد شل من قبل الإسرائيليين .

وتابعنا سيرنا وكأننا ندور فى حلقات لا نهاية لها ، إذ كنا بالفعل كلما اقتربنا من إحدى الطرق المؤدية إلى الساحل ، قيل لنا أنها مقفلة . وعندما وصلنا إلى مرتفع قريب من بيروت مطل على الساحل والمطار ، رأيت طائرة تغادر المدرج ، فنظرت إلى ساعتى ووجدتها قد بلغت التاسعة صباحا ، وأدركت أنها الطائرة التى كان من المفروض أن استقلها إلى القاهرة . . لقد فاتتنى . . إذ استغرق الطريق منا أربع ساعات بدلا من ساعتين على الأكثر . ولم تكن هذه المفاجأة أكثر من حدث بسيط وسط ما كان يجرى . وبما أن موسى كان مصمما على العودة إلى صيدا . . إلى موقعه ، وليطمئن صلاح على سلامة وصولى إلى بيروت ، فقد طلبت منه أن يتركنى فى فندق كنت ارتاده فى السابق مع والدتى ومع صلاح ، حيث اتمكن من حجز رحلة تالية إلى القاهرة . ودعته وتمنيت له سلامة الطريق والوصول ، إلا أننى بقيت أتساءل عن مصيره خلال الأشهر التالية وعن مصير الكثير من شبابنا ومخاوفنا ، إلى أن عرفت أنه أيضا قد مر « بمطحنة معتقل أنصار » . . ومثله مثل آلاف المعتقلين من المدنيين والمقاتلين ، قضى فيه أكثر من عام ونصف العام إلى أن جرى تحرير الجميع فى عملية تبادل الأسرى التى تمت فى ٢٣ نوفمبر عام ١٩٨٣ .

قضيت الليلة فى بيروت ، ولكنى لم أتمكن من الاتصال بصيدا . . سوى استماعى إلى أخبار القصف المتصاعد والحصار الذى سيطر على المدينة بأجمعها . وفى اليوم التالى كانت حركة المطار فى الصباح تبدو طبيعية ، غير أنه اتضح أن ذبذبات الوضع المتوتر قد بدأت تصل إليه وتربك حركته ، كما كانت قد فعلت بجميع الثوابت فى لبنان .

فجأة ، وبعد انتظار طويل ، وبدون سابق إنذار ، شاهد الركاب المكتظون فى المطار سربا من طائرات شركة طيران الشرق الأوسط اللبنانية يغادر المدرج واحدة تلو الأخرى ، ويبتعد فى الأفق نحو مطارات أكثر أمنا . وعندما أدركت أننى قد فقدت الفرصة الأخيرة للسفر جوا إلى القاهرة ، تمكنت من الاتصال هاتفيا للاطمئنان على والدتى وطمأنتها ، فقيل لى إنها بانتظارى بفارغ الصبر . ولم استغرب ذلك إذ أن الاتصال من

صيدا كان مستحيلا . . وكنت أشعر كأننى عشت أحداث دهرين كاملين خلال الثمانى والأربعين ساعة الماضية .

منذ تلك اللحظة سعى الكل إلى التصرف بمفرده وعلى عاتقه . وسوف أذكر بالامتنان نصيحة رجل عراقى وقور ، أشار علىّ بمحاولة مغادرة بيروت بأسرع وسيلة .

وحدى . . منهكة وحزينة . . سرت نحو باحة المطار لأجد أمامى نفس السائق الذى كان قد أوصلنى من صيدا فى اليوم السابق . وكانت مفاجأة طيبة أن أراه حيا بعد ما تصورناه عن عواقب القصف العنيف الذى كان قد تعرض له الطريق الساحلى فى ذلك اليوم . وفى شهامة ، أبدى استعداده لتوصيلى إلى الشام . . حيث كان علىّ أن استقل سيارة أخرى إلى الأردن .

أخذت أنظر حولى فى ذهول إلى مناظر الجبل ومصايفه التى كنت أمر بها . . بحمدون . . صوفر . . عاليه التى عرفتها منذ الصغر وزرتها مع أهلى فى طريقنا إلى زيارة أفراد أسرتنا الهاشمية فى الأردن والعراق . تساءلت فى حيرة : **« ترى ما سيكون مصير تلك البقاع الجميلة التى مسّها الاقتتال الداخلى وشوهها فى الأعوام القليلة الماضية !! »**

□ الأمان فى دار عاليه

عند الحدود السورية كان هناك تزاحم على السيارات . وعندما وجدت مكانا لراكب سادس فى سيارة مكتظة لم أرفض ، إذ لم يكن للراحة مجال فى تفكيرى عندئذ . فقد كان علىّ الآن ـ وبعد أن غادرت صيدا ـ أن أصل إلى والدتى بأقصى سرعة ، إذ لم أكن لأدرى كم من الزمن ، أو السويعات سوف تتحمّل قواها الواهنة ـ وعما إذا كان بقاؤها فى المستشفى قد أحدث أى تقدم فى صحتها . . وشعرت بغصّة عندما تذكرت يوم أن اضطررت إلى اصطحابها إلى المستشفى بالرغم من ترددها . . وهى تنظر خلفها لترمق بيتها وحديقتها التى زرعت فيها كل شجرة وزهرة ، وورعت كل نبتة قائلة : **« ترى . . هل . . أعود ثانية ؟! »** إذ كانت قد أمضت السنة السابقة فى زيارات متكررة للمستشفى . ومما جعل الموقف أكثر إيلاما هو أنها لم تكن تشكو أو تتذمر ، بل كانت تنشر التفاؤل من حولها بإرادة قوية . وكانت ابتسامتها الحلوة وفلسفتها الحكيمة فى رؤية الجمال فى كل شىء ونظرتها الإيجابية إلى الأمور ، مثالا لى وسندا طيلة عمرى .

كذلك كنت اتطلع لرؤية عاليه وطمأنتها أننى بخير . . فقد كانت هى أيضا سندا

قويا لى . . وفى مضمار الكتابة ، فإننى أدين لها بالمساهمة أثناء إعدادى لكتابى هذا بملحوظاتها الدقيقة البالغة الحساسية .

أخيرا وصلنا إلى الحدود الأردنية حوالى منتصف الليل ، حيث استطعت الاتصال بابنتى . لقد كانت رحلة طويلة . . مرهقة وشاقة . . ولم يكن يتبادر لذهنى عندئذ أننى سوف أقطع نفس هذا الطريق ما بين دمشق وعمان ذهابا وإيابا أكثر من عشرين مرة خلال العام التالى !!

بعد أقل من ساعة وجدت نفسى فى أمان دار عاليه ، حيث أسرعت هى وزوجها لملاقاتى ، ثم اتصلت بوالدها على الفور وأخبرتنى أنه كان ينتظر أن تخبره بوصولى على الفور . وما أن ناولتنى السماعة ، حتى اتضح فى الحال فقدانى التام لصوتى ، الذى صدر كنقيق متفكك جعلنا جميعا نضحك بطريقة هستيرية وسط ذلك الموقف المشحون . وعلى الأرجح لم يكن السبب يرجع إلى عجز فى حبالى الصوتية ـ التى لم استخدمها تقريبا خلال الأربع والعشرين ساعة الماضية ـ ولكنه كان الشعور باليأس المرير الذى كان قد بدأ يفرض نفسه على جوانحى . فقد لاحظت عندما قمت خلال العام التالى باسترجاع بعض الصور الفوتوغرافية التى التقطت لى عشوائيا ، أننى أنظر إلى لقطات متتالية لامرأة تبدو كشخص غريب تماما ، تارة تبدو مهزومة ، وتارة ذات ابتسامة إن نمّت على شىء ، فعلى التصميم وعلى أنها قد عقدت العزم على مواجهة أى شىء وأى احتمال .

كان شعورا مريحا إلى حد كبير أن أكون بين الأقارب خلال هذه الأحداث ، بعد الأربع والعشرين ساعة المصيرية التى قضيتها فى مواجهة بعض من أصعب ساعات حياتى بما فيها من أسى قومى عام وألم شخصى . وفى الصباح التالى اتصل الملك حسين ، فكانت فرصة لأنفّس فيها عما فى صدرى بالتحدث إلى شخص ذى نفوذ ، على أمل أن يكون لديه حل ما ، أو مخرج ، أو وسيلة ما للمعاونة فى توفير توازن عكسى للموقف المظلم الذى يواجهنا . لكن موجات زحف العدو كانت أكبر من أن تصد فى هذه المرحلة المتأخرة . وبدا الملك قلقا بشأنى أنا وصلاح . . وثائرا وحزينا كعربى . . إلا أنه كان آسفا على عدم التضامن بين الحكومات العربية ، إذ كانت الحرب العراقية ـ الايرانية أضخم تحد قوض هذا التضامن ، وفرض علينا أن نواجهه خلال هذا العقد . والآن يجىء هذا الاستعراض الجديد للقوة من جانب اسرائيل ، مدعما من القوى العظمى التى تحتضنه وتساندة وتتغاضى عن وقفه . . والذى كان هذه المرة أخطر وذا دلالة أعمق من أى عدوان سابق لها ، باستثناء حرب ١٩٦٧ عندما استولوا على الضفة الغربية ومرتفعات الجولان وسيناء .
لقد كان الدمار الذى حل وحاق بلبنان على الأخص هذه المرة ، يفوق بمراحل ما حدث فى



الملك حسين والأميرة دينا والحفيد الحسين فى عمان بعد الخروج من صيدا مباشرة .

المرات السابقة ، وكان من المتوقع أن يؤجج هذا الموقف بين العرب عزما يعادل ذلك التحدى الذى يهددهم ، إلا أن التهاوى والدمار استمرا . حقيقة أن الاجتياح الاسرائيلى أثار غضبا واحتجاجا عربيا ، غير أن كل ذلك لم يتبلور للأسف فى موقف موحّد ، صارم وضاغط . . بل تسربت الجهود الفردية . . وأصبح الرفض والاحتجاج يصبّان فى تيارات التطرف التى زادت الموقف تفتتا .

كان الحوار بيننا ضروريا ، إذ كنت أرى من الناحية العملية أن الأمر يتطلب رد فعل مناسبا ، وأنه إن لم يثبت الوجود العربى تواجده فى الساحة ، أو على الأقل يشد من أزر هؤلاء الذين يتصدون للذود عن الشرف والكرامة العربية عند الخطوط الأمامية معنويا بصورة فعّالة ، فهو عديم الجدوى . فبالرغم من إبداء المشاعر المخلصة عن التضامن وحتمية التحرك للمساندة ، كانت النظم المعقدة التى يتألّف منها النسيج الحكومى تقف حجر عثرة فى سبيل أى خطوة عملية ، حتى أنها منعت أعدادا كبيرة من المتطوعين من السفر إلى لبنان لتقديم المعونة فى صد الغزو . ومما يزيد من الشعور بالمرارة ، أن يتذكر

المرء التسهيلات التى يتم تدبيرها لرعايا إسرائيل فى جميع أنحاء العالم ، لتيسير سفرهم إليها عند الحاجة للمشاركة فى القتال إلى جانب مواطنيهم ، كما حدث خلال حرب ١٩٦٧ .

توجهت فى نفس اليوم إلى القاهرة فى سباق مع الزمن نظرا لحالة والدتى الصحية الحرجة . وكان اهتمامى التالى يتركز فى محاولة أنْ أنقل إلى العالم خارج لبنان جسامة الأحداث الجارية ومغزاها ، وحقيقة موجات التدمير التى شهدتها ولمستها فعلا . . كان علىّ أن أنقل كل ذلك إلى أكبر عدد من الناس ، وخاصة لذوى النفوذ والمناصب وصانعى القرارات ، مفترضة أن قراراتهم حرة وغير مقيّدة . وبالرغم من أن الموقف كان يبدو أنه قد تعدى بالفعل المرحلة التى يمكن خلالها صد مثل هذا الزحف ، أو على الأقل القيام بهجوم مضاد فعّال ، فقد كنْت أشعر باستمرار أنه من واجبى أن أقوم بحمل الرسالة إلى العالم الرحيب خارج أتون الجحيم ، وأنقل الأحداث الجسيمة التى سهدتها بنفسى . من هذا المنطلق ، قمت فى الطائرة بتحرير خطاب للرئيس مبارك ، وما أن وصلت إلى القاهرة ، حتى قمت بتسليمه فى مقر إقامته ، ثم هرعت إلى المستشفى . . إلى جانب أمى .

٢ الاستعراض الأخير

طوال الأشهر الثمانية السابقة على ذلك ، كانت ضربات قلبى تتلاحق كلما عدت إلى القاهرة بعد غيبة قصيرة فى لبنان أو الأردن . . هل سأجد أمى بخير ؟! هل سيقدر لى أن أراها ثانية عندما أسافر وأعود المرة القادمة ؟! هل ستظل بيننا تشد أزرى وأنعم فى ظلها بالطمأنينة والسكينة والشعور بالأمان ؟! لقد منحتنى كلماتها ، خلال أحد أحاديثنا مؤخرا ، قوة مضاعفة لبذل المستحيل للعمل على شفائها ، فقد قالت : **« كم ستكون الحياة جميلة لو قدر لنا فقط أن يلتئم شملنا وأن ننعم بالطمأنينة » !!**

كانت شخصية مجردة تماما من الأنانية . . تحب جمال الحياة فى مظاهرها البسيطة : الزهور . . الألوان . . الطبيعة . . الناس . . ويتسم سلوكها بتلك الحكمة التى يبدو أن الجيل السابق قد اختص بها . فكل من عرفها من الشباب والكهول ، يذكر لها ما كانت تتميز به من نشاط متأجج وحس مرهف ، ورقة فى التعامل ، فضلا عن روح الفكاهة التى لم تفارقها حتى فى مواجهة أصعب الأحداث .

فى هذه المرة ، كانت صحتها فى أحرج حالة مرت بها منذ أكتوبر ١٩٨١ حين كدت أفقدها . ولكننى ظللت على إيمانى بالله ، وبابتسامتها الجميلة الشجاعة . وبقدر ما حزنت لما أصابها من اعتلال ، بقدر ما أحسست أن الله قد لطف بها إذ قضت مشيئته أن تكون الآن فى المستشفى بعيدة عن تأثير وسائل الإعلام ـ الجرائد التى اعتادت أن تقرأها بانتظام ، وأخبار التليفزيون التى كانت تواظب على مشاهدتها ـ فلا تتابع بذلك عن كثب آخر التطورات على الساحة السياسية ، ولا تعيش بشاعة الموقف يوما بيوم ، ولا تتحمل عبء القلق على صلاح .



الوالدة عام ١٩٨٠
فى القاهرة .

عندما دخلت عليها ، قابلتنى بابتسامة مشرقة ، أحسست أنها تعبر من خلالها عر
ترحيبها وارتياحها ، بعد أن اطمأنت علىّ ووجدتنى بجانبها . . وعن حبها الخالص المتجر
كانت قد خرجت لتوها من العناية المركزة ، وبدا عليها من التحسن ما خفف عنى بعض
ما كنت أعانيه من قلق . ولو أنه قدر لها أن تعلم بالموقف المؤلم ، لما اقتصر قلقها على صلا
فقط مهما بلغت قسوة وقع الأخبار عليها ، بل كان سيمتد ليشمل بنفس القدر كل ما كان
تنطوى عليه الأحداث الجارية من خطورة على العالم العربى . فهى بالرغم من كونها غ
عربية ـ شركسية الأصل ـ كانت تكن للعرب ذلك الاحترام العميق الذى يكنه له
المسلمون من غير العرب ، ثم جاء زواجها من أحد أفراد الأسرة الهاشمية فرسّخ من ق
ارتباطها بالعرب وانتمائها العربى ، وربما كانت صاحبة الفضل أكثر من أى فرد من أفر

أسرتى الرجال ، فى تعميق إحساسى بهويتى والتزاماتى القومية ، هذا بالإضافة إلى تلقينى قانوننا لا يحيد بمعنى العدالة والموضوعية ، فالتحيز والتعصب ، سواء على المستوى الشخصى أو العام ، كانا من المشاعر التى لا وجود لها فى نطاق أسرتنا .

وبالرغم من أن ضبط النفس كان من العادات المتأصلة والراسخة بقوة فى أمى ، فإنها لم تكن تتردد قط فى إظهار مشاعر المحبة والمودة ، إذ لم تر فى ذلك مساسا بهذا الانضباط . وأذكر أننى فى طفولتى ، كنت أحبها بقدر ما كنت احترمها ، وربما أخشاها . . إذ كانت شخصية تجمع بين العذوبة والحزم ، وكانت بالنسبة لى مثلا يحتذى ، وسندا أركن إليه . وبالرغم من أننا اختلفنا فى نواح عديدة ـ إذ كانت تبزّنى فى الحيوية والانضباط وحب الفن والموسيقى ـ ظلت علاقتنا وثيقة وحميمة ، فقد كانت تؤمن بالمثل القائل : « عندما يكبر ابنك اتخذ منه أخا » . ونجحت فى تطبيقه . وهى التى علمتنى القراءة . . فلم انقطع عن حب القراءة منذ ذلك الحين . كانت حريصة على تعليمى ، وغرست فى نفسى ، وفى كل المحيطين بها ، الطموح لتحقيق كل ما له قيمة فى الحياة .

أما والدى ، فكان محبوبا من كل من عرفه . كان أهم ما يميزه كرمه وحرصه على كرامته وبعده عن التحيز ، كما كان لماحا يتمتع بروح الدعابة وحضور البديهة . وكان هو وأعمامى أصدقاء لى ، فكان بمقدورى ، بالرغم مما كنت أكنه لهم من احترام عميق ، أن أناقش معهم أى موضوع يخطر لى فى جو أسرى حميم . وهكذا كان لدىّ إطار عام يحكم تصرفاتى ، ولكن حرية الاختيار كانت مكفولة لى فى نطاقه .

□ التعرف بصلاح

ومن المناسبات التى لم تكن فيها حرية الاختيار بالأمر السهل ، ما واجهته بعد هزيمة عام ١٩٦٧ ، عندما انهارت وتهاوت مصداقية الكثير من القادة والساسة والكتّاب ، كما ينهار صرح كنا نظنه منيعا . اجتاحت الهزيمة نفوسنا كالطوفان ، وغيرت رؤيتى للأمور تغييرا جذريا ، وإن لم تغير من قيمى الأساسية .

وفى وسط حطام الآمال والأحلام . . أطلت المقاومة الفلسطينية التى رفضت واقع الهزيمة . . .

عرفت صلاح فى تلك الفترة . . . ولم يواجه قرارى بربط حياتى بحياته ، وضم جهودى للعمل على تحقيق مستقبل أفضل لشعبنا إلى جهوده فى هذا السبيل ، أية معارضة

من جانب ابنتى التى تحمست له . كما وافق والدها الذى كان من الطبيعى أن أطلعه على ما اعتزمته بصفته « كبير الأسرة » . ورغم ذلك لم يكن زواجى من صلاح بالخطوة السهلة لأى منا . فقد كنت أكثر من كارهة لأن أخرج على تقاليد أسرتنا التى لا تعترف بزواج نسائها خارج الحدود الصارمة المتعارف عليها ، وهو ليس تقليدا « طبقيا » أو « ملكيا » بقدر ما هو تقليد « قبلى » . هذا بالإضافة إلى أن احترام العادات والتقاليد لا يتعارض بالضرورة - فى نظرى - مع التقدم والتطور ، ولم أنظر إليه أبدا على أنه من العوامل المعوقة ، بل اعتبرته دائما وسيلة للحفاظ على أسلوب فى الحياة استنته حكمة الأجداد .

أما صلاح فقد كان لديه تحفظاته الخاصة ، بالإضافة إلى عبء التفكير فى رد فعل قيادته الذى لم يكن فى استطاعته التنبؤ به . ولكن أمى كانت الوحيدة بيننا التى كان لديها الرؤية الواضحة ، واتخذت موقفا إيجابيا متزنا إذ أدركت بحسها المرهف مدى نقاء هذا الشاب الذى كان يقف فى مواجهة مثل تلك التحديات الكبيرة ، والذى كان يتمنى لو لم تكن ابنتها أميرة ، بل مجرد فتاة عادية متواضعة . لقد احترمت بساطة دوافعه وخلفيته بنفس القدر الذى كانت تحترم به أسرة والدى ، إذ كان تأييدها المطلق دائما فى جانب الحق فى كل الأمور . ومما أذكره ، أنه خلال إحدى أزماتها الصحية البالغة الحرج ، لم يبعث فيها شعلة من الحياة سوى الوصول المفاجىء لصلاح . . إذ قابلته ببسمة ! بسمة صافية من بسماتها المرحة التى كانت تنعكس فى بريق عينيها ، والتى لم يكن من المستطاع افتعالها بأى حال .

وعندما انتقلت للإقامة فى لبنان بعد زواجى من صلاح ، كان فراقى لأمى صعبا بالرغم من أنها كثيرا ما كانت تأتى لزيارتنا وتمكث معنا ، ومن أننى لم أكن أبدا لأتغيب طويلا عن بيت الأسرة فى القاهرة ، الذى أبقته بكرمها مفتوحا . كان فى العناية بالحديقة متعة لها ومصدر بهجة ، فهى التى زرعت كل شجرة من أشجارها بنفسها منذ ما يربو على الثلاثين عاما . كانت تمضى النهار بطوله فيها ، تعدل من تنسيقها وتزرع وتقلم الشجر وتزيل الحشائش الطفيلية . وكان صلاح يشاركها فى ممارسة هذه الهواية أثناء زياراته القليلة والقصيرة للقاهرة ، وفى صيدا خلال زياراتها لنا .

وفى عام ١٩٨٢ بدأت حالتها الصحية فى التدهور ، مما أثار قلقى أنا وصلاح ، وجعلنا نعطى الأولوية للعمل على راحتها والاطمئنان عليها ، وعلى أن علاجها يسير فى الطريق الصحيح . لم تكن بالنسبة لى مجرد أم ، بل كانت تمثل لى الماضى بكل قيمه وذكرياته ، وكانت مثالا يحتذى للشجاعة والصبر والتحمل والكرم والتفهم ، ولكل ما يتسم بالحكمة والخير .

والآن . . فى وسط دوامة الأحداث ، أصبحت أمى هى الطوق الوحيد الذى بقى لى فى بحر الحياة العاصف ، وملاذى الذى يحيط بجميع الجوانب التى شكّلت حياتى . غير أن هذا الطوق ما لبث أن انزلق من بين يدى ، وتركنى وحيدة فى بحر القلق والحرب والدمار . لم تتخل أمى عن شجاعتها أبدا ، ولكن فى صباح ١١ يونيو راحت فى غيبوبة لم تفق منها ، وأسلمت روحها إلى بارئها فى اليوم التالى . وحتى ساعات وعيها الأخيرة ، كانت تضغط على يدى لتطمئننى على إحساسها بى وبوجودى إلى جانبها . ولم أكن أنا التى أزودها بالطمأنينة فى ساعاتها الأخيرة ، بل كانت هى التى تحاول أن تترك لى كنزا من القوة . وكانت عاليه قد زارتها قبل يوم أو يومين ، وهكذا لابد من أنها كانت تعجب فى أعماق وعيها الذى كان على وشك المغيب ، لعدم وجود صلاح أيضا . هكذا جاء اليوم الذى كنت أخشاه ، والذى لم تفد دعواتى فى تأجيله . واكتنفنى بمجيئه شعور بالوحدة يفوق كل ما عرفته من قبل . . غير أن الاستسلام للحزن كان ترفا لا تحتمله تلك الظروف ، وكان لابد من الانطلاق للبحث عن صلاح .

كنا قد استقر بنا المقام فى لبنان فى عام ١٩٧١ بعد مغادرة منظمة التحرير الفلسطينية للأردن ، غير أن نمط حياتنا ظل مشابها لنمط حياة البدو الرحل . وحتى اليوم ، وبعد كل ما مر بى من تجارب الحياة المريرة ، ما زال لكلمة « بداوة » ، بالنسبة لى ، تلك الرنة الرومانتيكية التى ترتبط لدىّ بنمط المعيشة فى شبه الجزيرة العربية ، حيث أن أكثر ما كان يستهوينى فى قراءاتى المبكرة هو أشعار عرب الجاهلية ، وكتب الرحّالة أمثال : بلنت وبرتون وجرترود بل وفريا ستارك وغيرهم من محبى شبه الجزيرة العربية . وكان ذلك معروفا عنى حتى أن أحد الأصدقاء فى مصر علق على زواجى من صلاح قائلا : **« أدركت على الفور أنه لابد وأن يكون من أصل بدوى . . فأنت لم تكونى أبدا لتقبلى الارتباط بأى شخص لا ينحدر من أصل عربى خالص »** .

فى السنة الأولى أقام صلاح فى منطقة العرقوب بالقرب من الحدود الفلسطينية ، وكنا نلتقى لفترات قصيرة فى بيروت . وفى هذه الأثناء ، وطوال إقامتنا فى لبنان ، كان صلاح يعمل فى حقله المفضل من خلال حبه للأطفال ، ويمارس ما كان بالنسبة له هواية متأصلة ، وهو مسؤولية تدريب وتعليم ورعاية فتيان وفتيات منظمة الأشبال . كانت مداومته على ابتكار الأفكار الجديدة وتنفيذها بهدف إثراء عقولهم وحياتهم تسير فى خط متواز مع تدريبهم عسكريا ، وتنال منه نفس الاهتمام الذى كان يناله هذا التدريب ، الذى أصبح ضرورة حتمية بالذات بعد مجزرة تل الزعتر ، التى دلت على أن الطفل الفلسطينى مستهدف بالقتل والإبادة كالمقاتل الفلسطينى . وكنت أزور المركز من وقت لآخر ، وحاولنا إنشاء مكتبة للأشبال زودناها بالكتب التربوية وأفلام الأطفال المسلية .

ومما أذكر ، يوما جلست فيه مع والدق وبعض الضيوف تحت إحدى أشجار الجازورينا الظليلة فى مخيم عين الحلوة ، نرقب الفتيان والفتيات أثناء تدريبهم فى مهرجان محدود أقيم لإتاحة الفرصة لأهليهم لأن يفخروا بحق بشجاعة أبنائهم ، وسرعتهم وجلدهم فى مواجهة المشاق ، ويرونهم وهم يرتدون زيهم العسكرى وينشدون الأناشيد الوطنية . كما أذكر مناسبة أخرى ذهبت فيها مع الشبيبة فى إحدى رحلاتهم العديدة إلى بقعة طبيعية جميلة على نهر الأوّلى ، حيث الشواطىء الرملية الضحلة ، والأشجار ذات الأغصان المتهدلة التى تنغمس فى المياه المتدفقة . ولقد كان من حظ هذه البقعة السيىء أن تكون مسرحا لأحد مراحل الغزو الاسرائيلى حين رست قواتهم على شاطىء البحر فى المكان الذى يقال ـ تبعا للأساطير الاغريقية ـ أن « زيوس » ، متخذا هيئة ثور ، خطف فيه « أوروبا » ابنة ملك صيدا ، وحملها بعيدا عبر البحر إلى جزيرة كريت موطنه . ومن يومها أطلق اسمها على القارة الأوروبية . وفى وقت السلم ، فى أوائل السبعينات ، أتيحت لنا فرصة النزهة هناك مرة واحدة حيث قضينا اليوم بجانب المياه الصافية فى ظل أشجار الكافور .

وفى مناسبة أخرى ، تصادف أن جاءت زيارة الكاتب « جون لوكاريه » إلى جنوب لبنان فى الوقت الذى يقام فيه الاستعراض الكبير لجميع وحدات المقاومة الفلسطينية ، فذهبنا جميعا لمشاهدته : لوكاريه وصلاح ، وأحمد وفادى ـ أبناء جيراننا ـ وأنا . وافتتح الاستعراض بموكب ضم الآلاف من الأشبال والفتيان والفتيات والزهرات وهم يحملون نموذجا خشبيا « لقبة الصخرة المشرّفة » . تقدم الموكب طفل صغير فى الرابعة والنصف من عمره حاملا العلم الفلسطينى ، وقد كست الجدية وجهه البرىء . وبالرغم من أزيز طائرات الاستطلاع الاسرائيلية التى كانت تزوم فوق رؤوسنا ، وتنقض على العرض فى محاولة لتفريقه ، فقد استمرت الطبول تقرع ، واستمر العرض فى مسيرته . وقد أطلق صلاح على هذا الاستعراض اسم « الاستعراض الأخير » وكأنه يتنبأ بالمستقبل . . ويبقى هذا الاسم لنا نستخدمه كلما ذكرنا هذا اليوم فى حنين .

كنت أكثر قدر استطاعتى من السفر من القاهرة إلى لبنان لزيارة صلاح وأمكث لأطول مدد ممكنة . غير أنه لم يكن من العملى حينئذ تحقيق حلمنا بالإقامة فى قرية على الحدود وتنفيذ أفكارنا ـ أو بالأحرى أفكار صلاح ـ التى كانت تدور حول إقامة مجموعات سكنية على الحدود تقى البلاد شر أى عدوان خارجى . وهذه لا يمكن أن تكون مشاعر مجرد مواطن فلسطينى أرغمته الظروف على أن يعيش على التربة اللبنانية ، ولكنها مشاعر مواطن عربى ، يقدس كل شبر من الأرض العربية ويعتبره جديرا بالحماية والتضحية من أجله إذا لزم الأمر . وكان يشاركه هذا الشعور المئات ممن تسنى لى أن اتعرف بهم من أبناء الشعب



تقدم الاستعراض طفل صغير من الأشبال فى الرابعة والنصف من عمره حاملا العلم الفلسطينى .

الفلسطينى ، سواء كانوا من المدنيين أو المقاتلين ، الذين كان تفكيرهم يتسم بالإيمان العميق بالواجب نحو الوطن العربى ومستقبل أجياله . كنا جميعا نأمل أن نصبح وحدات فى شبكة دفاعية عربية شاملة . . وحدات متطوعة . . تساندها وتدعمها وتحميها الأمة العربية كلها . كنا نأمل أن نؤلف بين جميع العناصر ونصير بناة مجتمع جديد . . يتفانى فى الدفاع عن وطنه .

هكذا استقر بنا الحال أنا وصلاح فى حياة آمن كل منا فيها بأنه قد وجد فى الآخر قرينه الحق . ولم يشكل الفارق فى العمر بيننا أى مشكلة ـ فأنا أكبر منه بأربعة عشر عاما . كما لم تكن هناك أى عوائق طبقية أو فكرية ، إذ أن التفاهم بيننا كان من التلقائية والعمق بحيث طغى على كل الاعتبارات . وبدا لنا أن هذه العلاقة بيننا لم تكن علاقة شخصية بحتة تربط بين شخصينا فى عزلة عما يدور حولنا ، بل كانت دمجا لمثل وآمال أسمى وأعظم

منا ، رسخت فى أعماق نفوسنا وجذور حياتنا منذ نعومة أظفارنا . فأنا ، عندما كنت طفلة ، طالما رقدت على العشب فى حديقة بيتنا فى القاهرة ، أرقب السحب تتسابق عبر ذات سماء البحر الأبيض المتوسط التى كانت تظلل بيت صلاح فى مدينة بيت لحم مسقط رأسه . وطالما وقفت على السطح فى الليالى المنعشة العطرة ، اتملى جمال الهلال الغامض وعشرات الأسئلة المحيرة تتوارد على خاطرى ، فى الوقت الذى كان فيه صلاح يرقب ذات القمر الذى كنت أرقبه . . وهو راقد فى المكان الذى كان ينتحيه فوق الإفريز الداخلى الذى كان يعلو باب بيت والديه الحجرى القديم ، لينفرد بنفسه ويهرب من ضوضاء إخوته الصغار ومزاحمتهم له .

□ الفراق الصعب والواجب الوطنى

ولم يكن بالطبع من السهل فراق أمى المريضة التى كانت تقيم فى القاهرة ، غير أن واجبا وطنيا أكثر تجردا كان يدعونا ، فقررنا أخيرا أن نتخذ من صيدا مقرا لنا ، وهو قرار يوفق بين محبتى للمعيشة البسيطة التى تتوافر فى الريف ، ونمط الحياة فى بيروت الذى كان من المحتمل أن يوفر لنا جوا فكريا وحضاريا ولكنه كان سيباعد بين صلاح واهتماماته الأساسية .

وما زال صلاح يتندر حتى الآن بما حدث أثناء بحثنا عن منزل مناسب ، حيث كنت قد رفضت اقتراحه بتأجير الدور الأول من أحد الأبنية القديمة الجميلة ، وكان محاطا بحديقة ، وأصررت على شقة ذات غرفتين فى بناية لا شكل لها .

صعدنا سلم العمارة يحدونا الأمل ، لنجد أنفسنا فى غرفة واحدة كبيرة ، قيل لنا أنه يمكن تقسيمها بأى طريقة تناسبنا . وكان المطبخ والحمام يشغلان جانبا كاملا منها .

لدى رؤيتها ، قال صلاح فى نبرات متقطعة من فرط انفعاله : « هذه ؟! . . هنا ؟! تقصدين القول بأنك تستطيعين الإقامة هنا . . تختارين الإقامة هنا ؟! »

فأجبته فى شجاعة مفتعلة وأنا أحاول أن أقنع نفسى أولا . . (قبل محاولتى إقناعه) : « ولم لا ؟ سوف نتمكن من عمل الكثير لنجعلها مناسبة . وقبل كل شىء ، إيجارها يتناسب ودخلنا »

وفى الواقع أننى عندما اتخذت قرارى بالزواج من صلاح ، توقعت ما يمكن أن يحدث ، وهيأت نفسى للإقامة فى أى مكان تفرضه الظروف . ففى عام ١٩٧٠ ، كنت

على وشك الإقامة فى حجرة متواضعة فى أحد مخيمات اللاجئين فى عمان . واليوم . . وبالرغم مما استنفدته السنون والظروف من طاقتى . . أعتقد أننى ما زلت على استعداد للقيام بأية تغييرات فى نمط حياتى والتكيف معها إذا ما اقتضت ظروف صلاح أو قناعاتى الأساسية ذلك .

صحبنى صلاح بعد ذلك لرؤية بيت كان يراه مثاليا لولا أن إيجاره كان يساوى نصف مرتبه تقريبا . وصلنا عند الغروب ، وكان أريج شجيرات الياسمين التى تتدلى لتغطى سور الحديقة الوردى اللون يملأ الجو بعطره الأخاذ . فى لحظة ، وجدت نفسى أعود لمنزل طفولتى فى القاهرة . . حيث كانت الكروم وأشجار المشمش ببراعمها المتفتحة . . تحف بالسور العالى المحيط بحديقته الواسعة . . وترعى فى رفق أحلام الطفولة التى طالما راودتنى بين ظلالها .

وجدت اعتراضاتى عليه تتلاشى تدريجيا دون وعى منى أو مزيد من التفكير . . وهمس صلاح : « ألا ترين ما أقصده ؟! ألا يعجبك ؟ ! »

لكننى كنت لا أزال أحاول مقاومة سحر المكان وإغرائه . . وإيقاف شريط الصور الذى كان يدور مسرعا فى مخيلتى مجسدا ما يمكن أن تعنيه الحياة فى هذا البيت بالنسبة لى : بيت . . يربط بين الماضى والحاضر ويحفظ للشخصية تكاملها من خلال معالمه المألوفة .

تبعت صلاح فى صمت ، وهو يسير فى أحد ممرات الحديقة الجانبية متجها نحو بستان الفاكهة خلف المنزل ، حيث تعيش صاحبته فى فيلا ذات طابق واحد ، وحيدة مع ابنتها المعوقة بعد سفر ابنها إلى الولايات المتحدة وعمله هناك كطبيب .

خرجت السيدة لتحيتنا ، فحاولت قدر المستطاع أن أبدو بصورة الزوجة التى تتوارى فى الظل ، تاركه لزوجها مقاليد الأمور . . لخشيتى فى الحقيقة من أن تتعرف علىّ ، إذ كنت أعتقد أن ذلك قد يؤدى إلى العديد من التعقيدات ـ أبسطها فقدان خصوصيتنا . هذا خلاف الجانب المادى ، حيث قد تزيد قيمة الإيجار المطلوب إلى حد يصعب معه على صلاح تدبيره . وفيما بعد ، اتضح أن السيدة قد تعرفت علىّ فعلا من بعض الصور القديمة التى كانت قد نشرت لى فى الصحف فى الماضى ، غير أنها لم تظهر شيئا فى ذلك المساء ، وإنما عادت بنا إلى المنزل ، حيث دارت بنا فى أرجاء الطابق الأرضى الذى وجدناه مناسبا تماما ، ونسخة مطابقة ـ ولو كانت أصغر بعض الشىء ـ لمنزلنا فى القاهرة ، حيث نشأت ، وأقمت مع والدىّ منذ كنت فى السابعة ، حتى غادرت مصر لتلقى دراستى الجامعية فى انجلترا .

أخيرا وصلنا إلى المدفأة التى فتنت صلاح عندما جاء بمفرده لمعاينة الشقة فى المرة الأولى . . فوقفنا أمامها . . وحسم الأمر ! فبالرغم مما دار بيننا من محاورات عن : هل يصح لنا . . هل فى مقدورنا أن نقوم بهذه الخطوة التى تتسم بالإسراف ؟! . . إلخ ، لم يستطع أى منا مقاومة جاذبية هذه المدفأة . . فكانت فيها « هزيمتنا » أو بالأحرى « إنقاذنا » من تقشف كنا سنفرضه على أنفسنا دون ضرورة ملحّة . وقد قدر لنا أن نمضى كثيرا من الأمسيات السعيدة على مرّ السنين أمام مدفأتنا هذه . فكنا ننام فى دفئها قبل اكتمال تأثيث البيت ـ الذى قمنا به تدريجيا ـ على بساط من فراء الغنم . وفيما بعد . . كنا نقرأ أو نتسامر مع ضيوفنا الكثيرين ونحن جلوس ، إما على نفس هذا البساط ، أو على المقاعد المريحة التى وضعناها على جانبيها . . أو كنا نجلس أمامها فى صمت . . تلفنا أحلام اليقظة التى كانت تحركها فى خيالنا نيرانها المتأججة ، المشتعلة فى يسر وسلاسة ، وهى تشيع الدفء فى البيت بأكمله . ومما لا شك فيه أن هذه الذكريات كانت فى ذهن صلاح عندما كتب فى مذكراته وهو فى السجن : « **هل لا تزال هناك نيران فى المدافىء . . تجتمع الأسر أمامها فى الشتاء . . لتتسامر وتحكى القصص والأساطير ؟ !!** » .

غير أنه كلما ازداد الموقف توترا فى لبنان بعد عام ١٩٧٦ ، وازدادت بالتالى مسؤوليات صلاح ، قل الوقت الذى كان يتمكن من توفيره للجلوس أمام المدفأة ، أو لقضاء تلك الأمسيات التى لا تعوض فى التأمل ولعب الشطرنج الذى كان يهوى ممارسته مع أصحابه المقربين .

وصلاح يحب الفن . . وقد استمتعنا معا بزيارة متحف رودان بباريس والوقوف أمام تحفته الفنية « المفكر » . وعندما غادرت صيدا للمرة الأخيرة يوم الغزو فى يونيو عام ١٩٨٢ ، كان من بين الأشياء التى حرصت على ألا أتركها ورائى ، لوحة صغيرة من رسمه ـ الوحيدة تقريبا له ـ تصور شاطىء البحر فى صيدا ، وأمواجه ذات الزرقة الخلابة فى تفاوت درجاتها وبريقها .

وبمرور الوقت ، أصبحت المكتبة ـ التى أفردنا لها ركنا كانت تفصله عن باقى المنزل فتحة على شكل طاقة ، فأقمنا عبرها بابا زجاجيا ليفصلها تماما عن المحور الرئيسى للبيت ـ هى محور حركتنا ، كلما أضفنا إليها مجلّدا جديدا وتزايد زوارنا ، كما استخدمها صلاح كمكتب له ، يعمل فيه ، ويستقبل فيه زائريه .

وعندما كانت والدتى ومعارفنا يحضرون لزيارتنا ، كنا كثيرا ما نتناول طعامنا فى البستان أو فى الفناء التابع للمطبخ ، حيث الكروم والورود المتسلقة على خشب النوافذ



لقاء مع اثنين من رجال الدين وأحد كوادر المقاومة فى دارنا التى كانت ملتقى مفتوحا للجميع .

الخضراء ، والتى تغطى الإفريز الأخضر وتتدلى منه . . بينما يؤنسنا إبريق الشاى المغربى النحاسى الكبير من مكانه فى الخلفية ، بما ينبعث منه من بقبقة وهسيس . .

□ الإحساس بالذنب والتوتر

وبما أذكره أيضا عن هذه الأيام ، أننى كنت أقضى العديد منها اتنقل جيئة وذهابا بين المطبخ وغرفة المعيشة أو المكتبة لإعداد الشاى والقهوة لضيوفنا وتقديمها لهم . غير أنه مهما كانت المهام المنزلية تستغرقنى ، كنت أحرص على توفير بعض الوقت لأداء شىء من الترجمة ، أو الكتابة الحرة . . كانت أياما استمتعت بكل لحظة فيها ، ووجدت فى نجاحى فى توفير جو عائلى دافىء لصلاح وفى المحبة الخالصة والتقدير اللذين كنت ألقاهما من أصدقائنا وزائرينا خير مكافأة لى .

أما المناسبات التى كنت أضطر فيها للتغيب لمدد تكفى لقطع نمط حياتنا المعتاد ـ ولو أنها لم تطل قط ـ فكانت تترك لدىّ شعورا دائما بالذنب وعدم الرضا ، وتصيب صلاح بالتوتر . ولكن أثناء وجودى ، كنا نسكن إلى بيتنا ، ونبقيه مفتوحا دائما لاستقبال مجموعة من الأصدقاء والزملاء الذين كانوا يتوافقون معنا فى الطباع ، ويشاركوننا نفس المثل والآمال . وأصبح لجيراننا ـ السيد محمود فارس الذى كان يشغل منصبا مرموقا فى وكالة الغوث ، وزوجته السيدة كاملة ـ منزلة خاصة لدينا ، وصاروا لنا بمثابة الأهل ، نكن لهم من الود والمحبة ما نكنه لأفراد أسرتنا المقربين . هذا بالرغم من أنهم فى البداية بالغوا ـ على غير عادة شعوب البحر الأبيض المتوسط فى الفضول ـ فى التباعد حتى نتمتع بحريتنا كاملة ، لدرجة أنه خلال الأشهر الستة الأولى لم يكن يعرف أحد من أفراد أسرتينا شكل أو ملامح أى فرد من أفراد الأسرة الأخرى . وتشدد السيد فارس فى إصدار تعليماته لأفراد أسرته بألا يحاولوا حتى الجلوس فى الشرفة المطلة على الحديقة حتى لا نشعر بأى إحراج . ولم يجد هذا التشدد صدى طيبا لدى باقى أفراد أسرته ، خاصة السيدة أم داود والدة زوجته ، التى كانت تنتمى لجيل اعتاد الاختلاط ، والأسر الكبيرة والبيوت المفتوحة المضيافة ، والتزاور مع الجيران وحفظ ودهم . وعندما تعرفنا عليها فيما بعد ، وجدناها من أطيب وأكرم الشخصيات التى دخلت حياتنا .

فى أثناء الفترة التى حرص فيها السيد فارس على عدم التعدى على خصوصيتنا ، كنت أسمع وأنا فى بيتنا وقع أقدامه فى الخارج عند عودته من عمله ، وصوت أولاده ، وهم يصعدون الدرج فى ضوضاء وعجلة لدى عودتهم من المدرسة ، ولكن لم يخطر لى قط أن أحاول النظر للتعرف على ملامح أصحاب هذه الخطوات التى كنت أسمعها تدق خارج بابى . واستمر بنا الحال على هذا المنوال لعدة أشهر حتى استقر بنا المقام فى بيتنا الجديد . ثم جاء يوم شكا فيه صلاح لصاحبة المنزل أثناء حديثه معها من تباعد جيراننا ، فما كان منها إلا أن نقلت الشكوى إليهم ، فاتصلوا بنا على الفور . وما أن سقطت الحواجز ، حتى صار البيتان بيتا واحدا . وسوف تبقى ذكرى ما لمسناه منهم طوال السنين التى عرفناهم فيها من ود وحساسية ، وحسن معشر واتزان وحكمة من أعز وأغلى ذكرياتنا . فبمرور الوقت ، صارت صداقتهم من مقومات استقرارنا فى حياتنا الجديدة ، وأصبح تناول قهوة الصباح فى صحبة كاملة متعة أحرص عليها ، ولا غنى لصلاح عنها .

كانت الحديقة من أحب الأماكن إلى صلاح ، إذ ما لبثت فلاحتها أن أصبحت هواية مفضلة لديه ، يكرس لها الكثير من طاقاته البنّاءة كلما سنحت له الفرصة .

أما حيواناتنا الأليفة ، فلم نقتنيها ، بل جاءتنا تدريجيا . . قطة صغيرة ضالة

وجدناها فى بيروت ، يختلط فى لونها الأبيض بالأسود . . وقفت فى حذر وخشية تهز ذيلها فى آخر البستان لعدة أيام . . وعندما وثقت من ودنا ومحبتنا ، اندفعت إلى الداخل واحتلت البيت بأكمله ، وكأنه يخصها وحدها . . ثم كلب رعاة من أصل ألمانى . . كان فى حوزة بعض الصغار الذين لم يسمح أهلهم لهم بالاحتفاظ به فعهدوا به إلينا ! وكان هناك أيضا الدجاج والديك الرومى الذى أطلقنا عليه اسم « إنكا » لأنه كان يسير وكأنه أحد الأباطرة الأسطوريين فى وقاره وخيلائه . وفى مرة أحضر البعض لنا أحد طيور اللقلق مصابا بطلق نارى فى أحد جناحيه ، فمكث عندنا لفترة كنا نستمتع خلالها بمنظره وهو يعدو مهرولا . . مصفقا بجناحه السليم كلما نادى عليه صلاح ليعطيه طعامه .

وفى إحدى الليالى الممطرة ، وصلت من القاهرة لأجد البيت خاويا ومظلما . وبالطبع لم يكن عدم وجود صلاح بالمنزل مما يدعو للقلق ، لولا أنه فى هذه المرة انتابنى شعور غريب لم أستطع تبين كنهه ، فصعدت لأسرة السيد فارس فى الدور العلوى لأستطلع الأمر . فلما سألتهم أجابونى بأن القتال قد اندلع فى بلدة الدامور فى ذلك اليوم بين قوات الكتائب ومقاتلى منظمة التحرير الفلسطينية ، وأنه على الأرجح ما زال مستمراً ، ومما لا شك فيه أن صلاح موجود هناك الآن .

بعد حوالى الساعة ، دق الجرس ، وعندما ذهبت لأرى من الطارق ، وجدت صلاح واقفا عند البوابة ، حاملا ما يشبه الحزمة تحت الرداء الخارجى الفضفاض الذى كان يرتديه للوقاية من البرد . . ومنظره يضارع الليل البهيم الممطر الذى يحيط بنا من حيث الحزن الذى كان يكسو وجهه ، وقطرات الماء التى كانت تتساقط من ملابسه المبتلة . وعندما رآنى ، مد إلى يده بالحزمة التى كان يحملها وهو يقول : « خذيها . . وجدتها ضائعة . . تثغو فى خوف فى عرض الطريق . . فأحضرتها لك » وعندئذ نظرت إليها فوجدتها عنزة رضيعة . . فتعجبت فى نفسى ، إذ كنت أنا أيضا على وشك أن التقط حيوانا ضالا وجدته فى طريقى لأهديه له . . وكانت لحظة من تلك اللحظات التى يتبلور فيها التناقض لما تحمله فى طياتها من عناصر السرور والرعب فى ذات الوقت .

واستطرد صلاح قائلا : « اعطيها شيئا تشربه . . ثم اسرعى . . أرجوك ! لقد عدت لأطمئن على سلامة وصولك وأطمئنك على نفسى ، ولكن لدينا مهمة لم تتم فى الدامور . . فهناك مجموعة من أربعين شخصا ـ أغلبهم من المسنين ـ حياتهم مهددة ، وقد لجأوا إلى مبنى الكنيسة ابتغاء الأمان ، وسوف أعود الآن لأحاول إجلاءهم دون أن يصابوا بأذى ، بتوفير أقصى قدر أستطيعه من الحماية لهم فى هذه الليلة الرهيبة . . وأود لو تصحبينى . . فهل يمكنك ذلك ؟! أم أن التعب مستبد بك ؟!! »

أسرعت بالتقاط شال واندفعت للخارج ، وأنا أشعر بالسرور إذ قدر لى أن أعاون فى عملية الإنقاذ . . فكل شىء ممكن حدوثه فى مثل هذه الليلة حيث الأعصاب ثائرة . . وكل ما تعنيه الحرب بقبحها . . من رغبة فى القتل ، ومشاعر الغضب وحب الانتقام . . متفجر ولا يمكن السيطرة عليه . . وأى تحرش من أى جانب قد يعنى هلاك من نجوا حتى الآن . وعندما وصلنا ، نجحنا فى إخراج اللاجئين من الكنيسة ، ثم أشرفنا على ركوبهم سيارات أحضرناها من صيدا ، وخروجهم من الدامور سالمين . ومما يذكر أنه خلال هذه المعركة ، فقد أحد المؤرخين المرموقين - وقد قابلناه فيما بعد - كتبه ومنها مخطوطات مؤلفاته . . وأمضى صلاح بعدها أياما عدة يبحث عنها بلا جدوى .

وعاشت العنزة الصغيرة لعدة أيام تقاوم ، غير أن الإسهال اشتد عليها ثم بدأ الجفاف يسلبها ماء الحياة . وكانت ترقد أمام المدفأة ابتغاء دفء نيرانها المشتعلة ، والقطط تحيط بها فى مودة . . وأحيانا ، عندما كنا ننجح فى جعلها تتناول بعض الطعام أو شربة ماء ، كانت تبدو وكأنها استعادت قواها ، فتقوم وتسير وراءنا ، متتبعة خطواتنا فى أرجاء المنزل والحديقة . . كذكرى حزينة متجسدة لحادث بشع رهيب . ولما ماتت أخيرا ، بدا الوجوم والتعجب على القطط ولم تقترب من المدفأة لمدة طويلة بعدها . . كلها أحداث شخصية بسيطة ، قد لا يلائم ذكرها ضمن قصة عن الحرب وآلامها ومعاناتها . . لكنها سوف تبقى دوما أحداثا ذات مكانة خاصة لدى من عاشوها لما تحمله من ذكريات يعتزون بها .

وللأسف لم ننجب أطفالا - غالبا بسبب العمر المتقدم نسبيا الذى تزوجت فيه ، أو لحكمة إلهية لا نعلمها - لكن عوضنا عن وجودهم إلى حد ما ، العلاقة الوثيقة التى كانت تربطنا ، واهتماماتنا المشتركة ، وأصدقاؤنا الذين كنا نبادلهم الود الخالص . . كان بيتنا فى صيدا البيت الوحيد الحقيقى المستقر الذى نعمنا به . . وقد انتهت سعادتنا فيه فجأة . . وبصورة غير متوقعة ، يوم بدأ الغزو الاسرائيلى للبنان عام ١٩٨٢ .

ومن جراء هذا الغزو الغاشم ، قدر للبنان - الذى طالما رددت جباله ووديانه صدى أغانى أهله وموسيقاهم - أن يشيع فيه الدمار والخراب . ففى أيام السلم ، كان أهل القرى يرددون فى تلقائية كلما اجتمع شملهم تحت أشجار الزيتون ، وبين بساتين الكرز والرمّان . . أغانيهم عن الجمال والوفرة . . واللقاء والفراق . . على نغمات تعكس اتساع الوديان وجمالها الهادىء . . وخرير مياه الجداول الباردة إذ تنحدر مترقرقة على جنبات الجبال . . .

وفى إحدى أغنياتهم كانت اللازمة تردد :

ما أحلاك أيام الحب والبهجة والهنا !
ليتك يا شمس لا تغربـــى . . . . .

الآن صارت « البهجة » و « الهنا » من ذكريات الماضى . . فى حين لم تعد الشمس تشهد فى شروقها ومغيبها ، سوى ما يجل عن الوصف من المآسى والرعب والأحزان . .

٣ لبنان تجتاحه العاصفة

لم تشأ الظروف أن أكون شاهدة عيان لوصول جيش الدمار ، أو أن أسمع دوّى دبـابـاتـه ومصفحـاتـه وهى تجتـاح جنـوب لبنـان ، جـاعلة من الجنوب مأساة ومن حياتنا « ضحية » هامشية فى الصورة العامة ، فى طريقها نحو بيروت .. هادمة البيوت وقاضية على الأرواح ، لتنفيذ خطتها الأساسية غير المعلنة - وهى الإطاحة بقيادة منظمة التحرير الفلسطينية - غير أن أصداء المجازر التى كنت أسمعها يوما بيوم لازمتنى أشهرا طويلة . وأكاد أسمعها من جديد كلما تذكرت ما حدث لنا ولحياتنا . . وسط الدمار العام ، فهو من الهول بحيث يكاد يغطى على أجمل الذكريات - صوت النسمات بين الأشجار فى تلال الجنوب ، وموسيقى الأمواج المتلاحقة على شاطىء « صور » ، ونغم نهر الأوّلى ، وهو ينساب ليصب فى مياه البحر الأبيض . . وخرير الينابيع الجبلية أيام السلم .

استمر القتال فى صور والمخيمات حتى كاد يدمر المدينة والمخيمات كلية . ولكن بالرغم من اضطرار الآلاف لإخلاء بيوتهم تحت ضغط الرعب واليأس - وقد أصيب واستشهد الكثير منهم على الطريق - فقد استمر الأهالى فى القتال دفاعا عن ديارهم وقضيتهم وهويتهم . ووصل رئيس الوزراء الاسرائيلى مناحم بيجين ووزير الدفاع آرييل شارون فى طائرة هليكوبتر لتفقد قلعة شقيف . . وجابوا خرابتها بعد تدميرها . وأسقطت نفاثات سورية فى شمال إسرائيل ، واستمرت نفاثات العدو فى دك جميع أنحاء لبنان . وصرح وزير الخارجية شامير بأن إسرائيل تهدف إلى أبعد من الدفع بمنظمة التحرير بعيدا عن حدودها ، وأن الغاية هى تحطيمها بصفتها كيانا سياسيا إرهابيا . وفى اليوم الثامن من شهر يونيو . . أى فى اليوم الثالث للاجتياح كانت معظم قوات العدو قد وصلت إلى حوالى خمسة عشر كيلومترا من مشارف بيروت . واتخذ الاجتياح الإسرائيلى شكل عدة عمليات

إنزال على طول الطريق الساحلى بين صور وبيروت أكثر مما اتخذ شكل زحف فى خط مباشر كان يسهل التصدى له . . مهما كانت الفوارق بين تجهيزات وقوى جيش نظامى مقتحم ، وبين إمكانيات المقاومة . وفى نفس الوقت دخلت فصائل أخرى من الجيش الاسرائيلى مدينة صيدا التى لم يتوقف القصف الجوى لها . وظهرت المدينة على شاشات الأنباء التليفزيونية واللهب يتصاعد فى جميع أنحائها . خرج خمسة عشر ألف شخص للبحث عن القوت . ونقلت وكالات الأنباء أخبار المقاومة العنيفة من قبل قوات منظمة التحرير الفلسطينية فى صور وصيدا ـ بينما تقدمت القوات الاسرائيلية عبر التلال واحتلت بيت الدين ، ومنطقة « الشوف » الدرزية . ولم أجرؤ أن أترك لخيالى العنان لتصور ما يكون قد ألمّ بصيدا ، وبكل من لنا فيها من أهل وأصدقاء ومعارف . واستلم الصليب الأحمر الدولى من الإسرائيليين عشرة آلاف شخص خلال الأيام الثلاثة الأولى . وأسقطت ست عشرة طائرة « ميج » سورية . . بينما أطلقت مدفعية العدو قذائف حارقة على مدينة صور مما أدى إلى احتجاج الصليب الأحمر . . ودفع أهالى صور وصيدا عددا من الضحايا لم تدفعه مدينة أخرى خلال حرب لبنان . ووجه ياسر عرفات نداء إلى الدول العربية من بيروت مطالبا بوقف المجزرة التى يتعرض لها الشعب الفلسطينى فى لبنان . وكانت إسرائيل قد توصلت إلى احتلال ٢٥٪ من الأراضى اللبنانية .

وأجبر أهالى مدينة صيدا على إخلاء منازلهم والتجمع على شاطىء البحر لتسهيل مهمة الغزاة فى البحث عن « المخربين » . وجرت تجزئة المدينة إلى عدة مناطق ، واستمرت عمليات الاعتقال خلال البحث والتفتيش حتى بين النساء . . وكان الكثيرون من المعتقلين يقضون ساعات فى التوقيف والاستجواب ، بينما سيق الباقى إلى داخل الأراضى المحتلة حيث وصل عددهم فى النهاية إلى عشرين ألف شخص . وقد عاش الأهالى أصعب الساعات عندما تفرقت الأسر وتاه الأطفال ، واشتد العطش بالجميع على الشاطىء المكتظ . . وقد تعرض الكثير من البيوت للنهب وإن سلم بعضها . كانت الفوضى عامة . وروى صلاح أحداث اليوم التالى لسفرى فى مذكراته قائلا :

« لم يطلع ذلك الفجر علينا بالاطمئنان . لقد نسينا أن حياتنا كانت هادئة أو آمنة فى يوم ما ، وكأننا لم نعرف أو نعيش سوى الغارات الجوية ـ كأننا ولدنا تحت غارة جوية . ولا نملك إلاّ أن نتمنى الموت تحت غارة جوية . . حتى ينتهى عذابنا . فقد كنا كالغرقى فى بحر مائج يتذكرون شريط حياتهم فى لحظات .

« لم يشرق الفجر بالطمأنينة أو السلوى أو الأمل فى الخلاص ، كان فجرا لا يحمل إلاّ مزيدا من الموت والضحايا والدمار والألم . فقد عمّت رائحة دخان



طابور دبابات اسرائيلية يتحرك إلى الشمال عبر صيدا فى اتجاه بيروت .

الإطارات والجثث المحترقة لتنسينا أريج زهر الياسمين والبرتقال والليمون الذى كان يعطر جو صيدا والطريق الساحلى » . .

لقد أقفرت شواطىء صيدا التى لا تضاهيها جمالا فى العالم سوى رمال البحر الأحمر وشواطىء مصر الشمالية . وكنا فى سنة من سنوات السلام النسبى قد نصبنا خيمة على الشاطىء اللازوردى . . كان يجتمع فيها الأهل والأصحاب . . ولكن تلك أيام خوالٍ لا تحتمل التفكير فيها . . فشاطىء صيدا أصبح اليوم ساحة موحشة بشعة من الحفر . . وشاهدا على الدمار . . من خلال الحرب وجشع البشر .

كنا فى أيام الاستقرار نمشى على شاطىء صور ونقضى فيه بضع ساعات لا تنسى . . حيث كانت الأمواج تتلاحق وترتطم بالرمال فى دوىّ له رهبة . كان الفينيقيون يجمعون القواقع التى يستخرجون منها اللون البنفسجى الداكن الذى استعمله

أباطرة روما فى أزيائهم الملكية المميزة . أما الاستراحة البسيطة الأنيقة المقامة على الرمال ، المزدانة بمنتجات الحرف اللبنانية ، والتى كانت تقدم الوجبات اللبنانية التقليدية ، فقد تحولت خلال الاجتياح إلى مقر للصليب الأحمر الدولى .

□ تساقط الطائرات

وقامت فئات المعارضة فى إسرائيل ـ ومنها جماعة « مابام » وحركة « السلام الآن » ، والطلبة اليساريون ـ بالتظاهر ضد سياسة الدولة . وبدأ الناس يشعرون بعدم شرعية الوضع وبالظلم الذى ينطوى عليه . فلم تعد خطة بن جوريون للدفع بالسكان العرب خارج الحدود ، والتى ربما استهوت بعض المستوطنين المتطرفين فى حينها ، تبدو منطقية لمجتمع يريد التطور فى عالم أصبح أكثر تعقيدا . .

وفى التاسع من يونيو أُسقطت ست طائرات سورية وطائرتان إسرائيليتان فوق بيروت فى أكبر معركة جوية منذ حرب ١٩٧٣ . واستمر القتال العنيف فى صيدا لصد طابورين مدرعين من الجيش الإسرائيلى من المشاة لحقا بالوحدات السابقة لإحكام السيطرة . ولم يتمكن الجيش اللبنانى من إبداء مقاومة تذكر أثناء قصف معسكراته . وفى اليوم التالى ـ العاشر من يونيو ـ بدأ القصف المكثف لمخيمات اللاجئين فى بيروت ، وتم إسقاط عدد آخر من النفاثات السورية . وألقى العدو منشورات فوق المدينة مطالبا بالتسليم وناصحا بالخروج من مخارج غير آمنة فى واقع الأمر . وتقدمت بضع عشرات أخرى من الدبابات الإسرائيلية فى منطقة « متولا » . وقدّرت قوات العدو فى هذه المرحلة بستين ألف شخص اشتبك الجيش السورى معها فى قتال شرس على الطريق الرئيسى بين بيروت ودمشق .

أصبح كيان الحكومة اللبنانية هشا إلى حد التهاوى . وسمح الزعيم الدرزى وليد جنبلاط للجيش اللبنانى بالتمركز فى بعض المواقع فى منطقة « الشوف » التى كانت معرضة منذ البداية للقصف الاسرائيلى . واستمر الرئيس بشير الجميل فى الضغط على الجيش ليملأ الفراغ القائم ، فى حين أعلن الجنرال سعد حداد ـ المدعوم من إسرائيل ـ خططه لاحتواء جميع المناطق المحتلة من قبل العدو فيما سماه « لبنان الحر » . . وبدأ بالتعاون مع جيش الاحتلال فى عملية التمشيط « والتطهير » . وعندما تم التوصل إلى إبرام اتفاق سورى إسرائيلى على وقف إطلاق النار ، كان ثلث الأراضى اللبنانية قد أصبح تحت الاحتلال . وبتصاعد المجازر ارتفع عدد الضحايا العرب إلى أكثر من ثمانية آلاف قتيل وجريح ، مقابل ألف حالة فى صفوف الجيش الإسرائيلى .

ونشرت جريدة التايمز اللندنية فى عددها الصادر يوم ١٣ يونيو تصريحا بأن طاقم الصليب الأحمر الطبى قد استهلك كل كميات الاحتياط لديه من الأدوية والمعدات ، بينما لايزال هناك ثلاثة آلاف جريح فى انتظار العلاج . ذكرنى كل ذلك بالسيدة حرم وليد جنبلاط رئيسة الصليب الأحمر اللبنانى فى صيدا ، ومعاونيها الذين كانوا يقدمون الخدمات والجهد الكبير خلال الأعوام الماضية . فقد كنت أعرفها عن كثب ، إذ جمعتنا أحداث الجنوب المتكررة فى أواخر السبعينات مع الحاجة إلى تنظيم عملية مشاركة المتطوعين والمتطوعات فى الإسعاف والمعونة وعيادة الجرحى . كنت حينذاك وكدأبى دائما ، حريصة على ألا اتقيد بنوع محدد من النشاط ، وأفضل أن أقدّم طاقاتى عندما تكون هناك حاجة إليها فى أى مضمار . فإن نمط حياتى بما فيها من تنقل فيما بين لبنان والقاهرة ، وزيارات لابنتى فى الأردن ، كان يعنى أننى لن أستطيع أن أوفى أى التزام دائم حقه كما أريد ، وكما يستوجب .

تم قصف مستشفى الهلال الأحمر الفلسطينى بالقنابل خلال اليومين الأولين للاجتياح ، وأصيب مبناه إصابات مباشرة . وحسب شهادة الكولونيل « دوف يرميا » الإسرائيلى ـ الذى كان من ضمن من كتبوا عن تجربتهم خلال الاجتياح ، وكشفوا الكثير من الممارسات اللاإنسانية التى قامت بها بعض قيادات جيش إسرائيل أو سمحت بها ـ كانت رائحة الجثث المكدسة تعمّ الجو . وفى اليوم الثالث عشر من يونيو أُسقطت القنابل العنقودية على مخيم « برج البراجنة » والمستشفى الأرمنى فى بيروت ، وحفرت الخنادق لاستقبال الضحايا فى مقابر جماعية . وتصادف أن كان ذلك اليوم هو نفس اليوم الذى دفنت فيه والدتى « إلى جوار والدتها » فى الاسكندرية ووقفت على قبرها . لم تكن الزهور أو الدموع كافية للتعبير عن لوعى عليها ، أو حبى لها ، لكنى تذكرت . . فى نفس الوقت أنه لم يكن هناك حتى من يضع زهرة على مقابر الشهداء والضحايا فى لبنان . وأكثرهم لم تبق لهم حتى عائلات تذكرهم بدموع الحزن أو الوّفاء .

وفى اليوم الرابع عشر من الشهر ، استحكم الحصار حول بيروت ، وتحالفت القوات الإسرائيلية مع رجال الكتائب اللبنانيين (الذين حاربوا فيما بعد لإخراج نفس أولئك الذين تعاونوا معهم فى هذه المرحلة) لمحاصرة قوى المقاومة الفلسطينية فى المدينة ، ونزل قادة المقاومة يجوبون المخيمات والمستشفيات ، ومواقع قوات الثورة للتفقد والمؤازرة والمواساة ورفع الروح المعنوية .

□ القبض على جميع الذكور

وفى صيدا استمرت آلة الحرب فى طحن الأهالى ، وإلقاء القبض على جميع الذكور فيما بين سن الخامسة عشرة والخامسة والخمسين ، كما جاء فى التقارير « . . غير أن المعتقلات قد جمعت فيما بعد كثيرين ممن تعدوا سن السبعين » . كان رجال المقاومة الفلسطينية ـ والمقاتلون منهم بالذات ـ هم المستهدفين فى الدرجة الأولى فى تلك العمليات ، والواقع أن أعمار الأسرى الذين انتهى الأمر بغالبيتهم فى معتقل « أنصار » كانت تبدأ من التاسعة وتصل إلى ما فوق الخامسة والسبعين عاما . ورغم تلك السن المتقدمة فقد تعرض أصحابها إلى الاستجواب والضرب وشتى أنواع المعاملة السيئة وإهدار إنسانيتهم . كان نصف لبنان فى هذه المرحلة قد أصبح تحت الاحتلال ، وتم ترحيل جميع الرعايا الأجانب . وفى يوم ١٥ يونيو كان مخيم « عين الحلوة » قد أبيد تماما . وبلغ عدد القتلى فى صيدا ألف شخص .

أين كان صلاح ؟

فى اليوم التاسع عشر من يونيو كانت منظمة التحرير لاتزال مستمرة فى رفضها لإلقاء السلاح ، وكتب صلاح فيما بعد عن تجربته خلال تلك الفترة يقول :

« خرجت من صيدا إلى التلال الجنوبية ، إذ كان الجرد الإسرائيلى للأهالى مكثفا ودقيقا ، فقد نودى عليهم من خلال مكبرات الصوت للتجمع حتى يتم التعرف على هوياتهم . . فى أحد الأيام حضر الإسرائيليون إلى بيتنا حيث نادوا علىّ بالاسم ، ولم أكن هناك . ونزلت إلى صيدا بعد ذلك للاتصال بمن أتمكن من الاتصال به من رفاقى أو معارفى . وكنت اتنقل بين مكان وآخر باستمرار . » عندما عدت بالحساب لتلك الفترة وجدت أن القمر كان بدرا فى ذلك اليوم الذى نزل فيه صلاح من تلال « عبرا » إلى صيدا ، وأن أى شخص يتحرك فى ذلك النور الساطع كان يمثل هدفا سهلا لمن يترقب . ويستطرد صلاح قائلا : « تركت صيدا من جديد إلى منطقة « الهلالية » المشرفة عليها . . حيث كنت أقضى ساعات النهار لأعود إلى المدينة ليلا » .

وفى إحدى عمليات الهروب الوجيزة من العدو ، لجأ صلاح إلى مزرعة بعض المعارف اللبنانيين فى أحد المرتفعات القريبة . فقد كنا نتزاور مع أسرة « أبو محمد » ومرة استضافونا فى نفس تلك المزرعة حيث الحياة الهادئة البسيطة . وأذكر كيف أن صلاح

امتطى يومها أحد خيولهم وخرج منطلقا فى الطبيعة الرحبة . أما فى المناسبة التى ذكرها فى مذكراته . . فقد سحبت والدة « أبو محمد » المسنة كرسيا خشبيا وضعته أمام الإسطبل حيث التجأ صلاح ، وجلست ترقب دجاجاتها . ولاشك أن المشهد كان يبدو بريئا للجنود الإسرائيليين الذين سرعان ما وصلوا يسبقهم صرير أحذيتهم العسكرية ، وأصوات تعبئة بنادقهم الرشاشة ، لكنهم سرعان ما انسحبوا أمام ذلك المشهد الريفى الهادىء . كانوا بلاشك يبحثون عن صلاح بين من يبحثون عنهم . . واستمر التنقيب ، وبدأت الحلقة تضيق يوما بعد الآخر . يستمر صلاح فى سرد تجربته قائلا :

« كتبت بلاغا وأعطيته لأحد الشباب ليوصله إلى صيدا . ربما كان هذا يعتبر نوعا من الجنون من جانبى إذ لم يكن هناك أحد متفرغا للقراءة فى تلك المرحلة . فقد كان الجميع مهمومين ومنهمكين فى التفكير والبحث عن أسباب الأمان ، والقوت والماء » ولابد أن أية تعليمات أو محاولة لرفع المعنويات ـ حاول أن يقدمها صلاح خلال تلك الفترة ـ كانت تبدو كقطرة من الماء فى اليمّ .

« تصورت أنه ربما أمكننى البقاء فى صيدا ، والإفلات من موجة التفتيش الأولى لأشرع فى تأسيس قاعدة عمل ومقاومة جديدة . كان أضعف الإيمان هو أن أبرز نفسى للأهالى وأؤكد لهم أننا لم نتخل عنهم ، وأن هناك الكثيرين من أمثالى يشاركونهم المصير ـ ويواجهون نفس الصعاب والمخاطر . وكان الكثيرون من شبابنا « شباب المقاومة » قد ألقى القبض عليهم من قبل العدو . . فبقيت فى النهاية بمفردى . . لا أريد أن أذكر أو اتذكر تلك الأيام التى كانت كل دقيقة فيها مليئة بالمعاناة . . والمعاناة النفسية قبل كل شىء . . لم يكن هناك مكانا لم التجىء إليه ، أو أخلد فيه إلى النوم بضع ساعات وسط التشرد . . لجأت إلى حدائق الفاكهة ، وإلى مخازن وكالة الغوث ، وإلى دور مهجورة دمرها القصف لمدة اثنى عشر يوما لم يخف التفتيش خلالها بل اشتد » .

□ الصياد والفريسة فى لحظة نادرة

روى صلاح فيما بعد حادثة أخرى نجا فيها من الاعتقال . حين وقف الصياد وفريسته مجتمعين فى لحظة نادرة وغريبة . فقد عاد مرة إلى حديقة الدار وحاول اجتيازها بغية دخول البيت لبضع دقائق للاطمئنان على شقيقته « ريم » ، وجيراننا « أبو أحمد وكاملة » وطمأنتهم ، حيث فوجىء بجندى إسرائيلى يقف فى انبهار أمام إحدى شجيرات الغاردينيا المكسوة بالزهور ـ وسط الدمار العام فى المدينة . وكان عليه أن يقرر خلال ثوان

إما أن يسحب مسدسه ويرمى الجندى قبل أن يراه ، ويحاول قتله أو القبض عليه . . أو أن يسير فى طريقه إلى الدار فى صمت . . تاركا الرجل فى تأمله . قال لى صلاح : « لم أكن أستطيع أن أقتل رجلا عنوة وتعمدا فى لحظة كان فيها ضعيفا ومتصلا بمعان تسمو فوق بشاعة الأوضاع » . فكثيرا ما قطف صلاح زهرات الغاردينيا من نفس الشجيرة ليقدمها لى أو لضيوفنا . فهل ترى تذكّر ذلك فى تلك اللحظة ، وهل تساءل عما إذا كان لذلك الجندى أيضا زوجة وأسرة كان يفكر فيهما وهو يتأمل الشجيرة ؟ هناك فى مشاعر البشر نقاط لقاء وتشابه مشتركة تتغلب عليها للأسف لعنة الجشع وحب السلطة والتسلط . . ونشوة الحروب . . بالنسبة لمن فى نفوسهم مرض .

استمرت السلطات الاسرائيلية فى القبض على الأهالى . . ليس عند الحواجز ومراكز التفتيش فحسب ، بل بشكل عشوائى . وتم التقاط الكثيرين منهم من الطوابير الطويلة التى كانت تتشكل عند المخابز حيث يقفون ساعات طويلة للحصول على حاجتهم من القوت . ونُقلت أعداد كبيرة منهم إلى داخل الأراضى المحتلة فى شباك حملتها طائرات الهليكوبتر ، وكأنهم صيد ثمين من السمك . وكم هو مؤلم ذلك التشبيه . . كانت الإهانات التى تعرض لها الناس فى تلك الحرب تجل عن الوصف ، ويعجز عن تبريرها أى عذر أو تفسير منطقى . ونُقل باقى المحتجزين من أهالى صيدا إلى مدرسة « القديس يوسف » للراهبات ـ والتى تقع على الحدود الجنوبية الساحلية لمدينة صيدا وعند مفترق الطريقين الرئيسيين المؤديين إلى مدينة « صور » ومخيم « عين الحلوة » ـ وكنت قد زرت المدرسة مرارا عديدة ، واستعرت من مكتبتها كُتبا باللغة الفرنسية . كانت الراهبة « سيليست » صديقة لنا سبق أن مرت بمعاناة واجهتها بإيمان وصبر كبيرين ، وهى تترقب أخبار ابن اخيها أبو عمر (الدكتور حنا ميخائيل) أحد كوادر « فتح » البارزين ـ وهو يحمل دكتوراه فى العلوم ، ومعروف بتبتله فى سبيل قضيته ـ الذى اختفى هو والصديق « نعيم » ـ الذى كان أيضا من أنقى وأشجع كوادر الحركة البارزين ـ فى زورق كان يحملهما مع آخرين من صيدا إلى شمال بيروت ، وبقى اختفاؤهما لغزا غامضا حتى اليوم . وإن كان الاعتقاد السائد هو أنهم وقعوا فى أيدى معادية غير فلسطينية ولقيا حتفيهما فى ذلك اليوم المشؤوم . أما زوجة « أبو عمر » وهى أيضا من الكوادر النسائية البارزة فى الحركة ، فلاتزال تعتقد أنه ربما يكون موجودا على قيد الحياة فى أحد سجون الفئة التى اختطفته ، وقد شاركتها الأمل فترة طويلة . . وما زلت أرجو أن تكون محقة فى تصورها . . وشاركتها فى السؤال والبحث عنه . وكان مسعاى ذلك أحد أسباب زيارتى للرئيس حافظ الأسد أنا ووالدتى فى السبعينات .

كان المحتجزون لدى قوات العدو يتلقون ضربات الهراوات ، وهم يساقون إلى فناء

مدرسة « القديس يوسف » ، وأيديهم مقيدة بالأسلاك ، ممزقو الثياب معصوبو الأعين . كانت تحشد فى الفناء مجموعات منهم لا يقل عدد الواحدة منها عن ألف سجين قبل نقلهم إلى ساحة شركة الصفا لتعليب الحمضيات ـ وهى من أسوأ مراكز التجميع والاحتجاز فى تلك الفترة ـ أو إلى غير ذلك من السجون . ولقى عدد كبير من المحتجزين حتفهم فى مصنع « الصفا » من جراء الأوضاع البائسة فيه . كما تعرض المحتجزون لتنكيل جسدى رهيب حسب الشهادات الموضوعية للكثيرين ممن كانوا يعملون مع الهيئات الدولية الانسانية ، بل حسب شهادة بعض الجنرالات الإسرائيليين . وحتى لو لم يكن الأسرى يتوقعون الإعدام فى نهاية ما كانوا يعانون ، فقد كانت وقائع ومشاهد الضرب الوحشية والركل بالأقدام حتى الموت التى كانوا يشاهدونها ويعانونها لا تقل فظاعة من الموت . كانوا يجلسون تحت وهج شمس الصيف الحارقة نهارا ، وبرد الليالى الساحلية ليلا ، يوما بعد يوم . كان الماء شحيحا ، وحتى ما كان متوافرا منه منعه عنهم الجنود الغزاة عنوة . وزيادة فى التنكيل والإرهاب ، كان البعض منهم يمد يده ببعض الماء إلى الأسرى ، ثم يلقى به على الأرض بعيداً عنهم !!

ويرد فى شهادة « أوجفوند موللر » آخر المتطوعين النرويجيين فى الخدمة الاجتماعية وصفا للحادثة التالية : « وجَّه أحد الجنود ضربة بركبته إلى أحد الرجال ، ضربه بكل قوته فى بطنه ، ثم ركله بشدة فى رأسه . وكان المعتدى عليه ضمن خمسة آخرين عوملوا بنفس الأسلوب » .

وكتب « دوف يرميا » يقول : « رأيت أحد المعتقلين مسجى على الأرض ويديه مكبلتين ، ووقف على رأسه جندي إسرائيلى ينهال باللطمات على وجهه ويطأه بقدمه . كان وجه السجين مهشماً من جراء ضربات سابقة . سألت الجندى عما إذا كانت لديه تعليمات بالقيام بما شاهدته يفعله . . فرد علىّ بالإيجاب . . ورأيت جنديين آخرين يسيران بين صفين من المعتقلين المكبلين . وبدأ الجنديان ينهالان على السجناء ضربا بالمراوات الخشبية على جميع أجزاء أجسامهم . وقمت بالابلاغ عن جميع تلك الحالات وغيرها ، فبادرنى أحد كبار الضباط بعد بضعة أيام بقوله : « إنك تسبب لى كثيراً من المشاكل » .

ويشهد « موللر » بحادثة أخرى أجدها من أسوأ ما مر علىّ ذكره بالرغم من سماعى لعدد لا يحصى من الروايات التى يقشعر لها البدن ، وذلك من شهود عيان من بين الأسرى . .

يقـول « موللر » : « كان هناك رجل فى حوالى الستين من عمره ، فى حالة يأس كامل . كانت الحرارة لا تطاق فى شدتها ، وكـان الرجـل فى حاجة إلى الماء . فنهض وتعثر إلى الأمام ، وحاول أن ينبه أحد الجنود بركلة خفيفة فى قدمه . فهجم عليه أربعة أو خمسة من الجنود وألقوه أرضـا ، وانهالوا ركلا وضربا على جسده الضعيف ، بأنابيب من البلاستيك وعصى وحبال ذات عُقد ، واستمروا يركلونه بأحذيتهم العسكرية الثقيلة لما يزيد على عشر دقائق . كان مشهدا لا يطاق ، فقد خيل إلىّ أنه سيستمر إلى الأبد (وتكررت أمثال هذه الحادثة فى الفناء طيلة اليوم) وواصلوا ركل الرجل المسن فى بطنه وعلى رأسه . وعندما فرغوا أخيراً كان الرجل هامدا . . قيدوا قدميه سوياً ثم شدوا الحبـل حول رسغيـه فأخـذ جسمه شكـل القوس . . كان مسجى على وجهه ، ورأسه مشدودا إلى الوراء بالحبـل الذى كان ملتفاً حول رسغيه وقدميه . وعندما أخذونى للتحقيق فيما بعد رأيت الرجل مرة أخرى . لم تعد القيود حول جسمه ، إنما كان ملقى تحت الشمس مع ثلاثة من الرجال . كان من الواضح أنهم قد ماتوا ، إذ كانت جثثهم ملقاة بعضها فوق الأخرى وأطرافهم المزيلة ملتحمة . وقد بدأت الجثث تنتفخ تحت الشمس . .

رأيت جندياً ملتحياً يرتدى نظارة يحمل حبلا فى طرفه قطعة معـدنية حادة ، قطعـة مسطحـة كبيرة يبلغ حجمهـا حوالى ثمـانية سنتيمتـرات مربعة . كان يقف فوق السجين الملقى على الأرض ويحرك ذراعه فى حركة دائرية كالطاحونة ، يضرب المعتقل بالقطعة المعدنية لأكثر من خمس دقائق مستمرة ، ودون هوادة ، ثم ينتقل إلى سجين آخر . . الخ .

كنت أتساءل كيف تحملت الراهبات فظائع تلك الفترة ، وهن فى مسكنهن المجاور للمدرسة » .

□ أهوال معتقل « الصفا »

أما المعتقل المؤقت فى فناء شركة « الصفا » على طريق مدينة صور ، فقد شهد أهوالا مماثلة . كتب أحد السجناء فيما بعد يروى تجربته قائلا :

« أخذونا جميعاً إلى مصنع « الصفا » حيث أمرونا بالـوقوف ووجهنـا إلى

الحائط . قيدوا أيدينا وراء ظهورنا ، ثم عادوا وأمرونا بالانبطاح والنوم على الأرض . كنا حوالى ألف رجل تتراوح أعمارنا ما بين الخامسة عشرة وما فوق الخمسين . أحاط بنا الجنود من كل جانب ، وانهالوا علينا ركلا . . موجهين الطلقات النارية إلى الفضاء لخلق حالة من الرعب . وفى حوالى الساعة الرابعة صباحاً ، بدأوا بركلنا ثانية لإيقاظنا . وكان ما أحضروه لنا من الطعام هو بعض الخبز الجاف وحبات الطماطم . وقف أحد الجنود على سطح دبابة وقذف إلينا بالطماطم ، وفتح المعتقلون أفواههم ليتلقوا بها ما يستطيعون لأن أيديهم مقيدة ، وأحضروا لنا نفس الطعام صباحا ومساء طيلة الأيام الخمسة التى قضيتها هناك » .

أُحتجز المعتقلون فى « الصفا » وهم مكبلون معصوبى الأعين جالسين القرفصاء ، أو ممددين بأجسادهم المنهكة على الساحة الكبيرة الوحلة ، وسواء كانوا قد جاءوا رأسا إلى الصفا ، أم حولوا من مدرسة« القديس يوسف » ، فقد تعرضوا لنفس الظروف من المعاناة .

من بين من عاصروا أحداث الاجتياح ، وقدموا شهاداتهم بالنسبة لما كان يجرى الدكتور العراقى « محمد جواد » الذى يروى فى شهادته كيف أنه هرع إلى رجل أصيب بنوبة قلبية مفاجئة ، وكيف أنه طلب المعونة من الجنود متوسلا إليهم أن يحملوا الرجل إلى المستشفى ، فقوبل طلبه بالرفض التام . كان الأطباء والمتطوعون فى مجال الخدمة الاجتماعية من بين الأسرى ، الذين سمح لهم بامتياز ألاّ تعصب أعينهم . . وفى بعض الحالات ألاّ تقيد أيديهم . يستطرد الدكتور « جواد » قائلا : « وحيث أنى كنت لاأزال أحمل حقيبتى الطبية ، فقد شرعت فى محاولة إسعاف ذلك الرجل ، وإذا بالجنود يهجمون علىّ ، ويركلون الحقيبة بعيداً عنى ، فتناثرت محتوياتها فى الوحل . وكانت تحتوى على أقراص نيتروجليسرين ، وغيرها من أدوية وحقن الطوارىء التى تستعمل فى حالات النوبات القلبية . كما صادر الجنود السماعة التى كانت فى الحقيبة . . وغيرها من المعدات » . وقد أدلى الدكتوران « عماد طروية » و « نبيل المصرى » بشهادتيهما عن أحداث مماثلة جرت أمامهما .

كتب الكولونيل « دوف يرميا » فى مذكراته كيف أنه كان يحدث نفسه ، وهو يتجول فى المدينة وفى مراكز الاعتقال . . قائلا : « هل هذه حرب أم ساحة تدريب لجيش الدفاع الاسرائيلى ؟ » .

وقد وصلت عملية القبض على الأهالى ذروتها يوم ١٢ يونيو ، ووقفت أفواج من الرجال فى الطوابير لدمغ بطاقات هويتهم . كانت تلك عملية بطيئة مرهقة ومرعبة . فقد تمركزت ست عربات فى مركز التجميع يجلس فى كل منها أحد المقنّعين ، من الخونة الذين تعاونوا مع جيش الاحتلال للتعرف على الأسرى . وأخذ هؤلاء يشيرون إلى البعض ممن كانوا يقفون فى الطوابير الزاحفة ـ أحيانا حتى ينتصف الليل ـ ويختارونهم بطريقة عشوائية . فقد كان هدف قوات الاحتلال هو التعرف على المتعاطفين مع الحزب الوطنى اللبنانى ، أو منظمة التحرير الفلسطينية من بين الأهالى . كانت اختيارات المقنّعين لا ترتكز على أساس صحيح فى التمييز أو الاختيار .

وقد حاول الجنود الاسرائيليون التحايل على الأطفال فى المدن والقرى للوشاية على أهاليهم . واستمر اضطهاد الشعب اللبنانى . ومن أكثر مظاهر الاحتلال التى ثار عليها صلاح ، عملية دمغ ذراع الأسرى الذين لا يمتلكون بطاقات هوية . فقد بقى الناس إثر ذلك يخشون الاغتسال حتى لو توافر لهم الماء ، تجنبا لإزالة الدمغات والعقاب الذى يمكن أن ينتج عن ذلك . لقد اعتبر ذلك تكرارا لـدمغ اليهـود بعملية الـوشم فى معتقلات النازيين خلال الحرب العالمية الثانية . وكان يتساءل ، كما يتساءل الكثيرون حتى اليوم ، عن كيف لشعب عـانى مثل تلك التجـربـة أن يمـارسهـا عـلى الغـير . ولم يكف قط عن التساؤل عن ذلك التصرف المهين ، وإن كانت الإهانة الناجمة عنه تتضاءل لدى المقارنة بغيرها من أعمال العنف والقسوة التى تعرض لها الأسرى .

□ طوابير الأسرى فى صيدا تعيد ذكريات اوشفيتز

يصف « يرميا » طوابير الأسرى التى شاهدها فى صيدا كما يلى : « كانت تلك صورة تذكرنى بطوابير الموت فى اوشفيتز ، « أوى فافوى » ، إلى أى مستوى انحدرنا ؟ » كان يجد أن صلابة معظم الضباط ـ وإن أبدى بعضهم التعاطف مع الأسرى ـ أمراً غير مقبـول ولا تفسير له . ويقول « يرميا » وهو يصف رد فعله عندما سمع الأناشيد والأغانى تتعالى فى أرجاء المدينة ليلة السبت ١١ يونيو : « إننى لأخجل من كونى ابنا لهـذه الأمة التى تغنى وتطرب فى خاتمة عملية الدمار » . كما يصف كيف شعر بنفس الخجل والاشمئزاز عندما سمع أحد كبار الضباط يقول : « إنه لأفضل بكثير أن يهلك ألف عربى من أن يموت أحد جنودنا » . ويستطرد « يرميا » قائلا :

« كانت مكاسب جيش الدفاع الاسرائيلى فى عملية الاجتياح بخسة . . فقد

استمر جهاز الجيش يهرول عبر الأراضي اللبنانية المحتلة معربداً غير مبال بالمدنيين من الأهالي العرب في طريقه . إن عدم الاكتراث هذا بمصير المدنيين لا مثيل له في حروب إسرائيل السابقة . فقد أخذ الآلاف من المتجمهرين في ساحة صيدا العامة يصرخون في الجنود منددين بالتنكيل الذى أصابهم منهم . وسياسة الانتقام تلك هي سياسة تفتقر إلى بعد النظر» .

كان المحتجزون من الأهالي في مراكز الاعتقال في جنوب لبنان قد سبق أن واجهوا وعانوا من أنواع التعذيب « الخفيف » المصاحب لعمليات الاستجواب الأولية قبل نقلهم إلى معتقلات ، وسجون الأرض المحتلة الشهيرة بقسوة المعاملة فيها . وقد سيق الأهالي إلى مراكز التجمع الأولية في جنوب لبنان تحت الضرب بالعصي والهراوات والحبال وأرجل الكراسي المخلوعة ، وذلك أمر أساسي في عملية الانتقام والإرهاب التى كان يمارسها جيش الاحتلال . فقد أصبحت كل عملية نقل من مركز إلى آخر ، مناسبة لممارسة العنف والحقد ضد المعتقلين . كان يبدو أن الجنود يتفننون حتى ذلك الحين في الأساليب التى كانوا يخترعونها لإثارة وإهانة الأسرى الذين كانوا قد عانوا الكثير من الآلام النفسية من جراء الهزيمة ، وآلام الجوع والعطش والخوف . كان الجنود يطلبون منهم أن يقوموا بالنباح والمأمأة كالحيوانات ، ويأمروهم بأن يسبوا دينهم والرسول وأن يلعنوا قياداتهم . كما كان يجرى سيل مستمر من الإيماءات والإهانات بالنسبة لأسر المعتقلين من النساء . وكلما توقفت إحدى العربات التى كانت تقلهم إلى الداخل في الطريق كان يصعد إليها بعض الأهالي من الاسرائيليين ، ويقومون بالبصق في وجوههم والتلذذ بإثارتهم وإهانتهم . لقد مات الكثيرون من الأسرى تحت الأقدام في زحام العربات ، كما أن بعض الأعمال التى يترفع المرء عن ذكرها لم تكن جزءاً غريباً عن تلك الرحلات « الجهنمية » .

كنت جاهلة تمام الجهل بتفاصيل ما كان يحدث لشعبنا بسبب تسارع الأحداث ، وعدم توافر الأخبار الدقيقة في تلك المرحلة . . وكنت أحاول كل جهدى أن أجد طريقة تساعدنى لتقديم ما أستطيع تقديمه ، أو أن انخرط في أية عملية تدخّل مثمرة للحد من الجور والظلم الذى تعرض له شعبنا من جراء العدوان ، وللتخفيف مما يعانيه . كنت قد أدركت ـ حتى في هذه المرحلة المبكرة من الاحتلال ـ أن الاعتماد على أطر أخلاقية لا تُحترم في التعامل مع الشعوب التى تم غزوها وإخضاعها ، وتسليم مصيرهم كلية إلى منظمات الغوث (وإن كان بعض منها قد انجز الكثير) ليس هو الإجابة الشافية .

تم إفراغ حمولات الحافلات في « مجيدو » (مرج ابن عامر) و « زيفات » . وتوصف « مجيدو » بأنها قلعة كبيرة بها أبراج للمدافع وتحوطها الأسلاك الشائكة ، تم بناؤها خلال

الانتداب البريطانى . واستقبلت سجون النبطية وشطا معتقلين آخرين . وتم الاحتفاظ بالأسرى الأوروبيين فى بنايات مغلقة ، فى حين ترك الفلسطينيون واللبنانيون واليمنيون والبنغلاديشيون فى العراء لمدة ثلاثة أيام بلا طعام أو غطاء أو رعاية طبية . كما مورست التفرقة فى « زيفات » حيث ورد أن المسيحيين قد أبقوا فى الظل فى حين تُرِكَ المسلمون خاصة الفلسطينيين فى الشمس . تم تجميع المعتقلين فى حفرة ، وبعد ذلك أخذوا منها ليخلعوا ملابسهم ، وليتم تصويرهم ، ورشهم واعطاءهم ملابس جديدة : سترات موحدة زرقاء وبعض ملابس القتال المتخلفة من حرب السويس .

واستمر التعذيب بكافة أشكاله ، من توجيه الصدمات الكهربائية إلى كافة أجزاء أجسام الأسرى إلى الضرب بقضبان معدنية لتحطيم الضلوع . ومن أبشع الصور التى قرأت عنها ، صورة لكهل كان لا يستطيع السير بدون عصاه ، وقد ركل الجنود هذه العصا وتركوه يزحف على يديه وركبتيه . غير أن الأحكام الجائرة التى صدرت على الأسرى فى الأراضى المحتلة ، ومعاناتهم ومقاومتهم الباسلة ، وأسانا من أجلهم ، وقلقنا عليهم وعلى أسرهم ، واحترامنا ـ بل تقديسنا لهم ـ هى قصة أخرى . فالمعاناة ليست بجديدة بالنسبة للفلسطينيين ، غير أن مثل هذه الإهانات وعمليات الإنتقام القاسية التى تعرضوا لها خلال الاحتلال الإسرائيلى للبنان (عام ١٩٨٢) لم تضاهها سوى أحداث حرب عام ١٩٤٧ .

□ عملية « العقل الحديدى »

جاءت الضربة القاضية عندما بلغ العدوان أبشع مراحلهَ خلال مجازر مخيمى « صبرا » و « شاتيلا » فى بيروت . فقد كان المنتظر بعد إجلاء قوات وكوادر وقيادات منظمة التحرير الفلسطينية فى أواخر أغسطس ، والاتفاقية التى تمت بوساطة من فيليب حبيب ، أن تراجع إسرائيل موقفها وتصغى إلى الاستهجان العالمى لأعمالها ، وتمتثل لمطالبه العادلة . غير أن مجلس الوزراء الإسرائيلى قام بالإجماع برفض مشروع « ريجان » للسلام يوم ٢ سبتمبر . . وشيدت على الفور ثمانى مستوطنات غير شرعية على الأرض العربية المحتلة . وكان ذلك بمثابة لطمة جديدة فى وجه الاستنكار العالمى وقرارات الأمم المتحدة . وفى اليوم السادس من نفس الشهر « سبتمبر » سلمت لجنة مخيمى « صبرا » و « شاتيلا » جميع الأسلحة المتبقية فى المخيمين للجيش اللبنانى .

تركت القوات الأمريكية والإيطالية بيروت يومى ١٠ و ١١ سبتمبر على التوالى . وإثر ذلك قرر بيجين وشارون ـ وذلك دون استشارة باقى الوزراء ـ تنفيذ عملية « العقل الحديدى » التى تضمنت احتلال منطقة غرب بيروت لمنع التطورات الخطرة وللحفاظ على

الهدوء والنظام . وقد ساند « شامير » ذلك القرار فيما بعد . وقُتل الرئيس اللبنانى بشير الجُميّل وستون من رجاله إثر انفجار قنبلة فى مقر قيادة الكتائب فى بيروت الشرقية . وفى ٢٤ سبتمبر اعترف شارون لأول مرة بأن الهدف المعلن لعملية العقل الحديدى إنما كان من قبيل التمويه عن نوايا إسرائيل فى القضاء على من تبقى فى بيروت من الفدائيين الفلسطينيين .

وقد بدأت عملية اقتحام المخيمات بالتحديد فى الساعة الثانية صباحاً يوم ١٥ سبتمبر عندما اجتمع الجنرالان « ايتان » و « درورى » بالقادة الكتائبيين فى الجيش ، وجهاز الاستخبارات : « ايلى حبيقة » و « فريدى افرايم » و « انسطاسى » و « عون » لتنسيق المؤامرة . وقد روى عن لسان القادة الكتائبيين قولهم « لقد انتظرنا هذا اليوم أعواماً طويلة » . وقد كثف الجيش الإسرائيلى خلال النهار الاستعدادات للدفع بمجموعات من القناصة القتلة المعتدين الى دخول المخيمين . وبدأوا بمحاصرة المناطق المحيطة بهما . وهمّ القادة الكتائبيون بتشجيع جنودهم بإيهامهم بأنهم المختارون للثأر لمقتل الرئيس الجُميّل . . الثأر من النساء والأطفال !! وعلى الفور بدأ ورود مجموعات من ضحايا القصف المدفعى على المخيمين إلى مستشفى « عكا » للهلال الأحمر الفلسطينى الذى روى المتطوعون فيه من الأطباء والممرضين والممرضات الأجانب ما شاهدوه من فظائع لم يسبق لها مثيل .

وخيم الظلام على بيروت بعد غياب الشمس بسبب انقطاع التيار الكهربائى . وظهرت فوق المخيمين القنابل المضيئة عند منتصف الليل . وتلاحقت أصوات نيران البنادق المتقطعة تعلو داخل المخيمين . كانت المجزرة التى روعت العالم قد بدأت . وفى اليوم التالى أذاعت تل أبيب أن « جيش الدفاع الإسرائيلى يسيطر على جميع المناطق الاستراتيجية فى بيروت ، وأنه تم حصار وعزل المخيمات التى تحوى التجمعات الإرهابية » . وقام الجيش باحتلال منطقة « الحمرا » التى كانت قلب بيروت الأنيق الزاخر بالحوانيت والمتاجر . كما أحتل كورنيش المزرعة وغيرها من المناطق فى غرب بيروت . كان الزوار العرب من المصيفين يهرعون إلى بيروت ومصايف لبنان الجميلة الشهيرة بمناظرها وروعة مناخها وروعة فنادقها ومطاعمها ، كما كان يفد إليها الكثيرون من الأجانب ، ومنهم عدد وافر يفد إلى الجامعة الأمريكية من أساتذة وطلاب من جميع أنحاء العالم .

استمرت الطلقات داخل مخيمى « صبرا » و « شاتيلا » وازداد عدد الوافدين إلى مستشفى « غزة » من المصابين بالطلقات النارية سريعة الاندفاع . فأرسل المجلس البلدى المسؤول عن المخيمين خمسة من الرجال كبار السن للتفاوض من أجل وقف المجزرة فقُتل

أربعة منهم ، وهم حامد إسماعيل (عمره ٥٥ عاما) وأحمد سعيد (٦٥ عـاماً) وأبـو سويعد (٦٢ عاماً) وتوفيق حمشة .

وفى اليوم التالى شوهدت خمس وعشرون عربة « جيب » مليئة برجال ميليشيات الكتائب تتقدم عبر الطريق المؤدى إلى المخيمين ، وعندما خرج بعض سكان المخيم إلى الضباط الإسرائيليين ، طلب هؤلاء منهم أن يعودوا إلى المخيم قائلين إنه لا خطر عليهم .

وبعد ظهر نفس اليوم دخلت ثلاث وحدات من الجنود الكتائبيين يبلغ عدد كل منها خمسون رجلا إلى المخيمات ، يساندهم قصف من المدفعية الإسرائيلية . وبدأت المجازر على بُعد لا يزيد على خمسين متراً من مركز المراقبة الإسرائيلى على مشارف المخيم . وقد فاق هول الصور التى ملأت الصحافة الأجنبية ـ بعد أيام من السماح للصحفيين والمصورين بـدخـول المخيمـات ـ أى وصف يمكننى أن استعيـده لـلأحـداث الـرهيبـة عـلى هـذه الصفحات . . صور لجثث النساء والأطفال المكومة على جانبى أزقة المخيمات الضيقة . ومشاهد رجال مسنين فاجأتهم الطلقات على عتبات بيوتهم ، أو فى الزوايا مما يمثل موجزاً بليغا لما يتعرض له الشعب الفلسطينى من مظالم فى شتاته . وقد فاضت النفوس بالأسى العام . وأصبح حزنى على المئات من الوجوه البريئة التى لا أعرفها لا يقل عما شعرت به من أسى لاستشهاد الكثيرين ممن عرفناهم من بين سكان المخيمين . وجاء فى رواية الضابط الإسرائيلى « أوعلول » أنه سمع القائد الكتائبى إيلى حبيقة يقول لأحـد مرؤوسيـه من الجنود خلال جهاز اللاسلكى ـ رداً على سؤال الأخير له عن كيف يتعامل مع وجود عدد كبير من النساء والأطفال فى المخيم ـ « أحذرك من أن تلقى علىّ بمثل هذا السؤال مرة أخرى . فأنت تعرف تماماً ماذا يجب عليك أن تفعل بهم » . وقد فهم الضابط الإسرائيلى من خلال ما سمعـه بأن القـادة الكتائبيـين لم يغضوا النـظر عن قتل النسـاء والأطفال فحسب ، وإنما أمروا بذلك القتل .

واستمرت القنابل المضيئة فى تحويل ليل المخيمات إلى نهار ، وراقب أكثر من مائتين من الضباط والجنود الإسرائيليين عملية الإبادة داخل المخيمات من خلال المناظير الليلية الخاصة . واستمر القصف المدفعى على المخيمات مشاركاً فى العملية . وفى النهاية لم يجدوا داخل المخيم من كانوا يبحثون عنهم من « المخربين » !!! حسب تسميتهم لخيرة رجالنا الأبطال .

٤ لقاء رتبته الأقدار

بعد الأيام السبعة الأولى لوفاة أمى ، ونعى ذكراها العطرة ، وحين كنت أشعر أننى لا أستطيع الابتعاد عن البيت والأماكن التى كانت شخصيتها وروحها تضيئانها ، وأن وجودها ما زال يلازمنى ويحيطنى بالرغم من مضيها إلى عالم أفضل ، شعرت بأننى أصبحت أكثر تفرغاً وحرية للمضى فى البحث عن أخبار أكثر تحديدا عن صلاح ، وعما كان يجرى فى صيدا بالذات وفى لبنان عامة . وهكذا أصبحت جزءاً من عجلة الأحداث .

كان الأصدقاء وبعض الهيئات ، التى أذهلها وروعها الاجتياح الإسرائيلى ، يحاولون تنسيق الجهود التى كانت تبذل لدى كثير من الأفراد والجماعات ، لتعريف الجمهور البريطانى بالوقائع الحقيقية للعدوان ، ودعونى للمشاركة . تضمنت رحلتى حضور محاضرات واجتماعات شاركت فيها شخصيات بريطانية بارزة ، كما استلزمت اجراء لقاءات مع الصحافة ـ وهى عملية كنت اتجنبها بطبيعتى . وكان من أبرز معالم تلك الحقبة مظاهرة فى قلب لندن ـ العاصمة ـ سار فى الصفوف الأولى منها السفراء العرب إلى جانب السياسيين البريطانيين وممثل لحركة « السلام الآن » الإسرائيلية .

وفى ختام المظاهرة تجمع المتظاهرون والجمهور فى ساحة الطرف الأغر التى تخلد ذكرى انتصار القائد البحرى الأميرال « نيلسون » على أسطول نابليون .

وتناوب المتحدثون وأنا ضمنهم مخاطبة الجمهور المحتشد ، وعندما جاء دورى تحدثت عن الاجتياح الإسرائيلى ومعاناة الشعب اللبنانى والأسر التى باتت دون عائل ودون بيت ، وعن قصف المخيمات الفلسطينية وتشريد سكانها .

ثم تحدثت عن الأسرى الذين جمعتهم واعتقلتهم سلطات الاحتلال عشوائيا وعانوا أقسى أنواع التنكيل . وأصبحت حقيقة أن صلاح أحد الذين يشاركهم المصير المجهول مجسمة أمامى ، واتخذت أبعادا جديدة . ألقيت بنظرى عبر الساحة الكبيرة (التى يتجمع فيها الحمام الوديع والذى يشكل منظرا مألوفا من مناظر لندن السياحية) الى كنيسة سانت مارتن حيث كنا قد التقينا لأول مرة - أنا وصلاح - فى صيف عام ١٩٦٨ فى ساحتها . وذلك ضمن المشاركين فى مهرجان كانت قد أقامته السيدة مارجريت ماكاى النائبة البرلمانية فى حزب العمال فى ذلك الحين ، والآنسة مانويلا سايكسى الدائبة العمل من أجل العرب . كان مهرجانا أعده واشترك فيه مسؤولون من الأردن مع أفراد فلسطينيين - وذلك بعد معركة الكرامة عام ١٩٦٨ ، حين اجتاحت الدبابات الاسرائيلية وادى الأردن ، ثم ارتدت بعد مقاومة عنيفة من الجيش الأردنى ومن شباب المقاومة الفلسطينية المرابطين فى قرية الكرامة (حيث سقط منهم عدد كبير من الشهداء) . وقد عرض الكاتب والرسام المصرى الكبير يوسف فرنسيس - الذى أصبح فيما بعد من أقرب أصدقائنا ، أنا وصلاح - عددا من لوحاته فى المعرض متبرعا بها للمشاريع الهادفة لمساعدة اللاجئين الفلسطينيين - وقد أقمت خلال هذه الرحلة - مثل سابقاتها الى بريطانيا ، وكما أفعل حتى الآن - فى ضيافة صديقة لى منذ أيام دراستى الجامعية فى بريطانيا أقدر رجاحة عقلها وكرمها . وقد كانت أول من قرأ نص كتابى وزودتنى بملاحظات موضوعية قيمة . ويعد ذلك تسارعت عجلة الأحداث حتى أصبحت تدور مسرعة بلا هوادة ، غير أن كل ذلك لم يجعلنى أحيد عن مواصلة العمل من أجل المعتقلين وضحايا الاجتياح الاسرائيلى للبنان ، بل لقد جعلتنى تلك الأحداث أسير ، بل أهرع لاهثة فى اتجاهات جغرافية متباعدة ومتناقضة ، فى دوامة فائقة السرعة والحركة كانت بمثابة امتحان عسير لطاقاتى ، بل ربما حتى لإيمانى ، ذلك أنى كنت فى نفس الوقت استشعر حاجة الآلاف الذين ربما مكنتنى جهودى من التخفيف عن بعض ما يعانون ، وتحدّى الموقف بفيض من العزم والقوة .

عدت بعد ذلك إلى عمان ، ومنها سافرت إلى دمشق برا متأملة التلال والوديان الخلّابة ، آثار جرش الرومانية ، غابات عجلون الخضراء الكثيفة فى الأفق البعيد تحيط بقلعة « الربض » العتيدة التى شيدها أحد قادة جيوش صلاح الدين الأيوبى فى مواجهة الغزوات الصليبية . . ثم غوطة الشام المزدهرة ، وحتى مشارف دمشق وبواباتها التاريخية . كانت ذكريات الطفولة والماضى القريب ، تجعل الحاضر أكثر مرارة واكفهرارا .

□ محاولة للعودة إلى صيدا

كان ذلك يوم ٢١ يونيو ، لم يكن لدى أى من المسؤولين ومكاتب المنظمة أية أخبار جديدة أو محددة عما يجرى فى لبنان . كانت الصورة كئيبة إلى أقصى حد . كانت القوات الاسرائيلية قد بدأت زحفها نحو بيروت . . ووصلت طلائعها الى بلدة الأوزاعى التى لا تبعد أكثر من خمسة أو ستة أميال عن العاصمة . وفى الأوزاعى ، حيث يوجد مقام الإمام الأوزاعى ، وضريح السياسى والزعيم الوطنى اللبنانى الكبير رياض الصلح ، كانت معنويات اللبنانيين والفلسطينيين لا تزال مرتفعة . غير أن ذلك الوضع كان بحاجة إلى أكثر من التفاؤل الشجاع الذاتى لكى يدوم أمام الهجمة المباغتة الشرسة ، وحتى لا يهزم الإحباط الجميع . لكن بقيت الدول العربية صامتة فى المجال الفعلى ، اللهم إلا فى التشجيع الكلامى الذى كان يصدر فى أجهزة الإعلام عن **« إخواننا الصامدين فى لبنان المتصدين للعدوان الاسرائيلى » !**

كنت مصممة بل ملتزمة بينى وبين نفسى بالعودة إلى صيدا لأرى ما يجرى هناك بنفسى ، لأجد صلاح ، والتحق به وأكون إلى جانبه ، فقد كنت أعتقد أن ذلك هو مكانى الطبيعى . أما عاليه فكنت مؤمنة بأن المولى سوف يرعاها ، وقانعة بأنها سوف تكون فى مأمن فى عمان إلى جانب والدها ، وإن كنت أفعل المستحيل حتى أجنبها القلق الذى لاشك أنها عانته وتحملته بصمت خلال تلك الفترة وما تلاها . كنت راضية النفس والضمير لكونى لا أحملها مشكلة شخصية ، وأنها جزء من الشعب العربى والواقع العربى تتحمل مثل الآلاف من بنى أمتها جزءا من الأهوال التى تفجرت فى عالمنا ، كقنبلة عنقودية تناثرت ، ودامت مصائبها على أرضنا حتى اليوم . بقيت عاليه صرحا وسندا لى طيلة الأشهر الثمانية عشر التالية ولا تزال حتى اليوم .

غير أن جميع المجهودات والمحاولات لإيجاد ثقب إبرة أعبر من خلاله إلى صيدا جوا أو برا ، أو حتى سيرا على الأقدام عبر الطرق الجبلية لم تسفر عن نتيجة . كنت اتصور وأرجو ، أن يكون صلاح ورفاقه قد لجأوا إلى التلال المطلة على صيدا ، وقد نجوا من أيدى العدو . كما كنت أتخيل لقائى بهم تحت أشجار البشملة ، التى ربما اقتاتوا منها . واتخذت عهدا بأنه أيا كانت ظروف حياتنا المشتركة بعد ذلك اليوم ، فسوف أكون راضية سعيدة بها ، كنت أود فقط أن أحصل على خبر يقين !

توجهت من عمان إلى الرياض حيث كنت آمل لقاء الملك فهد بصفته حاكما لواحدة من أبرز الدول العربية ، والمالك لإمكانيات للضغط والمناورة لا يتمتع بها غيره على

الساحتين العربية والدولية . وقد حظيت بمقابلة جلالته وأسرته ، ووضعت أمامه تفاصيل الأحداث كما عايشتها إلى جانب ما كنت أعرفه عن آمال الناس وخيبة أملهم فى القيادات العربية . وشرحت وضع الفلسطينيين المحاصرين والشعب اللبنانى المسحوق الذى ما زال ينتظر النجدة من إخوانه العرب ، أو على الأقل اعترافا بمحنته ، وذلك أضعف الإيمان . أكدت له قناعتى بأن مظاهر عدم الاكتراث أو العجز عن التحرك فى اللحظة الحرجة فى مثل هذه المرحلة المصيرية من التاريخ العربى من قبل حكوماتنا أو حكامنا ، سوف تنعكس وترتد عليها وعليهم بمزيد من التذمر والشغب والخطورة . وأكد لى الملك أن النجدة والمساعدات قد أرسلت . كما سررت بلقاء أميرات الأسرة ، وتربطنى بكثير من أفرادها صلات المودة القديمة . ثم توجهت إلى مكة المكرمة ، كعبة المؤمنين وملاذ كل ساع ومبتهل . . ملاذ كنت أقضى فيه ـ حيث جذور أهلى وعشيرتى وأسرتى ـ أكثر الساعات صفاء منذ طفولتى .

غير أننى بعد ساعات الصفاء والتبتل ، أدركت تماماً بأن أى عون عسكرى ، أو معنوى فى استطاعة البلاد العربية تقديمه فى هذه المرحلة سوف يبعد فراسخ عما يتطلبه التصدى لحجم وضراوة الهجوم الإسرائيلى . فقد استمرت القوات الإسرائيلية فى تقدمها نحو بيروت حتى صادفت مقاومة عنيفة لدى وصولها إلى بلدة الأوزاعى من قبل الميليشيات الشيعية ، كما أبيدت وحدة كاملة من قوات منظمة التحرير الفلسطينية ، واستشهد العديد من كوادرها . كان التصدى من قبل قوات المنظمة قد انتهى تماما فى الجنوب . وإن كانت معركة « عين الحلوة » الضارية قد أعاقت زحف الجيش الإسرائيلى نحو بيروت ، حتى تم قصف المخيم وأبيد تماماً ، وأحالته جرافات العدو إلى خرائب (أعيد تشييد المخيم من جديد فيما بعد من قبل من تبقى من سكانه من اللاجئين الفلسطينيين ، وذلك أبرز رمز وأكبر دليل على النضال الفلسطينى من أجل الحياة والاستمرار) . كان صمود مخيم « عين الحلوة » وقلعة « شقيف » هما من أقوى معالم المقاومة الفلسطينية وتاريخها ـ إلى جانب ملحمة بيروت ـ وإن كانت جميع الأضواء قد سلطت على بيروت فى حينها . فقد قاومت العاصمة اللبنانية بأهاليها وبمن فيها من أفراد المقاومة الفلسطينية مقاومة باسلة . وقد أضاف وجود معظم أفراد قيادة المنظمة بجميع فصائلها محاصرين لمدة ثمانية وأربعين يوماً مشاركين مقاتليهم وأهل المخيمات والأهالى المخاطر ، « أبعادا نادرة » إلى الصورة العامة للمقاومة . أما « شقيف » فقد حماها وقاوم فيها اثنا عشر شاباً من المقاومة الفلسطينية فقط ، استشهدوا تحت قصف الطائرات الإسرائيلية . ولم يبق فى صيدا سوى قلة من الرجال ، ولم تكن بها الكثافة السكانية أو كثافة المبانى التى توفر الحماية الكافية للأهالى . وقد شهد أحد الدبلوماسيين الأجانب فيما بعد على ما رآه فى الجنوب بقوله : « كل ما وجدناه وشاهدناه

هنـاك هو النسـاء والأطفال والمسنـين من الرجـال ينقبون بـين بقايـا ونفايـات دورهم المهدمة » .

وإننى لأذكر رد أبى عمار فى إحدى خطبه على انتقاد أحد الجنرالات العرب الذى قال إنه : « لو حارب الفلسطينيون فى الجنوب كما حاربوا فى بيروت لكانت الصورة والنتائج مختلفة كل الاختلاف اليوم » . إذ قال أبو عمار رداً على ذلك : « طلبت من الجنرال أن يقرأ شهادات الجنرالات الإسرائيليـين الذين قـادوا قوات الاجتيـاح ، والذين صـرح أحدهم بعد أن فقد عيناً وساقاً فى الجنوب : لقد كنت أستطيع غزو أية عاصمة عربية بنفس عدد القوات التى حاصرت مخيم « عين الحلوة » !! »

وقد وصف صلاح تلك الفترة ـ لاحقاً ـ وبالذات ما دار فى الحيز الضيق للمنطقة التى أمكنه التجوال فيها خلال الأيام التالية للغزو كالآتى :

« كان الطيران والمدفعية الإسرائيلية قد دكا ومهدا الساحة تمـاماً بحيث جعلا أية مواجهة فعلية شبه مستحيلة . وعندما كانت تحدث أية مجابهة مباشرة كان العدو يخرج منها خاسراً . فقد قاتل شبابنا بتصميم من يقف مهدداً وظهره إلى الحـائط ، وبالقـوة النادرة النـابعـة من إيمـانهم العميق بقضيتهم . وفقـد الكثيرون من جنود الجيش المعتدى حماسهم . . إذ سيقوا إلى معركة لم يكونوا قانعين بها منذ البداية ، وبالذات عندما وجدوا أنفسهم يتقدمون نحو هـدف (هو بيروت) يتعدى مسافة الأربعين كيلو مترا التى كان قد نادى بها رؤساؤهم وحددوها بأنها منطقة آمنة تحمى حدودهم ، أما البعض الآخر فقد اشتركوا حتى النهـاية وبكـل العنف الذى ولَّـده الجهل والكـراهية المعبأ فيهم ، أو فقدان الإحساس أو النفسيات المريضة بالقسوة والتعذيب والقتل الذى تعرض له أهل الجنوب » .

وبالرغم من ترددى فى استعمال كلمات جنرال إسرائيلى تحت أى ظرف كان ، إلاّ أن شهادة الكولونيل « دوف يرميا » تؤكد الشهادات التى جاءت على لسان من زار المنطقة فيها بعد من عرب وأجانب ، أو من عاصر الأحـداث فعلا . كتب « يرميا » فى كتـابه « مذكراتى الميدانية » : « لقد كان موقف إسرائيل من العرب موقفا تعسفيـا ومتعجرفـا ومتعاليا ومتعصبا سواء كانوا لبنانيين أم فلسطينيين » . ويبدأ « يرميا » مذكراته فى اليوم الأول من الاجتياح فى الخامس من يونيو كـالتالى : « بـدأت آلة حـرب جيش الدفـاع الإسرائيلى تركض محطمة فى طريقها كل شىء فى الأراضى التى باشرت احتلالها ـ متجاهلة كل التجاهل المدنيين من الأهالى » .

وباستمرار عملية الغزو تطوع « يرميا » بأن يقوم بمفرده بما كان مفروضا أن يكون من مسؤوليات هيئات الإغاثة لمساعدة ضحايا الحرب فى لبنان . فقد كشف عن الكثير من جرائم الضباط والجنود الإسرائيليين وقام بالتدخل ، كلما استطاع ، لمنع المزيد من أعمال العنف ، وللتعاون مع السلطات اللبنانية المحلية لإعادة بعض الخدمات الأساسية مثل خطوط المياه . وجاء فى مذكراته يوم ٩ يونيو :

« وصلنا إلى صيدا . لقد حُطمت جميع أنابيب المياه ، وليس فى المدينة شارع لم يصبه الدمار ، وأخذت تتصاعد من مستشفى الهلال الأحمر الفلسطينى ـ الذى أصيب بقذيفة مباشرة ـ رائحة الجثث المتحللة . واستمر القبض على غالبية الرجال فى المدينة سعيا للتعرف على « الإرهابيين » . »

وفى فقرة أخرى كتب يقول : **« إن الجماهير مرعوبة ومذهولة بينما الجنود القائمون على حراستهم متأهبون للرد بأعمال إنتقامية فى حين أخذ كبار الضباط . . . أصحاب القرار يتفوهون بأقوال بذيئة ومسمومة . . . » .**

كنت اتصور وأكاد أرى ما كان يحدث تماما . فهناك إلى جانب معارضة بعض الإسرائيليين الصرحاء والمحبين للسلام ، كراهية متأصلة فى صفوف الإسرائيليين مثيرة للاشمئزاز ، ربما تكون ناجمة عن عدم الثقة . وإننى لا أنسى كيف كانوا يعايرون الجيوش العربية بعد حرب عام ١٩٦٧ بقولهم : **« محمد مات . . خلف بنات »** . وكانت تلك العبارة موجهة إلى صميم إعتزاز العرب بدينهم وقوميتهم وكبريائهم . إن الجيوش العربية لم تتراجع ، إنما غلبتها قوة وإستعدادات ومعونات من بعض الدول الكبرى لإسرائيل تفوق ما لديها . فقد قلب الإمداد المستمر بالسلاح من الولايات المتحدة لإسرائيل جميع الموازين . وقد قاتل الجيش الأردنى فى القدس ، ولم يكن من المعقول أن يتراجع أى فرد يقف على تلك الأرض المقدسة ويشعر بأهميتها وبارتباطه بها . أما « سيناء » فقد رُشقت بجثث الجنود المصريين البواسل الذين تركوا وراءهم الآلاف من الأرامل والأطفال والأسر المصابة ، فليس هناك بيت فى مصر لا يفخر بصورة لابن أو أخ أو زوج استشهد فى جبهة القتال خلال أداء واجبه فى الدفاع عن الوطن .

قاوم أهالى بيروت ، ومن بينهم مجموعة صلبة من المقاتلين الفلسطينيين ، والقيادة الفلسطينية مجتمعة ، حصار المدينة لمدة ثمانية وأربعين يوما ، حتى تم الاتفاق على وقف إطلاق النار وإخلاء المدينة .

وبدأ الآلاف من أفراد قوات المقاومة الفلسطينية الانسحاب من بيروت يوم ٢١

أغسطس ١٩٨٢ - تلك العملية التى استمرت حتى اليوم الثلاثين من ذلك الشهر حين رحل ياسر عرفات واثنان وستون شخصا بحرا متجهين إلى أثينا . أما « المقاتلون » فقد غادروا بيروت فى مجموعات يبلغ عددها ما بين خمسمائة وسبعمائة وخمسين رجلا إلى اليمن ، كما غادر بعضهم إلى الشام برا . وكانت مصر قد بدأت تتباعد عن السياسة الأمريكية ، ولعبت دورا هاما ومشهودا فى التفاوض لتأمين الحماية البحرية للمقاتلين عند خروجهم من بيروت .

□ ملحمة محمود درويش أبلغ شهادة

ولقد كتب الكثيرون عن هذه التجربة البطولية فى التاريخ العربى الحديث ، منهم الصحفيون الغربيون ، والمراسلون الأجانب ، وبعض الجنرالات والكتاب الإسرائيليين ، وعدد ممن عاشوا التجربة وخرجوا منها سالمين . وتبقى قصيدة - بل ملحمة الشاعر الفلسطينى محمود درويش « بيروت » أبلغ الشهادات عن المقاومة لحصار بيروت .

وفى هذه المرحلة وما بعدها ، أصبحت عمان وصحبة عاليه لفترات قصيرة هى مرفأ الأمان بالنسبة لى ، لذلك عدت إليها من زيارتى للسعودية التى استغرقت يومين . وتلقيت فور وصولى صدمة لم تكن على البال حملتها برقية من زوجة السيد فارس ، صديقنا وجارنا العزيز فى صيدا ، تضمنت التعازى بوفاة أمى ، وفى الوقت نفسه نبأ وقوع صلاح فى أيدى الاسرائيليين فى يوم ١٩ يونيو . وهو اليوم الذى كنت أحاول بعده بيومين - دون جدوى - الحصول فى دمشق على أخبار عنه .

شعرت بالانهيار لبرهة ، لبضع دقائق فقط ، وصرخت من أعماقى داخل غرفتى التى أقفلتها على نفسى . . هل وصل الأمر لهذا الحد يا إلهى ؟ لقد اجتاحنى حزن - لا متناهى - لأفول كل أحلامنا القومية ، وللتفكير فى أن رجلا كصلاح له مثل هذا الكبرياء يواجه الآن الإذلال والأذى والقنوط . ومع ذلك ، لم أسمح لأحد أن يرانى فى حالة ضعف . كان علىّ أن أنهض ، وأن أواجه الموقف وأفعل شيئا إزاءه وعلى الفور . كما حاولت أن أجنب عاليه وقع هذا النبأ وتأثيره علىّ بقدر المستطاع .

□ رواية صلاح لواقعة أسره

وقد وصف لى صلاح فيما بعد واقعة أسره :

« الواقع أن قصة استسلامى هى « أسطورة » . فبعد يوم الثلاثاء وجدت أنى لن أستطيع أن أفعل شيئا على الإطلاق . كنت أدرك هذا من قبل . وشعرت أنى مثل شخص يحاول أن يسند بناء مائلا بيديه المجردتين .

« الأشبال حاربوا حتى آخر لحظة . وكان اعتقالى هو مسألة وقت ، وكانت التعليمات كما علمت فيما بعد تقضى باطلاق النار علىّ .

« لم أكن أستطيع أن أقدم للناس أكثر من مشاركتهم قدرهم . لقد واجهت المسؤولية التى يفرضها علىّ تكوينى ، وهى رفع معنويات الناس ، لكنى بقيت صوتا وحيدا فى البرية .

« واشتد البحث عنى . ووصل الكتائبيون إلى المنطقة وجعلوا ، بالإضافة إلى رجال سعد حداد والجيش الإسرائيلى ، الحركة شبه مستحيلة . واستمر هذا الوضع ما يزيد على أسبوع .

« كنت آمل أن أظل فى المنطقة ، أن اختفى لفترة دون أن أفقد اتصالاتى ، وأستطيع أن أعيد تجميع وبناء مقاومة تستمر فى الجنوب - فإننا لم نكن لنفتقر إلى الرجال أو الشجاعة أو العزيمة بين اللبنانيين أو الفلسطينيين - بمجرد أن تنقضى الزوبعة الأولى ، مهما كان ثمنها من الدمار » .

فكرت بصوت عال ، تعقيبا على سرد صلاح لتجربة الإفلات من طوق الحصار . . . إن الأرض الطيبة سوف تنبت وتخصب أزهارا وأشواكا جديدة تجعل الاحتلال صعبا ، بل مستحيلا . . .

« وفكرت فى أنى أستطيع أن أجد لى ملاذا فى إحدى الكنائس ومنها دير « عبرا » لبضع ساعات ، وربما أمضيت فيها الليل ، أو استطعت الإفلات .

« كان البطريرك « ابراهيم الحلو » يعرفنى خير معرفة ويبدى لى الاحترام ، ففكرت اللجوء الى البطريركية ، وأصر الصديقان الأخوان العزيزان ، محمود فارس والسيدة زوجته كاملة فارس ، على مصاحبتى . ولسوء الحظ كان البطريرك غائبا واستقبلنا نائبه الأب حنا بنظرة ثاقبة وابتسامة ذات مغزى . كما بدا لى كأنه يحمل لى ضغينة ما ، أجهل سببها ، وأنه يتخذ موقف المتفرج على محنتى . . بل وكأنه يريد تصفية حسابات لم تكن واردة ، إذ اعترف قائلا : « إننا مدينون لك لمعونتك لنا فى الماضى ، فإنه لم يصدر منك أى

أذى بالنسبة لنا بل قدمت لنا الكثير . نعم يمكنك أن تنام هنا الليلة » . غير أنه وبعد دقائق انقلب فجأة وأبلغنى بأن الاسرائيليين على مقربة . . وأنه يترك لى الخيار ما بين أن أخرج إليهم أو أن يأتى بهم إلىّ .

« رددت عليه بأنه ما دام الوضع كذلك ، فلربما قررت تسليم نفسى فى الغد ، وإنى أحتاج إلى بعض الوقت والأمان للتفكير فى القرار والخيار . ولكن رفض إعطائى الفرصة . وبالرغم من عدم معرفة الإسرائيليين بوجودى فى ذلك الحين ، إلا أنه كان يخشى عواقب وجودى فى البطريركية . وكانت الدقائق التالية والقرار الذى تبعها من أصعب ما مررت به خلال حياتى . ورددت عليه . . لا . . لا تجهد نفسك . . فسوف أخرج أنا إليهم » .

وقد شرح لى صلاح فيما بعد أن بغيته فى البقاء على قيد الحياة كانت أن ينقل ويشهد على كل ما عاصره هو وأهل الجنوب من أحداث خلال الاجتياح . . واستطرد يفسر كيف أن « مثل ذلك القرار لا يمكن أن يكون وليد لحظة بل تسبقه دون منازع ساعات أو أيام من التفكير والتحليل ، ووزن الأمور والخيارات والقلق والتساؤل ، تبدو وكأنها دهوراً تمر بالمرء . وفى النهاية وعندما يتحتم اتخاذ القرار يكون ذلك حسبما يصادف فى الفترة الزمنية أو الحالة النفسية التى تدركنا فيها لحظة القرار » .

كان الموقع الإسرائيلى لا يبعد أكثر من حوالى ثلاثين متراً . وقابله الضابط المسؤول عن الموقع بشىء من الاحترام ، بينما تجمع حوله البعض الآخر فضولا . . وتوالت الأسئلة والمناقشة . ومن هناك أُخذ إلى مصنع الصفا (لتعليب الحمضيات) حيث جُمع آلاف المعتقلين . والتحق فى البداية برفاقه من الأسرى الجالسين على أرض فناء المصنع ، ثم أقتيد إلى حيث عزل عنهم داخل عربة إسعاف خشية أن يقوم بتحريضهم ، ومنعه ذلك العزل عن المشاركة فى معاناتهم . . وإن كان قد حماه من برد الليل ومن الوضع الذى لا يحتمل فى الخارج ، والذى لم يكن له لا حول ولا قوة إزاءه . كانت ليلة باعثة على الارتباك ، مست أعماق ضميره حارقة ومنهكة للعقل والجسد حتى بالمقارنة لمعاناته خلال الأسر فيما بعد . وفى اليوم التالى نُقل إلى الداخل إلى معتقل « أنصار » فى زنزانة انفرادية .

□ رسالة من محمود فارس

وكتب لى جارنا العزيز السيد محمود فارس يوم ١٧ يوليو ، أى بعد حوالى شهر من ذلك اليوم الرهيب ، يشكرنى على رسالة بعثت بها إليه من خلال أحد المعارف فى هيئة « وكالة الغوث للاجئين » واستطرد يقول : « لقد أصَبْت فى اختيارك للرسول ، ولعلنا

نتمكن من البقاء على اتصال ، وأن نتبادل الأخبار من خلاله فى المستقبل . أخبارنا كما يلى :

١ - عاد موسى من بيروت يوم الاثنين الماضى ليروى لنا أن عودته كانت أصعب من مصاحبته لك إلى بيروت بمراحل . لقد بقى معنا فى ملجأ بناية السيد سليمان العلى فى منطقة « عبرا » .

٢ - بعد رحيلك ، استمر الاسرائيليون فى زحفهم نحو صيدا ، ومن ثم إلى الدامور ، وطائراتهم تقصف المدينة دون هوادة . وبقى معنا فى بيتكم فى الدور الأرضى أبو جورج وأسرته وأم حسن وعائلتها وأبو أحمد الحلوانى وأسرته . وكانت البناية تهتز مع سقوط كل قذيفة . وفى صباح الثلاثاء فقط أدركنا مدى الدمار الذى أصاب ما حولنا من دور . كما أن الملجأ التابع لمدرسة البنات الثانوية قد انهار ، وبقى تحت أنقاضه أكثر من مائتى قتيل .

وفى اليوم التالى بدأ شخص مجهول يطلق النار على دارنا من البستان المواجه مما جعلنا نغادر البيت إلى أحد الملاجىء القريبة منا .

٣ - فى يوم الأربعاء - التاسع من يونيو - سقطت قذيفة بالقرب منا ، فاندفع جميع من بداخل الملجأ ، ويبلغ عددهم فوق المائتى شخص ، إلى الخارج ، وفى نفس الوقت بدأت الطائرات الإسرائيلية تلقى المنشورات موجهين إنذارهم إلى الجميع ومطالبين بإخلاء المدينة خلال ساعتين ، إذ كانوا قد قرروا قصفها قصفاً شاملا . فعبأنا سيارتنا بما تيسر من المؤن - لم نستطع أن نأخذ معنا أى مياه ، لأنه كان قد تم قطع المياه عن المدينة منذ بداية الاجتياح - وتوجهنا نحو « عبرا » حيث أمضينا ليلة ابتهلنا فيها إلى الله ألاّ يُرينا مثلها .

٤ - فى يوم الخميس دخل الإسرائيليون مدينة صيدا وتوقف القصف .

٥ - عدنا إلى الدار لنجد فيها آثار القذائف فى غرفة الطعام والمطبخ وما تبع ذلك ، ولكننا حمدنا الله على سلامة الجميع ولم نعر الخسائر اهتماما .

إحدى القذائف اخترقت مكتبة صلاح فى داركم .

ظل صلاح على اتصال بنا ، فبالرغم من أنه بقى متنقلا على الدوام ، إلا أنه كان يعود إلى الدار كلما استطاع ذلك ، ولكنه عندما فشل فى الاتصال بالدير « بعبرا » وأخذت حلقة الحصار تضيق يوماً بعد يوم . . كل ذلك بالإضافة إلى حرصه وقلقه على من آووه من الأهالى أثناء تلك الفترة العصيبة ، دفعه إلى التفكير فى احتمال تسليم نفسه ، ولكنه سعى قبل ذلك إلى اللجوء إلى البطريركية .

وفى اليوم التاسع عشر من شهر يونيو حضر إلينا وطلب منا أن نصطحبه إلى مقر البطريرك « ابراهيم الحلو » ، إذ لم يشأ حسب قوله أن يبقى عالة على جيرانه وأهالى الحى . وعندما جاءت لحظة توديع ولدينا أحمد وفادى قال لهما : « بإمكانكما أن تظلا فخورين بعمكما صلاح إذ أنه لم يُهزم ، بل بقى مع رجاله والأشبال حتى آخر لحظة ممكنة » . وسبقته إلى البطريركية للتفاوض .

للأسف لم يكن البطريريك ابراهيم الحلو موجوداً ، غير أن الأب « حنا » تطوع بالمساعدة ، ورحب بأن يبقى صلاح بالبطريركية تلك الليلة . . وإلى أن يتدبر الأمر . فعدت إلى الدار لاصطحاب صلاح ، وإذ بنا نفاجأ بعد عودتنا ـ الى البطريركية ـ بقليل بأن الأب « حنا » قد غير نغمته وصمم على تسليمه ، ولم يبق أمامنا مخرجاً آخر » .

لقد وقعت علىّ كلمات « أبو أحمد » وقع السيف القاطع . . حتى بعد شهر من الواقعة التى وصفها ، وجعلنى أعيش عمق ألمها من جديد .

استطرد السيد محمود فارس يقول فى رسالته : « التفت صلاح إلى كاملة وأوصاها بأخته « ريم » التى لا تزال معنا ، وإن كل ما تركه وراءه لأمانة فى رقابنا . . ومن ضمنها الببغاء كوكو « مرحبا » الذى يؤنسنا ويسلينا ونرعاه . بعد الأيام التى يؤلمنا ذكرها ، اطماننا بعض الشىء لمشاهدة « الجار » على شاشة التليفزيون الإسرائيلى . وبالرغم من كون الصورة غير واضحة ، فقد جاءت ردوده خلال المقابلة واضحة وقوية وصريحة . فقد تحدث عن طفولته فى فلسطين وأيام دراسته الجامعية فى القاهرة ، ثم التحاقه « بفتح » . وتحدث أخيراً وبنفس القوة ، عن التصميم على السلام فى المنطقة وحقوق الشعب الفلسطينى التى لن يتخلى عنها قط . . وهو ابن ذلك الشعب .

بعد ذلك زارنا عدد من المسؤولين اللبنانيين يقدمون استعدادهم لحماية الدار اعترافاً بجميل صلاح وصداقته .

نرجو أن تصدقى وتقتنعى بتأكيدنا بأن صلاح كان راضى النفس والضمير عندما رأيناه لآخر مرة . وقد كنا معه حتى اللحظة الأخيرة » .

نفذت كلمات السيد محمود فارس إلى أعماقى بألم ساحق .

« ترك لنا صلاح رسالة لك فضلنا أن نحتفظ بها إلى أن نلتقى . . خشية ضياعها . وختاما نكرر لك تعازينا بوفاة « والدتنا » فقد كانت أما للجميع . وكم كنا نود أن نكون إلى

جانبك خلال ما مررت به من أيام عصيبة غير أن وجودنا الى جانب صلاح ربما كان يعطيك قسطاً أكبر من الاطمئنان . . وكان أكثر فائدة من الناحية العملية . وإلى آن نلتقى لك منا كل المودة والتحية ودُمْت لأخويك اللذين لن ينسياك أبداً : كاملة ومحمود فارس » .

□ بداية الدوامة

منذ اللحظة التى تلقيت فيها نبأ وقوع صلاح فى الأسر تحول كل شىء إلى دوامة من الحركة والجهد - إلى مسيرات طويلة فى ردهات وممرات المطارات - وإلى التأرجح الحاد بين الأمل واليأس . بدأت الأنباء ترد عن الأحداث فى « صيدا » عقب الاحتلال الإسرائيلى موضحة الفظائع التى ارتكبت خلاله ، وأخذت تتأكد أعداد الذين اعتقلوا ، وازداد تصميمى على ضرورة إيجاد وسيلة للمساهمة ، ولو بشكل متواضع فى تخفيف الألم والقلق الذى كان يسود كل من حولى . فقد كنت على الأقل اتمتع بالحرية وإن كنت مثقلة فى داخلى بكل آلام وخيبات أمل العالم العربى .

كنت أشعر دائما باهتمام وحساسية خاصة تجاه مشاكل الأسرى فى شتى أنحاء العالم - ممن يرزحون تحت أنواع العذاب الجسدى والنفسى . ولم يكن سبب ذلك يرجع فقط إلى تجربة والدى واثنين من أعمامى ، فى السجن فى أحد البلاد العربية لأسباب سياسية لمدة عام وأكثر عندما كنت فى الثانية عشرة من عمرى . كانت مقارنة تلك التجربة المبكرة فى حياتى بتجربة السجن فى كثير من بلاد العالم الثالث قد أرهفت حساسيتى بالنسبة لموضوع حقوق الإنسان . واستحوذ وضع الأسرى العرب الفلسطينيين فى سجون إسرائيل منذ عام ١٩٤٨ على تفكيرى منذ سنوات . وإن كنت لم أقدم شيئا ملموساً فى ذلك المجال . كنت أحمل معى فى حقيبتى وباستمرار مسبحة مصنوعة من بذرات الزيتون التى شكلها الأسرى الفلسطينيون فى الأرض المحتلة . كانت بمثابة تذكرة دائمة وحية لمعاناتهم وحقوقهم المهدرة ، ونوعاً من حبل الصلة الصامتة . أما الآن فقد دمجنى أسر صلاح والآلاف من رفاقه من أسرى حرب ١٩٨٢ ، فى الموضوع بصورة مباشرة . وكنت بالرغم من الوضع أشعر أنه قد زادنى قرباً وصلة عملية بقضية طالما استحوذت علىّ . كانت محاولة الاتصال بلبنان لاستجلاء الأمور مستحيلة . فقد توقفت مسيرة الزمن ، وتجمد معها تفكيرى . . إلى أين ستقودنى الخطوة القادمة ؟ ربما إلى القاهرة ؟ إلى بيتى حيث استكن وأحاول التفكير بهدوء وتركيز .

فى القاهرة اتصلت « بنور » . . زوج « رحاب » كبرى شقيقات صلاح الذى كان فى

دورة عسكرية فى يوغسلافيا ، وقد كان صديقاً حميا لكل منا . كان نور إنسانا ديناميا ملتزما يتوقد ذكاء . فكرت فى أنه ربما تكون لديه أخبار أو آراء ـ بالإضافة إلى إدراكى بأنه سيشاركنى بعضاً من حملى . وعندما جاءت المكالمة الهاتفية طمأننى بهدوء بأن نبأ أسر صلاح لا يمكن أن يكون صحيحاً ، وأنه لابد أن هناك خطأ ما . إذ أن زوجته وولديها الصغيرين كانوا فى صيدا حتى يوم مغادرتهم بتاريخ ٢١ يونيو ، أى إلى ما بعد يومين من الوقوع « المزعوم » ـ حسب رأيه ـ لصلاح فى أسر الإسرائيليين . وقالت لى رحاب إنها كانت على إتصال بأخيها من خلال بعض المعارف إلى ما قبل خروجها . وكانت تتصور أنها لابد وأن تكون قد عرفت بأى شىء يكون قد تعرض له . وأكدت لى ، كما أكد لى زوجها نور أنهما لا يخفيان عنى شيئا ، غير أننى فى نفس الوقت ، وبالرغم من كل ثقتى فى نور ، لم أعتقد أن السيد محمود فارس المعروف بدقته فى جميع الأمور ينقل إلىّ أخبارا لا يكون واثقا من صحتها كل الوثوق . وقد علمت فيما بعد ، عندما استلمت رسالته المذكورة آنفا ـ فى وقت لاحق ـ أن السيد محمود فارس قد عايش الحدث وبقى مع صلاح حتى آخر لحظة من لحظات حريته .

بت أعتقد أن مواجهة مباشرة مع نور ورحاب ربما قربتنى ولو بعض الشىء من الوقائع ، حتى يتسنى لى أن أتبع أسلوبا آخر فى التحرك أكثر جدوى وتحديدا . . فكرت فى أنهما وبالرغم من كل تأكيداتهما كانا بالفعل يحاولان حمايتى من الحقيقة ، وعلى أثر ذلك حزمت حقيبتى واتجهت إلى بلجراد مروراً بعمان . غير أننى بمجرد أن وصلت إلى الأردن ولم ألبث أن استكنت برهة فى صحبة ابنتى وحضورها المطمئن ، إلا وتلقيت مكالمة من القاهرة تنبئنى بأن صلاح قد اتصل هاتفياً ـ وتطلب منى الوجود فى بيتنا فى القاهرة حيث أنه سوف يتصل ثانية ! !

كان ذلك اليوم آخر عهدى بالطمأنينة والراحة لأشهر طويلة تالية . وحتى مشاعرى لم يكن بمقدورها أن تتخذ إتجاها ولا لونا محدداً من الفرحة أو اليأس خلال تلك الفترة . وأصبح الصبر هو شعار الأشهر التالية ، وأصبحت الشهقة اللا إرادية فى مواجهة الأحداث فى لحظات الفرحة أو الخوف أو الصدمة ، هى نمط حياتى وردة الفعل التلقائية .

□ اتصال من الطرف الإسرائيلى

نسيت « بلجراد » واتجهت عائدة إلى القاهرة . وعند وصولى ، علمت من « جهاد » ثانية أخوات صلاح التى كانت تقيم فى البيت خلال أجازتها السنوية من جامعة الاسكندرية حيث كانت تدرس الحقوق بها ، أنه قد حدث سوء فهم كبير فى نقل الأخبار

إلىّ ، وأن صلاح لم يكن هو الذى اتصل ، بل شخص من تل أبيب يقصد تبليغنا أن صلاح بخير . . أنه بالفعل أسير ـ ولكنه بخير . وأن نفس الشخص قد وعد بالاتصال ثانية فى اليوم التالى .

ومرة أخرى اختلطت الوقائع بالخيال . وتصاعد الضغط العقلى والنفسى إلى حد يفوق التحمل . مرة أخرى كان الصبر هو الملاذ الأخير . . الصبر خلال الساعات والأيام والأشهر القادمة . ومر اليوم طويلا مرهقا ، فمن يستطيع تقرير بطء الساعات التى تزحف مثقلة بالقلق . . سوى من يعانى من زحفها المتثاقل ؟

من أصدق ؟ ومن يكون هذا الشخص الذى اقتحم الصورة ؟ هذا العنصر غير المنظور فى الساحة ؟ وما هذه الشبكة الجديدة من القلق والحيرة ـ والله أعلم ماذا أيضا ـ التى أجد نفسى مقودة إليها رغم إرادتى أو تخطيطى ؟ هل كان هذا الشخص المجهول عربياً ؟ هل هو إنسان يوثق به ؟ أم أنه غير عربى ؟ وكيف يمكننى محادثته إذا اتضح أنه إسرائيلى ؟ هل هو شخص مأمون الجانب أم لا ؟ فإن الاسم الذى سجلته جهاد لم يكن واضحاً ولم يشر إلى هويته . يالها من محنة تجمعت فيها الأهوال ، من تلاحق الأحداث : من تفاقم مرض والدتى ، ثم الاجتياح ، والذى تلاه وفاة والدتى ، ووقوع صلاح فى الأسر ، والآن هذا التطور المستجد ! لقد وقع كل هذا خلال أسبوعين على مسرح الهزيمة العربية والمعاناة العامة التى لم يخفف من وقعها سوى بعض البطولات الفردية . ولم يترك لى ذلك ـ مجازا ـ فرصة لالتقاط أنفاسى ، ولا للتفكير . واستمر تصاعد الأحداث بضغطه الرهيب . وأخذ يطن داخل رأسى نداء ملحّ بضرورة العمل والتحرك . . وذلك على أنغام التشويش العام ، ربما أصبت أو لم أصب بالأرق فى تلك الليلة ، لكن أتى الصباح التالى مشحوناً بالتوقعات المشؤومة .

وأخيراً وعندما جاءت المكالمة الهاتفية المرتقبة ـ بعد ما بدت لى وكأنها مئات الساعات من الانتظار ـ تباطأت يدى فى رفع السماعة والرد على نداء من « إسرائيل » . . فأيا كان المتحدث ، هل كان من الصواب أن أجيبه ؟ أم من الخطأ ؟ وهل تعد إجابتى ، إن حدثت خيانة للمبادىء ؟ كان يؤلمنى أن أجدنى وصلاح فى موقف يضطرنا إلى الاتصال من خلال « عدو » إن صح أن يكون الشخص المجهول « عدوا » بالمفهوم العام . كنت أشعر أننى لن أستطيع أن أتخلص من حرج موقف تجنبته طيلة حياتى ـ حتى لو كان صوت المتكلم هو صوت صلاح ، فكيف لى أنا التى كنت أشيح بوجهى كلما رأيت طائرة لشركة « العال الإسرائيلية » فى المطارات الدولية ، وكنت أقاطع البضائع الإسرائيلية ، وحتى

البرتقال اليافاوى ، أن أتحدث إلى شخص من الطرف الآخر . . أو أجرى اتصالا من خلاله ؟

وأخيراً عندما وصلنى الصوت معرفاً بنفسه باسم « آهارون بارنيع » ، ناقلا لى رسالة من صلاح ، كنت لا أزال فى دوامة . وأذكر أننى قلت عندما خف تقلص عضلاتى وبدأت أنفاسى تنتظم : « نعم . . سيد بارنيع لقد كنت فى انتظار هذه المكالمة . وشكرا على النبأ المطمئن » . .

استطرد المتحدث يقول . . « لقد طلب منى صلاح أن أخبرك أنه بخير ، وأنه يعتقد أنك سوف تتفهمين قراره ، وإذا سمحت لى بنقل رسالة شخصية جدا ، فإنه طلب أن أبلغك بأنه باق على العهد وعلى حبك . وقبل كل شىء طلب منى أن استفسر عن صحة والدتك ، ولقد كان فى أشد القلق إذ أنه لم يكن متأكداً من كونك غادرت بيروت سالمة ولحقت بها ، وهى على فراش المرض الثقيل » .

رددت عليه بالقول : « لقد توفيت والدتى فى الثانى عشر من يونيو . . » رد بنبرة ملؤها الأسى : « وكيف لى أن أخبره بذلك ؟ كيف لى أن أنقل له خبراً سيسبب له الألم البالغ ؟ » .

كان الحديث طبيعيا بشكل لا يصدق . لدرجة شككت معها فى أنه كان يدور فعلا ! لم أشأ أن تبدو استفساراتى متلهفة . . فسألت بثقل « كيف هو » ؟ فبالرغم من طبيعتى المنافية للشك والتشكك ، ورد إلى ذهنى أن الموضوع بمجمله كان من الممكن أن يكون خدعة قاسية . . أو حتى مصيدة !

لا ، لا يجب علىّ أن أترك نفسى لدوامة الأفكار السوداء غير المنطقية والمخاوف أن تطغى علىّ وتبتلعنى . يجب علىّ ، بل يتحتم أن أحافظ على توازنى حتى أتمكن من البقاء فى انتظار صلاح ، وترقب أيام أفضل ، وفوق كل ذلك لكى أستطيع العمل بوسائل لم تتضح لى حتى الآن للاختصار من ذلك الانتظار . . وتقريب الأيام الأفضل .

أما الأمر الذى حسم مصداقية المتكلم ، وجعلنى أسكن إلى الهدوء بعض الشىء ، فقد كان جملة أضافها فى نهاية الحديث قال فيها : « إن صلاح قلق عليك بسبب احتمال انزعاجك لرفضه قسمة الورقة قبل سفرك من صيدا » ، وجدت نفسى أكاد أبتسم لا إرادياً . إذ أكدت لنفسى أنه إذا فكر فى إرسال مثل هذه الرسالة إلىّ ، فقد كان بمقدوره أن يفكر ويهتم . إذن فهو بخير . « والورقة » كانت تشير إلى عادة كنت قد استنيتها منذ

زمن مع الأهل ، وهى عادة شائقة تقتضى قطع ورقة مكتوب عليها عبارة « لا إله إلا الله ، محمد رسول الله » نصفين واحتفاظ الطرف المسافر بأحدهما ، بينما يحتفظ الطرف الباقى بالنصف الآخر ، وذلك على أمل اللقاء ، وإعادة جمع جزءى الورقة المشطورة . وقد كان صلاح يعتبرها بدعة لا تتلاءم وروح الإسلام ، ولكنه قد تذكر واهتم وقلق علىّ وسط معاناته .

اكتملت الابتسامة من القلب ، لأول مرة منذ أسابيع ، وقلت : « **شكرا لك . أرجوك أن تبلغه بأننى لم أعد قلقة ، وأننى أعرف أنه سيخرج من هذه التجربة بسلام . وأنه سيجتمع شملنا قريباً . أخبره أننى اتفهم قراره واحترمه . أنقل إليه أن كل من يعرفه يتفهم قراره الاضطرارى ـ بتسليم نفسه ـ ويحترمه ، وسوف يبقون على احترامهم له** » .

لقد كان من الضرورى أن أبعث إليه بما يطمئنه من تأكيدات للحفاظ على معنوياته وعلى ثقته فينا جميعاً . لقد كنت أعتقد دائما منذ سجن والدى فى الرياض عام ١٩٤١ ، أن السجن هو من أسوأ الاختبارات التى يمكن أن يجتازها الإنسان ، وإن كان العرب يؤمنون بأن « السجن للرجال » . . فالسجن يحوى كل المعانى التى أنفر منها وأثور ضدها تلقائيا . . وهى فقدان الحرية والقهر وإذلال الإنسان للإنسان . فكيف كان لى أن اتصور أن صلاح سينضم فى يوم ما إلى صفوف الخمسة والسبعين فى المائة من شعبه ممن وقعوا أسرى لإسرائيل خلال نصف القرن الماضى ؟

مضى السيد بارنيع فى شرح لقائه بصلاح ، وكيف أنه أجرى معه مقابلة تليفزيونية منذ بضعة أيام ، وأنه سوف يعاود زيارته مرة أخرى . ويجب علىّ هنا أن أعترف بأننى مدينة للسيد بارنيع (الذى أصبحنا نعتبره من أصدقائنا ، والذى بادر بخلق تلك العلاقة لا من خلال الدوافع الإنسانية والثقة فحسب ، بل أيضا من خلال مشاركته لكثير من قناعاتنا) . . إننى مدينة له بسلامة عقلى . وأصبح فى ذلك المضمار يستحق إمتنانى بنفس القدر الذى تستحقه به السيدة نورا جريج ، التى تركت طفلتى ذات السبعة أشهر فى رعايتها عام ١٩٥٦ ، خلال أعوام الانفصال والصمت السبعة القاسية التى تلت ذلك . والمرء لا يسعه إلا أن يذكر بالامتنان من صادفهم على درب الحياة من الخيرين وأن يحمل لهم الجميل والعرفان .

□ بنيلوب باقية على العهد

كان الوضع معقداً إلى درجة بدا معها وضعاً غير حقيقى ، وأنه بلغ من التعارض والتناقض درجة جعلت الانبهار بالمعجزة والسعادة والأسى والحيرة تتصارع بداخلى ،

فقد شعرت بعد اجتياز عقبة الاتصال المبدئية بشيء من الراحة . فقد تأكدت إلى حد كبير من مصداقية محدثى وحسن نواياه ، لا من خلال نبراته أو أسلوبه فى الحديث ، بل من الإشارة التى لا تقبل الشك إلى « قطع الورقة » . فلا شك أن صلاح قد تعمد ذكرها حتى يطمئننى على أن الوسيط شخص مؤتمن . وعلى أية حال فقد تصرفت حسب تقديرى بوقار وثبات ، وجاءت كلماتى موزونة ، وإن كنت لم أتعمد حسابها بدقة . وسألت من يبلّغنى الرسالة عما إذا كان من المحتمل أن يلقى صلاح مرة أخرى ، وإذا كان بإمكانه نقل رسالة موجزة منى إليه ، مضمونها سعادتى الكبرى بتلقى أخبار سلامته بالرغم من ألمى للظروف التى يوجد فيها ، وأننى لمعرفتى الحميمة به ، وبمبدأيته وإيمانه ، فإننى لن ينتابنى أى نوع من الشك فى منطلقه أو قراراته . وأننى وجماعته سنبقى فخورين به مهما كانت الظروف ، وأننى أدعو له بمزيد من القوة والصلابة والصبر . . وأن « بنيلوب » سوف تبقى وفيه وفى انتظاره مهما طال الأسر .

كان صلاح من خلال شغفه بالأساطير الإغريقية إلى جانب الأدب العربى يذكر قصة « بنيلوب » التى بقيت فى الانتظار سنوات طويلة عندما رحل زوجها « أوديسيوس » وحتى عاد إليها وإلى بلده . شعرت أن رسالتى هذه ، وإشارتى إلى الأسطورة لن تكون فقط تأكيداً لإيمانى به ، وعامل دعم وتطمين له ، بل إنها ستحمل إليه ذكريات سعيدة أليفة عن حياتنا فى صيدا ، عن ساعات القراءة والنقاش الشيق . . عن أمسيات شتوية قضيناها جالسين على سجادة من جلد الخرفان أمام المدفأة ، عن الأهل والأحباء ، عن الحب والألفة ، عن حديقتنا وحيواناتنا ، عن ساعات الانفراج والابتسام بين ضغط الظروف السياسية ، وعن كل تلك التفاصيل الصغيرة التى تكوّن نسيج حياة مشتركة .

وانتهت المكالمة وانقضت اللحظة . ولم يكن فيها تخل عن قومى أو مبادئى أو قناعاتى . . إنما اعتبرتها إحدى المعجزات على طريق التحرر لا بالنسبة لصلاح فقط ، بل للآلاف من رجالنا . وربما يؤكد العقلانيون والمتشائمون أنه لا توجد فى الكون « معجزات » ، وأن ما نعزوه إلى ما يسمى بالمعجزات إنما هو نتيجة طبيعية لحيثيات أى وضع أو أجزاء أية صورة ، ونتيجة للتفكير والتخطيط والجهد والمثابرة . ولكننى حتى فى أحلك ساعات التشاؤم لم أشك لحظة واحدة فى معجزات قوة عُليا ومخططاتها .

□ صلاح فى التليفزيون الإسرائيلى

عدت إلى عمان لأضع عاليه فى الصورة ، ولكى أوازن شعورى وإدراكى لكل

ما يحدث . كان ذلك فى يوم من أيام شهر رمضان المبارك . وأثناء جلوسنا إلى مائدة الإفطار بدأت نشرة التليفزيون الإخبارية ، وفاجأتنى بواحدة من أكبر المفاجآت وسلاسل المعجزات الصغيرة فى حياتى ، وذلك عند الإعلان عن « برنامج إخبارى خاص » ، فلم أصدق عينى عندما ظهر على الشاشة وجه حبيب ـ كانت رؤيته فى هذا الظرف من دواعى السعادة بقدر ما كانت من دواعى الأسى . كان البرنامج عرضا للمقابلة التى أجراها آهارون بارنيع مع صلاح فى التليفزيون الإسرائيلى . حبست أنفاسى ـ وأعتقد أن جميع الجالسين فعلوا ذلك ـ وأنا أشاهد السحنة المتعبة وإنما الأبية ، والجلسة الواهنة وإنما بثقة وتماسك وهى تعكس الكلمات المتزنة التى كان يتحدث بها .

بدأت المقابلة بسؤال من بارنيع لصلاح عن اسمه وهويته ، واستمر بأسئلة متتالية ورداً مقابلا من صلاح عن حياته منذ أيام الدراسة المبكرة ، ثم الالتحاق بحركة التحرير الوطنية الفلسطينية ، وعمله فى صفوفها . . والحرب فى لبنان ، وحتى لحظة وقوعه فى الأسر ، ثم رأيه فى الوضع الراهن وتصوراته بالنسبة لحل النزاع الفلسطينى الإسرائيلى .

دار الحوار بين صلاح وآهارون بارنيع على النحو التالى :

□ صلاح : **اسمى أسعد عبد القادر ـ سنى تسعة وثلاثون عاماً ، ولدت فى بيت لحم . درست فى المدرسة الابتدائية ثم الثانوية هناك . . ثم تركت بيت لحم وتوجهت إلى القاهرة للالتحاق بالجامعة ، ودرست فى جامعة عين شمس .**

■ بارنيع : ماذا درست ؟

□ صلاح : **درست فى كلية الآداب . . أدب انجليزى .**

■ بارنيع : وكان ذلك فى أى عام ؟

□ صلاح : **كان ذلك بين أواخر عام ١٩٦٢ لغاية حرب عام ١٩٦٧ . وبعد ٦٧ كان من المستحيل أن أعود إلى بيت لحم نتيجة للحرب ، فتفرغت فى حركة « فتح » . كنت عضوا فى حركة فتح . . أو نصيرا لحركة فتح . فى عام ١٩٦٥ عندما كنت طالباً فى الجامعة . . كنت سكرتيراً عاماً « لاتحاد عام طلاب فلسطين » فى القاهرة فى ذلك الوقت ، وعندما بدأت الحرب عام ١٩٦٧ تفرغت بشكل نهائى وكلى لحركة فتح . ولقد كان شىء طبيعى ومنطقى أن أتجه إلى الأرض المحتلة فى ذلك الوقت ، فقد كان لدى تصميما عارما للذهاب إلى بيت لحم ، لأرى أهلى ـ وأرى ما حدث بأية وسيلة من الوسائل .**

■ بارنيـــع : وكيف نفذت تلك الفكرة ؟
□ صـــلاح : ذكرت لك أننى التحقت بالحركة فى ذلك الوقت وأصبحت ملتزما بها . . حاولت عدة مرات أن أصل إلى بيت لحم .
■ بارنيـــع : وهل نجحت ؟
□ صـــلاح : مع الأسف . . فقد كنا فى كثير من المرات نرتد عن المحاولة . . إما عن طريق النهر . . أو غيرها من نقاط الانطلاق إلى الأرض المحتلة . . وذلك بحكم الظروف السائدة .
■ بارنيـــع : إلى متى بقيت فى الأردن ؟
□ صـــلاح : بقيت فى الأردن إلى ما بعد (أيلول) سبتمبر ١٩٧٠ .
■ بارنيـــع : وبعد أيلول ذهبت إلى لبنان . .
□ صـــلاح : نعم . . ذهبت إلى « جرش » . . طبعاً ليس مباشرة . . إذ بقيت فترة فى عمان . . ذهبت إلى جرش . . ومن جرش إلى « العرقوب » (فى جنوب لبنان) حيث كان تجميع صفوفنا وقواتنا هناك . أما عن وظائفى ، فقد كنت عضواً فى قيادة تنظيم فتح فى لبنان ومسؤولا عن المؤسسة المركزية للأشبال والفتوة والزهرات ، وكنت أمارس بحكم تواجدى فى جنوب لبنان الإشراف على « التنظيم الحركى » فى لبنان .
■ بارنيـــع : ومن ثم . . أين كان مركز عملك ؟
□ صـــلاح : كان مركزى فى بيروت . . فى الفكهانى .
■ بارنيـــع : ولكنك قضيت أغلب الوقت فى الجنوب . . ؟
□ صـــلاح : نعم فى الجنوب . أولا لأننى أحب الجنوب . . وكنت أرتاح لزملائى فى الجنوب . . ولأهل الجنوب ، ولأننى لست أحب المدن بشكل عام . . فبحكم نشأتى لا أحب المدن ، وكنت أعمل كل جهدى حتى أنهى عملى اليومى فى بيروت لأعود إلى الجنوب .
■ بارنيـــع : هل ممكن تحكى لنا شو صار عندما بديت المعركة الأخيرة ؟
□ صـــلاح : فى الحقيقة لما بدأت المعركة . . لما بدأ القصف الجوى على بيروت أنا كنت فى بيروت . . فى اليوم الثانى نزلت على صيدا . . كان القصف الجوى العنيف مركزا على صيدا . . طبعا لما تكون أحداث من هذا النوع بأفضل أكون فى الجنوب كما ذكرت لك . . لأننى ساكن فى الجنوب وبأحب الجنوب نفسه وأهل الجنوب . فكان واضح أن هذا القصف الجوى الهائل هو مقدمة لعملية كبيرة ماهواش مجرد عملية

محدودة . . وكنت موجود فى فترة الاجتياح . . بقيت هناك لأن الجيش الاسرائيلى دخل . وبقيت حتى لبعد دخوله بخمسة عشر يوماً .

■ بارنيـــع : متخفى ؟

□ صـــلاح : مش بهذا المعنى . . مش متخفى . . متنقل . . كان عندى مهمتين . . بينى وبين نفسى . . المهمة الأولى أن أتنقل بين الناس اللى بأعرفهم حتى ما يفقدوا الأمل . . لأن كل شىء انهار فى نظر الناس . . وحتى أشاركهم فى مأساتهم . . فى الحقيقة . وكنت حتى متصور إنه كان بإمكانى أن أعمل شىء للناس . أن ما أتركهم ينهاروا . فبهذه الطريقة كنت متخفى . . مش متخفى . لأننى كنت متنقل باستمرار إلى أن بعد أسبوعين أدركت أن هناك مرحلة بكاملها انتهت . وإن - بقى عملى اللى كنت بأقوم بيه - واللى أنا حددته لنفسى . . طبعاً لأن اتصالى بقيادتى ما كان مُؤمن . فكنت أنا محدد مهماتى لنفسى . . تتلخص فى الشىء الأساسى أن ما أخليش معنويات الناس اللى أعرفهم تنهار وأن الثورة لسه بخير . كما كان فى الاجتياحات السابقة . . ولكنى أدركت أنه لا . . أن مرحلة جديدة قد بدأت ، وأن مرحلة انتهت . . وأن العمل اللى بأقوم فيه ما كانش يستحق التضحية . . لأننى كنت بأحكى كلام ، الناس ما كانتش تستوعبه نتيجة لهول الذى حصل . . نتيجة لهول الصدمة اللى صارت . . نتيجة إيمانى وقناعتى الشخصية بأن مرحلة بكاملها انتهت . . وأن وجودى . . صحيح يمكن كان بإمكانى أن اختفى فترة أطول . . لكن وجودى كان عبئا على المدنيين وأنا أحبهم . . صحيح ما اشتكوش وهذا مصدر اعتزازى بهم . . صحيح حمون بأنفسهم . . لكننى كنت أحس بعقدة الذنب كنت أحس أنهم قلقين . . خائفين . . نتيجة تواجدى بينهم مع أنهم ما أشعرونيش بذلك . فمن هذا المنطلق لم يكن أمامى أى مفر من أن استسلم .

■ بارنيـــع : فاستسلمت

□ صـــلاح : فاستسلمت

■ بارنيـــع : هل أنت على معرفة شخصية بقيادة منظمة التحرير الفلسطينية ؟

□ صـــلاح : نعم ، فأنا فى الحركة من ٦٥ . . بالتأكيد أنا على معرفة شخصية بقيادة فتح على الأقل .

■ بارنيـــع : هل لديك شيئا تحب أن تقوله لهم ؟

□ صـــلاح : أشياء كثيرة . . حدّد . . حدّد . .

■ بـارنيـــع : مثلا هنـاك مشكلة حصار بيروت . قيادة المنظمة وجيش الدفاع الاسرائيلي يحاصرها . ما رأيك في الحل ؟

□ صـلاح : والله أنـا مش عارف مـا هي ظـروفهم في بيـروت ، لكن بـالقيـاس للظروف التي عشتها بدقائقها وتفصيلاتها في الجنوب . . وملتصق مع الناس . . أستطيع أن أقدر ما هو الظرف في بيروت . أنـا أعتقد أن هناك مرحلة انتهت . يعني المرحلة العسكرية بمفهومهـا السابق انتهت، المرحلة العسكرية العربية انتهت أصلا من عشـر سنين يـوم « حرب الغفران » المرحلة الفلسطينية استمرت عشر سنوات (بعدها) . فهناك مرحلة عسكرية لدول أخرى انتهت قبلنا بعشر سنوات .

إذن . . . فهناك مرحلة بكاملها انتهت كما رأيتها في الجنوب ، معنى هذا الكلام . . معنى « مرحلة انتهت » ليس معناها أننا نحن انتهينا ولكن أن مرحلة عسكرية انتهت . إنما المرحلة العسكرية السابقة ـ مهما كانت سلبياتها ، ومهما كان رأيكم فيها ورأى الناس فيهـا ـ فقد نجم عنهـا إنجازات سياسية ودبلوماسية وانسانية وحضارية كلها يجب أن نستمر فيها . فأنا أعتقد أن أكثر الناس قدرة على الاستمرار فيها هم الناس اللي حاربوا .

وأنا واثق أن أبو عمار بالذات . . والذى حتى الآن أعتبره قائدي . . مهما كان وضعه . . وأعتبره بمثابة الوالد والأخ . . أعتقد أنه سيتخذ القرار الذى فيه مصلحة شعبنا الفلسطيني . . واضعـا بعين الاعتبـار مأساة الشعب اللبناني . أنا سمعت أن هناك حديثا عن اتفاقية لخروجهم من بيروت . وأنا واثق أن الأخ أبـو عمار ـ الـذى لازلت مقتنعا بـه كقـائد ـ سيـوافق على اتفـاقية تحـافظ على كـرامـة الثـورة والمقـاتلين وتساعدهم على الخروج من بيروت بدون إهانة . كما أنها لن تغلق آفاق النضال السياسي والدبلوماسي والثقافي المستقبلي . أنـا واثق أن الأخ أبو عمار في لحظة استجماعه لكل معاناة شعبنا والشعب اللبناني سيكون بمنأى عن أية تأثيرات لأنظمة أو قيادات قد لا ترى ما أراه أنا .

هناك قيادات تقول فلنحارب حتى آخر رجل . أنا عند اللزوم بأقول لأبو عمار حاربوا حتى آخر رجل ! ولكن انظر يمينك وشمالك وتأكد أن هذه القيادات ، حتى لو كانت زعامات عـربية ، إذا طلبت منـك أن

تنتحر ، تأكد من أنها واقفة معك فى المتراس الأول . . نعم . . فى مثل هذه الحالة قاتل حتى آخر رجل . عندما تكون هذه القيادات معك فى المتراس الأول . . ومش مؤمن لها طريق الهرب . عندما يعرفوا أنهم سيقاتلون حتى آخر رجل . . عندك أنت . . مش عندهم هم .
يجب أن نضع حدا لمعاناة الشعب اللبنانى وعذاب الشعب الفلسطينى .
يجب ألا نربط مصيرنا ببيروت بحالتها الراهنة . اللى شفته فى الجنوب هو أن هناك متغيرات كثيرة حدثت . معنى الأسباب اللى خلت الكثير من شبابنا حتى لا يستمرون فى القتال حتى اللحظة الأخيرة هى معاناة الناس .
أنا واثق من أن الأخ أبو عمار سيتخذ القرار الذى تمليه عليه مصلحة شعبنا . أنا متأكد أن المقاتلين - وهم شرفاء . . والكوادر وهم شرفاء . . سيكونون مع أبو عمار فى قراره الحكيم . وأنا أفضل أن أرى أبو عمار وإخوته أحياء يستمرون فى النضال الذى وضعوا لبناته الأولى ، والذى له انجازات حضارية فى المحصلة . لا يجب أن نتوقع المساعدة من أحد .
ما نتوقعش المساعدة من الدول العربية . . ليس هذا هو الموقف الذى أتحدث عنه عن الحكومات العربية . فهم يظلوا قومى وأهلى . الإنسان العربى يعانى من الحرمان من أبسط الحقوق ! الإنسان العربى بحاجة إلى من يساعده . الله يساعد الإنسان العربى . فاقد الشىء لا يعطيه !
نحن كنا فى « فتح » نعتبر أنفسنا عامل تجميع لجهود العالم العربى . لكننا نلاحظ بعد كل هذه المسيرة أن العالم العربى ممزق كما لم يسبق له فى تاريخه . حتى فى عصور الانحطاط العربى كانت هناك والله معارك يمكن أن نفتخر بها . . . إلا فى هذا العصر . فمن هنا أنا واثق من أن الأخ أبو عمار سيتخذ القرار الصحيح .

■ بارنيــع : حسب تجربتك الشخصية لغاية المرحلة التى أنت موجود فيها الآن . . ما رأيك فى حل النزاع القائم بين الشعب الاسرائيلى والشعب الفلسطينى ؟

□ صــلاح : الحقيقة . . قد تعقد دولتكم صلحا مع مصر التى هى زعيمة العالم العربى كما حدث . قد تعقد اتفاقيات مع كل العالم العربى . لكن قناعتى بأنه ما لم يكن هناك إقرار بحقوق شعبنا فلا أعتقد بأن الصلح والسلام

ممكن . . . هذه حقيقة ! يمكن بحكم الظروف . . ظروفى الآن أقول إن نحن نريد الصلح . . ونحن نريد . . ونريد . . لكن لن توجد القوة التى تجبرنى على قول ذلك مهما بلغت معاناتى لأنى مؤمن بأن الحل هو مع الشعب الفلسطينى ـ مش مع المائة مليون عربى ! نواة الحل . . بذرة الحل . . بذرة السلام مع الشعب الفلسطينى . طبعا الحل على ضوء المعطيات ، وعلى ضوء الظروف الراهنة يجب أن يأخذ بالاعتبار حاجة أساسية لكل من اليهود والفلسطينيين . بالنسبة لليهود يجب أن يعطيهم ، يؤمن ويلبى لهم حاجاتهم النفسية . . الثقافية . . الاجتماعية . . السياسية . . الأمنية . . يعنى . . أن يشعر اليهودى أنه آمن وأن له شخصيته التى يجب أن يمارسها . . وأعتقد أن اليهود من حقهم ذلك بعد المعاناة التى مر بها الشعب اليهودى سنين طويلة . . بدءا بالبابليين . . مرورا بالرومان و« محاكم التفتيش » وانتهاء بالنازية واحتمالات النازية الجديدة فى أى مكان فى العالم . يعنى هذه شغلة أفهمها . كفلسطينى أفهمها !! لكن أيضا الحل يجب أن يلبى نفس الاحتياجات للشعب الفلسطينى . هذا فى مجال النظرية ، إنما كيف فى مجال التطبيق ؟

فى مجال التطبيق واضح أنه كان عمليا جدار أمام الشعب الفلسطينى . فلنقل إن مبادرة الحكم الذاتى هى فتحة فى هذا الجدار . . أنا ما بقول إن فتحة فى هذا الجدار هى الحل . هى كوة . . فترة يمكن بالعمل الدؤوب السياسى والدبلوماسى والحوار مع القوى ذات التأثير . . حتى القوى اليهودية نفسها المؤمنة بضرورة التعايش . . نستطيع بكل هذا أن نوسع هذه النافذة بحيث تكون أكثر تلبية لمتطلبات واحتياجات الشعب الفلسطينى . لا أتكلم عن الاحتياجات المادية . . يعنى كأننا شعب لاجئين . . لا . . بأتكلم أيضا عن احتياجات وطنية ، تخولنا حق فى أرضنا . يمكن أن يكون بالتالى الحكم الذاتى من هذا المنطلق أرضية معقولة للحوار . ومن الخطأ أن نحدد سنوات . يعنى قد يأتى الحل « بالنتيجة » بعد خمس سنوات . . بعد عشر سنوات . . قد يطول وقد يقصر . . إنما الزمن لا يحل مشكلة . الزمن هو بعد حركى ايجابى أو سلبى . . يتوقف على كيف أنت بتحرك الزمن ـ لا نستطيع أن نقول إن الزمن بيحل . . لا . . يمكن الزمن يخلى الأمور تسوء . يجب أن نتحرك

حركة صحيحة عبر الزمن . يجب أن تكون الخطى الأساسية صحيحة .
السلام لا يمكن أن يفرض . حتى لو كان لدى اسرائيل ملايين الطائرات والدبابات والجنود ، وحتى لو كانت لديها قوة سحرية هائلة . . هذه لا تستطيع أن تفرض السلام أو تجعل السلام يسود .
حتى يسود السلام لابد أن تكون هناك روح العدالة . عندما تكون هناك عدالة إذن تصبح هناك امكانية فى الجهتين ، طبعا العدالة ليس من منظور « مايير كاهانا » . . العدالة من منظور شبه اجماع عليه . العدالة من منطلق أن تعيش وتدعنى أعيش . إذا كان لك مخاوفك قد يكون من حقك أن تطمئن وأن تبعد هذه المخاوف . ولكن فى الحقيقة نحن أصحاب المخاوف الحقيقية لأننا نحن اللى أيدينا فى النار . فالمخاوف يجب أن تكون لدينا نحن .
من هنا . . وأقولها يعنى . . لا يوجد للإنسان أصعب من هذا الموقف ، وأن يقول الإنسان رأيه وهو فى هذا الموقف . أعلم أنها ليست عملية سهلة ولم تكن عملية سهلة . أعتقد أنه بدون « هيك » ، ما بيدوم سلام .
قد نسحق . . قد تدمر خيماتنا . . قد نشرد . . قد يبقى الواقع العربى مترديا . لكن مادام هناك طفل فلسطينى سيبقى السلام مزعزعا .
وشىء آخر . . سيبقى الوجود الفلسطينى حتى فى العقل الباطن الاسرائيلى يسبب له عقدة ذنب . لأنه مهما كان اليهودى حاول أن يعطى نفسه حقوقا تاريخية وحججا وإقناع ، لا أعتقد أنه فى بعض اللحظات أن ينسى أن هذا الفلسطينى معه ولو شوية حق !!
أنا بأتكلم فى لحظة مواجهة حقيقية . الأعمار بيد الله . . إنما بدون « هيك » لا أرى السلام .

ومن خلال إمارات المعاناة الواضحة على وجهه تساءلت . . وبشاعة التصورات تعتصرنى . . « ترى ما الذى تعرض له خلال الأربعين يوما الماضية ؟ ما الذى يتعرض له رجالنا وأخواتنا فى الأسر ؟! لقد قال صلاح أنه يتكلم فى لحظة مواجهة حق . . وأن الأعمار بيد الله . . الحياة والموت . . الحياة والموت . صدى رهيب ظل يتردد طنينه داخل عقلى ، وأنا أحاول التماسك بينما تتجاذبنى مشاعر الألم من ناحية ، والاعتزاز من ناحية أخرى .

كانت خاتمة المقابلة التليفزيونية تحمل فى طيات كلماتها المقتضبة ، معنى رهيبا . كانت نداء ورسالة مبطنة للمستمع العربى ، تلميح الى مدى حرج اللحظات التى يعيشها الأسرى العرب ـ وهو أحدهم ـ وخطورة وضعهم .

كان مجمل الحديث دليلا على شجاعة المتحدث ، وهو فى أصعب موقف . وقد شهد بذلك كل من استمع إليه . بل إن شخصا فى الأردن كنت أكن له مودة خاصة ـ رغم أنه كان قد وضع نفسه بمنأى عن تفهم القضية الفلسطينية العربية الجوهرية المقدسة والتعاطف معها ـ بلغنى فيما بعد ومن مصدر موثوق أنه قال لجلالة الملك حسين : « **والله إنه رفع رأسنا عاليا بحديثه وإن كان يصعب علىّ الاعتراف بذلك** » !!

كانت المعاناة الفردية والتألم من الصدمة القومية العامة قد دَمَغَتْ نبرات صلاح بحزن ، ولكن اليأس لم يكن قد تطرق الى نفسه ، فقوله : **إن النضال لتحرير الأرض بشتى وسائله سوف يستمر مادام بقى هناك طفل فلسطينى** ، **كان تحليلا صحيحا وتنبوءا بما يحدث اليوم . . وبيطولات وصمود وانجازات « أطفال الحجارة » الذين هبوا وهم عزل إلا من الإيمان بحقهم . . ومن « حجارتهم » للتصدى لبطش الاحتلال الغاشم . .** ولترجمة أمانى شعب إلى واقع بهر العالم ونال تأييده .

٥ رحلة إلى « الأرض المحتلة »

كان السيد بارنيع يتصل بالقاهرة بين الحين والآخر محاولا طمأنتى . وخلال إحدى تلك المكالمات ، سألته بعفوية لا تخلو فى نفس الوقت من التردد : « هل .. يمكننى أن أرى صلاح ؟» .. وبالرغم من إدراكى استحالة الفكرة لأكثر من سبب ـ شعرت بفرحة متحفظة عندما رد السيد بارنيع قائلا : « لربما أمكن ذلك .. على أن استفسر ... »

عشت نهبا للقلق ، ولكننى لم أكن لأترك نفسى عرضة لعاصفة تخل بكل توازنى وتدمرنى إذا ما انسقت لتياراتها . وصممت أن أضع ثقتى فى الله ، وأن أجدد عهدى بتسليم مصيرى له . فلربما كانت هذه فرصتى لزيارة باقى الأسرى .. أو بعضا منهم على الأقل ، والاطلاع عن كثب على أوضاعهم وتحديد احتياجاتهم ، وبلورة منهج عمل منظم ومجد من أجلهم ، وترتيب لجنة كاملة من محامى الدفاع لتتولى شؤونهم .

منذ تلك اللحظة توالت الأحداث ، وكان علىّ أن أواجه القرار الصعب بمفردى . فمهما كان سوف ينجم من ردود فعل أو ملابسات لاحقة ، كانت هناك حقيقة واحدة واضحة لا تقبل الجدل بالنسبة لى ، وهى أننى مدينة لصلاح بمحاولة الاطمئنان الحقيقى عليه ، فى حدود الامكانيات والظروف المتاحة والفرص السانحة ، ومدينة لنفسى أيضا بحق ذلك الاطمئنان . ومن خلال ساعات من المعاناة فى وزن الأمور ، تأكد لى بصورة قاطعة ، وليس من خلال تبريرات أو إيحاءات ذاتية سهلة أن ما اعتزمت القيام به لم يكن قرارا خاطئا ، دوافعه مجرد تبريرات « منطقية » أو « عقلانية » لرغبة ذاتية بحتة .

كنت بالطبع قلقة بالنسبة للغير . فإننى ـ بدون أن أنصب نفسى كشخصية ذات

أهمية ـ كنت دائما أحاول أن أكون مثالا معقولا للمرأة العربية ، وكنت أعتقد أن أبناء هويتى يعتبروننى كذلك . لذلك فإنه من الصعب علىّ أن أتخذ أية خطوة أو قرار ربما يكون فيه إخلال بثقتهم فىّ . إذ أن إيمانى بكل ما هو « عربى » وحبى له كان ـ وسيبقى دائما ـ عميقا ولا متناهيا ، بل هو نبراسى فى الحياة .

ابتهلت إلى الله أن يلهمنى الصواب . وفيما بعد ، عندما بدأت الأحداث تتوالى وتتبلور ، أصبحت لدىّ قناعة راسخة بأنه سبحانه وتعالى كان يلهمنى ويهدينى فى خطواتى ، وبأن قرارى الأول لم يكن خاطئا . وفى ضوء ذلك فإن أى حديث أو إشارة إلى ما عانيته من العذاب الذهنى خلال تلك الأيام العصيبة سوف يبدو مدعيا ، ومن نافلة القول . وكانت المفاجأة حين أبلغنى آهارون أن الموافقة على الزيارة قد تمت . لكن صلاح رفض الفكرة من أساسها ، وسبب الرفض علاوة على حرصه علىّ ، أنه يرفض أى معاملة خاصة متميزة عن غيره . وزاد رفضه من حيرتى وقلقى ، وابتهلت الى الله أن يلهمنى الصواب وأن يهدى خطاى . وبعد أيام خلتها كالدهور من التفكير المقرون بالمعاناة والحيرة والتمزق ، قررت أن أزور صلاح . فإنسانة لها مثل قناعاتى الراسخة والتى طالما اختبرتها السنين والأحداث ، لا يعقل أن تقف مكتوفة فى حين يعانى أقرب الناس إليها والآلاف غيره فى السجون ، فى حين كانت قياداتهم تقاتل بضراوة فى بيروت المحاصرة والمعزولة عن العالم . وكان من المستحيل أن اتصل بهم هناك .

كان علىّ بعد ذلك أن أصارح إحدى قريباتى فى مصر بما عزمت عليه . . إذ كنت فى حاجة إلى من يساعدنى فى الترتيبات اللازمة بالنسبة للحصول على تأشيرة وإذن سفر وتذكرة . . وغير ذلك من التفصيلات الصغيرة التى كانت تبدو كخيال غير واقعى أمام الخطوة الكبرى نفسها : ولكن البرنامج وخط السير تغيرا فى اللحظة الأخيرة . . وبعد استشارة وموافقة السلطات المصرية . استشرت ابنتى عاليه ، وكانت كما عهدتها شجاعة ورائعة فى منطلقها وموقفها وتفهمها ووزنها للأمور . أما بالنسبة لوالدها ، فقد اعتزمت إخباره بعد عودتى . . الأمر الذى حدث بالفعل . وكان استغرابه مقرونا بالسؤال عن سلامة صلاح باهتمام .

وأخيرا حل يوم السفر إلى عاصمة أوروبية . كنت أقف بالفعل على حافة المجهول . .

واتصلت بصديقة عربية تقيم وتعمل فى عاصمة أوروبية أخرى ، أطلب منها مرافقتى حتى ساحة السفر . فقد كنت فى أشد الحاجة إلى إنسان ذى عقل واتزان وشعور

قومى أشاركه مشاعرى حتى اللحظة الأخيرة . كنت واثقة من أننى لم أقدم على ما أنا مقدمة عليه بدافع من المغامرة . . أو السفسطة السياسية من حب السلام أو التعايش . . وما إليه ، بل لاتخاذ خطوة نحو القيام بمهمة انسانية بحتة ، وبالرغم من ذلك شعرت أننى فى حاجة إلى رأى صلب متزن . ولسوف أبقى مدينة لها ولصداقتها الحقة ورفقتها ما حييت .

ورغم استحالة الاتصال بقيادة منظمة التحرير الفلسطينية المحاصرة فى بيروت ، فقد كنت أؤمن بأنهم سوف يوافقوننى على قرارى من خلال معرفتهم بصلاح وتقديرهم لالتزامه نحو قومه ومبادئه وحركته . وقد أثبت ذلك مباركتهم التى جاءت فيما بعد ، ومساندتهم لى خلال عملية تبادل الأسرى وما سبقها أيضا من مساع وخطوات شائكة . وقد أكدوا لى ـ أبو عمار وأبو جهاد وغيرهما ـ بأنه لا يمكن أن يكون هناك « نقد » عربى مقبول لزوجة تزور زوجها الأسير . وأن ذلك من حق أية زوجة ، أو أفراد أية أسرة حتى لو كانت الزيارة إلى اسرائيل .

□ وأخيرا حانت ساعة الذهاب لإسرائيل

أمضيت مع صديقتى وهواجسى ليلة كانت هى أطول ليلة فى حياتى ، ورحت اتساءل هل تسير الزيارة بشكل عادى ؟! زوجة تزور زوجها المعتقل ؟! أم أن الأمر كله لا يعدو أن يكون خدعة أو فخا ؟! هل سأجد آهارون المناصر لحقوق الشعب الفلسطينى وزوجته فى انتظارى فى المطار كما وعد ؟ أم سأجد جمعا من الصحافيين والمصورين ؟! أسلمت أمرى لله عز وجل .

وأخيرا حانت الساعة ، فتوجهت إلى المطار ودخلت بخطى ثابتة . . بقدرية . . أم بشجاعة . . لست أدرى . إذ ماذا يسمى المرء تلك القوة الخفية التى يجدها بداخله فجأة عند مواجهته اللحظات الحرجة أو بالأحرى المصيرية . لقد نسيت ، لحسن الحظ ، كثيرا من تفصيلات تلك الدقائق الأخيرة قبل ركوب الطائرة التى أقلتنى إلى مطار اللد بالقرب من حيفا ، إذ يبدو أن هناك داخل النفس البشرية طاقة للحفاظ على المرء وسلامة عقله . . تدفع بما لا يتقبله العقل من أحداث أو تجارب إلى هوة النسيان المطلق .

ودّعت صديقتى وسرت نحو الباب الداخلى للركاب فيما يشبه الذهول من فرط محاولتى الاحتفاظ بالهدوء . وكنت أرى من حولى ، وفى طوابير شركات الطيران أفواجا من إخوانى العرب من شتى الأقطار . كنت موزعة بين أن أشيح عنهم بنظرى ، إذ قد يتعرف

علىّ أحدهم ، وبين أن أحدق فى وجوههم الحبيبة التى ربما تكون خط النجاة الأخير بالنسبة لى . فبالرغم من إيمانى بما كنت مقدمة عليه وبدوافعى ، كنت ما زلت أتساءل بينى وبين نفسى : « **هل أنا مقدمة على الهلاك . . المادى والمعنوى ؟! . . هل أنا هاجرة لقومى وجماعتى . . ؟!** » فيالها من لحظات مزجت ما بين بساطة الخطوات العملية والمعاناة النفسية الرهيبة !

قدم المشرفون على تفتيش الأمتعة اعتذارهم لهذه الخطوة الضرورية . . التى ماأزعجتنى ، فقد كنت قد اجتزت الشكليات نفسيا . غير أن منظر الحراس ـ إن كانوا اسرائيليين أو حتى محليين ـ أثارنى بشدة . الحرب . . والأسلحة . . والعدوان والهزيمة . . والمعاناة بالنسبة للجميع كلها صور لانعكاسات لازمتنى شهورا ، فقد كانت « الجرعة » أكبر من أن أستطيع تحملها من جديد . .

وكم تعددت علىّ بعد ذلك الانطباعات والصور المتلاحقة بكل ما فيها من مفارقات ومتناقضات من مطار إلى آخر خلال الأشهر الطويلة التالية !!

كان شعورا غريبا وغير مستساغ أن اتقدم إلى موظف الجوازات بهوية ليست هويتى . . وكنت لا أكاد أصدق السهولة التى كنت اقترب بها من المجهول . . الذى بدأت أبعاده تتضح عندما لاحظت بالقرب من الطائرة أن معظم الركاب كانوا إسرائيليين .

جلست فى الطائرة فى الصف الأمامى بجانب النافذة من الجهة اليسرى . . ولحسن الصدف كان ذلك فى وضع اتمكن فيه من رؤية مبنى المطار والمستقبلين لدى الوصول . . وتلاطمت فى خضم مشاعرى الأحاسيس المعقدة المتضاربة بحيث أننى لا أريد الآن العودة إليها ومحاولة تحليلها ، غير أننى اتمنى لو كنت سجلت بعضا منها فى حينها وخلال الرحلة . ومما أذكره أننى كنت أتساءل عما إذا كنت سألاقى أمامى عند وصولى عدسات تصوير تزيد من تعقيد الموقف ومن إرباكى ؟! . . وكنت أردد لنفسى بأنه مهما كانت الظروف أو المفاجأة التى قد ألاقيها ، فإنه يجب علىّ أن اتعامل معها بالثقة والهدوء اللذين تمدنى بهما قناعاتى . . فالأرض التى أنا على وشك أن أطؤها أرض عربية أولا وآخرا . . مهما سُمّيت اليوم .

وأخيرا أذاع ربان الطائرة أننا على وشك الهبوط فى مطار اللد . غمرنى شعور غريب بالفرحة . فإن هذه الأرض ستبقى دوما بالنسبة لى أرض فلسطين المقدسة . وعادت المشاعر تتضارب فى داخلى . . مشاعر الأسى والغضب الحالى ، والطمأنينة والسعادة فى

الماضى عندما كانت القدس قدسنا . . واعتزمت ألا أفكر خلال الثوانى القادمة بأن القدس التى توالى عليها الاحتلال خلال القرون السابقة ، لم تعد « قدسنا » ، وأنها واقعة تحت احتلال جديد . . وأننا محرومون من زيارتها .

نظرت من خلال النافذة . . لعلنى ألمح صلاح . . بالرغم مما فى الفكرة من استحالة . فقد قال السيد بارنيع : « سوف نكون فى المطار لاستقبالك » . وكنت أسأت الفهم وادخرت ذلك البصيص الضئيل من الأمل . . وكم بدت لى توقعاتى خيالية فيما بعد !! فكم كانت نظرتى للوضع ولواقع الأسرى المرير ساذجة !!

لن أبالغ فى النزعة المأسوية أو الدراماتيكية ، أو أقول إننى شعرت بخيبة أمل عميقة أو بالانهيار . فقد ذكّرت نفسى أن الحل الوحيد هو أن أواجه الأمور كما أجدها وباتزان ووقار . كان يكفى أننى لم أجد فى مواجهتى صحافة ولا أضواء ، وأننى لمحت عن بعد ـ وأنا أتجه نحو درج الطائرة وأهبطه ، بشىء من الارتياح النسبى ـ شخصا يرمقنى بابتسامة خجولة . قلت محدثة نفسى : « لا شك أن هذا هو السيد بارنيع وأن تلك السيدة الأنيقة زوجته . » وكنت لا أزال فى حداد على والدتى . . أرتدى السواد . . فقد كان عالمى الخاص والعام كله سواد !!

□ الهبوط للأرض الحبيبة ولقاء صلاح

هبطت إلى الأرض الحبيبة وتقدم الشخصان نحوى وحييانى باحترام ، وعندئذ اكتشفت أن السيدة التى ترافق آهارون بارنيع ، موظفة فى وزارة الخارجية ، وقد تكفلت بمرافقتى فى المطار . . بينما تولى السيد بارنيع شؤون الجوازات والأمتعة . وكانت صدمة أن أجد أى شخص من المسؤولين مهما قلت وظيفته .

كان الوضع كله محرجا ، وبالتالى مزعجا ومربكا ، غير أن السعادة الغامرة بوقوفى على تلك الأرض التى لم أتوقع أننى سأحيا لأطأها ثانية بعد احتلال ١٩٦٧ ، جعلتنى اتسامى عن أى تفكير آخر . فلقد أحببت فلسطين منذ طفولتى . . فلسطين بتاريخها وتراثها ، بروايات الغزوات الصليبية والبطولات العربية التى تصدّت لها وهزمتها بقيادة صلاح الدين الأيوبى . . وبكل مآسى أهلها ومعاناتهم فى سبيل وطنهم وقضيتهم العادلة . . تلك القضية التى كنت منذ الصغر آمل الإسهام فى خدمتها . فلقد كان وجودى على تلك الأرض إحدى منّات الله سبحانه وتعالى ، بصرف النظر عن أى شكل أخذت . . أو فى أى ظرف مرير جاءت .

غير أننى شعرت فى نفس الوقت ، وبالرغم مما وصفته سابقا ، وكأننى كيان أجوف ، لم يزل جاهلا بما سوف يلاقيه . استمرت السيدة فى حديث لطيف ولبق . . وركزت أنا بديهيا على وزن ردودى . وكان الظلام يكتنفنا خلال الطريق ، ولم يكن بإمكانى أن أرى ما حولى من معالم . ولربما كانت نعمة أخرى ألا أجد الفرصة منذ أول ساعة لأنهل المزيد من جو ومرئيات البلد الذى يطوى أجمل الذكريات بين أرجائه . شعرت بأن الطريق الى الفندق قد طال ، وبدأت الأنوار تخفت كلما ابتعدنا عن المطار . واستنتجت من الأصوات حولنا ، ومن الهواء بأننا توقفنا بالقرب من البحر . وعندما هبطنا من السيارة وجدت فى انتظارى غرفة تطل على البحر ورمال الشاطىء . وخيم علىّ شعور بالارتياح النسبى بعد الوصول الى هذا المستقر المؤقت . وبعد أيام من التوتر العنيف . . وما سبقه من حزن وأسى ، كان المجهول لم يزل أمامى . . ولكن كانت هذه محطة ووقفة لالتقاط الأنفاس . **وبعد حوالى نصف الساعة ، سمعت قرعا على الباب ، ودخل السيد بارنيع ومعه صلاح .**

لم أكن لأصدق عينى بأن صلاح كان يقف أمامى سالما . فقد كانت الأنباء والانطباعات التى عشتها فى الأشهر الأخيرة متضاربة وغير متكاملة ، بحيث أثرت على توقعاتى . . التى كانت أيضا متضاربة .

وما أن تركنا بارنيع وحدنا حتى أشار صلاح إلىّ بحركة من يديه فهمت منها أنه يريد قلما وورقة ، فى حين استمر فى السؤال عن الأهل والبيت . . ناولته قلما وورقة من حقيبة يدى . وبدأ يكتب عليها ـ مستمرا فى نفس الحديث عن شؤون عائلته ، وأعطانى الورقة وقرأت فيها . . **« استمرى فى الحديث بشكل عادى عن الأهل والبيت . . الخ ، بالتأكيد الغرفة مرصودة بآلات التصنت . . سأعطيك ورقا لا تقرأيه الآن بل انتظرى بعد أن يعيدونى إلى الزنزانة » . ما أن انتهيت من قراءة الورقة حتى خلع حذاءه وبسرعة هائلة** سحب من تحت جوربه أوراقا مطوية دفعها إلىّ حيث وضعتها فى حقيبة يدى .

واستمر حديثنا لمدة حوالى نصف ساعة . . فتحدثنا وتحدثنا . . محاولين ضغط أحداث ومشاعر وأسئلة وتساؤلات غطت أحداث شهرين وأكثر فى دقائق قليلة . . كل هذا وخطوط القلق والألم العميق تسيطر على نفوسنا للصورة العامة ، كما للخاصة . بيروت . . الجنوب . . بيتنا فى صيدا . . أهلنا . . أصدقاؤنا . ومستقبلنا المجهول .

وأخيرا تحدثنا فى برنامج اليوم التالى . فقد كنت لا أعرف شيئا عن مدة الزيارة وعن

الفترة التى سأتمكن من رؤية صلاح فيها . وكان الاحتمال الأكبر هو أنه سيعاد إلى سجنه فى أى لحظة . وبالفعل حضر الحراس لاصطحابه بعد فترة قصيرة .

وكانت الصحف اللندنية قد كتبت عن أسر صلاح تحت عنوان : « رجل عرفات الأول يقع فى الأسر » . وقالت إنه ربما حوكم وأدين « لجرائم » اقترفتها منظمة التحرير الفلسطينية ـ على حد قولها !! وفى الزنزانة ، كانت هناك محاولات متكررة من قبل السلطة لإقناعه بالذم فى قياداته ، وبأن يصرح خلال مقابلته التى أذيعت فى الإذاعة والتليفزيون الإسرائيلى ، أن « أبا جهاد » قاتل أطفال أبرياء . . . الخ . وقد سألت نفسى : « هل يا ترى هذه الصورة البشعة لقياداتنا وشبابنا صورة راسخة فى أذهان الاسرائيليين ؟! أم هى أسطورة دعاية يعرفون عدم صحتها ويختلقونها ويروجوها لنشر الكراهية والذعر بين أفراد شعبهم ؟! » فأنا التى عشت بين الفلسطينيين الملتزمين بقضيتهم أعواما طويلة ، لم ألمس منهم فى يوم نبرة حقد أو قسوة . . حتى نحو عدوهم . وإننى لأذكر حادثة رواها لى أحد قادة مجموعة فدائية تغلغلت داخل الأرض المحتلة . . كيف أنهم وصلوا ـ بعد قطع طريق تحف به المخاطر ـ إلى بيت على أطراف إحدى المستعمرات . وعندما هموا بتنفيذ خطتهم ، رأوا فجأة من خلال نافذة مضاءة ، ضابطا إسرائيليا يجلس إلى عائلته . فكانت ردة الفعل التلقائية لديه أن وجه التعليمات إلى رجاله بالإحجام عن تنفيذ العملية والعودة من حيث أتوا ، ولم يضعف أو يرجع عن قراره أمام شبابه الذين تجشموا أخطارا بالغة للوصول إلى تلك النقطة . قال وهو يروى التجربة : « لم يكن باستطاعتى على الإطلاق أن أقتل أو أن أيتّم هؤلاء الأطفال بأى ثمن ! فحتى الحرب يجب أن يكون لها أخلاقياتها » . ولم يكن الراوى ـ من خلال معرفتى الوثيقة به ـ من المذبذبين فى قراراتهم ، بل كان من أبرز أفراد الصف الثانى فى القيادة ، والمعروفين بالتزامهم وشجاعتهم . وقد كانوا يواجهون الخطر يوميا ، ويردون على العدوان بشراسة . ولكن القتل عمدا ، أو بدافع الانتقام والقسوة لم يكن ضمن مفاهيمهم أو ممارساتهم . . بل أمرا يحرصون على تجنبه ما استطاعوا . وبذلك اكتسبوا احترام كل من واكب سلوكهم وقضيتهم عن كثب .

فى اليوم التالى ، تقابلنا فى جو طبيعى . . إن صحّت التسمية فى مثل ذلك الظرف . وكان واضحا أن ثمة جهدا كبيرا قد بذل لتوفير ذلك الجو . ولا شك أن التناقض والمفارقة بالنسبة لصلاح الذى انضم إلينا آتيا من الزنزانة الانفرادية ، والذى كان يواجه مستقبلا مجهولا تمام الجهل ، كانا كبيرين وقاسيين . كان حديثنا صامتا فى معظم الأحيان بالنظرات وتعبيرات الوجه . وكان صلاح صريحا فى آرائه وتعليقاته على تجربته . . وانعكاس كل ذلك على سياسة إسرائيل . ولقد قال من بين ما قاله عما واجهه : « إنهم (أى الاسرائيليين) قساة بلا رحمة ، إنهم لا يعرفون معنى الالتزام أو كلمة الشرف » .

□ زيارة لبيت بارنيع

ويبدو أن السيد بارنيع استطاع أن يحصل على إذن بأن تتم مقابلتى مع صلاح فى بيته . ولم نمانع فى ذلك حيث كان يحدونا الأمل فى أن تكون الرقابة أقل ، وبالتالى أن نتبسط أكثر فى الحديث .

وفى طريقنا لدار السيد بارنيع ، تحدث صلاح بإسهاب عن تجربة الأسابيع الماضية. قال راويا تجربته : « كان اختلاط المكان وجهلى المبدئى به قد أعطانى شعورا بالمزيد من الضياع ، فكلما وجد المرء فى بقعة لا يستطيع تحديدها جغرافيا ، يزداد قلقه ويهتز شعوره بالتوازن ، وبذلك أصبحت ضرورة تحديد موقع زنزانتى أمرا بالغ الأهمية بالنسبة لى . ولم تكن العناصر القليلة التى أعرفها لتعطينى فكرة قاطعة عن مكان سجنى . فأولا ، كان فقدان الحس بالمواقيت الزمنية قد بدأ يشكل لدىّ نوعا غريبا من العذاب ، ولكنه خف وتضاءل عندما تمكنت من التوصل إلى تحديد تقريبى للمواقيت ما بين الفجر والليل ، وتخلصت من جزء كبير من قلقى تدريجيا وساعدنى فى ذلك خلفيتى ومنبتى . . إذ كنت أقول لنفسى : « إننا فى قبيلتنا . . وفى منطقتنا التى تسمى « التعامرة » ـ وهى البرية التى تحيط ببيت لحم ـ لم نكن نحسب الزمن بالثوانى أو الدقائق والساعات ، بل كنا نبدأ يومنا عندما تظهر نجمة الصباح فى الأفق ونحسب الوقت بعد ذلك تبعا لموقع الشمس فى السماء . . حين تتوسطها . . أو ميلها باقى ساعات النهار . . إن الدقائق والساعات لمن اختراع البشر . . من اختراع الانسان وعقله الخلاق لمحاولة الغور فى أسرار المطلق والتعامل مع رهبته . أما فى الزنزانة . . فإن زقزقة الطيور المرتبطة بفترات زمنية معينة مثل الفجر أو الغروب . . يعنى أن يوما جديدا قد أشرق أو آل إلى المغيب . أما الفارق الذى كان يحدد الساعات فيها بين الشروق والغروب فى الزنزانة ـ التى كانت تضاء بالكهرباء ليلا ونهارا ـ فكان يعاون على تحديده تقريبيا مدى ازدياد ضجة السيارات وخفوتها ، كما وجدت مؤشرا ساعدنى على التحديد يتمثل فى شعاع رفيع جدا كان يتسلل إلى داخل الزنزانة ، ويطغى على الضوء الصناعى الذى كان يغمرها أربعا وعشرين ساعة متواصلة . وكنت أتخيل فى بعض الأحيان أن شعاع الشمس هذا ، كان حبلا من حبال الطبيعة . . أسقطته فى الزنزانة لكى اتسلقه إلى الحرية أو لأعبر به تلاحق الساعات الصماء . . فكنت أتابع رحلة الشعاع نصف الدائرى على الحائط . . وأحاول خلق ساعة شمسية وهمية دون خطوط . . . .

ثم جاء يوم نجحت فيه فى الاتصال بجارى فى الزنزانة المجاورة عن طريق الدق على الحائط . ومن خلال هذا النوع من الاتصال « اللاسلكى » البدائى ، علمت أن السجن يقع فى مستعمرة تسمى « رامات جان » .

لم يكن الاسم يعنى شيئا بالنسبة لى . . ولم اتمكن من تحديد موقعها على خارطة فلسطين المنطبعة فى ذهنى ووجدانى . . إلا أنها كانت نقطة ارتكاز وبداية بالنسبة لى . وأخيرا بدأ الموقع الحقيقى للسجن يتضح لى بالتحديد فى اليوم الذى أخذونى فيه للقاء مندوب الصليب الأحمر الدولى فى موقع آخر . فأثناء سير المركبة بنا ، كانت عيناى تصارعان العصابة السوداء فى محاولة اختراقها وتحديد الاتجاه الذى كنا نسير فيه . ولكن الأمر كان مستحيلا ، فقد كان الموسم منتصف الصيف ، وكانت الشمس تتوسط كبد السماء . وتسابق عقلى مع عيناى فى محاولات استجلاء الاتجاه . . ولكن حتى عندما أزيلت العصابة من فوق عينى ، لم يساعدنى ذلك فى بحثى ، إذ أننى لم اتعرف على ما حولى . . . .

وعندما سألنى مندوبو الصليب الأحمر عن مكان احتجازى ، ذهلوا لردى ووصفى له وقالوا : « لا يمكن ذلك ! لابد وأن تكون فى أحد السجون التى نحاول أن نجدها منذ عشرة أعوام . . مر من خلاله كثير من السجناء ، ولكن أحدا منهم لم يتمكن من تحديد المكان . . . فالسجن مركز احتجاز غير قانونى يتعارض وجوده والقانون الدولى ، إذ أنه لا يسمح لنا بزيارته . غير أننا آسفون . . ولا يمكننا عمل شىء بالنسبة للوضع القائم ! »

منذ تلك اللحظة زادت رغبتى فى معرفة موقع السجن . غير أن لقائى بمندوبى الصليب الأحمر كان بمثابة سراب كنت قد بالغت فى تعليق آمالى عليه . . إذ كنت قد تصورت أن نجاتى سوف تكون من خلاله . كانت تلك اللحظة من أعمق ساعات يأسى ، إذ تبلور فيها عجز الخير والحق أمام الشر والباطل ، فى ظروف ترتكز فيها اللاأخلاقية على كل امتيازات السلطة والدهاء المتوفرة لها بحكم جبروتها . فهاهم مندوبو هيئة الصليب الأحمر الدولية ، وهى أكبر مؤسسة أبرزتها البشرية للحد من عذاب الإنسان ، يجلسون أمامى بنفس منطلق وكمية العجز والإحباط اللذين أشعر - أنا السجين المكبل - بهما . لقد بدوا لى بنفس وهن وهشاشة شعاع الشمس . . زائرى اليومى الذى كنت آمل أن اتسلق من خلاله إلى الحرية . . . إلى أن عرفت منهم أن لقاءنا يتم فى سجن عسقلون ، وأنه المكان الذى قد نقلونى إليه من سجنى المجهول !

كان خيطا واهيا ، ذلك الذى قدموه لى . . فى مثل زئبقية الشعاع ، الذى كان يمتاز بأن نوره كان يبزغ علىّ بالأمل - مهما كان ضئيلا - كل صباح . ولكننى لم استسلم لليأس ، إذ أصبح لدىّ منذ تلك اللحظة معلومة جديدة ومؤشر جديد . . عسقلون !!

فى طريق العودة إلى السجن . . والعصابة تضغط على عينى من جديد ، كنت أشعر بدفء الشمس فى ظهرى . كان ذلك يعنى أننا نتجه شمالا . بعد فترة من السير على

الطريق ، تحرك دفء الشمس من كتفي الأيمن إلى أعلى عنقي مما دل على أننا كنا نسير في اتجاه شمالي ـ شرقي . ولم تستغرق رحلة العودة إلى السجن أكثر من نصف ساعة مع العلم بأننا لو أخذنا بعين الاعتبار مدى سرعة السيارة ، وبضعة الأميال التي قطعناها بالإضافة بقصد التمويه ، كانت المسافة لم تستغرق أكثر من ثلث ساعة ، فالسيارة لم تتبع الطريق الساحلي إلا لفترة وإلا كنت سمعت صوت الأمواج وشعرت بالرطوبة . إذن ، فقد كان اتجاهنا نحو التلال .

أصبح شوقي للعودة إلى زنزانتي كشوق المسافر العطش الذي يعرف أن هناك ينبوع ماء في متناوله . وفور عودتي التقطت نسخة « العهد القديم » التي كنت قد أصررت على الاحتفاظ بها ، إذ كان المجلد يحتوي على خارطة لفلسطين ومقدساتها . حصرت الموقع على الخارطة ورسمت حوله مثلثا ، وأصبحت أعرف بالتقريب أين يقع السجن .

في نفس الوقت كان يلازمني شعور غريب بأنني كنت أعرف هذا المكان في السابق . . وأخذت أتساءل لماذا كان يفجر في ذكريات الصبا ؟! وبقي السؤال يلاحقني ويزج بي في دوامة مضنية تنتهي بي إلى الشعور بالإنهاك . . كذلك الذي يصله المرء بعد مباراة شطرنج أو حل معضلة حسابية .

كانت هناك أشياء ليست بغريبة عليّ . . وذات مغزى . . كرائحة الخيل وشكل القضبان المثبتة في النوافذ . . مؤشرات عديدة لجواب استمر يراوغني ، وكأن على لساني أحرف لم تكتمل لاسم أعرفه ولكن لا اتمكن من لقطه . وكنت في بعض الأحيان أمسك رأسي بيدي وأهزها . كان من المشجع أن تكون لديّ نقطة ارتكاز لتحديد المكان ، ولكن عدم توصلي إلى الجواب الكامل على تساؤلاتي كان في نفس الوقت باعثا على قلق كبير .

كنت أفتش بإصرار في ذكريات طفولتي . . ومرت بي صور لها تبدو متصلة بالسؤال الحالي . . السؤال الذي كان جوابه ما زال بعيدا عن متناولي . . في نهاية نفق مظلم . وفجأة ، في أحد الأيام ، باغتتني ذكريات زيارة لي لقرية البصّة ، وكان عمري إثني عشر عاما . . ورؤية أخوين لي محتجزين وضابط الشرطة ينهال عليهما بالضرب في مقر قيادته . كان المقر أحد القشلاقات التي شيدها الانجليز عبر فلسطين أيام الاحتلال ، وبها اسطبلات مجاورة لإيواء خيلهم . فعرفت أنني إذن محتجز في أحد تلك المراكز . . وقادني هذا الاستنتاج فيما بعد إلى أنني مسجون في معتقل « جاديرا » . فقد كانت السلاسل الموجودة في السجن ، والتي كانت تستعمل أحيانا لتكبيلنا ـ نحن السجناء ـ هي نفس سلاسل خيول الشرطة البريطانية . وكنت قد سألت المسؤول عن السجن بعد وصولي بأيام

عن رائحة الخيل من حولنا ، فراوغنى بالقول فى صرامة : « لا يوجد هناك خيول فى هذا المكان » .»

وقد مكننى الاستماع إلى صلاح ، وهو يروى أحداث تجربته أن أعيشها كاملة . فقد عرفت أخيرا تفاصيل بعض ما كان يحدث له وأنا أتساءل وأقلق واتنقل بدون هوادة طيلة الأشهر الثلاثة السابقة ، وأعطانى ذلك شعورا نسبيا بالراحة ، وإن كانت قد تبددت فى نفس الوقت آمالى بالنسبة لأية إمكانية لمقابلة أو زيارة غيره من المعتقلين . . أو معرفة شىء عن خصوصيات أسرهم إلا من خلال المقارنة والاستنتاج عبر ما كان يحكيه لى صلاح ، وما كنت ألمسه من آثار السجن الجسدية والنفسية عليه . وكانت زرقة البحر الأبيض المتوسط أمامنا . نفس الزرقة التى رأيتها لآخر مرة عندما تركت دارنا فى صيدا ، والتى طالما كانت تبرق بومضات الجمال والطمأنينة فى السابق ، والتى كنت أكاد أسمع همساتها على رمال الاسكندرية العزيزة . . مسقط رأسى ، تشكل تناقضا لا يحتمل اليوم بوضع الأسر والقهر الذى كنا نعيشه ، فأشحت بوجهى عنها .

عندما اقتربنا من دار السيد بارنيع وترجلنا ، رأيت طفلة جميلة تدفعها صبية فى عربة . . وكانت هذه هى « راعوث » ابنته . وكان والداها قد سمياها بذلك الاسم الذى يعنى بالعبرية « الصداقة » ، عندما كانا فى مصر . تقدم صلاح ، الذى يحب الأطفال وبراءتهم ـ دون حدود ـ وحملها ، فى حين وقفت « آماليا » ـ زوجة السيد بارنيع ـ فى انتظارنا . كانت شابة جميلة شقراء زرقاء العينين . . كان لقائى بها ذا طابع تلقائى ، كما كان لقائى بزوجها فى المطار عند وصولى فى الليلة السابقة . وفى هذا اليوم وما تبعه كشفت آماليا خلال لقاءاتنا وأحاديثنا عن حساسية مرهفة نادرة ، وأمانة وصراحة مستحبة . فقد استرحت لتلقائيتها وتفهمها اللماح والعميق فى ذات الوقت . . وإن كان أسلوبها العاطفى يشكل نقيضا لتحفظى المتأصل . وكانت تلقائيتها تمتد وتشع لتغمر . . لا أسرتها الصغيرة فقط ، ولكن كل من يثيرون اهتمامها وتفهمها .

كانت الساعة التى قضيناها فى دارهم بالرغم من وجود الحراس الذين جلسوا داخل الدار فى منأى نسبى عنا ، بمثابة واحة فى وسط الجحيم .

□ شاعر جامد المنطق

وفى اليوم الثانى والأخير لزيارتى ، رتب لنا لقاء مع الشاعر « أبا كوفينر » . بدأت الرحلة بطبيعة الحال بضيق نفسى شديد من جانبنا وتساؤلات . إلا أنها كانت تجربة غنية

من حيث لم أكن اتوقع . فقد كان حديث صلاح يومها ومقارعته الكاتب الكبير الحجة بأقوى منها باعثين للفخر والاعتزاز ، اذ أنني لم أره قط يتحدث بمثل هذا المنطق القوى المكتمل ، وتلك الثقة والطلاقة . وتمنيت لو أنني سجلت ولو نبذات من الحديث ، فالذاكرة للأسف لا تسعف المرء في تفصيلات الأمور والوقائع كما يأمل ويتوقع ، وخاصة عندما نستكن بعد جهد وإرهاق . كان اليوم هو الثامن والعشرون من شهر أغسطس ويصادف يوم ذكرى عيد ميلادى . وأنا وإن لم اعترف قط بالاحتفال به ، فقد جاء قضاؤه بتلك الصورة وفي ذلك المكان ، غريبا ومثيرا للضيق . وهكذا تضافرت الاعتبارات النفسية السلبية الضاغطة وحساسية الموقف لتفقدني القدرة على تذكر تفاصيل الحديث الدائر حول جوهر الموضوع الأساسى ـ موضوع عدم شرعية الاحتلال الاسرائيلي للأرض الفلسطينية ، ثم اللبنانية مؤخرا . كل ما أذكر هو فقط رجلان يتبارزان بالكلمات والحجج . . أحدهما مضيفنا الشاعر الذى نجا من اضطهاد النازية في الأربعينات ، والآخر أحد ضحايا كارثة الاحتلال الصهيونى المؤخر للبنان . . كما كان أهله ضحايا تشريد حرب عام ١٩٦٧ . . تلك الحروب والكوارث التى كان غريبا أن يكون ضحايا الاضطهاد النازى من اليهود ، هم قادتها والمدافعون عنها . ولقد كتب صلاح في مذكرات السجن بعد ذلك بأيام : « لم أجد حجج أبا كوفينر ولا منطقه مؤثرين . . لقد كنت أعتقد أن أى شاعر هو ضمير البشرية ، إلا أن كوفينر ما زال أسير مأساته المحدودة » . أما أنا شخصيا ، فقد وجدته جامد المنطق ، بالرغم من كون شعره ـ الذى قرأته فيما بعد ـ جزل ومؤثر .

انتهت زيارتى في اليوم التالى بشعور يجمع بين الأسى الذى حاولت أن أكبته ، وبين الراحة النسبية . إذ شعرت كأن حملا ثقيلا كالجبال قد انزاح عن كاهلى . . ولو إلى حين . كانت ملايين الأسئلة والتساؤلات تشغلنى ليس فقط عن الأسرى ، بل عن البلاد . . عن فلسطين . . همنا الأكبر ، وقبلتنا التى من أجلها ضحت أجيال من أبنائها بأعز ما تملك .

وعندما حان موعد الرحيل ، وصلت السيدة « داليا » لمرافقتى إلى المطار . وقد أرادت أن تدلنى على بعض معالم البلد ، فقاومت بشدة موضحة أننى لم آت فى زيارة سياحية ، وأن مجرد وجودى به كان أمرا صعبا في حد ذاته . ثم ما لبثت أن قالت : « لدىّ رسالة لك » فشعرت بقلبى يهبط . لم أشأ أن تواكب هذه الزيارة العائلية لزوجى أية تعقيدات . فلا رسائل . . ولا نصائح . . أو ما أشبه !

استطردت قائلة : « سيكون من الأفضل بالنسبة لك . . وبالنسبة لسلامتك ، أن تبقى هذه الزيارة سرية » .

ثارت بداخلى كل مشاعر الغيظ والكبرياء التى كنت أحاول تهدئتها فى نفسى . فرددت عليها بكل ما تمالكته من هدوء حازم : « أرجوك أن تنقلى شكرى إلى كل من ساهم فى جعل زيارتى هذه ممكنة ، غير أننى أود فى نفس الوقت أن اذكّرك واذكّرهم بأن هذه الزيارة وبشكل قاطع وصارم هى زيارة شخصية بحتة ويجب أن تبقى كذلك » ثم صعدت إلى الطائرة .

بعد أيام كتبت لصلاح ـ وقد كنت أكتب له واحتفظ بمعظم الرسائل على أمل أن يقرأها بعد خروجه . . بعد أجل غير مسمى : « رأيت فى المطار سيدة فلسطينية . كانت ردة الفعل الأول لدىّ أن أهرع إليها ، ولكننى اضطررت إلى أن أدير وجهى خشية أن تعرفنى . لقد كرهت أن أقوم بهذا الدور . . غير أنك تعرف احترامى لشعبك وتفانىّ بالنسبة له . . ووحدة المصير التى اعتبر أنها تربطنا » .

كانت قيادة منظمة التحرير قد غادرت بيروت يوم ٢١ أغسطس ، وإن كانت الصور التى شاهدتها ـ عبر أجهزة الإعلام فى الصحافة والتليفزيون للعائلات التى كانت تودع رجالها من المقاتلين ـ من أقسى المشاهد الانسانية التى شاهدتها فى حياتى . . صورا لسيدات ألقين بتحفظهن المتأصل فيهن إلى الرياح ، خلال تلك المواقف التى شكلت قمة جديدة للشتات الفلسطينى . وبدا ألمهن ولوعتهن صارخين فى وجه العالم . ولا شك أنها حركت بعض الضمائر والعقول فيه إلى إدراك عمق القضية التى طالما حاولوا تجاهلها ، أو تحريف منطلقها وأهدافها . هذا وإن كانت مجازر « صبرا وشاتيلا » التى نجحت دماء ضحاياها الأبرار فى خلق ردة فعل من الاستنكار والغضب فى العالم . . لم تكن قد حدثت بعد . ولم يكن الرحيل الحزين سوى مقدمة لكثير من المعاناة التى كانت ـ ولا تزال ـ من نصيب الشعب الفلسطينى فى لبنان وغيره . فمن أشكال المعاناة اليومية ، تلك التى تواجهها الأسر الفلسطينية المشتتة ، حتى ضمن كبار الموظفين منهم فى الدول العربية الذين ليس بإمكانهم جلب أهاليهم ولو لزيارات قصيرة ، حتى وإن كانت للعلاج ، بسبب تعقيدات إجراءات الجوازات والإقامة . والذين لا يسمح لهم بتسجيل مواليدهم ، والذين فى حالات كثيرة يبعد أطفالهم المواليد الجدد من البلاد التى عاش فيها آباؤهم لسنوات طويلة . فتلك البلاد وإن كانت قد آوتهم لدى تشريدهم من فلسطين ، إلا أنهم بالمقابل ، ومن خلال جهدهم ، قد ساهموا أيضا فى بناء تلك الدول ، ولا فضل هنا للضيف أو المضيف على الآخر إن كنا صادقين فى إيماننا بالعرق العربى الواحد والمصير العربى الواحد . فهى قصة شعب اغتصب وطنه ، فظل فى مهب الرياح . . تحت رحمة كل متفاضل ولائم يعيش آمنا فى منأى مما يعانى .

وكما ذكر صلاح فى إحدى مقابلاته : « إننا كشعب فلسطينى لا يسمح لنا بالاستقرار فى أى مكان ، فالعالم وإن كان يتنبه بين الفينة والأخرى لقضيتنا ويتعاطف معها ، إلا أنه لا يتوقف ليتخذ أية خطوات عملية لإنهاء شتاتنا ووضع حد للظلم الذى يعيشه من بقى منا تحت الاحتلال » .

□ لقاء مع عرفات لوضعه فى الصورة

وكان السيد ياسر عرفات قد وصل إلى أثينا بعد صموده وأعضاء القيادة ومقاتلى المقاومة فى حصار بيروت . فتوجهت فورا للقائه بعد عودتى من الأرض المحتلة بيومين فقط وبالتحديد ، إذ كان علىّ أن أهنئهم بالسلامة ، وأضع أبا عمار فى الصورة بالنسبة لكل ما مرّ بى من أحداث . ولقد كانت فرحة كبيرة بالنسبة لى أن أرى عددا كبيرا من الوجوه التى عرفتها فى لبنان ، والتى طالما أقلقنى التفكير فى مصائر أصحابها . نخبة من الشباب المؤمن الشجاع المُضحّى ـ وقد كتبت لهم النجاة من أتون الحصار الباغى . . وإن كان مزيد من الشتات ينتظرهم . أما أبو عمار ، فقد واجه معاناة الأسابيع الستة ونيف بشجاعة . وقاد المعركة بإيمان وحكمة وحنكة . وكنت ـ إلى جانب تقديرى له كقائد مناضل عفيف ـ أشعر بشىء يقربنى منه . . ولربما كان بعض الشبه الذى كنت أجده فى الصور بينه وبين جدى لأبى ـ مع فارق السن الشاسع بينهما ، كما كنت أقدر صفاته القيادية ودفء شخصيته . . فهو القائد الصارم ، ولكن يمتلىء بالرقة والمشاعر الإنسانية أمام الأطفال وأسر الشهداء . . أو أى موقف إنسانى . وكنت ـ وما زلت ـ احترم نظرته الثاقبة والبعيدة فى تقدير الأمور ، وحساسيته فى معالجة القضايا ، والقيم الراسخة فى تكوينه وتعامله ، واحترامه للأصول والمبادىء وتقيده التلقائى بهما . لم أكن أتمنى أن ألقاه فى محطة أو « منفى » جديد . . وإن كان سرورى بلقائه سالما قد خفف من شعورى المأساوى ، كما خفف من ذلك ـ وبالنسبة لنا جميعا ـ موقف وترحيب الشعب اليونانى وحكومته الذى استحق أعظم التقدير .

وبالطبع كنت شغوفة لأن أسمع بقدر ما يتيسر ، تفصيلات الحصار ـ أو بعضا منها على الأقل ـ مباشرة من أبى عمار . . وكذلك توقعاته عن المرحلة المقبلة . كما كنت مهتمة بنفس القدر بنقل تفاصيل رحلتى له . وكان علىّ أن أعرف منه تقديره لما حدث فى جنوب لبنان وقرار صلاح بالصمود فيه . . ووضعه الحالى . وكان من دواعى اطمئنانى الكبير أن أجد أن منطلقى ورأيى كانا متفقين مع رأيه فى كل ذلك . . وإن كنت شبه واثقة من ذلك مسبقا . وكانت خشيتى أكبر من ناحية ردة فعله بالنسبة لرحلتى إلى الداخل . ولكنه اعتبره تصرفا طبيعيا . وكان شغوفا لسماع ما كان لدى صلاح ليقوله . . وكذلك إلى الاطمئنان

عليه ، وعلق قائلا : « لقد واجه صلاح الوضع فى الجنوب برجولة ، كما تصرف بإباء خلال مقابلته التليفزيونية ، وكان ملتزما بقضيته وقيادته . . وفيا لها . . بينما وقف غيره . . أو « سقط » . . ليذموا فى قيادتهم » .

أما الشباب الذين قابلتهم خلال هذه الزيارة ، فقد كان لكل واحد منهم كلمة مشجعة وتحية أخوية حارة وإشادة بموقف صلاح . وبت تلك الليلة مطمئنة النفس .

غير أنه لم يكن هناك للأسف مجال للبحث فى مصير الأسرى فى إسرائيل ـ لا بالنسبة لمن كانوا يرزحون تحت أحكام طويلة ، ولا للذين اعتقلوا خلال الاجتياح الاسرائيلى للبنان ـ بسبب قلة المعطيات المتوافرة ، حيث كانت الصورة تبدو قاتمة ومشوشة . غير أننى كنت مصممة كل التصميم على متابعتها بكل ما أوتيت من وسائل مهما كانت متواضعة .

بعد أربعة أيام ، سافر أبو عمار إلى روما للقاء البابا يوحنا بولس ، فى جولاته فى سبيل شرح القضية وآخر ملابساتها . كما أتيحت لى زيارة للبابا بعد بضعة أسابيع ، استرعيت خلالها انتباهه إلى الجانب الانسانى لموضوع المعتقلين . وكان من الطبيعى أن يبدى البابا اهتماما بالغا بالأرض المقدسة ، فأكدت له معاناة أهل تلك الأرض . ووجدت من خلال المقابلة تفهما ومساندة . وعندما ذكر البابا موقف صلاح ، أردت أن أجعل الأمر أكثر وضوحا ، فأكدت له أن اهتمامى بالأحداث الجارية لا يرجع لأسباب شخصية بحتة ، ولكننى أسعى من خلال موضوع الأسرى إلى التوسط لتحقيق العدالة والحرية على نطاق أوسع للآلاف من المعتقلين الفلسطينيين والعرب والجنسيات الأخرى .

□ رسالة للشخصيات الهامة

فور مغادرتى أثينا ، توجهت إلى القاهرة ثم عمان لمتابعة « حملة الإفراج » التى كنت قد بدأتها منذ فترة ، وللعمل على إتمام تصميم إحدى الملصقات العديدة التى استخدمناها فى الحملة .

وكانت رسالتى التى بدأت الحملة بإرسالها إلى عدد كبير من الشخصيات الهامة التى قدرت أنها معنية بالأمر كما يلى :

« . . . .

أرفق بيانا صحفيا باسم « حملة الإفراج » التى بدأت بعد الغزو الإسرائيلى الذى اجتاح جنوب لبنان ودمره ، وأسر فى طريقه آلاف

الفلسطينيين واللبنانيين وذوى الجنسيات الأخرى قبل زحفه إلى العاصمة . . بيروت .

وإننى إذ أوجه لكم الرسالة الأولى لحملتنا ، ونيابة عن هيئة رئاسة جمعيتنا وأعضائها ، إنما أفعل ذلك بصفتى عربية معنية بشؤوننا القومية عن قرب ، وكشخص عاصر الأحداث وما سبقها عن كثب ، وله إلمام بملابساتها .

لقد وصل الجور الذى عانى منه الشعب الفلسطينى خلال العقود الأربعة السابقة ذروته فى مجازر صبرا وشاتيلا فى غربى بيروت منذ أيام . ولقد انتشرت تفاصيلها فى أنحاء العالم ، وأنتم ولا شك ملمون بها ، وهناك تحريات وتدقيقات تجرى فى جرائم الغزو هذه . غير أن اهتمام حملتنا الأكبر هو ألا تغطى الأحداث الرهيبة المتلاحقة فى هذه الحرب ـ وكل واحدة منها أبشع من سابقاتها ـ على معاناة ومصير الأسرى الذين لا يزالون محتجزين لدى السلطات الإسرائيلية . . ولقد ألقى القبض على معظمهم بصورة عشوائية ، ونقل البعض منهم إلى إسرائيل داخل شباك ، وبعد تعرضهم لكثير من القسوة والمعاملة التعسفية . . ومنها دمغ أذرعتهم للتعريف ، كما كان يفعل النازيون مع اليهود . فهناك الآن ما يزيد على خمسة آلاف شخص فى معتقل أنصار فى جنوب لبنان ، محتجزون فى مخيم تحيطه الأسلاك الشائكة ، معزولين عن أهلهم وعن العالم الخارجى ، وفى ظروف يشهد الصليب الأحمر الدولى بأنها ليست فقط قاسية بل مروعة . فالمقال الذى نشر فى جريدة « هاآرتس » للصحفى الاسرائيلى « آمنون دانيكر » ، والذى ذكرته صحيفة « لوموند » الفرنسية فى عددها الصادر يوم الثلاثاء ٩ نوفمبر ، إنما لشهادة إضافية تؤكد خطورة وضع الأسرى . . ذلك الوضع الذى أذيع ونشر أنه دفع أحد الجنود الاسرائيليين المكلفين بحراسة الأسرى إلى الانتحار ، لعدم قدرته على تحمل رؤية المزيد مما كان يشهده من بؤس ومعاناة وعذاب .

وإننى لأناشدكم نشر هذه الوقائع على جمهوركم ، وأن تساهموا فى المطالبة بالإفراج الفورى وغير المشروط عن المرضى والمسنين والقصَّر من الأسرى ، إلى جانب تحسين الأوضاع الراهنة ، بما فى ذلك السماح بالزيارات العائلية والاتصالات لمن يتبقى فى المعتقل لمدة أطول .

وسوف نستمر فى تجميع المعلومات الضرورية والدقيقة . . ونستمر فى حملتنا إلى أن يتم الإفراج عن كافة الأسرى . »

دينا عبد الحميد

تجنبت فى ندائى ذكر المعاملة البالغة القسوة التى واجهها الأسرى خلال اليومين الأولين من اعتقالهم ـ مثل تناول الجنود المرضى منهم بالركل ، وانعدام الماء والأوضاع غير الصحية التى نتجت عن عدم السماح للأسرى بالتحرك من أماكنهم حيث جلسوا مكبلين ومعصوبى الأعين ، ومن ثم اضطرارهم إلى قضاء حاجتهم حيثما كانوا ، كما لم أدخل فى تفاصيل اشمئزاز الأسرى من عملية دمغهم لمعرفة من قد مر منهم بطابور التعرف على هويتهم . . وغير ذلك مما ذكّرهم وذكّر العالم أجمع بأساليب النازية خلال الحرب العالمية الثانية ـ إذ لم أشأ أن يظهر طابع الدعاية على أى من الحقائق التى أوردتها فى رسالتى .

أما البيان الصحفى فجاء كما يلى :

« غطت الصدمة والاستنكار اللذان أحدثتهما مذابح الفلسطينيين فى لبنان على مصير من اعتقل منهم لدى السلطات الاسرائيلية . . و « حملة الإفراج » قد نظمت لتركيز الاهتمام على محنتهم والعمل من أجل الإفراج عنهم .

تقدر الإحصائيات أن هناك حوالى خمسة آلاف أسير فى معتقل أنصار فى جنوب لبنان ، كنتيجة مباشرة للاجتياح الاسرائيلى للبنان ، إلى جانب أعداد كبيرة بلغت ثلاثة آلاف سجين وربما أكثر داخل اسرائيل . وجميع هؤلاء السجناء يعانون من ظلم صارخ ، فهم محرومون من حقوق المواطنة ، ومن حماية القانون ومن أى أمل فى حق تقرير المصير ، منسيين ومهملين من الصحافة والرأى العام . وقد بدأت « حملة الإفراج » أثناء حصار بيروت من قبل الأميرة دينا ـ ملكة الأردن السابقة ـ لتركيز الاهتمام على الأسرى المعتقلين لدى السلطات الاسرائيلية والمطالبة بالإفراج القريب عنهم .

ومن بين هؤلاء المعتقلين صلاح التعمرى ـ زوج الأميرة دينا ـ الذى بقى مصيره مجهولا مثل الآلاف من أبناء شعبه . فقد بدأ الإفراج تدريجيا عن عدد ضئيل من الأسرى ، غير أن الحصول على المعلومات ما زال صعبا طالما ظلت إمكانية التحرى من قبل الهيئات الدولية محظورة ، وأسر المعتقلين ممنوعون من الزيارة ومحرومون من أية أخبار عن ذويهم . وحتى هيئة الصليب الأحمر الدولية لم تصلها قائمة كاملة بأسماء المعتقلين الذين ما زالوا فى الأسر .

تلك هى بعض المواضيع الجذرية التى تهم القائمين على « حملة الإفراج » . لقد تم مبدئيا توزيع الملصق المرفق ، وهناك حملة من الرسائل إلى قيادات الرأى العام فى هذا البلد ، وفى الخارج سوف تلى . وهذه خطوات أولية فقط فى برنامج من النشاط المستمر

الذى لن ينتهى إلا بالإفراج عن الأسرى الفلسطينيين وغيرهم من العرب والجنسيات الأخرى الذين تحتجزهم إسرائيل » .

كما كان علىّ أن أنقل إلى صلاح رأى أبى عمار وكل من قابلتهم من أنصاره عما اعتبروه وأكدوا لى أنه إيجابى . وكنت أعرف كم كان ذلك سيعطيه من القوة والدعم ، وكان علىّ الآن أن أجد وسيلة لتوصيل أنبائى إليه .

□ محاولة للقاء الأسرى الاسرائيليين

فى خلال إحدى سفراتى فى ذلك الأسبوع ، وأثناء جلوسى فى الطائرة ، تذكرت الدور الإيجابى الكبير الذى لعبه السيد بارنيع ، وشعرت بأننى لا أريد أن أبقى مدينة ، وأن علىّ أن أبحث عن وسيلة لرد ذلك الجميل . أردت أن أشكره بشكل عملى . . فيا ترى بأية وسيلة يمكننى فعل ذلك ؟ ! وفجأة لمعت فى ذهنى فكرة ، كوميض من خلال تلك السحب البيضاء الوادعة التى كانت تكتنف الطائرة وتحمل المرء بعيدا عن الضوضاء والقلق والضغوط . . وأصبحت فيما بعد كالبوصلة . . توجهنى خلال الأشهر الأربعة عشر القادمة .

كانت الفكرة هى أن أحاول القيام بزيارة الأسرى الإسرائيليين الذين كانت منظمة التحرير تحتجزهم منذ أن قبضت عليهم قوات المقاومة الفلسطينية فى مدينة بحمدون الجبلية منذ أيام ، وإذا ووفق على ذلك استطعت أن أنقل إلى السيد بارنيع أخبار كونهم سالمين . . وأسدد بذلك الجميل الذى صنعه ، واتخلص من العبء الثقيل الذى أشعر به .

وإثر ذلك ، وفى يوم الثلاثاء ١٤ أكتوبر ، وبعد أيام قلائل من عودتى من أثينا ، توجهت إلى دمشق . لم أجد أبا جهاد هناك ، فذكرت فكرتى لأحد الإخوان العاملين فى مكتب من مكاتب منظمة التحرير فى إحدى الدول العربية وهو الأخ « جهاد » وقد تصادف وجوده فى الشام فى تلك الفترة ، فعرفنى بواحد من أنبل الإخوة الذين عرفتهم فى الحركة ، الأخ عبد الإله الأثيرى ، وهو رجل عزم وتصميم وتفهم . . يؤمن بالعمل لا بالكلام . . بدا جادا عمليا فى منطلقه منذ البداية . . واستوعب فكرتى منذ اللحظة الأولى ، بترتيب زيارة لى لبعض الأسرى الاسرائيليين الذين كانوا محتجزين لدى المنظمة . ولما حضر أبو جهاد إلى دمشق بعد ذلك ، عدت لمقابلته وعرضت عليه الفكرة . وكما عهدته على الدوام ، كان متفهما ومدركا لكل ما حدثته به . . عن زيارتى للداخل . . عن صلاح . .

وعن جميع الملابسات . . باختصار . . عن كل ما كان يدور على الساحة فى تلك الفترة المشحونة . ولقد شعرت بالاطمئنان والاعتزاز بتأكيده لى بأن تصرفى وخطواتى لا تشوبها شائبة . وذلك الى جانب مباركة أبى عمار للموضوع . قال لى : « **أنتِ لم تفعلى أكثر من استعمال حقك المشروع فى القيام بزيارة زوجك الأسير ـ أينما كان ـ ويجب ألا تترددى مستقبلا فى معاودة ذلك إن سنحت لك فرصة أخرى** » . وقد ذكرت له الموقف الإنسانى للسيد بارنيع وزوجته .

وبدأت عجلات أسفارى تزداد سرعة . . بلا هوادة ، وبصورة خارجة عن إرادتى . . حيث لم يكن هناك بديل سوى أن أكثف مجهوداتى فى هذه اللحظات ، التى أثبتت الأيام فيما بعد أنها كانت مفيدة .

عدت إلى بيتنا فى القاهرة ، ثم سافرت بعد ذلك إلى عمان ثم إلى دمشق للقيام بالزيارة التى قام الأخ أبو جهاد بترتيبها لى لرؤية الأسرى . ولم يكن فى القاهرة من أستطيع التحدث إليه بحرية فى هذا الأمر . . وفى الفترة المحدودة المتاحة لى ، فقد كانت الصديقة الوحيدة التى بإمكانها استيعاب الأمر فى مثل ذلك الظرف العاجل ، هى زميلة الطفولة السيدة « ليلى حمدى » التى تربطنى بها صلة إخوة حميمة وعميقة . غير أنها كانت تشغل منصبا تعليميا فى إحدى الدول العربية منذ بضعة أعوام ، ولم يكن الظرف الذى كنت أعيشه خلال تلك الفترة مما أستطيع أن أناقشه فى مكالمة هاتفية ، أو حتى من خلال المراسلة لحساسيته وتشعبه . ويعلم الله كم افتقدت رأيها الحكيم حينذاك . . وكم أصبحت مدينة لها فيما بعد فى إعداد هذا الكتاب .

وعلى الرغم من أننى كنت أجهل تماما ـ فى ذلك الحين ـ أبعاد ما سوف يتبلور عن تلك الزيارة ، إلا أننى كنت أشعر أنها سوف تكون فاتحة لانعتاقى الشخصى ، فلقد أحسست بأن القدر يدفعنى نحو هدف لم أتمكن من التوقف لتحليل أعماقه أو أبعاده .

بعد غداء سريع فى دار أبى جهاد مع أسرته فى ذلك اليوم ، توجهت مع أحد الإخوة الذين أعطاهم أبو جهاد تعليماته إلى وادى البقاع حيث كانت المقاومة الفلسطينية تحتجز ستة من الأسرى الاسرائيليين الثمانية (الاثنان الآخران كانا قد وقعا فى حوزة رجال منظمة أحمد جبريل ـ القيادة العامة ـ خلال نقلهم من موقع إلى آخر) غير أنه لم تتح لى فى ذلك اليوم بالتحديد سوى رؤية ثلاثة منهم فقط . . وإن كنت فيما بعد زرت الجميع .

وهنا أيضا بدا لى وجه آخر من أوجه الموضوع المتشابكة والمعقدة ، وشعرت فجأة

بجسامة المسؤولية التى صرت أحملها كنتيجة لتلك الزيارة التى كنت اتطلع إليها بفارغ الصبر منذ خطرت لى فكرة القيام بها . إذ أدركت أن إطلاعى على موقع احتجاز الأسرى كان من دلائل الثقة التى أشعرتنى بامتنان وانتماء مجددين لمسؤولى الحركة ولأبنائها .

ولم تكن هذه أول زيارة لى لوادى البقاع . إذ كنت أعرفه منذ طفولتى ، ومن خلال زياراتى العديدة له ومرورى به أثناء وجودنا ـ صلاح وأنا ـ فى لبنان . وما زلت أتذكره بكل خضرته وجمال طبيعته ، فقد كان يعتبر حديقة العالم العربى المثمرة الغناء . ولكن الهدوء والظلام والوحشة كانت تكتنفه فى تلك الليلة ، وبعد الدمار الذى أحدثته تلك الحرب من خلال قصف المواقع السورية والفلسطينية من قبل الطيران الاسرائيلى .

ولم أكن أعرف بطبيعة الحال إلى أين كنا متجهين ، غير أن دخولنا فجأة فى منعطف جانبى أشعرنى بأننا قد اقتربنا من المكان المقصود . بعد قليل توقفنا أمام منزل ناء ، وترجلنا فى ضوء نار مشتعلة التف حولها عدد من الشباب الذين عرفت معظمهم ، وتبادلنا التحية والترحيب . . ترحيبا أكد ما يربطنا من أواصر الفكر والمصير المشترك . وفى سكون الوادى العميق ، جلسنا نتحدث همسا . . وكأننا نخشى خرق ذلك الهدوء الذى كان يحتضننا بعيدا عن الضوضاء والقصف ، وكل علامات الحرب والعنف . واحتوانا الليل الداكن فى ألفة جمعتنا حول الهدف المشترك . . وهو العودة إلى الوطن السليب . . والقناعة بالعدل والسلام الآمن . فقد كانت فلسطين تمثل لنا شعلة القوة والوحدة العربية . وتحت ضوء النجوم البراقة فى تلك السماء المخملية ، شعرت بالنقاء والرهبة . . وبصلة أكيدة مع القوة السماوية العليا التى توجه خطانا على دروب مجهولة .

ولم تطل تلك اللحظات الثمينة ، إذ جاء من يصحبنى لصعود الدرج ودخول الدار ، كان البيت من ذلك الطراز الذى عم فى الشرق الأوسط فى الأربعينات . . شرفة رخامية واسعة ، وأسقف عالية ، وغرف واسعة ، وفى نهايته ممر يصل بالزائر إلى داخل الدار . أشير إلىّ بالدخول إلى غرفة ، ما لبث أن لحق بنا فيها ثلاثة شبان . . ثلاثة من الأسرى الإسرائيليين الثمانية : « دانى جيلبوا ، ورافى حزان ، وإيلى أبو طبول » .

مرة أخرى أحسست بمشاعر متضاربة . . التعجب لسير الأمور بهذه السهولة حتى هذه المرحلة ، وكيف أن فكرتى قد حالفها التوفيق وتبلورت ، لله الحمد ، بنجاح . . وبالسرور لكون الأسرى فى أمان وصحة جيدة . وفجأة . . جاء التراجع . . تراجع فى المشاعر . . وإدراك وردة فعل بأن هؤلاء الشباب الثلاثة هم « العدو » . . هم بعض من دخلوا الأرض العربية وداسوها بعدوانية وعدم اكتراث بجسامة الأمر . . تاركين وراءهم

الموت والدمار والخراب . غير أن المنطق ما لبث أن عاد إلىّ ليقول . . هؤلاء الآن أسرى بين أيدينا لا حول لهم ولا قوة . ومن منطلق الأمانة والشرف اللذين يفرضان التصرف بما تمليه مبادىء التعامل الإنسانى ، تذكرت فى هذه اللحظة كيف أن صلاح كان قد ذكر ضمن صميم إدانته للعنف والوحشية الإسرائيلية « مصافحة جدة يهودية تصرفت بإنسانية » . . كما تذكرت أن لأولئك الشباب أيضا أسر ، تجهل مصيرهم . وكنت حقيقة مسرورة أن تكون لدىّ فرصة طمأنة هذه الأسر ، ونقل صورة واقعية عن أبنائها . . وإن بقيت مرارة المقارنة بين حالة وحجم معاناة الآلاف من أسرنا العربية فى مقابل معاناة عدد من الأسر الإسرائيلية لا يزيد عددها على عدد أصابع اليدين ، تحز فى نفسى .

كان واضحا أن الشباب الثلاثة بين أيد رحيمة ، ويبدون فى أفضل صورة ونفسية يمكن أن يكون عليها أى انسان فى الأسر . وقد تأكد لى صحة تقديرى عندما شهد الجنود الثلاثة بأنهم يعاملون من قبل رجالنا بشعور كامل للمسؤولية . كان أحدهم فقط يتحدث الانجليزية . . غير أننى خرجت من خلاله بفكرة واضحة عما يريد كل منهم قوله . وكان ملخص الموضوع ببساطة أنهم بخير ويعاملون معاملة حسنة .

□ شكر عملى لبارنيع

عدت إلى القاهرة بفارغ الصبر للاتصال بأسرة بارنيع لأنقل لهم شكرى . . « عمليا » !! ووصف آهارون بارنيع ردة الفعل لديهم فيما بعد فى كتابه « أن تكون سبيا » أو « الأسر المزدوج » بقوله : « إن تلك اللفتة التى وصفتها دينا بكونها مجرد محاولة شكر بسيطة . . أدركت . . فى الواقع أنها بادرة فريدة ونبيلة »

بعد ذلك بيومين احتفل العالم الإسلامى بعيد الأضحى المبارك الذى يحيى ذكرى امتثال ابراهيم عليه السلام لأمر ربه امتثالا كاملا بمسارعته بالتضحية بابنه اسماعيل . كانت هناك أغلبية من الأسر الفلسطينية واللبنانية ممن لا قدرة لديها على الاحتفال بتلك المناسبة ، إذ كان الجميع يعيشون حالة دمار وتشرد وعوز شديد ، وكانوا قد قدموا الآلاف من أبنائهم ضحايا للعدو والحرب الطاحنة . وقد علمت من صلاح فيما بعد كم كان العيد مناسبة بائسة بالنسبة للسجناء ، وما دونه فى ذلك اليوم فى مذكراته المختصرة يقول : « قاموا باستجوابى لمدة ست ساعات يوم عيد رمضان ، وفى هذا العيد تركوا السجناء جياعا . . بمناسبة تصادفه مع عيدهم ـ عيد يوم كيبور « يوم الغفران » ـ والمستنتج من هذا أن حراس السجن لابد وأن كانوا فى أجازة يحتفلون فيها بعيدهم !! »

وشهر أكتوبر الذى تصادف فيه حلول عيد الأضحى شهر ملىء بالأحداث بالنسبة لنا كأسرة . . فمناسبة زواجنا صلاح وأنا تصادف اليوم السابع منه ، وذكرى ميلاده اليوم السابع والعشرون . . ولكنه فى هذا العام اكتسب أهمية خاصة لما تخلله من ملابسات وتصاعد فى الأحداث . وقد دون صلاح فى مذكراته ليوم ٢١ سبتمبر ما يلى :

« مضت ثلاثة أيام لم استنشق خلالها الهواء النقى ولم يتوجه أحد خلالها لى بكلمة . لدىّ عدد من الكتب تشغلنى ، غير أننا نحن البشر لسنا بآلات . . نحتاج إلى التماس البشرى مهما كان نوعه . لم يأت الصليب الأحمر حتى الآن . . أتساءل عما إذا كانوا حقيقة سيحضرون ! لم يعلمنى أحد ما هى حقوقى . . أو ما هى التهم التى سأواجهها إلى جانب كونى فى « فتح » . . »

وكان قد حدثنى عن رجل فى الزنزانة المجاورة لزنزانته ـ استنتج من صوت سعاله المستمر أنه رجل مُسن ـ فبقيت أتساءل عما إذا كان مبعوثو الصليب الأحمر قد زاروا ذلك الشخص أم لا ، إذ أنه لم يكن قد استجاب لمحاولات صلاح للاتصال به إلا بعد بضعة أيام . . فلابد أنه كان فى حالة صحية ، ولا شك أيضا نفسية ، سيئة . بقيت ذكرى ذلك الشخص عالقة فى ذهنى إذ كان رمزا لآلاف من السجناء الذين يقضون حقبات طويلة من أعمارهم فى غضون المعاناة واليأس . كان صلاح قد حاول أن يرتل له بعض آيات من القرآن الكريم ، وينشد له . . ليشعره بشىء من الطمأنينة . . ولكنه لم يجد صدى لمحاولاته إلا بعد أيام .

تذكرت أيضا لقاء لنا مع « غازى الحسينى » ابن بطل وشهيد معركة « القسطل » فى الأربعينات ـ المرحوم عبد القادر الحسينى . وكان الابن نفسه قد قضى حقبة طويلة فى السجن فى الأرض المحتلة ، فسألته كيف يتحمل هو ـ أو أى سجين ـ عذاب فقدان الحرية والحد من الحركة وهما يُعدان فى تقديرى من أصعب أنواع المعاناة . . إلى جانب غير ذلك من آفات السجن . فروى لى ردا على السؤال كيف أن حواس السجين تصل إلى درجة من الإرهاف يستطيع معها صاحبها تطويعها وترويضها . وذكر مثالا لذلك أنه باستطاعة سجينين إذا وجدا على مسافة من بعضهما البعض ، ولم يكن مسموحا لهما بالتحدث أو الإتيان بأى حركة واضحة ، أن يمارسا شوطا دقيقا للعبة كرة الطاولة أو التنس من خلال نظراتهما ، وبالقياس الدقيق للمسافة ، وسرعة الكرة ومهارة الغريم وردات الفعل لديه ! ولم يخطر ببالى حينئذ . . وقبل أقل من ثلاثة أشهر من الاجتياح الاسرائيلى أن صلاح ذاته وكثيرين من معارفنا وأصدقائنا سيجدون أنفسهم فى نفس الوضع . . وأننى سأجد نفسى قلقة على مصائرهم وما يعانونه فى الاعتقال . . بالإضافة إلى همومى بالنسبة للأوضاع

العامة . . وللشتات الفلسطيني الذى أشار إليه صلاح فى إحدى فقرات مذكراته فى السجن فى نفس الفترة قائلا : « إن المرء بدون وطن لا اسم له ولا صوت ولا حقوق . . ولا ـ حتى ـ مكان فى المجتمع البشرى . فنحن نعتبر النتاج غير الشرعى للبشرية !! » .

فى نفس الشهر كتبت قائلة : « إن هذا لأكثر الأعياد كآبة فى حياتى » ، ترى هل زار الصليب الأحمر سجناؤنا ؟ فجماعتنا هنا مصرون على أن تتم زيارة الصليب الأحمر وأن يأتوا إلينا بقائمة كاملة بأسماء الأسرى . اتصلت بالوالدة العزيزة فى الكويت لأهنئها بالعيد . وعلمت منها فيما بعد أن « أبو إياد » لاقاها خلال زيارة له وحياها قائلا : « مرحبا بأم البطل »

أما أنا فلم أكن خلال الأسابيع الثمانية الماضية أمضى أكثر من ليلتين ـ وفى غالبية الأحيان ليلة واحدة ، فى مكان واحد . وهذا بما فيه فترة مرض المرحومة والدتى . وكانت الفترة أشبه بكابوس مريع لولا ومضات الأمل التى تخللتها بين الفينة والأخرى .

واصلت حملتى التى بقيت محدودة بحكم الظروف والطاقة الفردية ، وإن كنت قد أوليتها معظم جهدى . كانت الحاجة إلى العمل من أجل الأسر والأسرى فى لبنان كبيرة وملحة ، وقامت مجموعات النساء هناك بمجهودات فائقة ، فى تظاهرات وأعمال إسعاف وإيواء من أزالت قوات الاحتلال منازلهم عنوة . ذلك إلى جانب القصف السابق المركز على مخيم عين الحلوة ، فى صيدا . وقد بقيت نساء الجنوب بدون عائل ولا مأوى ولا فرصة عمل إثر إلقاء القبض العشوائى على رجالهن ، وحشدهم فى مختلف السجون ومراكز الاحتجاز ، والزج بمعظمهم فى معتقل « أنصار » المنشأ حديثاً فوق هضبة قاحلة بالقرب من مدينة النبطية ، أو نقلهم إلى سجون الأرض المحتلة . ولم أكن أمتلك للأسف وسيلة للاتصال بهن ، كما لم تكن لدى إمكانية لتكوين مجموعة واسعة ومكثفة من أسر المعتقلين تمارس الضغط على هيئة الصليب الأحمر وقوات الاحتلال ، ومن ثم للضغط على قيادتنا نفسها للاهتمام بوضع الأسرى وبمصائرهم ـ وللتعجيل بالإفراج عنهم . وكنت أعتقد أن مساهمة الأسر فى المطالبة بحقوقها أمر ضرورى ومجد .

ومثلما كان عجزى عن القيام بالعمل الجماعى ومشاركة نساء جنوب لبنان فى تصديهم لتعسف العدو قد سبب لى قسطا كبيرا من الألم ، فإن نفس العجز اليوم فى مشاركة نساء الانتفاضة الباسلات فى الأرض المحتلة يشعرنى بالقصور الكبير بل بالذنب . كان اتصالى بسيدات الهلال الأحمر الفلسطينى فى القاهرة دائما ومنذ أعوام . وقد أبدين فى هذه الفترة حماسهن ودعمهن خلال لقاءاتنا فى صيف وخريف عام ١٩٨٢ . إلا أن امكانياتهن

للاتصال بلبنان ، حيث كان معترك التشرد والعوز الشديد ، لم تكن أكبر من امكانياتى . أما النساء فى جنوب لبنان ، فقد أستطاعت مجموعة منهن الوصول إلى مشارف معتقل « أنصار » وإن ردّتهن سلطات المعتقل بصلافة وعنف دون أن يتمكنَّ من الاتصال بذويهن من المعتقلين ، الذين كانوا بدورهم قد قاموا ودون جدوى بتسلق أسوار الأسلاك الشائكة التى تحد المعتقل من كل جانب ، على أمل التمكن من إلقاء نظرة على أمْ أو زوجة أو أخت أو جارة تكبدت المشاق فى محاولة الاطمئنان عليهم . كما قامت النساء بمظاهرة خارج مقر الحاكم العسكرى الاسرائيلى فى صيدا . ودفعت أنباء تلك المحاولات المعتقلين إلى اليأس ، ودفعت البعض منهم - بالإضافة إلى شتى الضغوطات الأخرى التى كانوا يعانون منها - إلى القيام بمخاطرة الهروب من المعتقل . وقد جعلتنى أنباء محاولات نساء الجنوب ، والتى أحبطتها سلطات الاحتلال ، أشعر باليأس الكُلى من إمكانية زيارة المعتقل وتقديم العَون للإخوة الأسرى .

وكان هؤلاء قد أطلقوا اسم « أنصار أوشفيتز » على معتقلهم ، تنويها بالمعتقل النازى الرهيب الذى حوى الآلاف من المعتقلين من اليهود وغيرهم من الأقليات فى أوروبا خلال الحرب العالمية الثانية ، والذى لم يغادره معظمهم أحياء ، بل اقتيدوا إلى أفران الإبادة الشهيرة . وكان ذلك التشبيه لمعتقل أنصار بمعتقلات النازية يثير حنق الإسرائيليين . إذ كانوا يعتبرون ويدعون أن « أنصار » هو مجرد معتقل مؤقت وعادى لا يجوز مضاهاته بمراكز الإبادة النازية ، وإن لم يجد معتقلو « أنصار » من خلال جهلهم بمصيرهم وبما يعانون فيه يوميا من الإرهاب فارقا كبيرا بين « أنصار » و « أوشفيتز » .

وبالرغم من يأسى أمام عظم المشكلة ، صممت على متابعتها بقدر ما أوتيت من صبر وجلد . فإلى جانب الوجه الإنسانى للموضوع ، كنت أرى أن أى تقصير فى الاهتمام بأسرانا ومحاولة عمل المستحيل من أجل الاعتراف بحقوقهم ، والإفراج عنهم ، وصمة عار بالنسبة لكل عربى . وقد شعرت أنه لا يجوز لنا تحت أى ظرف من الظروف أو من خلال أى عذر من الأعذار ، أن نسمح ببقاء رجالنا كمجرد أرقام على قوائم سجون ومعتقلات العدو . وهم الأبطال الذين هبوا للوقوف فى الصفوف الأمامية للدفاع عن قوميتهم وأراضيهم العربية . وجدير بالذكر أن معظم أولئك الرجال كانوا من المدنيين الذين اعتقلتهم سلطات الاحتلال الاسرائيلية اعتقالا عشوائياً .

نعم كانت هناك صحوة وإدراك واحتجاج على كل هذا فى العالم العربى . ولكن الواقع أن الجميع قد عجزوا عن إيجاد الحلول ، أو حتى عن التوصل إلى بداية حل ! وحتى

أولئك الذين كانوا من بين أكثر الناس التزاما بالقضايا الوطنية ، بقوا أسرى لمعتقداتهم أو قناعاتهم المحدودة المتجمدة التي لم تعد في المستوى الذي كانت مواجهة الموقف الحالي تتطلبه . وكان ذلك التجمد هوالحصن المنيع دوننا والتقدم أو التلاحم المطلوب ببعضنا البعض كعرب لمواجهة كل ما يهددنا .

□ اتصال جديد من إسرائيل

بعد فترة أعاد السيد بارنيع الاتصال بي طالبا مني الاتصال به ثانية عندما أسافر إلى أي بلد خارج منطقتنا العربية . لم يكن باستطاعتي التكهن بسبب ذلك الطلب . وكنت بالفعل شديدة الرغبة في استبعاد هذه الصلة . إذ كنت أعتبر أنني قد فرغت من القيام بالشكر والوفاء بالدين ـ وذلك بالرغم من تقديري للسيد بارنيع وزوجته اللذين وثقت في صراحة موقفهما وأمانتهما إلى حد كبير (وألفتهما كأشخاص . . بل كأصدقاء . . إن جاز التعبير) . تذكرت كيف كنت قد رأيت آماليا دامعة العينين ليلة سفري ، وهي التي كانت قد أدانت في بادىء الأمر زوجها آهارون لاتصاله بأحد المخربين ـ حسب تصور وتعبير دولتها !! فقد بكت تلك الليلة وكأنها تتمسك بأطراف حبل نجاة . . تناشد صلاح قائلة **« إن هذه المعرفة . . بل الصداقة التي نشأت في أغرب بل أحلك الظروف تؤكد أن العلاقات الإنسانية تبقى مُنزهة وبعيدة عن أية اعتبارات أخرى . فهل يا صلاح عندما تصبح حرا طليقا ، وإذا شاءت الظروف أن تصادف شخصا غريبا ـ في محطة أتوبيس على سبيل المثال ـ وكان ذلك الشخص إسرائيليا ، فهل تقبل أن تخاطبه ؟ هل تقبل ؟ »** . ولم يكن في مناشدتها تلك وتساؤلها أية نبرة تخطيط أو رغبة في التوريط أو التعجيز . لقد كانت تحاول أن تحمي رؤية عن الروابط الإنسانية تفوق وتتعدى الحواجز السياسية والحدود .

ولا أنكر أنني تأثرت وصلاح للموقف . إذ كنا أيضا نؤمن بما تؤمن به هي ـ آماليا ـ بالعلاقات البشرية الإنسانية المنزهة ، وإن كنا في نفس الوقت ندرك تمام الإدراك بأننا جزء من الأمة العربية التي أصبحت ضحية للصلف والتعنت الإسرائيلي . وإن لم يكن منتظرا منا أن نقوم بأية تنازلات ولا حتى على الصعيد الشخصي . فلقد كان في كفة الموازين مصير شعب بأكمله . إذ أن الفلسطينيين قد تقدموا بالحلول المنطقية ، وبالأمن والأمان للجميع في إطار دولة مستقلة تحوي وتحمي جميع الأديان والمذاهب ، حيث يتعايش اليهود والمسلمون والمسيحيون من العرب في سلام . ولم يقابل كل ذلك إلا بالعنف والتعنت . حاولنا أن نذكّر آماليا بكل ذلك . وأن نؤكده لها ثانية . وقام صلاح وعبر الغرفة ليحسم الموقف الذي أصبح حرجا وقال لها : **« آماليا . . ثقي بأنني كصديق لن أقوم بأي عمل**

يحرجكما » نطقها بلهجة حازمة . . لم يكن معها داعٍ لتذكيرهما بأمر مفروغ منه . . وهو كوننا ـ بالرغم من مشاعر المودة التى ربطتنا بهؤلاء المعارف الجدد ، كنا ملتزمين بقوميتنا وبمبادئنا أعمق وأقوى التزام . . بالقدر الذى كانت هى ملتزمة به بقوميتها . كنا مدركين أن أسرة بارنيع يعتبرون أنفسهم مواطنين إسرائيليين بالرغم من كونهم من تلك الفئة التى تدين الجور والصلافة اللذين تمارسهما دولتهم نحو الفلسطينيين والعرب عامة . أما خارج نطاق المعتقدات القومية لكل منا ، والتى لم تكن قابلة للنقاش بالنسبة لموقفهم الليبرالى الذى لا يحتاج إلى مزيد من الجدال من جانبنا ، فقد كان كلا الطرفين يعتقد أنه بإمكاننا أن نلتقى على هامش المعرفة والصداقة .

اتصل بى آهارون وآماليا مرة أخرى ـ بعد مذابح « صبرا وشاتيلا » . طلب آهارون مقابلتى لأمر هام . وكانت هذه المجازر قد أضافت مزيدا من المرارة عندما التقينا . صحيح أن المنفذ المباشر للمجازر كانت فئة من الكتائب اللبنانية ، إلاّ أنها حدثت بإيعاز أو بمعرفة سلطات الاحتلال الإسرائيلية التى كانت تقوم بحراسة مداخل المخيمات . . وعلى مرأى منها . كانت نفسيتى إثر المجازر وكل ما سبقتها من أهوال خلال الأسابيع الماضية ، ثائرة رافضة مريرة . وكان ضجرى وردة فعلى تزداد فى كل لحظة متتالية . . خاصة فى مواجهة الاحتياطات « الأمنية » التى سبقت لقائى والسيد بارنيع فى هذه المرة . . والتى كنت أجدها سخيفة وتكاد تكون مضحكة ! وقد وجدت أنه من السخرية أن من قام بتلك الترتيبات « الأمنية » لم يدرك أنى أقدمت على ما أقدمت عليه مما يعرضنى لشتى الاحتمالات ، وذلك بدافع إنسانى مجرد .

كنت ولا ريب على استعداد لمواجهة وتحمل نتائج خطواتى أيا كانت . وإن كنت أدركت فيما بعد أن الحرص المبالغ فيه كان سببه سرية ما أرادوا أن يحدثونى بشأنه .

وقد تصادف أن كانت ابنتى فى بريطانيا فى نفس الآونة ولبضعة أيام قلائل ، ولم أكن أريد أن أضيع أو أفرّط فى لحظة من صحبتها الغالية . وأشركت عاليه فيما كان يجرى . وكان القلق إن لم يكن الخوف مسيطرا علينا بطبيعة الحال ، وكذلك الضجر مما بدا لنا أنه تورط جديد فى موضوع لا نهاية له .

وفى هذا اللقاء . . بادر آهارون إلى القول : « إننى جئتك فى قضية إنسانية محضة ، تتعلق بعائلات جنودنا الأسرى . . أمهات وآباء يعيشون فى العذاب قلقا على مصير أبنائهم ، ومن بينهم عدد لا يعرفون هل أبناؤهم على قيد الحياة أم لا ؟

أجبتـه : « وماذا عن الآلاف من أسـرانا نحن ، وعـائلاتهم التي لا تعـرف عن مصيرهم شيئا . . فحتى الصليب الأحمر غير مسموح له بزيارتهم » .

أجابني بنبرات توحي بالصدق والثقة : « أعدك بأنني وغيري ممن يشعرون بعمق المأساة أن نفعل ما بوسعنا كي تطمئن كل عائلة على أسراها . لقد عملت المستحيل من أجل أن أطمئنك على صلاح ، وثقي بأنني سأحاول جهدي لتطمئن باقي العائلات على أبنائها وذويها » .

سألته : « كيف يمكنني أن أطمئن تلك العائلات التي جئت لتحـدثني عنها عـلى أبنائها ؟ أجابني : « لقد قابلت جنودنا الأسرى ، هل هؤلاء هم بعض من قابلت ؟ ! » وأشار إلى مجموعة من الصور كان يحملها شخص كان يصاحبه خلال اللقاء . لم يصعب عليّ التعرف على من كنت رأيتهم من الأسرى أصحاب الصور - بالطبع لم أفصح عن مكان وجودهم ، كما أنني لم يوجه لي سؤال عن ذلك .

في نهاية اللقاء طمأنني آهارون على صلاح بالرغم من أنه لم يره منذ أكثر من شهر لسفره مع أسرته في أجازة إلى صقلية . . لاحقتهم فيها الأحداث إذ سمعوا بعد أيام من وصولهم بمقتل الرئيس اللبناني « بشير الجميل » .

لاحظت فيما بعد تراجعا تدريجيا في اتصال آهارون بصلاح ، ربما بعد أن أحس أنه لن يستطيع أن يفعل الكثير ، أو أن الأمر خرج من يديه ، وبعد أن لاحظ مدير السجن وغيره انجذابه لصلاح وتعاطفه معـه . وفي كتابـه « أن تكون سببـا » كتب عن صلاح يقول : « إن التاريخ وضعه في موقع يستطيع منه أن يستغل فيه مناقبه الطبيعية في القيادة بأمانة وتصميم وعزم . وفي اعتقادي أن التباعد بيننا كان مفيدا لنا « كلينا » . فقد أصبحت منغمسا في الموضوع أكثر من اللازم ، وأصبح هو معتمدا على ذلك أكثر من اللازم » .

ومع مرور الأسابيع ، زاد مأزق الوضع السياسي سوءا عن أي وقت مضى . ذلك أن مذابح « صبرا وشاتيلا » ، والتي احتج عليها العالم بأكمله ، جعلت التصور لأي حل أمرا شبه مستحيل .

٦ من جاديــرا إلى أنصـــار

عقب الليلة الأولى التى قضـاها صـلاح فى مصنع الصفـا لتعليب الحمضيـات الـذى أصبح نقـطة تجميع واحتجـاز للأسـرى يـوم ١٩ يـونيـو ، تلك الليلة التى أصرّ فيها على البقاء مع المئات من المواطنين فى فناء المصنع ، إلا أنه تم احتجازه فى سيارة اسعاف ، غالبا للحيلولة دونه ودون إثارة وتحريض رفاقه ، نقل برا إلى « جاديرا » وهو أحد السجون السرية فى الأرض المحتلة .

وهكذا بدأت محنة « جاديـرا » . فى بادىء الأمـر أربعين يـوما متـواصلا فى السجن الانفـرادى تحول الـزمن والمكان خـلالها إلى دوامـة مبهمة . جـرّته الصـدمـة والإذلال المصحوبين بالآلام الجسدية والمعنوية ، ومئات المشاعر السلبية التى يتعرض لها الأسرى والمسجونون عبر قرون التاريخ ، وما زالوا ، إلى منزلق من اليأس نجـا منه بعـون الله وبالعزم الذى يرافقه فى أحلك الساعات ، وينبع منه كلما اشتدت المواقف التى يتعرض لها سوءا . وكانت أشد معاناة واجهها ـ حسبما سجل فى مذكرات السجن وحسبما روى لى فيما بعـد ـ هى تلك النابعـة من الشعور بـأن الجميع قـد تخلوا عنه . وزاد من قسـوة ذلك الإحساس حصره فى زنزانة لا يرى فيها الشمس ، بل ينام إن استطاع ، ويصحو تحت الضوء الكهربائى المسلّط عليه ليلا ونهارا . ولا يسمع فيها سوى وقع أقدام السجانين ، وصرير الباب الحديدى ، وأنين السجناء تحت وطأة التعذيب . وذلك الشعور بالوحدة القاتلة هو ما كنت أخشاه عليه ، وأحاول قدر استطاعتى أن أجنبه إياه ، على الأقل من خلال الكتابة له ، كتابة رسائل ، مهما كان أملى ضئيلا فى أن تصله .

ولم يسمح لممثل الصليب الأحمر الدولى بزيارته إلاّ بعد أكثر من ثلاثة أسابيع فى السجن الانفرادى فى « جاديرا » . كتب صلاح عن تلك الفترة فى مذكراته ، عندما سمح

له بالورق والقلم : « لم تكن مقابلتى لمندوب الصليب الأحمر الدولى ذات جدوى . بل إنها على العكس من ذلك ، جعلتنى أشعر بالإحباط ، وإن كانت معنوياتى لا تزال فى مستوى التحدى » . وكتب أيضا يقول : « إن حدود الكون إنما هى أربعة جدران وسقف وأرضية قذرة » . كما استطرد قائلا : « وتوالت الأيام وامتدت إلى أسابيع . من أنا ؟ ولماذا أنا هنا ؟ سجينا فى بلدى ! »

وفى هذه المرحلة تم نقله إلى زنزانة أخرى أصغر حجما من تلك التى كان قد تأقلم على العيش فيها خلال الفترة السابقة . وكانت هذه محنة جديدة غير منتظرة وأكثر قسوة . وفى هذا « الصندوق » والأصفاد الحديدية تنخر فى لحم كاحليه تقلصت الحدود الدنيا فى الحركة إلى عملية التفكير المحضة . كتب فى اليوم الثامن من شهر يوليو ، أى بعد حوالى ثلاثة أسابيع من السجن : « سمحوا لى اليوم ولأول مرة بالخروج إلى الحوش الصغير . . وكانت نعمة ! » كانت معاناته الذهنية تتركز فى تحويل أفكاره إلى قنوات إيجابية وعدم تركها تنساق فى متاهات مدمرة للمعنويات والذات . وما أسهل على الذكريات أن تعصف بالمرء فى مثل هذا الوضع ، وتغرقه فى دوامة من الصور متلاحقة متغيرة ، صور للحياة العائلية ، لوجوه الأشبال والزهرات الأبرياء وشجاعتهم ، ولضجيج ورعب الاجتياح والدمار الذى أعقبه . إن الهزيمة واليأس اللذين لم يكونا جزاء عادلا لكل الجهد والتضحيات التى بُذلت ، ولا للأحلام التى تنامت ، والتوجه الصادق لخلق أرضية دفاعية صلبة من الرجال الملتزمين ، جعلت صلاح يقول :

« إن أشد الأعاصير وأعنفها تدور فى العقل البشرى . وليست أخطر العواصف موطنها البحار . . إنما هى فى داخلنا . إننى أذكر حديثا جرى بينى وبين بعض الرفاق منذ حوالى عشرة أعوام ، ونحن نعبر سلسلة الجبال فى جنوب لبنان مشياً على الأقدام . كان ذلك فى ليلة قارسة البرودة . . كنا نشعر أننا نتقلص من شدة تلك البرودة . قلت لأحدهم متأملاً فيما حولى : « ترى لماذا نتصور جهنم وكأنها نار ولهب ؟ مكتظة ببشر يصرخون من شدة عذاب اللظى ؟ الليلة ، أصبحت أعتقد أن جهنم هى عالم من الصقيع بلا نار ولا لهب » . وأذكر كيف أنهم ابتسموا لتصوراتى وطلبوا منى أن أكف عن « فلسفة » معاناتنا فى تلك الليلة . أما فى زنزانتى هذه فقد أصبحت أعتقد أن جهنم لا تشكو من الاكتظاظ . إن جهنم مجمع من القطاعات الموحشة . إن جهنم هى السجن الانفرادى » .

وكان فقدان القدرة على تحديد الوقت والزمن لعنة أصابت المعتقلين فى زنزاناتهم الانفرادية ، ولاحقتهم حتى ساحة أنصار المكتظة بمن سبقوهم من رفاقهم . وكان ذلك

الشعور من أخطر العوامل التى كانت تؤدى بهم إما إلى التبلد ، أو القلق المستمر دون قرار . ولقد لفت نظرى من خلال قراءاتى لأدب السجن ومؤلفات المعتقلين فى جميع أنحاء العالم ، كيف أن مشاعرهم ، وردة أفعالهم تجاه محيط السجن وظروف السجن نفسه تتشابه بل تكاد تتكرر .

فالسجن بالنسبة لمعظمهم هو فقدان الإحساس بالزمن . وأقسى دوافع معاناتهم هو الشك الذى ينتابهم تجاه كل شىء - حتى تجاه أسرهم بل أنفسهم . وتتجسد أعظم مخاوفهم فى انتظار المجهول . ويتسبب التشابه بل التطابق بين عقليات وممارسات معظم السجانين اللاإنسانية فى الإخلال بتوازن المسجونين ، ويُقلِّص حيز أمنهم النفسى داخل زنزاناتهم . . وذلك هو مصدر وموطن الرعب والقلق . ومن بين تعليقات صلاح داخل الزنزانة : « لا توجد لدىّ أية مؤشرات زمنية ، وعلىّ أن أخلقها ، أو أن اختلقها » غير أن اليأس لم يدُم ، ووثبت النفس المتوقدة مرة أخرى لتقول : « لا يجوز للمرء أن يدع نفسه ينقاد إلى التصورات الخاطئة . فإن ذلك إنما يمكن العدو منه ويمنحه التفوق . إن عائلة أى سجين من بيننا ليست هى وحدها التى تعانى من مثل هذه المحنة . فهناك الآلاف ممن هم فى أوضاع مماثلة بل ربما أكثر سوءا . . إن هذه ليست زنزانة . . . تلك التى تقبع فيها متقوقعا ، إنما هى رحم سوف تخرج منه أكثر قوة وبأسا ونقاء » .

كتب فى أوائل سبتمبر يقول : « إن قواى وقدراتى تتردى ، ليتنى أتمكن من القراءة والانغماس فى أحد الكتب ، فربما كان فى ذلك بعض التفريج . » وبدأت قوته الجسدية المرتبطة بطبيعة الأحوال بالقوة المعنوية ، تخبو بالرغم من كل محاولاته لعدم الاستسلام للقنوط . غير أنه استعادها من خلال العزم ، فكتب بعدها يقول عن فترة المعاناة تلك : « شعرت فى تلك الفترة أننى فى خفة الريشة - تتلاطمنى الرياح . . وإننى الآن لاستغرب لقدرتى على التحمل فى ذلك الحين » .

كانت ساعات طويلة من الاستجواب قد سبقت تلك الفترة . ولمس ، ثم تأكد فيما بعد أن سجّانيه قد قدموا عنه فكرة بأنه إنسان عنيف وخطر . كان الطعام يحضر إليه ويدفع به من تحت بوابة الزنزانة الحديدية فى ساعات غير منتظمة . حاول فى بادىء الأمر أن يمتنع عن الأكل كى لا يضطر إلى استعمال السطل الموجود فى الزنزانة لقضاء الحاجة ، وحتى لا يلوث جو المكان . وقصر طعامه على لعق كميات ضئيلة من المربى بأصبعه . أما رغيف الخبز اليومى فأستعمله ، مع كل التقديس للنعمة ، كوسادة لرأسه وعضلات رقبته التى كانت تنوء من شدة الألم . أما عنصر الصمت الرهيب فى السجن ، فلابد أنه كان من

الوسائل التى أضيفت عنوة لأهوال السجن ، وتكتيكا إضافيا لإشعار السجين بالوحدة والوحشة والانعزال عن البشرية . . بحيث يسهل ويعجل بعملية الانهيار .

□ أبناء العم متعجرفون لا رحمة لديهم

كتب صلاح يقول عن سجّانيه من الإسرائيليين إن « **أبناء العم ، قوم فظاظ لا رحمة لديهم ، متعجرفون . مخادعون ، قساة عنصريون . وأعداء للسامية التى ينتمون إليها** » .

وأضافت أنباء مجازر « صبرا وشاتيلا » الكثير إلى ألمه وحنقه . فكتب فيها كتب يقول : « **. . كل هذا وكأن معاناة السجن لا تكفى .** » وكتب أيضا : « **إن ما يخلق الصمود والمقاومة فى نفسية السجين فى العزل الانفرادى هى قوة مبهمة تشحنه برغبة فى رد الصاع صاعين** » .

يحكى صلاح فى مذكراته أن محققاً جديداً زاره بعد مقابلته التليفزيونية مع بارنيع . وقضى معه حقبة طويلة من الوقت ، لمس فيها صلاح روح التهكم المستتر لديه . ويقول : « **شعرت وهو يغادر الزنزانة وكأنه ترك ابتسامته الصفراء خلفه** » ! وقد صدق حدسه بالفعل فى اليوم التالى مباشرة . إذ خرج به الحراس إلى الفُناء حيث الهواء النقى والشمس ، فشعر بسعادة الطفولة الغامرة ، ولكن لثوان فقط . فلم يسمح له بالاستمتاع بلحظة الفرحة التى سرعان ما تبددت لتحل محلها صدمة الألم المباغت . إذ أجبر على الفور على خلع ملابسه وتبديلها فى العراء . وفجأة شعر بشىء بارد وصلب يطبق على كاحليه . كانت السلاسل . وكانت تلك هى نتيجة الحوار الذى هنأه المحقق ذو الابتسامة الصفراء على شجاعته خلاله بالأمس .

ثم ما لبثوا أن وضعوا كيسا من القماش على رأسه ووجهه . ودفعوا بالجزء الأعلى من جسمه نحو الحائط ، ويديه مرفوعتين ، ليقف على شكل قوس محدوب ، حيث بقى تحت شمس الصيف الحارقة . وكانت تلك التجربة من أبشع اللحظات التى مرت به فى السجن . ومما زاد من عامل المباغتة وذل القيود الحديدية وألمها ، أنه كان يعانى منذ طفولته من الربو مما ضاعف من شعوره بالاختناق . وكانت الأسابيع التالية محكا واختبارا جديدا لصلابة معنوياته ، بما حملته فى طياتها من صعوبة التأقلم على القيود التى كانت تمزق جلده وتدميه وتزيد من وطأة وعمق الابتئاس ، وعلى حجم الزنزانة الذى لم يزد عن متر

مربع ، والخالية من النوافذ والمطلية بطلاء أحمر مُنفِّر ، والمضاءة بمصباح كهربائى مدة أربع وعشرين ساعة متواصلة ، وحيث لا مجال للحركة ، والوضع الوحيد الذى يمكن أن يجد فيه الجسم المنهك قدراً من الراحة هو الوقوف . . وظلت آثار تلك المعاناة أعمق من أن يمحوها الزمن ـ ولكن الأمر الأهم هو أنه خرج من التجربة سالماً مرفوع الرأس كامل الشرف . .

غير أن تلك هى قصته التى أترك له فرصة روايتها بتفاصيلها الدقيقة وحقائقها وشحنة مشاعرها عندما تواتيه الفرصة ، وآمل أن يكون ذلك فى القريب ، ولن أحاول التطفل بأكثر مما فعلت على تجربة شخصية هى ملكه .

وعندما كنت فى لندن فى أواخر شهر أكتوبر ، دخلت ذات يوم بيت صديقة لى حيث كُنت أقطن خلال زياراتى للعاصمة البريطانية ، ومنذ كانت ابنتى تلميذة هناك ـ أى منذ أكثر من عشرين عاما ـ وإذا بجرس الهاتف يرن بإلحاح . . هرعت بالرد ، فأجاب آهارون بارنيع على الطرف الآخر من الخط . . كنت قد لمست من نبرة صوته من قبل أن الأمور ليست على ما يرام بالنسبة لصلاح ، ومن ثم فقد توجست شرا من مكالمته . وتساءلت كم أستطيع الاستمرار فى الاعتماد على « خط الحياة » الواهن هذا . فالسجن قد يستغرق سنوات طويلة ، ولا أستطيع الاستمرار فى أن أعلق آمالى على مكالمة تليفونية عارضة ، أو أن أتوقع من أى شخص ، مهما كان صادقا أو ودودا ، أن يستمر فى هذه المحاولات إلى مدى أبعد .

قال لى : « لدىّ لك بعض الأنباء ، لكن لا تقلقى »

ومن فرط القلق وجدتنى مضطرة إلى الجلوس لأتلقى تلك الأنباء أيا كانت ! كان عيد ميلاد صلاح لم يبق عليه سوى ثلاثة أيام ـ فما الذى يمكن أن يكون قد حدث ؟ لم نكن ممن يحتفلون بأعياد الميلاد ، لكن فى ظروف الكرب واليأس ، تتضخم وتتعاظم فى الوعى الأشياء الصغيرة والمعالم الزمنية .

قال : « لقد نقل صلاح إلى أنصار اليوم »

لم يكن سهلا عليه أن ينقل لى هذا الأمر . ولم أعرف بالتفصيل إلا مؤخرا مدى القلق الذى شعر به هو وآماليا خلال اليومين السابقين للمكالمة . وكان رد فعلى المباشر هو قولى : « لا لا ! » إذ كنت ومن منطلق أنانى بحت ومحدود ، قد جعلت الزنزانة بحيزها الضيق

نقطة ارتكاز وإطار لأفكارى وتصوراتى . فالجدران التى كانت بالنسبة لصلاح تحول بينه وبين الحرية وتحجز عنه الهواء وتحجب الضوء ، كانت تركز وجوده فى مخيلتى داخل قطر وحيز محدد أصبح مألوفا لدىّ من خلال الوصف والتصور ، حيز آمن إلى حد ما ، وروتين معيشى أستطيع أن أجسد الشخص وأحصره من خلاله . فياللسخرية ، ويالأنانية الإنسان ، ويالبشاعة تقلص وانحسار أفقه بحيث يتصور الغير فى وضع لا يمكن أن يتحمله هو نفسه لأكثر من ساعات .

كانت « أنصار » بالنسبة لى « مجهولا » جديداً ، بينما كانت بالنسبة له الحرية النسبية . لقد شُيد المعتقل على أرض عربية ، إذن . . كان علىّ أن أهلل ! غير أننى بقيت أردد « **لا . . لا . . ما الذى حدث ؟** »

فبدأ آهارون يشرح لى كيف أنه عندما زار صلاح فى الزنزانة لم يرتح إلى حالته النفسية ، إذ شعر أنه وصل إلى مرحلة بدأ فيها يُحمّل نفسه اللوم عن أى قصور - لم يكن فى الحقيقة مسؤولا عنه - فى الدفاع عن الجنوب . وكنت أعرف أنا كيف أنه كان ومنذ سنوات يلفت النظر إلى المخاطر القادمة على جنوب لبنان ويحذر منها . وشعر آهارون من خلال حديث صلاح أنه قد توصل إلى إصدار حكم ما على نفسه . وكان واثقاً من أنه سوف يقدم بالفعل على ذلك الأمر - أنه سوف ينتحر . وأذكر أنه كتب فى مذكراته فى الأسبوع الأول من ذلك الشهر يقول : « **تستمر الوحدة المطلقة ، وهى الجحيم بذاته** » .

لم يكن بمقدور آهارون أن يتحمل مسؤولية وقوع مثل ذلك الفعل الحتمى . فكانت المعرفة قد توطدت بينهما ، وأصبح يشعر نحو صلاح بمودة أخوية . بل كان يتعاطف معه ومع الكثير من آرائه . وكان من غريب المفارقات أن البعض كان يشير إلى تشابه بينهما فى الشكل .

كان آهارون أثناء خدمته فى الجيش كضابط احتياط قد عمل كمترجم للقوات الإسرائيلية عندما اجتاحت بلدة « الكرامة » فى وادى الأردن يوم ٢١ مارس عام ١٩٦٨ . وكان قد نادى على سكان القرية ، وعلى صلاح - الذى كان فى حينها « مفوضا سياسيا » فى فتح ، يرابط فى الوادى مع مجموعته - بالاستسلام . غير أن صلاح ورفاقه من المقاتلين الفلسطينيين لم يستجيبوا للنداء وبقوا فى « الكرامة » إلى أن انسحبت القوات الإسرائيلية ، بعد معركة طاحنة تكاتف فيها المقاتلون وفئات من الجيش الأردنى لصد العدوان . ولم يلتق الرجلان اللذان يقفان على أرضيتين مختلفتين للصراع الفلسطينى - الإسرائيلى المصيرى ، إلاّ بعد أربعة عشر عاما ، وبعد عدوان واجتياح إسرائيلى جديد ، فى هذه المرة للبنان !

وأذكر كيف أننى وصديقة عربية عزيزة هى السيدة « مارى أسعد نصر » كنا قد التقينا فى لندن خلال إحدى زياراتى لابنتى ، ولفت نظرنا عناوين الجرائد اليومية وهى تعلن أن النفاثات الإسرائيلية تقوم بدك المواقع الفلسطينية فى قرية « الكرامة » . وظهرت الدموع فى عينى مارى . وداهمنى الغيظ والأسى على ظلم جديد يقع على أرضنا وشعبنا ، والحزن على استشهاد شبابنا الوطنيين الأبرار . ولم أكن حينذاك قد التقيت بصلاح ، أو عرفت أى أحد من ممثلى تلك المجموعة التى طالما وددت الاتصال بها منذ أن أعلنت الثورة الفلسطينية يوم ١ / ١ / ١٩٦١ وأعطت العالم العربى أملا ونموذجا جديدا للكفاح . وعند مرورى بالأردن فى طريق عودتى إلى القاهرة ساهدت آثار القصف بالقرب من مدينة السلط ، حين اتجهت إلى الوادى للوقوف على آثار الغارة الغاشمة .

فيما بعد ، علمت أن آهارون عاد الى منزله بعد مقابلته لصلاح التى أثارت قلقه ، وهو مدرك تماما لما يتضمنه الموقف من ظلم لصلاح ، ولغيره من آلاف الفلسطينيين الذين يتعرضون للقهر دون وجه حق وهم عاجزون عن صده . وقضى الليل فى حديث طويل مع آماليا حول ما يجب القيام به لتلافى ما يمكن حدوثه من عواقب وخيمة . وما أن حل الصباح ، حتى اتصل بالمسؤولين وعرض تطور الأمور عليهم دون تنميق ، قائلا : إنه لمن الخطأ البالغ الاستمرار فى تحمل مسؤولية ما قد يأتيه صلاح فى حالته الراهنة ، وتحت ضغط وضعه الحالى ، من عمل يائس لا يمكن التنبؤ به . وفى الواقع كان أكثر ما أقلق آهارون ، هو أن صلاح ـ وقد استبد به الغضب واليأس ـ طلب منه تسجيل وصيته . لذلك ، عندما ذهب لزيارته فى الصباح التالى وعلم بنقله من السجن الانفرادى فى « جاديرا » الى معتقل أنصار ، كان شعوره بالارتياح عميقا .

وقد روى لى صلاح بعد إطلاق سراحه ملابسات هذه الفترة ، وأوضح لى مشاعره خلالها على الوجه التالى :

« الحياة فى السجن ما تلبث أن تصبح بعد فترة أشبه بألم مزمن فى الأسنان لا يمكن تحمله . . يدفع بالمرء إلى الجنون بعد أن يكون قد استنفد قواه فى مقاومة اليأس ومواجهة ذل سجّانيه له ومحاولتهم إهدار آدميته . . الموت فى هذه الحالة ـ بالرغم من الاعتراف بأن الانتحار محرم وخطأ ـ سيكون انعتاقا . . الطريق الوحيد لأن يمسك المرء بمقاليد أموره ويتحكم فى قدره ويتحرر من قبضة مضطهديه وظلمهم . . فى الواقع سيكون بمثابة صفعة أخيرة منه على وجه أعدائه » .

□ وصول صلاح إلى أنصار (سالما)

فى اليوم التالى اتصل بى آهارون هاتفياً مرة أخرى ليطمئننى على وصول صلاح سالما الى معتقل أنصار ، حيث أن مخاطر الطريق ـ سواء كانت مدبرة أو غير محسوبة ـ كانت حقيقة واردة ومصدر خشية وقلق حقيقيين ، لا بالنسبة لى فقط بل لكل من كانوا على صلة بالوضع وملابساته . ولما أردف قائلا إن زملاء صلاح المحتجزين فى أنصار رحبوا به ترحيبا كبيرا ، شاع فى نفسى شعور غامر بالارتياح والطمأنينة ، إذ أن ذلك يعتبر تعويضا نسبيا له ، مهما بقى المستقبل غامضا ومشحونا بما لا يمكن التنبؤ به من مخاطر وأحداث . ومن جهة أخرى ، فلربما كان فى وجوده بين زملائه بعض الراحة لهم أيضا . . وهو ما أثبتته الأيام أكثر . فمعتقل أنصار لم يكن ينقصه الرجال ذوو العزم والشجاعة والتفانى والتفكير السليم المتزن . ولكن ما كان قد داخل نزلاءه من عوامل اليأس والاحباط ، جعل منهم مجموعة من الأرقام المجردة من الملامح ، التى لا يمكن بدونها أن يكونوا مجتمعا من البشر له شخصيته المتميزة الإيجابية . وقد قدر لصلاح أن يصبح بينهم بمثابة العنصر الفعال ، الذى قادتهم رؤيته قدما نحو إثبات الذات والاحتجاج الإيجابى . . وأخيرا إلى الحرية !!

ومن ناحية أخرى ، بدأت من جهتى اتفهم وأقدر كم هو رائع أن يتمتع المرء بالفضاء والشمس والهواء وصحبة الزملاء من البشر ، بالمقارنة بما فى السجن الانفرادى من قيود بشعة تهبط به إلى أدنى مستوى للحياة ، حيث تصبح صحبة فأر أو صرصار ، أو أية صورة من صور الحياة ذات أهمية خاصة ، لأنها ليست صماء مثل الجدران والحراس الذين يضاهونها فى صلابتها وبكمها ، بل فيها قبس من الحياة يجعلها تستجيب له اذا ما أشعرها بوجوده ، وبذلك يتحقق له نوع من الاتصال بغيره من المخلوقات ، وهو ما لا غنى لبشر عنه .

وبالطبع لم أكن فى ذلك الوقت أعلم شيئا عن تفاصيل الذل والمحن التى كان المعتقلون يتعرضون لها فى هذه المرحلة من أسرهم ، ولم يكن بوسعى تخيل ما يعانونه من قلق وإحباط . لكن عْلمى بأنهم فى قبضة العدو . . محرومون من حريتهم ، كان كافيا لجعل الوضع مرفوضا بالنسبة لى . غير أنه فيما بعد ، ما لبثت المعلومات والخطابات أن بدأت تتدفق علىّ بصورة خارقة وغير متوقعة ، وفيها من تفاصيل معاناتهم مازاد من ارتباطى بقضيتهم . . وهو ما كنت أحسبه مستحيلا ، إذ كنت اعتقد أن التزامى بهذه القضية قد بلغ ذروته ، ولم يبق هناك مجال للمزيد .

بعد مكالمة آهارون ـ التى كانت نقطة تحول أخرى على درب حياتنا ـ عدت الى

عمان ، وبعدها بخمسة أيام كنت فى دمشق مرة ثانية لمقابلة أبى جهاد وإطلاعه على خبر نقل صلاح من جاديرا إلى أنصار . وعلم أبو جهاد بأن آهارون هو وسيلة اتصالى وأقرها ، ثم ، فى نفس اليوم ، نظم لى زيارة ثانية للأسرى الاسرائيليين المحتجزين لدينا ، فقد كنا فى حاجة لأن نطمئن « الجانب الآخر » على سلامة أبنائهم ، ونستغل الموقف كوسيلة لضمان سلامة أسرانا لديهم . . وكان أبو جهاد ، وكذلك أحمد جبريل ، المعروف بين رفاقه باسم « أبو جهاد أحمد » قد أصدرا عدة بلاغات تحمل العدو مسؤوليتهم كاملة . ففى الوقت الذى كان فيه الأسرى الاسرائيليون لا يلقون منا أية تهديدات أو معاملة سيئة فى أية مرحلة من مراحل أسرهم ، كان رجالنا الذين فى قبضة إسرائيل يعاملون كأرقام تخضع للعد اليومى والتحقيق ولكن . . ويا للسخرية !! لم يكن عليهم تقديم أى كشف حساب عن رجالنا لأية جهة من الجهات . وكان الملك حسين أيضا قد طالب من خلال السفير الأمريكى فى عمان بضمان يؤكد سلامة المعتقلين لدى اسرائيل وحسن معاملتهم ، غير أن الطلب لم يقابل بأية استجابة فعالة .

□ اللقاء الثانى بالأسرى الاسرائيليين

فى يوم ٢٩ أكتوبر من عام ١٩٨٢ ـ بعد ثلاثة أشهر من زيارتى الأولى للأسرى الاسرائيليين ـ انطلقنا مرة أخرى بالسيارات الى وادى البقاع . كان موسم الصيف قد انقضى . . مليئا بالقلق والاضطراب على كل مستوى . . وبالحركة الدائبة التى لم تتوقف بالنسبة لى . وبدت الطبيعة مختلفة عنها فى المرة السابقة ، فاللون الأخضر الزاهى الذى شاهدناه فى المرة السابقة يغطى الأرض فى بهاء ، كان قد بدأ يبهت ويتحول الى الدرجات الألطف والأهدأ التى اعتادت الطبيعة أن تتزين بها فى الخريف . . فى حين كان الهواء يهب علينا وفيه تلك اللفحة الباردة المنعشة ، التى يتميز بها جو هذا الجزء الخصيب من الوطن العربى فى ذلك الفصل من السنة . هذا فى حين كان كل شىء من حولنا . . الأشجار والنباتات والسحاب . . يبدو فى ضوء هذا النهار محددا واضح المعالم . . والجو كله يشوبه نوع من الحدة . . كأنه يضاهى ما فى الموقف الذى كنا نعيشه من حدة وحسم .

ولم أكن وحدى فى هذه الرحلة ، بل كنت ضمن مجموعة من بينها السيد « بول عجلونى » صاحب الجريدة العربية « الفجر » التى تصدر فى القدس المحتلة ، وكان مثلنا فى طريقه لزيارة الأسرى الاسرائيليين الستة جميعهم هذه المرة . وعندما وصلنا إلى البقاع ، توجهوا بنا أولا الى نفس المنزل الذى قابلت فيه ثلاثة من الأسرى فى المرة الأولى . هناك قابلت نفس الحراس الذين قابلتهم فى المرة السابقة . تأثرت بتعاونهم وتفهمهم الكامل

لمسؤوليتهم . وفى هذه المرة أيضا شعرت بالوعى والحساسية المرهفة التى كانوا يتعاملون بها مع الموقف الذى هم بصدده . ولكم وددت لو كان العالم كله حاضرا ليدرك حقيقة هؤلاء الرجال والفتية ويعيها ويضعها فى الميزان عندما يحاول تقييمهم . . فيجد أنهم ليسوا « قتلة » ولا « إرهابيين » كما دأب على وصفهم ظلما . وقد أشعرونى بأننى واحدة منهم ، عندما حان موعد انتقالنا الى حيث يحتجزون الأسرى ، بأن استثنونى من عصب العينين الذى تحتمه مثل هذه الظروف ، والذى خضع له بقية أفراد المجموعة بما فيهم السيد عجلونى ، بالرغم من أنه من أهل الثقة .

بعد ذلك ـ دون اجراءات أو تعقيدات ـ أقلتنا السيارات الى موقع آخر كان الأسرى الإسرائيليون قد نقلوا اليه من قبل لتأمين سلامتهم ، خاصة أن شائعات قوية كانت قد انطلقت بأن العدو يخطط لعملية يستردهم بها عنوة . وهذا الاحتمال لم يكن مما يمكن تجاهله كلية بعد أن أثبتت التجارب السابقة مدى اهتمام اسرائيل الزائد برجالها ، وأنها لا تتوانى عن بذل المستحيل فى سبيل استردادهم إذا وقعوا فى الأسر . . وحتى جثثهم إذا ما لاقوا حتفهم فى ميدان القتال .

وعندما وصلنا وترجلنا من السيارات ، دخلنا بيتا صغيرا ، ثم دلفنا إلى حجرة وجدنا الأسرى الستة جالسين فيها مع حراسهم على حشايا على الأرض ، فانضممنا إليهم فى جو طبيعى ، لا يشوبه التوتر والكبت اللذان تثيرهما عادة العلاقة بين السجناء وحراسهم ، خاصة عند وجودهم معا فى مكان واحد . وكان الهواء النقى المنعش يدخل من النوافذ المفتوحة .

ولم أملك نفسى من المقارنة فى صمت بين حجم الحجرة التى كنا فيها والمساحة المخصصة للمعيشة من المبنى ، بما علمته عن أحوال أسرانا المحتجزين فى الزنزانات الانفرادية لدى إسرائيل . ولكننى بالرغم من ذلك شعرت بالراحة لسلامة الأسرى الاسرائيليين وحالتهم الطيبة . وقد قدر لى أن أراهم مرة أخرى بعد سنة . . قبل إطلاق سراحهم ، وقبل أن تسوء الأحوال ويشتد الخطر على الجميع ـ بما فيهم قيادة منظمة التحرير ـ خلال حصار وقصف طرابلس فى أكتوبر عام ١٩٨٣ .

جلسنا جميعا فى حلقة وبدأنا نتحدث . . ومن بيننا الأخت « فاطمة برناوى » المسؤولة عن الأسرى التى قضت اثنى عشر عاما فى أحد السجون الاسرائيلية تنفيذا لحكم صدر عليها إثر قيامها بوضع قنبلة فى أحد المبانى بالأرض المحتلة . وكانت ملمة بالتمريض وتعرف العبرية وتعامل السجناء بلطف وكرم . وعندما أعد السيد عجلونى الكاميرا

والمسجل ليلتقط بعض الصور للأسرى ، ويسجل حديثا معهم بصفته الصحفية فعلت مثله ، إذ كان من الأصوب فى هذه الحالة ـ نظرا للظروف ـ أن يكون لدّى تسجيل مادى ملموس لهذه المقابلة الهامة . غير أننى ما لبثت بعد فترة أن أثارتنى لهجة السيد عجلونى ، الذى بدأ يتعرض فى حديثه لمعاملة اسرائيل السيئة لأسرانا . وفى ثنايا كلماته نغمة تأنيب ، بدا لى ـ مهما حسنت دوافعه ـ أن هذا ليس مجالها ، وأنه ليس من الإنصاف توجيهها لرجال . . مهما كانوا . . فهم فى قبضتنا وفى حالة أسر وعجز . وكان اتجاهه هذا ضد الروح التى يعامل بها الحراس الأسرى ، ويتعامل بها من هم فى مواقع المسؤولية مع الوضع القائم ، وضد ما تؤمن به القيادة نفسها من مبادىء وما أصدرته من تعليمات . ومن جهة أخرى ضايقنى أيضا إلى حد كبير ، ما كان من ضياع للوقت دون ضرورة ، إذ كان علىّ أن ألحق بالطائرة المتجهة من دمشق الى أوسلو فى وقت مبكر من صباح اليوم التالى ، لأحضر مؤتمرا عن قضية أسرى العدوان الاسرائيلى على لبنان . . وبذلك كان انتباهى موزعا بين ما كان يدور حولى ، وبين مراقبة الوقت الذى كانت ساعاته تمر سريعا . وانتهى الأمر على أى حال بأن فاتتنى الطائرة .

أما الجنود الشبان الاسرائيليين فقد بدوا خلال المقابلة أبعد ما يكونون عن التوتر ، وكانوا يتحدثون فى حرية وانطلاق . وعند مصافحتنا لهم لدى مغادرتنا ، سألتهم ما إذا كان أحدهم يرغب فى نقل رسالة خاصة منه الى أهله ، متعهدة ببذل كل ما فى وسعى لتبليغها . ولم تكن لدىّ أى دوافع خفية من وراء هذا العرض ، فقد كانت كلماتى تعبر عما أقصده حرفيا ودون مواربة ـ ولو أننى ربما كنت أبغى أيضا التخفيف من وقع أسلوب السيد « عجلونى » ، الأمر الذى جعلنى كذلك غير مطمئنة تماما إلى الصورة التى ستظهر عليها مقالته ، وجعلنى أشعر بضرورة الاتصال هاتفيا بالسيد بارنيع فى أسرع وقت لأؤكد له أن أسراهم فى حالة طيبة .

ورد الأسرى بأنه ليس لديهم أية رسائل معينة يرغبون فى تبليغها لذويهم ، واقتصروا على قولهم : « بلغيهم أننا بخير وألا يقلقوا » وقد سرنى أن تكون هذه رسالتهم . إذ كانت تؤكد حسن معاملتنا لهم وتنعكس على قيادتنا إيجابيا . كانت رسالة أستطيع تبليغها وأنا مقتنعة تماما بصدقها حيث أنهم كانوا جميعا فعلا بخير ، وروحهم المعنوية طيبة ، والجرح الذى أصاب « إيلى أبو الطبول » فى كتفه أثناء المناوشة التى انتهت بأسره قد التأم تماما تقريبا بفعل عناية فاطمة برناوى التى كانت تواليه بالتضميد والغيار . . كلها تفاصيل تجعل المرء فى مثل هذه اللحظات يشعر وكأنه يقف فى مواجهة حادة ومباشرة مع الحرب وبشاعتها وويلاتها ، وما تعنيه فى الواقع من أنانية البشر وعجزهم عن التفاهم .

كانت رحلة العودة من التجارب التى لا تنسى ، فالليلة كانت شديدة البرودة ، وكانت السيارة التى تقلنا من السيارات المفتوحة المغطاة بقماش القنب الذى لا يوفر أية حماية من الرياح وصقيعها ، الذى كانت تزداد وطأته باطراد ، ونحن فى طريقنا إلى دمشق . وبعد هذه التجربة بحوالى أربع سنوات ونصف السنة ، ونحن نتبادل الحديث عن هذه الفترة ، ذكّرنى الأخ « محمود العالول » ـ الرجل الفاضل المحترم الذى عهدت اليه المنظمة بمسؤولية الأسرى الستة ـ بواقعة حدثت أثناء الطريق كنت قد نسيتها ، مما أضفى على الذكرى طرافة وحيوية . فعندما أوقفتنا إحدى نقط التفتيش غير التابعة للفلسطينيين لفحص تصاريحنا ، نزل للتفاهم ، وما لبث أن عاد دون سترته الواقية من البرد قائلا إنه « أضاعها » طوعا واختيارا بعد حديث طال مع حرس النقطة ، فى مقابل السماح لنا بالعودة الى دمشق فى أسرع وقت دون تعقيدات . وذكرنى أننى أخذت ألح عليه ليستعير معطفى ، أو ما كنت أتدثر به يومها والذى قدمته له فى خجل ، حيث كنت أرتدى الملابس الثقيلة ، واحتمال إصابتى بالبرد يكاد لا يذكر بالنسبة لاحتمال إصابته هو بالتهاب رئوى ـ مهما كانت قوة بنيته وتحمله ـ إذا قضى بقية الرحلة وليس عليه سوى قميصه القطنى الخفيف .

من دمشق ، توجهت الى عمان بدلا من أوسلو ثم إلى لندن . وفى خلال ثلاثة أيام ـ فى يوم الخميس ٤ نوفمبر ١٩٨٢ ـ توجهت إلى « الأرض المحتلة » فى زيارة ثانية ، حيث أن جميع تأكيدات آهارون بأن صلاح بخير لم تكن كافية لتهدئة ما تجدد من شعورى بالانزعاج لما طرأ على الوضع من تغييرات جعلته غير واضح المعالم لدىّ . كنت فى حاجة لأن أتصل بالأحوال الجديدة اتصالا ملموسا لأستشعرها وأتبينها بصورة واقعية . وأحسست بضرورة معرفة حقيقة معتقل أنصار حيث يعيش ما يقرب من عشرة آلاف شخص فى حالة « ضياع » ، معزولين عن العالم الخارجى الذى لا يكاد يعرف عنهم أو عن أحوالهم شيئا . وهذه المرة لم تساورنى أية هيبة أو خشية مما أنا مقدمة عليه كما حدث فى المرة الأولى ، بعد أن أكد لى كل من أبى عمار ، وأبى جهاد بأنه ليس فى تصرفى هذا ما يدعو للقلق ، وأنه علىّ أن أنتهز كل فرصة تسنح لى للذهاب الى « هناك » دون تردد . الشخص الوحيد الذى كانت له اعتراضاته وأخشى أننى أعطيت نفسى حرية عدم الأخذ بها . . كان صلاح نفسه . كانت نصيحته التى أخذ يكررها هى الرجاء بألا أذهب . وكتب لى فى سبتمبر : « لا تحضرى . . لا تعرضى نفسك لهؤلاء الشياطين » . ثم كتب ثانية : « أرجو ألا تحاولى المجىء مرة أخرى الى هنا . . إنك بذلك تغامرين بالكثير . . ودعينى أوضح لك أيضا وأبلغك أننى لن أترك أنصار تحت ضغط أى ظرف من الظروف . ومن ثم إذا حضرت ولم أتمكن من رؤيتك بسبب هذا الالتزام الحاسم من جانبى ، فإن معاناتى النفسية ستكون كبيرة » .

ولو كان إطلاق سراحه بصورة استثنائية قد جال بخاطره فى أى مرحلة من مراحل أسره ـ بالرغم من استحالة ذلك وعدم كونه وارداً من الأساس ـ ما كان قد طلب أبدا من « بنيلوب » ـ وهو الاسم الذى اختاره من الأساطير الاغريقية ليدعونى به ، ويرمز للزوجة التى تنتظر عودة زوجها مهما طال غيابه ـ أن تلزم دارها وتنتظر ، ولما كان على مثل هذا الوضوح فى جميع مكاتباته عن الاحباط الذى عاناه للتأجيلات والمسرحيات الجانبية ، التى لابست مفاوضات تبادل الأسرى . إنه عندما يتحدث عن سجناء أنصار ، إنما يتحدث عنهم جميعا ، ويقصد ويبتغى إطلاق سراحهم جميعا وهو أحدهم .

□ مشاعر موزعة

عندما غادرت لندن فى طريقى الى الأرض المحتلة بعد زيارتى لوادى البقاع ، جاءت جلستى فى الطائرة الى جانب سيدة فلسطينية عربية كان من الطبيعى أن أحس نحوها بتقارب لا أحسه نحو أى شخص آخر فى الطائرة . ولكننى وجدت مشاعرى موزعة بين خشيتى من أن تتعرف علىّ ، وبالتالى تديننى للقيام بعمل يصعب تبريره فى الظروف التى نحن بصددها والوقت الضيق المتاح ، وبين حاجتى فى هذه اللحظات الى أن اتحدث بما فى نفسى بصورة طبيعية لشخص مقرب أثق فيه . ساعتها . . كرهت ما أضطررت إليه من العمل فى الخفاء ، وكرهت إحساسى بأن عدم محادثتى إياها فى تلقائية ، إنما يعتبر فى الواقع تخليا منى عنها . ولم يسر عنى قليلا سوى معرفتى أنها لو كانت لها أية صلة بموضوع الأسرى والسجناء الفلسطينيين لدى اسرائيل ـ وليس هناك امرأة فلسطينية لم تعانَ من اعتقال أو سجن أو تعذيب أب أو ابن أو زوج أو أخ فى السجون الاسرائيلية ـ فإنها ستتفهم موقفى وتتعاطف معى .

وفيما بعد ، كتبت لصلاح بهذا المعنى قائلة : « إن قومك . . قومنا . . أقصد « قومى » . . قد تبنونى وهو ما أعتبره شرفا لى ، وأيضا استجابة منهم لما أكنه لهم من مشاعر التقدير كشعب من أرقى شعوب الشرق الأوسط . . قضيتهم قد طغت أهميتها على كل الاعتبارات فى منطقتنا وذلك بالرغم مما تعانيه غالبية الشعوب العربية فى هذا العصر . هى الأول والآخر . . والمحور الذى تدور الأحداث حوله » .

فى هذه المرة أنزلونى فى فندق فى وسط مدينة تل أبيب خلاف الفندق الذى أقمت فيه المرة السابقة . كان ضيقا ومظلما وخانقا ، وكأنه يتواءم مع الظروف التى نعيشها . وعندما حضر صلاح خلال المساء بعد حوالى ثلاث ساعات من وصولى ، زاد المكان من شعورنا

العام بالكآبة ، خاصة وأنه لم يوفر لنا ولو الحد الأدنى من الخصوصية . فقد أحسسنا أن المبنى المقابل من القرب بحيث نستطيع لمسه لو مددنا أيدينا من النافذة . ولم أعلم - إلا فيما بعد - مدى ما كان يتعرض له صلاح من معاناة خلال رحلته من المعتقل إلى حيث يقابلنى . . وهى تستغرق حوالى خمس ساعات أو أكثر ، فهو ليس بالرجل الذى يشكو عند الأزمات . وفى حين أن فى طاقته أن ينفجر غضبا عن اللزوم ، إلا أنه عادة يتجاوز ما يواجهه من متاعب باتزان ووقار . . وبروح الفكاهة إذا سمحت الظروف .

كنت فى تلك الأثناء أشعر بالتعب والإنهاك يستبدان بى ، ولم أدرك حينئذ أن هذا الشعور سوف ينمو ويتضاعف . كنت أحس بالسخط لاضطرارى الى رؤية صلاح وهو أسير فى قبضة سجّانيه . كما كانت محاولتى استشفاف مدى ما يعانيه معنويا وذهنيا مما يسبب لىّ ألما لا قبل لى بتحمله . كنت أشعر بذات الذل الذى يحسه هو والآلاف غيره من الرجال العرب الواقعين تحت سيطرة الحكم الاسرائيلى وسطوته . وعندما بدأنا نتحدث ، هبطت بى الأخبار ، التى استطاع نقلها لى ، إلى حضيض من اليأس المظلم . لم نتمكن من الكلام إلا همسا ، وحتى همسنا هذا كان من الأرجح مسموعا . . وبالرغم من ذلك ، فقد أخذ يلح علىّ فى صوت أوهنه اليأس ، وأصابته بحة من جراء المجهود الذى كان يبذله فى « أنصار » يوميا فى مخاطبة رفاقه وحثهم على التكتل والمزيد من الصمود ، بضرورة أن أنقل حقيقة الموقف الى القيادة ، وأحاول أن أوضح لهم أنه بالرغم من صدق ما لديهم من معلومات عن صلابة رجالنا المحتجزين ، فإن الاعتماد على « مقاومة » خمسة آلاف رجل إلى مالا نهاية وهم فى السجن ، بناء على ما يبدو فى الصورة الآن من مظاهر شجاعتهم ، لن يكون تصرفا واقعيا ، وليس بالرأى السديد الذى يمكن تحبيذه . . ثم أردف قائلا إنه يجب أن تحاط القيادة علما بجميع التفاصيل البشعة للحالة فى أنصار ، وأن عليهم أن يقوموا بنوع من العمل الإيجابى لمواجهة الوضع المتردى هناك .

وفى هذه المقابلة ، لفت نظرى التغيير الذى طرأ على صلاح . ففى لقائى الأول به بعد الاجتياح فى أغسطس ، كانت طاقاته ومقاومته تبدو متحفزة وقادرة على التكيف فى مرونة مع ظروف الأسر ، بالرغم من صدمة الغزو ووحشة السجن الانفرادى الرهيبة ، ولربما أيضا - بالرغم مما كان قد أبداه من مقاومة لفكرة زيارتى له ومحاولته إثنائى عنها - كنت أعتقد أنه سعيد برؤيتى ، وبأنه يحس - ولو للحظات - بالروابط العائلية ، وبأنها حقيقة حية ، تعيش فى أرض الواقع . . لا يحجبها عنه سوى عزلته التى فرضت عليه . كان باختصار قد افتعل بنجاح ما أقنعنى به من خلاله بأنه بخير ، وذلك ليخفف من معاناتى . فشتان ما بين ما كنت أتصوره من أنه ربما أصبح فى وضع صحى - جسدى ونفسى - أفضل بعد نقله الى أنصار وما بين الواقع المرير .

الآن بدا وكأن اليأس قد اشتدت وطأته عليه . كان قد أطلق لحيته . . وكان الحزن الذى ظهر فى عينيه ـ بالرغم من محاولته عدم إثقالى به ـ أعمق حتى مما ظهر عليه يوم الغزو فى صيدا . . ربما لأن العبء الذى ينوء بحمله قد أصبح ملموسا ، وحقيقة يراها رؤى العين ليل نهار . . خمسة آلاف من البشر أو أكثر . . غارقين لفترة لا يعلم مداها إلا الله ، فى مستنقع من العذاب ليس له قرار . . معاناتهم معاناته . . وذلهم ذل له يرزح تحت وطأته . . هم قومه وأهله . . شعوره نحوهم شعور الابن . . أو بالأحرى القائد الذى جعل من قدرهم قدره ، ومن التزامه بالعمل على مؤازرتهم قرارا لا رجعة فيه . ونقلت إلىّ لهجته الملحة ، واضطراره ـ من فرط الأعياء ـ لأن يقضى بعضا من الساعات الثمينة التى أتيح له أن يقضيها خارج المعتقل فى النوم ليستجمع شيئا من قواه ، ما تعنيه تجربة السجن فى معتقل أنصاره ، ودلالتها كمثل حى على أن العجز واليأس يمكن أن يتحولا إلى مقاومة وتصميم وعزم وإنجاز أعاد تلاحمى دون رجعة بالقضية . وفى هذه اللحظات قطعت على نفسى عهدا صامتا بأن أجعل قضية المحتجزين فى أنصار شاغلى الأول ، فكان علىّ إما أن أسهم فى حلها أو أن أقضى دونها ، كما يقول المثل .

فى هذا المساء ، حاول صلاح أن يشرح لى أنه قد تمكن من إعداد قائمة بحصر أسماء الأسرى ، وذلك عن طريق قذف الرسائل المكتوبة عبر الأسوار . وهو أسلوب استخدمه وطوره المعتقلون للاتصال ببعضهم البعض ، بحيث استطاع صلاح بعد حضوره إلى أنصار أن يحصل من خلاله من رؤساء الأقسام الأخرى فى المعتقل على معلومات ثمينة عن المحتجزين ، أتاحت له التحقق من صحة القوائم التى لدى هيئة الصليب الأحمر الدولية ، وإضافة المزيد من أسماء المعتقلين غير المذكورة أسماؤهم فيها . وكان الافتقار إلى الرعاية الطبية المناسبة والعديد من الضروريات الأساسية الأخرى ، يشكل مشكلة من أخطر المشاكل التى كان يتحتم مواجهتها ، خاصة وأنها بدأت تزداد حدة بحلول فصل الشتاء ببرده القارس . أما أكثر ماراع صلاح ، فهو وجود أسر كاملة من الرجال فى المعتقل ـ آباء . . مع جميع أبنائهم البالغين ، وكل من يمكن أن يعول أسرهم من الأقارب الرجال ـ وما يعنيه ذلك بالنسبة لمن اضطروا لتركهم وراءهم من النساء والأطفال والشيوخ ، الذين صاروا بذلك دون مورد بعد حرمانهم ممن كان يعولهم من الرجال القادرين . . ومن ثم فقد لبث يكرر ويلح هامسا : **« العائلات . . بلغيهم ضرورة العناية بعائلات المعتقلين . . فذلك على الأقل سوف يوفر لهم بعض الطمأنينة والراحة من القلق اليائس على ذويهم . يكفى ما يعانونه هنا » .**

كل ذلك استنزف قوانا تماما . وعندما هد صلاح التعب ولجأ للنوم أخيرا لساعة أو

ساعتين عند الفجر ، جلست أرقبه فى حدب . وأنا لا أستطيع تصور كيف سأجد القوة لأن أدعه بعد ساعات قلائل يسير مرة أخرى مبتعدا نحو المجهول . وكانت الزيارة قد صادفت عيد الغفران عند اليهود ، وتذوقت للمرة الأولى الخبز الخالى من الخميرة الذى يصنعونه خصيصا لهذه المناسبة . وكان صوت الاحتفالات المقامة فى الدور الأرضى يصلنا ، غير أننى لم أشأ أن أركز تفكيرى على التفاوت والتناقض بين ظروفنا وظروف المحتفلين بالعيد ، حيث أن المناسبة كانت مناسبة دينية .

وفى ظهر اليوم التالى حضر الحراس لإعادة صلاح إلى المعتقل . أما أنا ، فقد اضطررت للانتظار حتى صباح اليوم التالى ، حيث لم تكن هناك رحلات طيران يمكن أن أغادر عليها فى نفس اليوم بسبب إضراب غير متوقع فى شركة الطيران . وبعد عودتى ، كتبت إلى صلاح :

« إن هول ما تعانيه قد وصلنى ونفذ الى أعماقى . . من خلال كلماتك القليلة . . والكثير من إيماءاتك وإشاراتك . . والكثير جدا مما كتبته فى لهفة فى الوقت القصير الذى سمحوا لنا به . . لحظات يستحيل علىّ أن أعيشها مرة أخرى !! »

وخلاف الحال فى الزيارة الأولى ، التى كان لها وقع خاص لا يخلو من الإيجابية ـ بالرغم من كل القلق الذى سبقها ـ تركتنى هذه الزيارة الثانية مستنزفة القوى ومجردة من كل أمل تقريبا ، ومع ذلك لم أكن لأتوانى عن عمل كل ما فى وسعى من أجل صلاح وآلاف الرجال المحتجزين فى أنصار وغيرها من السجون والمعتقلات الاسرائيلية وأسرهم . ففى خطاب آخر لصلاح كتبت :

« اتمنى لو كان لدّى المزيد من الطاقة والامكانيات لأضعها تحت تصرفك وتصرف قومنا ، ولكن . . على أرض الواقع . . إلى أى مدى سيتسنى لى أن أصل فعلا . . وما الذى يمكن لى تحقيقه حتى لو استجمعت كل ما فى العالم من عزم وتصميم وتفان ؟ !! »

وعندما حضر آهارون ليصحبنى الى المطار ، باغتنى فى لحظة من اليأس الكامل . . الصامت ، فكان من اللباقة بحيث لم يظهر أنه لاحظ شيئا ، وأنا من جهتى ، شعورا منى بأننى أمثل فى هذه اللحظة خمسة آلاف شخص من قومى على الأقل ، لم أستطع أن أحنى رأسى فى الوقت الذى هم فيه يجاهدون لرفع رؤوسهم تحديا فى وجه القوة العمياء الغاشمة التى يصطلون بنار بغيها .

□ رسالة من صلاح لأبى عمار

وفى يوم الاثنين العاشر من نوفمبر ، غادرت لندن الى تونس لمقابلة أبى عمـار ، وتبليغه رسائل صلاح عن الأحوال فى أنصار وما ينقص المعتقل من حاجيات أساسية . تمت المقابلة بعد وصولى بقليل ، حيث أبلغته كل المعلومات التى عهد صلاح إلىّ بها ، ومنها القائمة التى تمكن من إعدادها بأسماء الأسرى الذين استطاع حصرهم .

وبالرغم من أن البذرة الأولى لفكرة تبادل الأسرى بين الجانبين ربما تكون قد بدأت تنبت فى بعض الدوائر ، وفى أذهان بعض ذوى النفوذ فى ذلك الوقت ، لم يتجه تفكيرى إليها ، فقد كان أكثر تلقائية ، وعلى مستوى الأساسيات ، وأهمهـا توفـير الاحتياجـات الضرورية التى يفتقر إليها المعتقل . واتجهت اهتماماتى بالدرجة الأولى نحو محاولة القيام بكل ما يمكن لتحسين الأحوال المعيشية للسجناء ، والعمل من أجل نيلهم حقوق « أسرى الحرب » ، حيث كانت لجنة المحكمين الدولية قد حثت على اعتبار الأسرى الفلسطينيين أسرى حرب يسرى عليهم ميثاق جنيف الرابع عـام ١٩٤٩ ، الذى ينص عـلى اعتبار المقاتلين التابعين لحركات المقاومة المنظمة أسرى حرب . ولكن اسرائيل رفضت تطبيق ذلك على من لديها من الأسرى الفلسطينيين واللبنانيين ـ خاصة بالنسبة لحرب ١٩٨٢ ـ على أساس أنهم « إرهابيون » خاضعون للقانون الاسرائيلى الذى لا يعترف بمنظمة التحرير الفلسطينية كحركة مقاومة منظمة ، وبالتالى لا يعامل المنتسبين اليها معاملة أسرى حرب ، بل معاملة المجرمين الخارجين على القانون ، سواء فى داخل اسرائيل أو خارجها .

من جهة أخرى ، كانت هناك حقيقة كون منظمة التحرير معترفا بها فى لبنان كحركة مقاومة مشروعة لها حق التمتع بالحماية ، وما أفتى به عدد من المحامين بناء على هذا ، من أن اسرائيل بفرضها القانون الاسرائيلى على لبنان وعدم معاملة أسراه لديها معاملة أسرى الحرب ، إنما تخرق القانون الدولى لأن لبنان ، قانونا ، يعتبر بلداً أجنبياً بالنسبة لهـا ، ووضعها فيه لا يسمح لها بذلك . هذا بالإضافة الى أنه لا يمكن بحال تبـرير اعتقـالها لأعضاء اتحادات الطلاب والعمال والاتحادات النسائية فى لبنان دون تمييز ـ فى حين أنها جميعا مؤسسات كانت قائمة قبل تأسيس منظمة التحرير الفلسطينيـة . كما يجب إدانـة إجراءاتها غير المشروعة من حيث سجنها لأعضاء الأحزاب السياسية اللبنانية المعترف بها قانونا ، والقائمة منذ زمن طويل ، واعتقالها لهم داخل بيوتهم . كل ذلك ، فى حين أن منظمة التحرير دأبت على معاملة أسرى إسرائيل لديها معاملة أسرى حرب فى الماضى . وطبقت ذلك على من لديها من الأسرى الحاليين أيضا .

وكعهدى به دائما ، وجدت أبا عمار لمّاحاً ومتعاونا ومتفهما ، غير متوان فى تقديم مساندته وإبداء استعداده للقيام بكل ما يلزم من إجـراءات من أجل سـلامة المعتقلين واحتياجاتهم . حيث أدرك فورا تمام الادراك كل ما تضمنه الموقف من خطورة وأهمية . فأبو عمار يتميز بذكاء لماح ، وبقدرة فائقة على سرعة الإلمام بالمواقف التى تواجهه من جميع نواحيها ، ثم التعامل معها فى حكمة واتزان ، متجاوزا أو مخترقا العقبات التى قد يقف غيره أمامها وهم يقلبون الآراء فى تردد لا داع له ـ وقد أثبتت هذه المقدرة نفسها على مر السنين ـ كما أن لديه من المرونة وعمق الخيال ورهافة الحس ، ما يزيد من أبعاد شخصيته كقائد متمرس . ولكن . . بالرغم من كل ذلك . . فقد بدا فى هذه المرحلة . . أنه حتى هو . . ليس فى وسعه فعل الكثير . وانتهى الأمر فيما بعد ، وفى شهر نوفمبر عام **١٩٨٣** بالتحديد ، بادارته شخصيا لدفة المفاوضات إدارة بارعة ، حتى تم الإفراج عن المعتقلين فى الثالث والعشرين من ذلك الشهر .

٧ معتقلــو أنصـــار

كانت أول معرفـة لى بمعتقل أنصـار من خلال صـورة فوتـوغرافيـة فى تقريـر لمجلة « شؤون الشرق الأوسط » الانجليزية فى أواخر نوفمبر ضمن مقـال تسجيلى هام « لجوديث تكر » . وعلى الرغم مما كنت أعرفه من صلاح عن ظـروف المعتقل وافتقـاره إلى أبسط الضروريـات ، فقد صـدمتنى الصورة . لقـد أقام الإسرائيليون المعتقل على عجل غير مبالين بما ينقصه من مرافق أساسية ، كتوصيلات المياه مثلا . فقد كان وزير الدفاع الإسرائيلى آريل شارون يتوقع بثقة بالغة انهياراً سريعاً فى الأوضاع ، بحيث تتولى القـوات اللبنانيـة مسؤولية المعتقـل فى وقت قريب . ولم يكن الإسرائيليون قد أدركوا بعد أن مهمتهم فى لبنان ليست بالسهولة التى بدت بها لهم ، وأن التوتر قد جعل الموقف كقنبلة زمنية وشيكة الانفجار .

لم تكن معالم الصورة الفوتوغرافية واضحة ، لذلك بدت الأرض المغطاة بالحصى ، وأسطح أبراج الحراسة وصفوف الخيام وكأنما تغشاها طبقـة من الثلج تعمق الإحساس بكآبة المكان ووحشته . وكانت شركة مقاولات إسرائيلية قد قامت ببناء المعسكر بعد الغزو فى فترة لا تزيد على عشرة أيام ، بعد أن أُسْدى النُصح إلى السلطات الإسرائيليـة وتم إقناعها بأن اعتقال أعداد كبيرة من اللبنانيين خارج بلادهم يعد عملا غير شرعى ، وأنه يتعين عليهم من ثم معالجة الموضوع على وجه السرعة . واختير الموقع بالقرب من مدينة النبطية الجبلية التى ظلت على امتـداد سنوات هـدفاً ـ يـومياً تقـريباً ـ للغـارات الجويـة الإسرائيلية ، شأنها شأن قرية أنصار التى كان بوسع سكانها رؤية أنـوار المعتقل الـذى لا يبعد عن قريتهم كثيراً . وقد وصف المقال المعتقل بأنه : **« رقعة فسيحة من الأرض يحيط بها سياج ترابى مرتفع تعلوه الأسلاك الشائكة ، وقد نصبت بداخلها صفوف من**

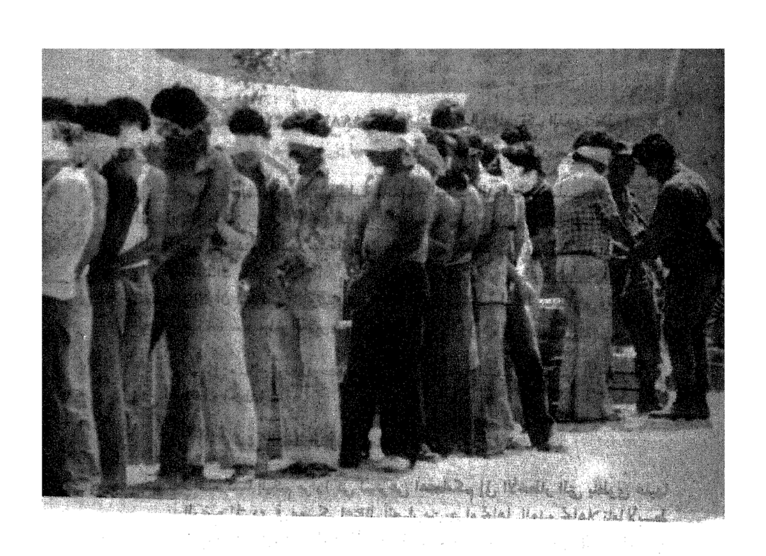
الخيام يضم كل صف منها ثلاثمائة خيمة . . وأقيمت على امتداد الأسوار أبراج للحراسة ، يبعد كل منها عن الآخر بمقدار ٧٥ ياردة ، وهى مزودة بالأنوار الكاشفة والحراس المسلحين . وتقطع المعتقل طولا وعرضا ممرات باتساع ستة أمتار تقسمه الى ثلاثة وثلاثين قسما ، وترابط فيها سيارات مصفحة . وكان الأسرى يشيرون إلى رقم القسم الذى يقيمون فيه ضمن حديثهم ورسائلهم لتحديد المكان الذى يوجدون به » .

بدت الخيام فى الصورة وكأنها تمتد بلا نهاية . وقد قدر لى فيما بعد أن اتعرف على جغرافية المعتقل من خلال ما سمعته من صلاح وزملائه المعتقلين ، حتى انطبعت صورته بوضوح فى ذهنى بأقسامه المختلفة ، وبالفجوات التى تتخلل أسواره ، وبأحواض الزهور التى طالب بها المعتقلون وحصلوا من الصليب الأحمر الدولى على بذور لزراعتها ، وبلحظات التوتر والقلق والألم والأمل التى عاشها المعتقلون فيه على مدى ستة عشر شهرا .

وقد قُدر عدد المعتقلين الفلسطينيين الذين مروا بمعتقل أنصار بخمسة عشر ألف معتقل خلال تلك الفترة ، فضلا عن عدد غفير من اللبنانيين والمنتمين إلى جنسيات أخرى . وحين وصل صلاح إلى المعتقل وجد فيه عددا كبيرا من الرجال الذين كادت معنوياتهم تنهار وأشرفوا على الضياع وفقد الاتجاه . وكان المعتقلون قد حاولوا الاحتجاج وتسلقوا الأسوار ليروا أفراد عائلاتهم الذين جاءوا لزيارتهم فى عيد الفطر ومنعهم الحراس من الاقتراب من المعتقل . ولكن أعمال الاحتجاج هذه كانت أعمالا فردية ومتفرقة ، وكان من الممكن ألا يكون صلاح أحسن حالا من هؤلاء ، لولا تصميمه على المواجهة والتصدى لتحدى العدو حتى فى أحلك لحظات القنوط والحبس الانفرادى .

ولما لم يكن الوضع القانونى للمعتقلين محددا ، فقد اعتبروهم مجرد « محتجزين » لا يتمتعون بأية حماية قانونية .

لم تكن هناك أية قوانين تنظم العلاقة بين السلطات والمعتقلين الذين اعتبروا « محتجزين إداريين » بمقتضى مرسوم الطوارىء الذى أصدره البريطانيون فى عام ١٩٤٨ قبل انتهاء الانتداب ، واستمر الإسرائيليون فى تطبيقه لتوافقه مع سياستهم القمعية ضد الشعب العربى الفلسطينى ، وهو مرسوم يعطى لأى ضابط برتبة عميد حق إصدار أوامر الاعتقال . وكان المعتقلون يحتجزون دون محاكمة ، مع تجديد أمر الاعتقال كل ثلاثة شهور ، ونادرا ما كان يتم تقديمهم إلى المحاكمة . وقد عانى المعتقلون فى الأراضى المحتلة أشد المعاناة من هذه الأوضاع الجائرة التى لا تكفل لهم أية حماية ، حيث كانت عائلاتهم لا تخطر بالقبض عليهم ، أو بأماكن اعتقالهم . وخلال غزو لبنان ظلت آلاف العائلات



الجنود الاسرائيليون ، إلى اليمين يقيدون أيدى الأسرى الفلسطينيين
فى صيدا بعد عصب أعينهم ، تمهيدا لارسالهم لمعسكر الاعتقال .

تجهل مصير أبنائها لعدة أسابيع . ومن المشكوك فيه كثيرا أن تكون السلطات قد التزمت ، خلال الاعتقالات الجماعية التى رافقت الغزو ، حتى بذلك الحد الأدنى من الشكليات مثل تجديد أوامر الاعتقال .

وهكذا تكدس فى المعتقل عشرة آلاف شخص ، أو أكثر فى بعض الفترات ، أخذوا يزدادون اقتناعا مع مر الشهور بأنهم كم منسى ومهمل ، إلا أن منظمة العفو الدولية ناشدت الحكومة الإسرائيلية فى أوائل يوليو أن تعلن أسماء جميع من اعتقلتهم فى لبنان ، وأن تلتزم فى معاملتهم بالمعايير المقبولة دوليا . كما أعربت عن قلقها إزاء سوء معاملة المعتقلين وحرمانهم من الاتصال بذويهم . كذلك أعربت اللجنة الدولية للصليب الأحمر ،

فى نشرتها الصادرة فى ٢١ يوليو ١٩٨٢ ، عن استيائها البالغ للموقف الذى تتخذه إسرائيل تجاه المعتقلين .

اضطرت السلطات الإسرائيلية للسماح للجنة الدولية للصليب الأحمر بزيارة المعتقلين ، ولكن زيارتها الأولى اقتصرت على تسجيل أسمائهم لإدراجها فى سجلات اللجنة وتوزيع استمارات لاستيفائها وإرسالها إلى العائلات . ولابد أن المعتقلين قد راودهم حينذاك بعض الأمل إذ أصبحوا ـ أخيرا ـ فى رعاية منظمة دولية لها مكانتها العالمية . إلاّ أن المعوقات الروتينية فى أجهزة اللجنة الدولية للصليب الأحمر وتباطؤها فى العمل أحيانا ، سبب لهم الكثير من الإحباط وخيبة الأمل فى الأشهر التالية .

وقد والى صلاح إرسال خطابات إلى رئاسة اللجنة الدولية للصليب الأحمر وفيما يلى نص أحد هذه الخطابات :

رئيس اللجنة الدولية للصليب الأحمر ـ جنيف

كتبنا إليكم مراراً كى نسترعى اهتمامكم إلى الأخطار التى ينطوى عليها الوضع المتردى فى معسكر اعتقال أنصار من جراء تجاهل العدو تجاهلا تاما لأبسط القواعد الدولية فى معاملة الأسرى ، سواء فيما يتعلق بمشروعية الاعتقال ، أو بحقوق المعتقلين المنصوص عليها فى المادتين الثالثة والرابعة من اتفاقية جنيف ، ولكافة المواثيق الدولية الأخرى . فالمعتقلون ليسوا سوى أرقام فى نظر قوات الاحتلال ، فهم محرومون من أبسط حقوقهم . وظروف المعتقل من حيث المعيشة والرعاية الطبية والطعام ، والاحتياجات الأساسية أبعد ما تكون عن المستوى اللائق ، فضلا عن الافتقار إلى الماء ، وهو وضع بشع لا يمكن لإنسان متحضر أن يقبله .

ومن الأدلة الدامغة والبالغة الدلالة ، التى تبرهن على تجاهل قوات الاحتلال للحقوق الإنسانية للمعتقلين ، ما يتعرض له هؤلاء من خطر دائم من جراء قيام الجنود الإسرائيليين بفتح النار ، دون مبرر ودونما استفزاز من أحد ، مثلما حدث ليلة الأربعاء ٢٠ يوليو ١٩٨٣ وأدى إلى قتل أحد المعتقلين وإصابة أربعة آخرين بإصابات خطيرة . ولم تكن هذه المرة الأولى التى يُقتل فيها أحد المعتقلين ، ومن البديهى أنها لن تكون الأخيرة طالما ظلت قوات الاحتلال على تجاهلها للقوانين الدولية ، وطالما بقيت اللجنة الدولية للصليب الأحمر تلتزم الصمت .

وعلى هذا ، وتحسبا للكارثة الوشيكة التى نتوقع حدوثها فى أية لحظة فى معتقل أنصار نتيجة لموقف قوات الاحتلال ، وسعياً إلى درء هذه الكارثة ، فإننا نطلب منكم :

١ ـ تنظيم زيارة للجنة دولية للوقوف على الأوضاع المخزية فى معتقل أنصار ، وما يعانيه المعتقلون من جراء هذه الأوضاع .
٢ ـ مطالبة قوات الاحتلال بسحب مركباتها المسلحة من المعتقل .
٣ ـ ضرورة الإفراج عن جميع المعتقلين المدنيين ، وفى مقدمتهم الذين يحملون الجنسية اللبنانية ، والمرضى ، والمسنون والأحداث ، وموظفو الحكومة اللبنانية ، ووكالة الأمم المتحدة لغوث اللاجئين ، والمعلمون والطلاب ، وجميع العناصر التى أدى اعتقالها إلى تعطيل السير الطبيعى للحياة الاجتماعية فى لبنان .

رئيس لجنة الدفاع عن حقوق المعتقلين

صلاح التعمرى

وفى ٢٤ أكتوبر ١٩٨٣ ، بعث برسالة أخرى جاء فيها :

السيد رئيس اللجنة الدولية للصليب الأحمر

تحية وبعد :

نظراً لما يعانيه المعتقلون بمعتقل أنصار من تدهور مستمر ومتزايد فى حالتهم النفسية ، فإننا نرى ضرورة إحاطة المعتقلين علماً بما يجرى من مباحثات لإطلاق سراحهم ، وإعادتهم إلى بلادهم . وثمة اعتقاد متزايد بين المعتقلين بأن بوسع اللجنة الدولية للصليب الأحمر أن تمدهم بهذه المعلومات ، أو أن تقدم إليهم على الأقل ردوداً على مالديهم من أسئلة عديدة فى هذا الشأن .

إننا نأمل أن نتلقى رداً منكم خلال فترة معقولة ، وسوف تبذل لجنة الدفاع عن حقوق المعتقلين خلال هذه الفترة كل ما فى وسعها لإيقاف أى تحرك واسع من جانب المعتقلين للاحتجاج على ما يعتبرونه موقفاً سلبياً من جانب اللجنة الدولية للصليب الأحمر تجاه معتقل أنصار .

وعلى الرغم من كل ما سبق ، فإننا نود أن نؤكد لكم ثقتنا الكبيرة فى الرئيس الحالى لبعثة الصليب الأحمر الدولى فى أنصار .

رئيس لجنة الدفاع عن حقوق المعتقلين
صلاح التعمرى

□ الصليب الأحمر يوقف زياراته للمعتقل

وفى ٢٥ يوليو ١٩٨٢ أوقفت اللجنة الدولية للصليب الأحمر زياراتها للمعتقل ، وهى خطوة لم يسبق لها أن أقدمت عليها على امتداد النزاع الفلسطينى الإسرائيلى . وكانت الأسباب الرئيسية التى بررت بها اللجنة هذا الموقف ، والتى نشرتها الصحافة العالمية ، هى ازدحام المعتقل وعرقلة السلطات الإسرائيلية لعمل مندوبى الصليب الأحمر . وقد استؤنفت الزيارات فى اليوم التالى ، إلا أنه على الرغم مما كانت توفره هذه الزيارات من أمان « نسبى » للمعتقلين ، ظلت الأمور مرهونة إلى حد كبير بشخصية رئيس بعثة لجنة الصليب الأحمر أو مندوبها ، ومرهونة فى المقام الأول بشخصية قائد المعتقل الاسرائيلى . وخلال ستة عشر شهرا ، هى فترة الوجود « الرسمى » لمعتقل أنصار ، تعاقب عليه ثلاثة قواد يختلفون اختلافا كبيرا فى نظرتهم للأمور وطريقتهم فى التعامل . فمنهم من استطاع ـ على الرغم من الموقف الذى اتخذه فى البداية ـ أن يستوعب حقائق الوضع فى نهاية المطاف ، ويسلم بمنطق لجنة المعتقلين بعد أن فرضت عليه احترامها ، ومنهم من فشل فى مهمته نتيجة تعنته وعدم مرونته ، وانتهى الأمر بتغييره بقائد آخر .

وكانوا قد أخذوا صلاح من زنزانة الحبس الانفرادى فى ٢٤ أكتوبر لينقلوه إلى معتقل أنصار . وقد ظل طوال تلك الرحلة التى استغرقت سبع ساعات قابعا فى مؤخرة السيارة مقيدا بالأغلال ومعصوب العينين ، حتى حين كان الحراس يتوقفون على الطريق للراحة .

وقد ظلت المشاعر التى عاشها خلال تلك الرحلة ، وحتى الأصوات التى تخللتها من حديث الحراس أو هرجهم وضوضائهم أو قزقزتهم اللب تجربة أليمة فى ذاكرته منذ ذلك الحين . لم يكن يعرف إلى أين كان سوف ينتهى به المسار أو المصير . وقد كتب بعد ذلك يقول : « **السجن أساسا هو رعب الانتظار . لقد كنت أتوقع أن يحدث لى أى شىء . ووطنت نفسى على مواجهة كافة الاحتمالات** » .



معسكر أنصار قرب النبطية بخيامه وأسلاكه الشائكة والحراسة المشددة عليه .

ولا بد أن صلاح وصل ـ حسب تصورى ـ إلى أنصار فى يوم مشمس جاف من أيام الخريف اللبنانى ، حين تأخذ لسعة البرد فى التسلل إلى نسمات الهواء مؤذنة باقتراب موسم الأمطار التى تهطل فى لبنان بغزارة من نوفمبر إلى مارس . وعلى الرغم من أن زملاءه، لاسيما الذين قدر لهم أن يعرفوه معرفة دقيقة ، قد شهدوا فيما بعد بأنه كان عند وصوله فى حالة من الإرهاق النفسى والبدنى البالغ ، إلا أن روح المبادأة التى جبل عليها ، وإدراكه لضرورة مواجهة تحد يختلف تماما عن ذلك الذى واجهه أثناء الحبس الانفرادى ، دفعاه إلى المبادرة والتحرك السريع . كان عليه أن يستوعب حقائق الوضع الجديد فى ساعات معدودة ، ومضغوطة ، وكانت لاستجابته السريعة للأوضاع الراهنة آثار بعيدة المدى والفعالية . إذ كان الموقف الذى أقره من شأنه أن يجتذب آلاف المعتقلين ، وأن يغير ظروف المعتقل إلى الأفضل . وعلى الرغم من أن صلاح لم يكن وحده فى المعتقل ، فقد كانت المسؤوليات المناطة به جسيمة .

كان المعتقل يضم نواة من الضباط والكوادر الفلسطينيين ، أى مجموعة من الرجال الذين يتحلون بالإيمان بالقضية والذكاء والتجربة . ولكن لا شك أنهم كانوا بعد ما عانوه خلال الاجتياح من خيبة أمل ، وإذلال وإحباط ، بحاجة إلى شخصية محورية ، إلى شخص له مواهب القائد وقوة تصميمه كى يغرس فيهم روحا ورؤية جديدة . . كانوا بحاجة إلى عنصر حافز يوحد صفوفهم حول هدف مشترك هو التلاحم والمقاومة المنظمة . وذلك إلى جانب كون البعض منهم راغبا فى عدم الافصاح عن شخصياتهم ، وبالتالى عدم البروز فى أى مجال . وقد تحقق ذلك فى فترة وجيزة ، وإن كانت التقلبات والمد والجزر فى الأوضاع الداخلية والخارجية قد وضعت المعتقل باستمرار فى مهب الرياح على امتداد الاثنى عشر شهرا التالية . فلم يكن « أنصار » مجرد معتقل منعزل مقطوع الصلة بالأحداث التى كانت تجتاح لبنان وتهز كيانه . بل كان يتأثر بحساسية بالغة ، بكل حدث سياسى على الساحة الأوسع ، وكانت تأثيرات الاحتلال والاعتقال سلبية على المعتقلين ، المدنيين منهم ، والعسكريين على السواء .

وما أن رفعت العصابة من على عينى صلاح . . حتى راح يتأمل المشهد الذى أمامه : صفوف من الخيام . . وأميال من الأسلاك الشائكة . . لكن كان هناك أيضا الفضاء والنور ومئات من البشر . وحاول أحدهم أن ينادى عليه بينما الحراس يستعجلونه للتقدم ، والأغلال تكبل يديه وقدميه ، وعندئذ تغلب صلاح على الإحساس بالمهانة ، انبعث داخله شعور بالاستبشار والراحة ، ورفع رأسه بكبرياء ليتعرف على صاحب النداء ، ويحاول أن يحدد الوجوه التى يعرفها . وسرعان ما اقتادوه إلى إحدى الخيام ليعطوه ملابس المعتقل ويسلموه قائمة بالأوامر والنواهى . وكان السؤال الذى تبادر إلى ذهنه على الفور هو : ما هى حقوقى ؟ وظل يكرر هذا السؤال مرة بعد المرة بين دهشة الحراس . فلم تكن كلمة « حقوق » بالكلمة المتداولة فى المعتقل . . ولم تكن بالتأكيد بالكلمة القابلة للتنفيذ فى الواقع . فى هذه اللحظة حدد صلاح الخط الذى سيلتزمه ، وحين رأى قائد المعتقل كيف استقبل المعتقلون صلاح جاء إليه بعد قليل ليجده راقدا من شدة الإجهاد ، وخرج به إلى المعتقلين .

كان صلاح قد وصل بعد الظهر ، وقبل أن ينقضى المساء كان قد تأكد من عدم صلاحية المكان لإقامة الآدميين . وحين كان يسير بين خيمة وأخرى فى اليوم التالى رأى شعارا كبيرا من الحجارة يمثل نجمة داود ، وقد أحاط بها نقش لقبة الصخرة الشريفة وقد اعتلتها هى أيضا نجمة داود ! كان هذا رمزا للصداقة الاسرائيلية ـ العربية كما يحلو للإسرائيليين أن يتصوروه !! واقترب صلاح من رفاقه المعتقلين فى محاولة تبدو بريئة للاستفسار عمن شيد هذا الشعار ، ثم انحنى لرفع بعض الأحجار متظاهرا بإبداء

ملاحظات عن ضرورة تعبيد الطريق ، وبدأ يلتقط البعض منها ، ويبدل وضع البعض الآخر حتى أزيلت الأحجار جميعها واختفت نجمة داود . وكانت تلك بداية احتجاج صامت ، له واقع عملى فعال أخذ يتصاعد حتى بلغ أبعادا كان من المستحيل تصورها من قبل .

بدأ المعتقلون يلتفون حول صلاح الذى رأى فجأة بين الوجوه وجها أشعره بسعادة المفاجأة المطمئنة بقدر ما أثار ذكرياته الأليمة . كان صلاح قد سمع ذات مرة ، خلال حبسه الانفرادى ، أصواتا أدرك منها أن سجينا جديدا قد أودع زنزانة مجاورة له . واستنتج من سعاله الطويل المؤلم ، أن الرجل لابد أن يكون شيخا مسنا . كان التفكير فى معاناة الرجل ووحدته تسبب لصلاح ألما فوق الطاقة ، فأخذ يرتل له بعض آيات القرآن الكريم محاولا التخفيف من معاناته . كان هذا الرجل هو زميل صلاح بالزنزانة المجاورة فى جاديرا ، والذى حدثنى عنه فى زيارتى الأولى . وكان الألم يعتصر قلبى كلما فكرت فيما يقاسيه ذلك الشخص ، إذ شعرت دائما بالقلق على مصيره . وها هو الرجل يقف الآن أمام صلاح قائلا له : « **إننى لم أبك من أجل أحد فى حياتى ، لكننى كنت أبكى من أجلك يا بنى** » . تجيش نفسى حتى اليوم بغضب عارم تعجز الكلمات عن تصويره كلما خطر لى ما تعرض له صلاح من معاناة فى الزنزانة ، وما قاساه آلاف من إخواننا المعتقلين تعرضوا لمثل ما تعرض له .

كما التقى صلاح فى « أنصار » برفيق سبق أن مر بنفس الزنزانة ، والتقى على مر الأيام بغيره وغيره من المعارف ورفاق الدرب والنضال . هكذا أخذت الدائرة تتسع كالدوامة إلى أن جاء اليوم الذى وقف فيه اليائسون والمرضى ـ المذلون والمهانون ـ مرفوعى الرأس كرجل واحد . . تحولوا إلى « **أشجار صنوبر أنصار الشامخة** » ، كما أسماهم صلاح . أما أبو سليم « الكادر » الصلب الذكى ، العزوف عن الكلام ، فقد أطلقوا عليه اسم « **بلوطة أنصار** » . ومع تفاقم المشاكل فى المعتقل كان صلاح يحلم بساعة هدوء يتحرر فيها من عبء المسؤولية حتى وصفه زملاؤه بأنه « **يجوس فى الخيمة جيئة وذهابا كالأسد الحبيس** » . فى الليلة الأولى ، حذره زملاؤه من التفتيش الصباحى اليومى الذى يبدأ فى الخامسة صباحا . وعندما جاء الصباح شاهد المعتقلين من رفاقه يجلسون القرفصاء فى الخيمة وأيديهم معقودة خلف رقابهم انتظاراً لعملية العد اليومية . وحين طلبوا منه أن يفعل مثلهم انفجر فيهم : « **لن تستطيع قوة على الأرض أن تجبرنى على أن أرضى لنفسى هذا الهوان** » . ثم أضاف موجها الحديث لزملائه : « **لن أترككم تهينوا أنفسكم على هذا النحو وتقبلوا هذه المعاملة** » . ولم يمض وقت طويل ، حتى اختفى هذا البند من قائمة

ممارسات تحطيم المعنويات وإهدار الآدمية التى فرضت على المعتقلين الذين كانوا يعاملون وكأنهم جماد لا يحس ، بحيث أصبحوا يشعرون أن عليهم أن يقبلوا هذه المعاملة المهينة ، وألا يتذمروا مما يعانونه من نقص فى الغذاء بالإضافة إلى الدواء والعلاج وغيرها من البديهيات من ظروف بشعة ، وقد كتب صلاح يقول: « طالما ظللنا نُعتبر مجرد أرقام ، فإن علينا أن نستمر فى المقاومة والتصدّى ، وقد بدأنا بالإصرار على مناداتنا بأسمائنا . وهكذا تحولت الأرقام التى لا ملامح لها إلى وجوه لأطباء ومحامين ومعلمين وأرباب أسر وطلاب ، إلى كل ذلك الكيان الذى يشكل مجتمعنا خارج السجن والمعتقل » .

☐ بداية جمع المعلومات عن المعتقلين

وقد كشفت الإحصائيات والشهادات فيما بعد عن وجود نقص خطير فى البروتينات فى غذاء المعتقلين . فلم يقدم لهم اللحم سوى مرة واحدة طوال فترة اعتقالهم التى دامت عاما ونصف عام . أما طعامهم اليومى فكان يتكون من الفول وأسوأ أنواع الأرز (غير الصالح قطعاً للاستهلاك الآدمى) والزيتون والخبز ، مع فنجان من الشاى فى اليوم ونصف فنجان من القهوة مرة كل شهر ! ولم تكن هناك أوانى لطهى هذه المؤن الهزيلة ، أو أكواب لشرب الماء والشاى ، وكانت علب الصفيح المستعملة ، أو أجزاء منها ، تستخدم فى كل هذه الأغراض . ولم تكن فى المعتقل توصيلات للمياه أو دورات للمياه .

فى اليوم التالى لوصوله إلى « أنصار » بدأ صلاح فى جمع معلومات عن عدد المعتقلين فى كل قسم من الأقسام الأخرى ، حتى يتيقن من مجموع المعتقلين الذى تفاوتت التقديرات بشأنه تفاوتا كبيرا . وتم الاتصال بالأقسام الأخرى بطريقة كان المعتقلون قد ابتكروها واستخدموها منذ بداية اعتقالهم وحجزهم فى أنصار . فكانوا يقومون بلف الرسالة حول قطعة من الحجر ، ثم يقذفونها إلى رفاقهم عبر الأسلاك الشائكة . لقد أراد صلاح أن يعرف على وجه التحديد ، عدد الأشخاص الموجودين بالمعتقل وأسماءهم ، وهل يعامل الجميع نفس المعاملة وما هى شكاوى كل قسم واحتياجاته .

لقد تفجرت الطاقة التى حبستها الزنزانة . وتحركت فى شتى الاتجاهات لتجد إجابات وحلولا لأكبر قدر ممكن من المشاكل . كان من الضرورى إشعار الإسرائيليين واللجنة الدولية للصليب الأحمر بوجود عقل منظم يوجه حركة المعتقلين فى أنصار . وبالفعل فطنت اللجنة الدولية للصليب الأحمر للتغير الذى حدث ، وبدأت تنظر للمعتقلين نظرة جديدة . كما بدأ موقف الإسرائيليين فى التغيير ، وحملهم ذلك على إدراك

أنهم يتعاملون مع آدميين لا مجرد أرقام . فالحاجة والضرورة كفيلة بأن تخلق ردة الفعل المبدعة بين المعتقلين . وقد كان شرفا بالنسبة لصلاح أن تكون له المبادرة فى أنصار . ولم يكن إدعاء . وتلك الحقيقة أقر بها جميع رفاقه فى شهاداتهم الموثقة بعد الإفراج عن فترة الاعتقال وظروفها . وهكذا بدأت المطالب الجماعية للمعتقلين تؤخذ مأخذ الجد . وقد تحقق ذلك فى المقام الأول عن طريق تقديم هـذه المطالب إلى ممثلى الصليب الأحمر ، كمطالب جماعية وعاجلة ومحددة ، ثم الضغط والإلحاح عليهم لمتابعة الموضوع . فى اليوم الأول جلس صلاح مع « مختار » القسم ، ووضع قائمة بثمانية عشر مطلبا لتسليمها إلى ممثلى الصليب الأحمر فى اليوم التالى . وشملت هـذه المطالب وسـائد النـوم ، ووسائـل الإضاءة ، والماء الساخن ، ودورات المياه ، وتحسين الظروف الصحيـة إجمالا . ذهـل الجميع وتساءلوا : « عمَّ يتحدث . . أتراه يظن أنه فى فندق ؟ وكيف لنا أن نطالب بكل ذلك مرة واحدة . . أو أن نأمل فى الحصول عليها ؟ » !!

كان من المتعذر معالجة الأمور بسرعة ، وكان هناك بطبيعة الحال الكثير من التعثر ومن الإحباط . فقد واجهت المطالب عقبة كان يصعب اجتيازها ، وهى عدم وجود ممثل للمعتقلين يمكن لقائد المعتقل أن يناقش معه تلك المطالب . وفضلا عن ذلك كان قائد المعتقل متردداً فى الدخول فى حوار مباشر مع المعتقلين حتى لا يؤول ذلك بأنه اعتراف بهم كأسرى حرب ، وهو ما كانت الحكومة الإسرائيلية ترفض الاعتراف به . إلَّا أن مندوبى اللجنة الدولية للصليب الأحمر طرحوا القضية بإلحاح ، وأخبروا القائد أن بين المعتقلين رجلا واحداً على الأقل يمكنه أن يناقش معه الأمور مناقشة بناءة ، وأن هذا الرجل قد أحضر للمعتقل بعد أن قضى فترة فى الحبس الانفرادى داخل إسرائيل ، وأنه مُلقى فى تلك اللحظة فى الكشك الموجود بمنطقة التحقيق والاستجـواب التى يسميها المعتقلون « الجورة » !

وهكـذا التقى الكولـونيل « روزينفلد » بصـلاح لأول مـرة ، وبـدأت الأمـور تتحرك .

لم يمض وقت طـويل حتى تكـونت لجنة للدفـاع عن حقوق المعتقلين بـاختيارهم وإجماعهم الكبير ، ضمَّت المحامى « نعمة جمعة » وهو محام لبنانى من منـظمة « أمـل » الشيعية ، و « أبو ليلى » وهو ضابط من الجبهة الديمقراطية « لنايف حواتمة » ، والدكتور « نبيل المصرى » وهو خبير أشعة من الجبهة الشعبيـة لتحريـر فلسطين بقيـادة « جورج حبش » ، وصلاح الذى أختير رئيساً للجنة .

بدأت اللجنة تبحث مطالب المعتقلين . وأولى صلاح جـانباً كبيـراً من الاهتمام

لمشاكل المرضى الذين لم تتوافر لهم الرعاية الطبية المناسبة . فلم يكن الأطباء الإسرائيليون يسمح لهم بالبقاء فى المعتقل وقتاً كافياً يمكنهم من تشخيص الحالات وعلاجها ، إذ كان يتم تغييرهم باستمرار من قبل السلطات . كما أن الأدوية التى وصفها بعضهم للمرضى من بين المعتقلين دون تمييز وغالبيتها من العقاقير المهدئة ، أدت إلى بعض حالات الإدمان . ولم تكن هناك سوى عيادة بدائية تطوع للخدمة فيها أطباء من بين المعتقلين . وقد تطوع أحدهم ، وهو الدكتور « عماد طروية » ، وأصر على البقاء فى المعتقل بعد صدور الأوامر بالإفراج عنه وحتى خروج الجميع ، رافضاً أن يتخلى عن مرضاه على الرغم من إنتظار زوجته وأبنائه الصغار لعودته بقلق وشغف . وكان نقل المرضى إلى المستشفيات يستغرق عدة ساعات ، كما كانت عربات الإسعاف تصل متأخرة فى معظم الأحيان . وكانت قصص إساءة معاملة المرضى فى الطريق إلى المستشفى ذائعة ومعروفة ، وكان لها ضحاياها الكثيرون .

ومن بين الأطباء الذين عينوا للخدمة فى المعتقل كان هناك طبيبان إسرائيليان تميزا بإنسانيتهما ، أحدهما هو الدكتور « بورتنوى » الذى لا يزال معتقلو أنصار السابقين يذكرون له إنسانيته وبراعته كطبيب . وقد روى بعضهم كيف رأوه يندفع ذات مرة إلى إحدى البوابات ، التى تصادف أن كانت موصدة نتيجة لتغيب الحارس ، ويلقى من فوقها بمعداته الطبية إلى الطبيب العربى عماد طروية داخل السور ، وكان يقف مع المعتقلين على الجانب الآخر محاولا إلتقاط المعدات لإنقاذ حياة معتقل يمر بأزمة صحية خطيرة . كما يروى عن الدكتور بورتنوى أيضاً أنه قال عن معتقل أنصار بموضوعية إنه : « مكان لا يصلح حتى للحيوانات » . ولم يلبث موقفه الإنسانى هذا أن أدى إلى نقله من معتقل أنصار . كذلك قام طبيب آخر ، كان يقيم فى « حلحول » بنقل رسائل بين سجين يعرفه وعائلته .

حتى فرقة « جولانى » من الجيش الإسرائيلى المعروفة ببطشها وقسوتها ، والتى استدعيت للمعتقل ، فى محاولة للسيطرة على موقف قضى رجال الشرطة العسكرية أكثر من مائة يوم محاولين احتواءه دون نجاح ، قام عدد من ضباطها وجنودها بفك بطاريات أجهزة الراديو القوية التى كانت معهم ، وألقوا بها للمعتقلين الذين مكنتهم هذه البطاريات من أن يستخدموا لأسابيع عديدة أجهزة الاستقبال الصغيرة التى تمكنوا من الحصول عليها ، وظلوا بذلك على صلة ، وإن كانت محدودة بالعالم الخارجى ، وبما يحدث فيه ، واستطاعوا أن يواكبوا أنباء حصار القيادة فى طرابلس بالذات .

عن هذه العلاقات الانسانية التى ربطت بين المعتقلين وبعض الاسرائيليين يكتب صلاح فى مذكراته :

« هناك فئات مختلفة بين الشعب اليهودى من حيث نوع ومنطلق اهتمامهم بنا . كان الباعث لدى البعض هو التعاطف الإنسانى ، فى حين تعامل آخرون معنا بنوع من الفضول إزاء ما بدا لهم ظاهرة جديدة وغريبة . لكن الفضول لدى البعض هو فضول من يريد كسر الشىء ليرى ما بداخله . . وما إذا كان حقيقيا . . وكان ذلك هو الأشد إيلاما » .

كما قال حول نفس الموضوع :

« أعتقد ، أنه نتيجة لتجربتنا فى أنصار ، اكتسبت صورتنا الشاملة كفلسطينيين وعرب بعدا جديدا فى « عيونهم » . فقد استطعنا أن نلمس لدى بعض الإسرائيليين ، الذين نشأت بيننا وبينهم علاقة واتصال خلال حبسنا ، مدى الاحترام الكبير الذى يكنونه لنا ، وذلك من خلال صمودنا . وشعرنا مع البعض الآخر ، بالكراهية الهائلة ، كما لو كانوا يتمنون لو أننا لم نوجد أبدا » .

□ دليل المناضل

وقد جاء فى كتيب « دليل المناضل » الذى كتبه صلاح وعممه فى أنصار كموجه للمعتقلين من خلال تجربته فى الزنزانة الانفرادية وفى أنصار نفسها : « يصبح الحراس والمحققون هم المجتمع الذى يتعامل مع المناضل ، وبطريقة تلقائية يبدأ بتصنيف أفراد هذا المجتمع بين جيد وسيىء ، وصديق وعدو فى حين أنهم جميعا أعداء . فيجب أن يذكر نفسه باستمرار بأن الحارس « اللطيف » والمحقق ذا الابتسامة الوديعة ما هم إلا أعداء يخادعون المناضل » .

وبدأ صلاح فى إعداد قائمة مفصلة بأسماء المرضى وأمراضهم ، وتسليمها إلى مندوبى الصليب الأحمر مع الإلحاح على ضرورة إطلاق سراح المعتقلين الذين ساءت حالتهم الصحية . غير أنه يمكن القول بأن السلطات الإسرائيلية لم تطلق سراح أحد من المرضى بإستثناء الذين كانوا على شفا الاحتضار ، فأرسلوهم للموت فى بيوتهم ! ومن بين الأمراض التى كان يشكو منها المعتقلون ، سواء أصيبوا بها خلال الاعتقال أو قبله ، أمراض القلب والكلى والصرع وإلتهاب الشعب الهوائية وعاهات البصر والأطراف ، وأخيرا وليس آخرا . . السرطان . وفضلا عن ذلك كانت هناك مجموعة من نزلاء مستشفى الأمراض العقلية بالنبطية الذين فروا من المستشفى خلال الغارات فى بداية

الغزو ، ثم قبض عليهم وأودعوا معتقل أنصار . وقد تكررت مطالبة المسؤولين بمستشفى الأمراض العقلية من خلال اللجنة الدولية للصليب الأحمر ، بإعادتهم إلى المستشفى حيث يمكن أن يجدوا الرعاية والعلاج المناسب ، ولكن دون طائل ، فقد ظلوا فى المعتقل إلى النهاية .

كان من بين اهتمامات صلاح الرئيسية وجود عشرات من الأسر التى تتكون من أب مع عدد من أبنائه قد يصل إلى خمسة ، فى المعتقل ، وهو ما يعنى ترك نساء الأسرة دون مورد ودون حماية . وهو ما وصفه صلاح بأنه « جمع شمل الأسرة على الطريقة الإسرائيلية » !! وقد كتب إلىّ صلاح يقول : « لقد أصبح وضع المعتقلين أليماً وغير محتمل ، وهو ما يرجع أساساً إلى انزعاجهم وقلقهم على عائلاتهم ، إذا نحينا كل المشاكل الأخرى جانباً » . وقد نجحت اللجنة بعد فترة قصيرة فى نقل أفراد العائلة الواحدة للإقامة فى خيمة واحدة . وقد أكد ما رواه المعتقلون فيها بعد مدى الراحة النفسية التى ترتبت على ذلك ، وكم كانت فرحتهم بالعثور على ابن أو أخ أو أب كان يعتبر مفقوداً بالنسبة لهم .

بدأت الحياة الراكدة المتبلدة فى المعتقل تختفى ليحل محلها الأمل والإقبال على الحياة ، وسرعان ما أصبح المعتقل كخلية النحل . فقد أدرك صلاح ضرورة توجيه طاقة الرجال إلى نشاط إبداعى فى الأوقات التى لا يشغلهم فيها التصدى المباشر للعدو خلف الأسوار . فأية مواجهة كان ينبغى أن تدرس بعناية حتى تحقق النتائج المرجوة فى إثبات كيان المعتقلين وتحقيق مطالبهم . وقد أحضرت لهم اللجنة الدولية للصليب الأحمر بضع آلات موسيقية ، ووفرت لهم كميات صغيرة من الأشياء التى توزع على السجناء فى كل السجون وبعض الكتب .

أما الحرف التى كان المعتقلون يقومون بتشكيلها وإبداعها ، فقد كانت تعتمد على براعتهم فى اختلاق الخامات ، وفى صناعة الأدوات البدائية اللازمة لنشر وحفر وثنى ونقش الخشب والمعادن والحجر .

كانوا يحصلون على الخشب من الصناديق الفارغة للمؤن الغذائية . ويلتقطون الأحجار والصخور من أرض المعتقل . أما المعادن فكانت تأتى من الأنابيب النحاسية للمدافىء التى كانت تُفك ويتم الاستغناء عنها كلما حدث انتقال من موقع إلى آخر . وقد شهد « أنصار » انتقالات وتحركات عديدة ، من موقع إلى موقع ، ومن قسم إلى قسم ، أمرت بها سلطات المعتقل لسبب أو آخر . وكان أهم هذه الانتقالات ذلك الذى حدث فى يونيو لإعداد الموقع السابق لمواجهة الشتاء بتوفير التدفئة وتعلية الأسوار وتقويتها دعما

للأمن ، إذ كان لابد من مواجهة شتاء طويل لم يكن أصلا فى الحسبان ، كان من المتوقع بطبيعة الحال أن يحرك المعتقلين إلى المزيد من التظاهر والتصعيد .

وقد استمر انتاج المصنوعات اليدوية والحرفية فى أنصار حتى النهاية وكشف عن كثير من المواهب . وتوجد لدى كثير من العائلات التى كانت على صلة بمعتقل أنصار ، نماذج لما تضمنته من معان ورموز ، ومن حيث « بعد الحيلة » التى أظهرها المعتقلون فى خلق المواد من « لاشىء » . إذ يجد من يتأمل فى هذه التحف الصغيرة متعددة الأشكال ، قصة أنصار كاملة بما فيها من معاناة وصمود ، من حنين وإنجاز . وكان أكثر هذه المصنوعات اليدوية شيوعا ، الأساور النحاسية التى تحفر عليها الأسماء أو النقوش التى كانت تتفاوت تفاوتاً واضحاً فى تصميمها وتنفيذها . قد ظللت أرتدى لسنوات السوار الذى أرسله صلاح لى . ولايزال يحتل مكانته البارزة بين مجموعة مقتنياتى الصغيرة من تذكارات أنصار ، وهى مجموعة اعتز بها اعتزازاً كبيراً . كما أهدانى آخرون تذكارات ثمينة بالنسبة لى ، فأرسل إلىّ الدكتور « نبيل » عضو لجنة الدفاع عن حقوق المعتقلين رسماً ملوناً ومعه خطاب ، كما أرسل إلىّ معتقلون آخرون رسائل تشجيع مؤثرة . كان منها الرسالة الآتية :

أختنا العزيزة دينا حفظها الله

بعد السلام

« أكتب إليك من خلف الأسوار الشائكة فى أنصار حيث يتم احتجاز حوالى خمسة آلاف معتقل فلسطينى ، وأرجو أن يصلك خطابى هذا ، وأنت بصحة جيدة وانشراح ، وأود أن أؤكد لك وأنا أعلم مدى اهتمامك ، أننا جميعاً بخير ومعنوياتنا مرتفعة . وينضم إلىّ صديقى العزيز وزميلى فى الكفاح صلاح فى إرسال أطيب التمنيات .

ومرفق خطاب إلى زوجتى ، واتمنى أن تتمكنى من تأمين وصوله ، واعتذر لإزعاجك .

تحياتنا لكل الإخوان طرفك ، وكان الله معك . وكل الزملاء المعتقلين يبعثون إليك بكل الحب والتقدير للمجهودات التى تقومين بها من أجل دفع عجلة المباحثات . وسيظل اسمك « دينا » فى قلوبهم إلى الأبد .

تحية خاصة من كل الرفاق الذين تعرفينهم شخصيا » .

وهذه مقتطفات من خطاب أرسله معتقل آخر :

« أرجو أن يصلك خطابي هذا وأنت بصحة جيدة ، إنني وجميع زملائي المعتقلين نشكرك على مجهوداتك فى متابعة مشاكلنا ، ونود أن نؤكد لك أننا جميعا نقدر الدور الكبير الذى تقومين به من أجلنا جميعاً . .

ونحن جميعا نعلم أنك الدعم الرئيسى لأنصار ، وجعل ذكرها حيا فى الأذهان ، والتعريف بحقيقة نضالنا فى الوقت الذى كنا نناضل فيه بصمت ، ولا أحد يعرف عن ذلك النضال .

ونحن جميعا ندرك ونقدر من كل قلوبنا العمل الذى تقومين به وما يعنيه من إنكار الذات من أجل جميع معتقلى أنصار بلا استثناء . ونحن نعلم بدورك وعملك ، وهو ليس بالأمر الجديد علينا ، فقد كان واضحا خلال مواقفك الوطنية على امتداد السنوات الماضية . وتأكدى أننا لن ننساك أبداً .

إننا نخوض فى أنصار نضالا متواصلا مع العدو منذ اللحظة الأولى لدخولنا المعتقل . وقد نجحنا فى إقامة جبهة متحدة للتصدى لأعمالهم الوحشية ضد جميع المعتقلين . ورغم المصاعب ورغم مرارة الاعتقال ، فنحن مستمرون فى تدعيم هذه الجبهة حتى نحقق مزيداً من الانتصارات اليومية . . التى نتمنى أن تقودنا إلى الحرية .

أرجو أن تتكرمى بمداومة الاتصال بزوجتى وطمأنتها بشأن أى تقدم يحدث فى مفاوضات التبادل » .

وقد أهدانى أحد أفراد منظمة الأشبال ، بعد الإفراج عنه ، سوارا يحمل الحديث النبوى الشريف « الجنة تحت أقدام الأمهات » ، ولاشك أنه صنعه ليهديه لأمه . . لكنه حين طال به انتظار العودة إليها وضعف لديه أمل العودة للقاء أسرته فى لبنان بعد الإفراج ، قرر أن يهديه لى . . فكنت أنا الأم البديلة المحظوظة ! كما تلقيت بعد ذلك هدايا أخرى منها عقد من الخرز وقرط . وحين علم أحد المعتقلين أننى أتطلع لإعداد كتاب مصور عن المشغولات اليدوية فى معتقل أنصار ، أهدانى كل ما صنعه من أجل أسرته من هدايا . ولما كنت أقدر ماذا تعنيه هذه الأشياء بالنسبة إليه ، فقد أخبرته أننى لا أستطيع أن أقبلها ، وأننى سوف أكون ممتنة غاية الامتنان لو أعارها لى فقط بحيث أقوم بتصويرها وتسجيلها . لكنه أصر قائلا : إنها هدية لا يمكن ردها ، وأنه يقدمها لى كتذكار تعبيرا عن تقديره هو وزوجته . وقد تأثرت تأثيرا بالغا لهذا الكرم والشعور والحماس . لكننى للأسف لم أتمكن

حتى الآن من إعداد الكتاب ، غير أن مثل هـذه المواقف التى تنم عن الفهم والتقـدير والتعاون قد جعلتنى أشعر أكثر من أى وقت مضى بأن إعداد هذا الكتاب واجب يتعين علىّ الوفاء به فى وقت قريب .

إن الحديث والوصف التفصيلى لما انتجه المعتقلون من مصنوعات يدوية ليطول لو حاولت أن أوفيه حقه . وأذكر هنا أن أحبها جميعا إلىّ على الإطلاق ، قطعة من النحت على الحجر تثير فىّ من الرهبة ما يجعلنى أنسى التاريخ الذى تلقيتها فيه . وهى تجسد رسالة تتخطى حدود الزمان والمكان . . قطعة من الحجر غير المصقول ، يبلغ ارتفاعها حوالى ستة سنتيمترات نقش عليها صليب يحمل خارطة تمثل فلسطين المصلوبة . وقد بدأ صلاح العمل فيها قبل إعادته إلى الزنزانة الانفرادية فى سجن جاديرا ، حيث كانت صورتها غير المكتملة لا تبرح خياله ، كما قال لى بعد ذلك . وإننى لأتخيله جالسا هناك فى أنصار فى أحد أركان الخيمة ، وقد استغرق فى التفكير وأخذ يقلب الحجر محاولا أن يترجم رسالته الى شكل ملموس بيديه الماهرتين . فقد كان دائما يجيد ويحب العمل بيديه . ومع ذلك فقد رفض الجميع الاحتفاظ بقطعة النحت هذه أو إخفاءها أثناء غيابه خوفاً من تفتيش العدو . إلّا أنه استردها وأكملها وبعث بها إلى خارج المعتقل كرسالة صامتة وإنما قوية ومؤثرة رغم بساطتها . كانت رمزاً يعبر أبلغ تعبير عن وضع الشعب الفلسطينى « المصلوب » ، وعن وحدة المعتقلين المسلمين والمسيحيين أبناء الوطن الواحد والقضية الـواحدة فى مـواجهة المصير المشترك . كنت أحملها أينما ذهبت ، أصبحت كنزاً أخاف عليه وتميمة تذكرنى دائماً بالمعاناة التى كنت أبذل كل ما فى وسعى لوقفها أو الحد منها . وتؤكد أيضا أن القضية ليست مجرد قضية محلية محدودة ، وأن قضية التصدى للظلم ينبغى أن تخاض على نطاق العالم كله ، وأن تعالج من جذورها . فإننى أومن بضرورة مشاركة كـل مواطن فى الاهتمـام بالمشاكل الأساسية فى بلاده ثم فى العالم ، وأن يشارك ، ماوسعته طاقته ، فى التصدى لها . والظلم هو مشكلة العالم الأولى ، سواء كان نابعا من جور الحكومات أو أنانية الأفراد ، أو من داء أخلاقى آخر أكثر شيوعاً هو خمول الفكر والسلبية والإحجام عن المشاركة إيثاراً للسلامة الشخصية .

وعلى مستوى سد احتياجاتهم الشخصية ، قام المعتقلون بصنع حقائب لأمتعتهم من قماش الخيام التى كانوا يشعلون النار فيها كنـوع من الاحتجاج فى مـراحل مختلفـة من اعتقالهم . وكان كل فرد منهم يقوم بتزيين حقيبته بإسمه وببعض الرموز والزخارف . وقد رأيت الكثير من الإخوة المحررين فى الجزائر يحملون عند تنقلهم وسفرهم هذه الحقائب البديعة ، ومازلت احتفظ حتى الآن ، بحقيبة صلاح التى اعتز بها ، مع سائر تذكارات

هذه الفترة التى كانت فترة بالغة الخصب ، وعميقة الأثر برغم كل المعاناة وكل الآلام التى تخللتها .

وقد تعرض كثير من المصنوعات اليدوية ، للمعتقلين ، للهلاك والتلف أو المصادرة كلما اقتحمت القوات الاسرائيلية أقسام المعتقل . إلا أن ما تمكن المعتقلون من تهريبه خارج المعتقل ، أو ما حملوه معهم عند إتمام عملية تبادل الأسرى ، يشهد على الكفاح الذى خاضه هؤلاء الرجال من أجل البقاء وقدرتهم على الإبداع حتى فى تلك الظروف القاسية الخطرة .

لقد كتب صلاح يقول : **« من الضرورى أن نتعلم كيف نحول السخط على الظلم إلى قوة بناءة للقضاء على الظلم مهما كان شكله وبغض النظر عمن يتعرض له »** . وفى اعتقادى أنه قد عبر بذلك تعبيراً واضحا ودقيقا عن وضع اجتاحت فيه العالم موجات من الغضب والاحباط المدمرين أدت إلى تفشى موجات السخط ، وإلى نشوب المصادمات والانفجارات الحتمية الناجمة عن كل ذلك . وفى هذا يقول صلاح : **« إن ما ينبغى أن نتعلمه من عام ١٩٨٢ ليس الكراهية بل الإحساس بالظلم ، وضرورة أن نتحد ونصبح أكثر قوة ومنعة بحيث لا نسمح لذلك بالحدوث مرة أخرى »** .

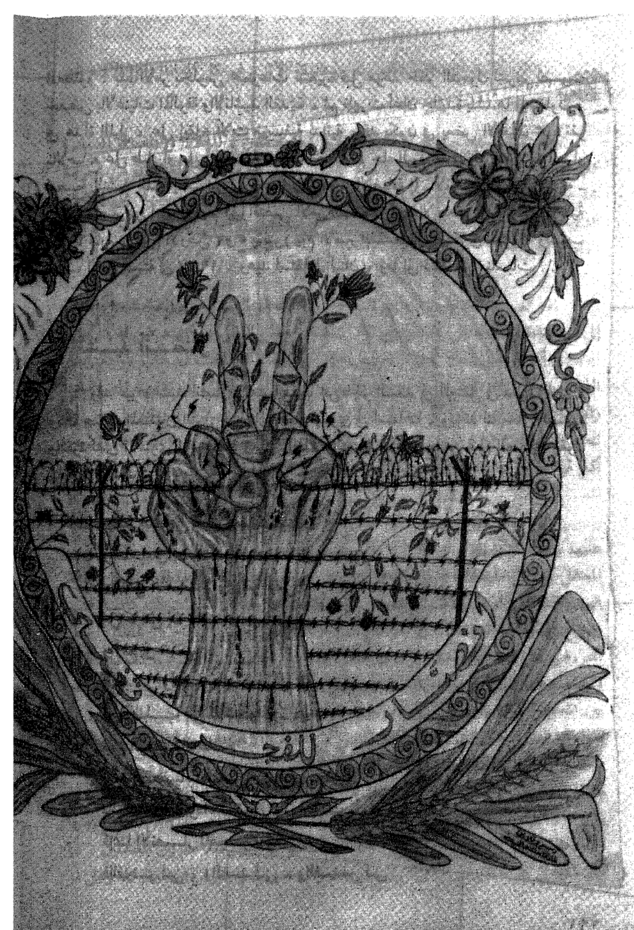
كان الهدف الذى يسعى اليه صلاح هو رفع معنويات رفاقه المعتقلين والمحافظة عليها . وقد كتب يقول : **« الروح المعنوية المرتفعة والوحدة هما الضرورة القصوى فى المعتقل . وكل ماعداهما قابل للأخذ والرد »** . وكان تحقيق هذا الهدف مرهونا بإيقاظ الوعى السياسى لدى المعتقلين وتعميقه . وهو ماتحقق من خلال البيانات التى كانت تكتب وتوزع فى أوقات التجمع . إذ استطاع صلاح أن يحقق بعض النجاح فى تحدى الحظر المفروض على اختلاط المعتقلين . كما تحقق أيضا من خلال نشرة أسبوعية كان المعتقلون يسهمون فيها بمقالاتهم وقصائدهم . وبفضل هذه الأنشطة المتضافرة ، توثقت الوشائج بين المعتقلين وزادت صلابتهم فى مواجهة جلاديهم . على أن هذا لم يكن بالأمر الهين ، سواء فى البداية حين كان المعتقل يعج بأناس من مختلف الاتجاهات والجنسيات والمهن من مقاتلين وأطباء ومحامين ومعلمين وموظفين فى وكالة الغوث ، وطلاب وعمال ومسنين يعيشون على ذكرياتهم ، أو عندما حدث الانشقاق الكبير فى منظمة التحرير الفلسطينية فى يونيو ١٩٨٣ وهز دعائم التضامن فى المعتقل بعد كل الجهد الذى بذل من أجل اقامتها والمحافظة عليها . وكان الغناء عنصرا آخر من عناصر الوحدة والتلاحم بين المعتقلين ، كما كان شأنه فى تجربة كثير من الأفراد والمجموعات والمجتمعات والجيوش فى العالم كله وعلى مر

العصور . بدأ الأمر بجلوس مجموعات صغيرة قبل موعد حظر التجول لتترنم بصوت خفيض بالأغنيات المألوفة والأناشيد القديمة ، ثم ظهرت أغان جديدة ينشدها المعتقلون ، فى هدأة الليل ، على إيقاع آلات موسيقية بدائية ، قد يكون فى بعض الأحيان مجرد نقر بالأصابع على طبل أو على أى سطح صلب آخر . ثم جاء اليوم الذى ولد فيه نشيد أنصار ليصبح النشيد الذى يقف المعتقلون معا لإنشاده ـ بالإضافة إلى الأناشيد الوطنية القديمة ـ فى تحد وتعبير عن احتجاجهم كلما اقتضى الأمر ذلك ، أو احتفالا ببعض المناسبات الوطنية مثل ٣ مارس (يوم الأرض) و ٥ يونيو (يوم الأسير الفلسطينى) وذكرى الغزو ، ونشوب حرب الأيام الستة فى ١٩٦٧ ، وعيد استقلال لبنان ، وما إلى ذلك من مناسبات . . .

□ نشيد أنصار

وقد عبر « نشيد أنصار » تعبيرا دقيقا عن الجو السائد فى المعتقل فى ذلك الحين ، وكان صوت المعتقلين الذى خرج الى العالم ليدوى فى أسماعنا ، ويؤكد لنا معانى الصمود والعزة لدى الأسرى الى جانب معانى الظلم والتعسف والقمع من قبل العدو . تقول كلمات النشيد :

حطّم ضلوعى تحت أعقاب البنادق
وانصُب لى إن شئت أعواد المشانق
واجعل الأصفاد تروى من دمى
من كاحلى إن شئت أو من دمى
واجمع فى خيمتى
صحبى وأهلى
أو فأصلب على الأشواك
فى الرمضاء طفلا
واحجب ضياء الشمس عن عينى بحقدك
بالعصبة السوداء تحكى لون قلبك
فإنما الأنصار للفجر تغنى
فالفجر لى ، والغد لى ، والقدس لى



وظل هذا النشيد يملأ جوانحى ، ويتردد فى أسماعى سنوات طويلة . وقد دونت بنفسى عشرات النسخ منه وأرسلتها الى كثير من الأفراد ومحطات الإذاعة لتنقل صوت المعتقل إلى الخارج . وكانت هناك أناشيد أخرى تحكى الحياة فى أنصار ـ ومنها مايبعث على الابتسام المرير لبساطة التعبير عن مشكلة جذرية . يبدأ واحد منها بالترنم بأنه شيء غريب وشيء عجيب أمره . . هذا الصليب « الصليب الأحمر » . وقد استخدمنا بعد ذلك إحدى اللوحات المعبرة التى خرجت من معتقل أنصار ، كغلاف للشريط المسجل للأغنية . كانت الصورة تمثل قبضة يد يرسم أصبعاها علامة النصر وهى ترتفع فوق الأسلاك الشائكة ، ويحيط بها شعار « أنصار للفجر تغنى » . وكنت قد استخدمت هذه اللوحة من قبل كملصق فى « حملة الإفراج » . وعلى الرغم من أن موضوع هذه اللوحة قد لايبدو لنا الآن جديدا أو مبتكرا لطول ما عاصرنا من مناظر الأسلاك الشائكة ، إلا أن تأثيرها من حيث الشكل والمضمون ، كان بالغا وعميقا فى ذلك الحين .

وعلى الرغم من إحاطتى الجزئية بكل ما كان فى المعتقل من مشاكل ، وإدراكى الظروف المعقدة السائدة على الصعيد السياسى العام بكل انعكاساتها السلبية على ظروف المعتقلين ، ربما أوهمت وأقنعت نفسى فى بعض الأحيان ببعض مشاعر الطمأنينة ، إلا أن الأحداث والأزمات المتلاحقة داخل المعتقل وخارجه لم تكن لتسمح لنا فى الحقيقة بالاستكانة ، خاصة أن الأمر كان أمرّ وأقسى بالنسبة لإخواننا المعتقلين فى أنصار .

كنت خارج الأسلاك ، وعلى أرض الحرية ، أقيس الزمن بالأحداث والهزات غير المتوقعة التى كانت أصداؤها تهزنى ، ووقعها يرج المعتقل بمن فيه . أما صلاح داخل سياج الأسر ، فقد كان مدركا كامل الإدراك لضرورة الحفاظ على معنويات الأسرى وبقائها عالية مرتفعة ، إذ شعر أنه بقدر ما ترتفع معنويات رفاقه تهبط وتتدنى بالمقابل ، معنويات الحراس .

وقد تم الحفاظ على ذلك التوازن الدقيق من خلال العمل الدؤوب على تصعيد المطالب والاحتجاجات الجماعية ، كلما أصابت المعتقل إحدى النكسات الناجمة ، قبل كل شيء ، عن تعثر مفاوضات التبادل والإفراج عن المعتقلين .

إن صلاح لم يكن يبالغ حين وصف المعتقلين فى الخطابات التى أرسلها بعد مارس ١٩٨٣ ، بأنهم « يقفون على عتبات الهيستيريا » ، وإن كان قد استخدم هذا التعبير قاصداً فى المقام الأول حث القيادة واللجنة الدولية للصليب الأحمر على إدراك الأخطار التى ينطوى عليها التسويف فى موقف كان يقتضى اتخاذ قرارات سريعة وتدابير فورية .

وقد واجهت اللجنة معارضة فى بداية الأمر من عناصر معينة فى المعتقل ، وهو ما يرجع إلى جهل هذه العناصر بحقوق الأسرى التى تكفلها اتفاقية جنيف ، وتَوَهُّم أن اللجنة يمكن أن تصبح عنصرا من عناصر الاعتدال أو التخاذل فى الموقف الشامل . إلا أن هذه المعارضة سرعان ما تبددت من خلال تزايد الوعى بين المعتقلين ، وحرص اللجنة على أن تضع وتنفذ بنفسها كافة الخطط ، فضلا عن الاستراتيجية العامة ، وسعيها الى خلق مواقف لإحراج الاسرائيليين وممارسة الضغط عليهم عن عمد . وفى بعض الأحيان ، كان الحديث عن الهيستيريا الجماعية الوشيكة سلاحاً تستخدمه اللجنة لإفزاع « الطرف الآخر » . وهكذا ، وتحت تأثير هذا الفزع ، وسعيا الى درء الكارثة الوشيكة ، لم تجد السلطات بدا من الحوار مع اللجنة بين الحين والآخر .

يقول « لامع الحرّ » الأسير السابق فى أنصار ، مؤلف كتاب « مهاجر إلى أنصار » ، عن تجربته فى المعتقل : « البعض حذر من الدخول فى « ما اعتبره » لعبة . . والبعض الآخر اعتبر هذا رأيا مغرضا وتحمس لمشروع اللجنة سائرا فى خضم الشوط إلى أقصاه . وأخيرا تم الاتفاق على تشكيل اللجنة ، ومثّل حركة فتح « صلاح التعمرى » والجبهة الديمقراطية « أحمد أبو ليلى » ، والجبهة الشعبية دكتور « نبيل المصرى » ، واللبنانى « نعمة جمعة » مندوب حزب البعث العربى الاشتراكى . وأشارت اللجنة بتشكيل لجنة مصغرة من كل المعسكر ، من كل التنظيمات السياسية لتسهيل أمور المعتقلين » .

واستطرد يقول :

« اللجنة قراءة لتاريخنا ، واستخلاص للعبر ، ومضى فى المواجهة رغم عظم التحدى .

اللجنة قاموس يترجم الأوجاع ولا يبكى على الأطلال ، بل يركب صهوتها مقتحما خرافة الجيش « الاسرائيلى » الإسطورى .

اللجنة « رغم واقعها المحدود » ضوء مرحلى ، شرعية محدودة ، جمعت الصّف ، وحررت الكلمة فى أنصار » .

وكان التعامل مع الكولونيل « روزنفيلد » ، قائد المعسكر فى ذلك الوقت ، مختلفا تماما عن التعامل مع بقية المسؤولين الاسرائيليين . فالمعتقلون يذكرون لروزنفيلد لمحاته الذكية وموقفه الانسانى ، وإن كان قد ظل مع ذلك ـ وقبل كل شىء ـ ضابطا اسرائيليا لايتردد فى استخدام القوة إذا اقتضى الأمر . وكان فى البداية يعرف باسم « الكولونيل

الحديدى » ، ولكنه لم يلبث أن بدأ فى تغيير موقفه إلى حد سبب له الاحتكاك والمشاكل مع رؤسائه . ويبدو أنه ـ وهو الضابط القديم المتقاعد ـ لم يكن يرغب فى أن يختتم حياته العملية قائدا لمعسكر اعتقال كان ـ من حيث المظهر على الأقل وحسب شعور المعتقلين ـ شبيها جدا بمعسكر « أوشفيتز » النازى . وازداد هذا الشعور لديه حدة بعد مذابح « صبرا وشاتيلا »، إذ أصبح فى حيرة بين المطالب العادلة للمعتقلين ، وبين تعنت وصلف رؤسائه فى قيادة الجيش الاسرائيلى . ولابد أن الاستراتيجية التى وضعها صلاح لتحويل المعتقلين من مجرد أرقام الى آدميين لهم شخصياتهم الفردية المتميزة ، قد أثرت على الكولونيل روزنفيلد . ولاشك أن تلك كانت بداية تجربة جديدة تماما عليه . كما أنه كان من أوائل من واجهوا تلك التجربة ممن توالوا على المعتقل من المسؤولين الاسرائيليين .

□ هدايا من بعض الجنود الإسرائيليين

كما أبدى بعض الجنود الإسرائيليين فى حالات فردية ومتفرقة تفهماً إنسانياً . وقد ترك بعضهم للمعتقلين هدايا تذكارية رمزية لدى نقلهم من المعسكر . ولاشك أن الحياة فى المعتقل قد دفعت البعض منهم إلى التفكير بعمق ، وطرح أسئلة بعيدة المدى ، كما حدث للحارس الذى أقدم على الانتحار بعد ما أصابه من اكتئاب من جراء وظيفته البشعة . إلا أن معظم هؤلاء الجنود الشبان كانوا جنوداً احتياطيين تم استدعاؤهم للخدمة العسكرية لفترات قصيرة . وعلى الرغم من ميل الجنود بوجه عام إلى الغطرسة والصلف وإهانتهم للمعتقلين وسخريتهم منهم ، وتعمدهم فى بعض الأحيان التراشق بالماء المنساب من الصنابير لإغاظة المعتقلين الذين كانوا بحاجة إلى كل قطرة من هذا الماء لكى يرووا ظمأهم ، ويطهوا مخصصاتهم الغذائية الهزيلة ، ويغسلوا ملابسهم البالية ، إلا أن معظم هؤلاء الجنود كانوا يضيقون بالمكان ويمقتونه . وقد قال أحدهم إنه يذكره كثيرا بالمعتقل النازى الذى لقيت فيه أسرته حتفها أثناء الحرب العالمية الثانية . كانت مقارنة « أنصار » بمعسكرات الاعتقال النازية تخطر للكثيرين . وعلى الرغم من أن تشبيه « أنصار » بمعسكر اعتقال « أوشفيتز » ـ وهو ماكان يؤمن به المعتقلون ويرددونه كثيراً ـ قد ينطوى على بعض المبالغة ، فقد كان الشبه قوياً إلى الحد الذى أثار فزع معظم الإسرائيليين . فإذا كان صحيحاً أنهم يرفضون ـ لأسباب مفهومة ـ أن يقارنوا أى شىء بالإرهاب اللاإنسانى البشع الذى شهدته معسكرات الإبادة النازية ، فلم يكن خافيا عليهم أن نفس عناصر الشر ونفس مفاهيم الاستعلاء العنصرى والعرقى ، موجودة فى معسكر أنصار ، وإن كانت تتستر هذه المرة تحت قناع جديد هو الحقد العميق على كل ما هو غير يهودى ، وعلى « الأغيار » العرب بوجه خاص .

وفى ديسمبر ، قام أحد الحراس الموجودين فى العربات المصفحة ـ التى كانت تقوم بدوريات بين الخيام تستمر طوال الليل وتقلق نوم المعتقلين ـ بالضغط على زناد بندقيته ، وأخذ يطلق النار عشوائيا واخترق الرصاص إحدى الخيام فى « القسم ٢٠ » وأصاب ثلاثة رجال كانوا يتناولون الغداء ، فقتلوا على الفور . وقد حاول المسؤولون التقليل من شأن هذا الحادث وتبريره كخطأ عارض . كما تلت ذلك حوادث كثيرة أسفرت عن نتائج مماثلة وبررتها السلطات بنفس المبررات والأعذار .

لم يكن قد سمح ، حتى ذلك الحين ، لأى صحفى بدخول أنصار ، وكانت ثمة أحداث هامة تشغل اهتمام العالم عن هذا المعسكر الرهيب . لم يعلم أحد بأخبار القتلى بالرغم من سقوط كثير من الشهداء برصاص الحراس ولأبسط الأسباب ، بل كانت التبريرات التى يقدمها الجيش الاسرائيلى تلقى القبول إذا تصادف وصول مثل هذه الأنباء . ونفس الشىء يحدث الآن عندما يقوم مستوطن يهودى متعصب بطعن أحد الفلسطينيين ليرديه قتيلا ، ثم يبرر الحادث بأن « شخصاً مخبولا قد قتل رجلا آخر » ، وينتهى الأمر .

فى هذه الأثناء ، أخذت نيران السخط والغضب تزداد تأججا فى المعتقل . كان الموت يخيم على المعسكر ويحوم حوله ، وكأنه يترقب اللحظة التى ينقض فيها على ضحية جديدة عندما تحين ساعتها . كان شبح الموت ، الذى خيم على لبنان كله فى واقع الأمر ، يطارد الجميع ، حتى وصل إلى الحراس الذين أخذوا يزدادون قلقاً وتوتراً . كان ضجيج عرباتهم يقض المضاجع فى الليل ويرج الأرض تحت رؤوس المعتقلين فلا يهنأون بالنوم . وقد تقدمت لجنة الدفاع عن حقوق الأسرى بعدة شكاوى فى هذا الشأن إلى مندوب اللجنة الدولية للصليب الأحمر فى المعسكر ، ثم سجلت هذه الشكوى رسمياً فى خطاب بعثت به إلى رئاسة اللجنة فى جنيف .

كان المعتقلون يترقبون فى فزع استدعاءهم للاستجواب . يقول صلاح فى مذكراته : « **كان أول ما يخطر بالمرء لدى استيقاظه هو من يأتى عليه الدور فى ذلك اليوم** » ؟ وقد استمرت هذه العملية دون انقطاع ، إذ لم يكن يمر يوم واحد لا يستدعى فيه للاستجواب عدد من المعتقلين يتراوح بين رجلين وعشرين رجلا . وقد يحدث هذا الاستدعاء قبل أن يتمكن المعتقل من الحصول حتى على رشفة من شاى من الوعاء الصفيح تساعده على مواجهة اليوم العصيب . وكان المعتقلون الذين يقع عليهم الاختيار للاستجواب ، يقتادون الى البوابة الرئيسية للمعسكر ، حيث توثق أيديهم وينتظرون لحين وضع العصابة على أعينهم ، ويقوم الحراس خارج المعسكر بشدهم ، واحدا إثر الآخر ،

خارج الأسلاك الشائكة واقتيادهم بعنف عبر ممر يبلغ طوله حوالى خمسين ياردة الى مركز الاستجواب أو « جورة » الاستجواب كما كان يسميها المعتقلون ، وهى جورة أخرى غير جورة « مجدو »* وهو الاسم الذى تعرف به منطقة « فرح ابن عامر » فى فلسطين المحتلة حيث جرى الاستجواب الأول للأسرى عقب اعتقالهم .

كانت عملية الاستجواب تشكل عبئا آخر يقض مضاجع المعتقلين الذين كان لديهم ما يكفيهم من المعاناة المستمرة والمتصاعدة دون حاجة الى مزيد . فكما قال صلاح : « **لقد اتضح أنه لم يكن ثمة ضرورة لعملية الاستجواب ، وأنها عملية مقصودة ومخططة لإرهاب المعتقلين** » . وقد اقتيد هو نفسه الى الجورة مرتين خلال الأيام العشرة الأولى بعد وصوله للمعتقل بدعوى إثارته للشغب بين رفاقه ، كما زعمت سلطات المعتقل ، وإن كان السبب الحقيقى هو محاولته لفت الأنظار الى مظاهر الظلم الصارخة والاحتياجات الأساسية التى تنقص المعسكر ، ومطالبته رجال الصليب الأحمر بنسخة من اتفاقية جنيف ، حتى يعرف الأسرى ماترتبه لهم من حقوق . وقد توقفت الاستجوابات فى النهاية فى شهر مارس ١٩٨٣ بعد كفاح طويل . ولقد أوشكت المعركة التى خاضها المعتقلون ضد الاستجواب على دفع أنصار إلى حافة الكارثة من جديد ، وفى إثر ذلك ، أقتيد صلاح إلى زنزانة الحبس الانفرادى مرة أخرى .

□ « الجورة » وعذاب الجحيم

كانت الجورة عبارة عن قطعة أرض مسورة يحيط بها سياج مرتفع مغطى بقماش سميك . ويحتجز المعتقلون هناك ما بين ساعتين إلى خمس أو ست ساعات ، وربما لعدة أيام ، قبل استدعائهم إلى الغرفة الخشبية ، حيث يجلس المحقق ! وقد تم استدعاء صلاح فى إحدى المرات إلى الغرفة الخشبية ، بعد أن أمضى خمس ساعات من الانتظار . وما أن أزيل وثاق يديه ، وبدأ يشعر بشىء من الراحة بعد أن تخلص من ضغط الوثاق على رسغيه ، حتى أحس فجأة بالقيد الحديدى يحيط بيديه وبالعصابة توضع على عينيه مرة أخرى ، وإذا بهم يقتادونه إلى الخارج ، ويقذفون به إلى الأرضية المعدنية لإحدى السيارات . وهكذا بدأت معاناة ومشقة الرحلة المضنية للعودة إلى الداخل . وكانت هذه مجرد واحدة من عدة رحلات « تأديبية » مفاجئة ، حيث كان يعاد فى كل مرة لقضاء أسبوعين على الأقل فى زنزانة الحبس الانفرادى فى « جاديرا » . وكان الغرض من بعض

---

* كانت هناك فى وقت من الأوقات زنزانة للحبس الانفرادى فى « أنصار » شديدة الحرارة حتى أن المعتقلين كانوا يصابون فيها بالاختناق وبحروق فى الجلد خلال أشهر الصيف .

هذه الرحلات ، هو الاحتياج إليه نتيجة لارتباطه الوثيق بالمباحثات الوشيكة للتوفيق بين القوائم والمعلومات المختلفة التى كنا نأمل أن تسفر عن الإفراج عن المعتقلين .

كان صلاح فى ذلك الوقت ، يشن حملة من أجل الإفراج عن المرضى والمعوقين والمدنيين المهددين بفقد وظائفهم والطلبة المعرضين لفقد عام من مستقبلهم . فضلا عن أن الكثير من هؤلاء لم يسبق لهم الانضمام إلى أية منظمة من المنظمات ، وإنما ألقى القبض عليهم واقتيدوا الى المعتقل بصورة تعسفية .

لو كنت قد تبينت فى البداية الثمن الذى دفعه صلاح من المعاناة المعنوية والجسدية فربما كنت استمعت إليه ، ولم أقم بزياراتى للداخل فى سبيل متابعة موضوع الإفراج عن المعتقلين والأسرى مهما كان شعورى بالالتزام نحو تلك القضية . ولكننى كنت أتخيل فى كل مرة أننا نسير فى إتجاه قد يؤدى إلى تحقيق خطوة إيجابية ، مما جعلنى أسهم كارهة فى تحميل صلاح ذلك الثمن والقدر من الألم والمعاناة ، مقابل ما كنت أعتقد أنه للصالح العام . أما فيما يتعلق بالإفراج عنه شخصيا ، فقد كنت أعلم أن ذلك أمر آت لا ريب فيه يوما من الأيام مالم تقع كارثة ، وذلك ما كنت أوجس منه بالرغم من ايمانى العميق بالله . كان اهتمامنا الأكبر هو الحصول على الإفراج عن أكبر عدد ممكن من ضحايا الاحتلال الصهيونى المحتجزين فى المعتقل .

وفى بعض الأحيان ، كانوا يأتون بصلاح من المعتقل ، قاطعا تلك المسافة الطويلة من أنصار فى نفس يوم وصولى . وفى أحيان أخرى ، كان يقضى الليلة السابقة لذلك فى الزنزانة . وكان يحاول دائما أن يخفى ما يعتمل فى داخله من غضب وإحساس بالمهانة .

وقد لاحظت فى إحدى المرات أن يديه متورمتان إلى ضعف حجمهما ـ دون مبالغة ـ من جراء القيود التى كانت توضع فى معصميه خلال السفر ، مما جعلنى أتخلى عن إصرارى على رؤيته كارهة وحتى لا أسبب له مزيداً من المعاناة دون داع . وكنت واثقة أنه سيتمكن من تدبير وسيلة لنقل المعلومات المطلوبة التى أستطيع أنا التحقق منها ، حتى وإن استدعى ذلك مزيدا من الوقت بطبيعة الحال . لم تكن لقاءاتنا لتوصف على الإطلاق بأنها لقاءات عائلية مطمئنة ، ولم تكن الظروف العاجلة المضغوطة المشحونة التى تتم خلالها الزيارات تستحق ذلك الثمن الباهظ من المعاناة النفسية والجسدية التى كان يدفعها صلاح مقابلا لها ، مهما وفرت لى تلك الزيارات من طمأنينة نسبية وضئيلة .

لم يكن بوسعى الاستمرار فى التغاضى عن معاناته الشخصية من خلال الدافع العملى الذى كان يحركنى . فقد كنت على استعداد لأن أهب سنوات من عمرى للمعتقلين

عامة ، ولكنني وجدت نفسى فجأة ملزمة فى المقام الأول بواجب أكثر تحديدا وهو حماية زوجى من المعاناة لا عن طريق الحصول على أية امتيازات خاصة له ، بل من خلال تلبيتى لرأيه وعدم فرض وضع غير مقبول عليه .

تركته وشأنه فى وضعه الذى لا يحسد عليه لا هو ولا أى سجين آخر . فلاشك أن هذا كان هو احتياجه الأول الذى يوفر له بعض الراحة النفسية على الأقل .

لم يخل شهر نوفمبر من الأحداث ، فقد تم نقل نصف معتقلى أنصار الى موقع آخر أثناء القيام بالترتيبات لتوفير التدفئة لأحد الأقسام وتوسيعه . وعند إعادة المعتقلين مرة أخرى ، انفجر سخطهم ، إذ اعتقدوا ان الأقسام الجديدة خالية من مواقد التدفئة ، وبدأوا فى تمزيق الخيام وحرقها . وعند محاولة سلطات المعتقل التحرى عن الواقعة لاكتشاف المحرضين عليها ، فُرض على المتظاهرين الجلوس على الأرض ، فى ذلك اليوم الممطر ، حيث تحولت الأرض تحتهم إلى بركة موحلة . وقد روى صلاح أنه انضم اليهم متضامنا معهم ، من حيث المبدأ ، على الرغم من أن الحادثة التى قاموا بها لم تكن ضرورية وأنه لم يكن موافقا عليها . كان ما يسعى إليه فى جميع الحالات على الدوام هو الحركة الجماعية المنظمة ، لا العنف أو الاحتجاج فى حد ذاته . وكان يؤمن بضرورة إجراء حسابات دقيقة قبل الإقدام على أى عمل احتجاجى ، وموازنة دوافعه ونتائجه المحتملة موازنة دقيقة . فثمة خيط دقيق ورفيع ينبغى مراعاته وأن يكون ماثلا فى الأذهان دائما ، هو الذى يفصل بين الوقت المناسب للضغط على سلطات المعتقل ، والوقت الذى يكتفى فيه المعتقلون بالصمود ، ويحرصون على عدم الوقوع فى فخ الاستفزاز من قبل العدو ومواجهة ما تبذله سلطات المعتقل أحيانا من محاولات مراوغة حين تتغاضى أحيانا عن بعض الأمور ساعية لامتصاص السخط ، بينما يتعين على المعتقلين المحافظة عليه لاستخدامه كسلاح ماض فى المواجهة . أما أعمال ، مثل تمزيق الخيام ، إذا لم تجىء نتيجة لترتيب مُسبق فلم تكن لتحقق شيئا ، إن لم تؤد إلى نتائج عكسية . ومن هنا كتب صلاح يقول : « **إن دور اللجنة هو أن تقف بحزم وتحقق هدفاً بعد آخر فى كفاحنا . . دورنا هو أن نحافظ على معنوياتنا وأن نصمد . . بل ونهزم العدو وبطريقتنا الخاصة ! فمن شأن هذا أن يجتذب الناس وأن يجمعهم حولنا** » . وقد كتب بعد ذلك يقول : « **إن مصدر مرارتى لم يكن تمزيق الخيام ، بل كان عدم استمرار بعض رفاقى القائمين بالاحتجاج حتى النهاية** » .

□ بداية الجهود لحل المشكلة

بحلول ديسمبر ١٩٨٢ بدأ الدكتور « هربرت امرى » ، مندوب المستشار النمساوى

« برونو كرايسكى » ، فى المشاركة فى الجهود المبذولة لإيجاد حل لمشكلة المعتقلين فى أنصار ، والتوصل إلى صيغة لتحقيق هذا الهدف . وقام « لوفا إلياف » ، الذى كان يعمل فى نفس الاتجاه ، بالاتصال « بامرى » ، حيث قاما معاً بعدة زيارات للمعسكر . كما قام « إلياف » ، خلال رحلته الأولى للاستقصاء ، بتصوير فيلم لمقابلة له مع صلاح بصفته رئيسا للجنة الدفاع عن حقوق الأسرى وممثلا للمعتقلين وناطقا باسمهم . وكان الإسرائيليون يبتغون تقديم هذا الفيلم إلى قيادة منظمة التحرير الفلسطينية كدليل قاطع يؤكد سلامة المعتقلين ، وكانت هذه من جانبهم محاولة لدفع عجلة الأمور ، إذا ما حان وقت مناقشة الإفراج .

وقد قام « عصام السرطاوى » بإرسال شرائط الفيلم الى القيادة . ولما كان لم يسمح للصحفيين بدخول « أنصار » بعد ما أبدته وسائل الإعلام العالمية من استياء تجاه أنباء الغزو ، ومعاملة إسرائيل للمدنيين ، فقد كان هذا الفيلم وثيقة بالغة الأهمية . وكنت قد رأيت صلاح قبل ذلك بشهر ، ولكننى لم أكن دائما على علم بما يقع فى أنصار من حوادث مستجدة ، أو بما يشهده المعتقل من هزات مستمرة ومتلاحقة . وعلى هذا ، لم تكن افتراضاتى وتقديراتى بطبيعة الحال دقيقة دائما . ومن هنا ، كنت سعيدة جداً ، حين أتيحت لى مشاهدة هذا الفيلم بما يتضمنه من معلومات جديدة ، وكوسيلة للاطمئنان على صلاح .

جلست فى ترقب بالغ ، بينما أخذ جهاز الفيديو فى الدوران وأطفأت الأنوار فى الاستديو ، وسرعان ما ظهرت على الشاشة صورة « إلياف » يجلس مع صلاح إلى إحدى المناضد . وقد استشيرت لجنة المعتقلين ، بوصفها ممثلة للمعسكر كله ، قبل إجراء هذه المقابلة فوافقت على إجرائها لعلها تعجل بأمر مفاوضات الإفراج . وبدأ إلياف بشرح دوافعه للقيام بهذه الزيارة واجراء هذا اللقاء . وكان صلاح يرتدى سترة وقبعة سميكة . أحسست بجسمى يرتجف حين خطر لى أنهم يقاسون الشتاء القارس فى أنصار .

وبدأ الحوار بين صلاح وإلياف ، الذى حاول أن يتيح لصلاح مجالا لعرض وجهة نظره . تحدث صلاح بعجلة ، إذ كان يدرك قيمة هذه الفرصة الثمينة . كان صوته أجش فتصورت أنه مريض وأنه يدفع ثمن التدخين . . والأحاديث الطويلة . . والأخذ والرد . . والإرهاق . وبدأ صلاح كلامه : **« إننا والحمد لله نمثل كبرياء شعبنا وعزمه . وقد جئنا إلى هذا المكان ، كفدائيين وبقينا نناضل فى سبيل حريتنا ، وسنتركه أيضا كفدائيين ملتزمين بقضيتنا »** . وكان بطبيعة الحال يقصد بهذا القول المعتقلين من أعضاء منظمة التحرير الفلسطينية .

واصل صلاح حديثه قائلا :

« السلام أمر حتمى ، ولكنه سلام بين أكفاء لا سلام يُفرض بالسلاح ، السلام هو نتيجة منطقية وحتمية للعدل . لقد جعلنا لحياتنا معنى هنا ، فنحن لا نسعى لمجرد البقاء . . لمجرد العيش بلا كرامة . . إننا نحاول أن نساعد زملاءنا ، والناس فى الخارج . ونحن هنا فى المعتقل نعرض قضية شعبنا » .

« إن التحدى الرئيسى الذى نواجهه هو ألا نفقد المحبة كقوة محركة . نريد أن نترك هذا المكان دون أن نفقد الأمل ، إننا أقوياء كما كنا دائما » .

« لا يوجد ما هو أسوأ من ضياع الأمل : فضياع الأمل قد يؤدى إلى اليأس ، واليأس قد يدفع الناس إلى القيام بأعمال غير منطقية ومدمرة » .

« ربما كانت الحكومة الحالية « للطرف الآخر » لا تتبين ذلك ، ولكننا نؤمن بالتعايش . نحن نناضل من أجل التعايش . . ونحن نعتقد أننا نسعى إلى نفس ما تسعون إليه ، فلنا جميعا خلفية تراث مشترك ، وسيكون لنا نفس المستقبل المشترك . وسيسقط كثيرون من أجل معركة السلام ، ولكنها فى النهاية ستكون تضحية عظيمة المغزى » .

كنت أشاهد الشريط مع « عصام السرطاوى » الذى أُغتيل بعد ذلك بفترة قصيرة ، وهو يحضر فى يوم ١٠ أبريل ، مؤتمراً فى البرتغال .

ثم بدأ إلياف فى الدخول فى الحوار قائلا :

« إننا نؤمن بحل سياسى لا بحل عسكرى ، وما يحتاج إليه أناس مثلى هو أن يجدوا مجموعة مقابلة يمكن الحديث معها . إلا أن ذلك للأسف يستغرق الكثير من الوقت والكثير من الدم . . الكثير من الدم .

« إن الشقاء حقيقة لا تتجزأ ، فهو موجود على كلا الجانبين ، ولابد من إطلاق سراح الجميع ، كل الأسرى بما فيهم أنت » .

ويرد صلاح :

« أريد أن أضيف شيئا آخر كى تكون أفكارى واضحة للمستمع . فنحن كأسرى نحاول أن ننظم حملتنا بصورة منطقية فى سعينا للاحتجاج على الأوضاع . لا نريد أن نعطى للحراس ذريعة لإطلاق النار علينا ، لكن هذا لا يعنى أننا خائفون ، فنحن نعرف

حقوقنا وأنا أتكلم الآن بكل صدق وصراحة ، وأشكرك على إتاحة هذه الفرصة لى .. إن نضالنا فى هذا المعسكر هو نضال من أجل المحافظة على الروح المعنوية ، وهى معركة لن نخسرها . الظروف هنا بشعة رغم أنها آخذة فى التحسن ، أو قد تحسنت بالفعل . إنه شعب بأكمله ذلك الذى تم اعتقاله واحتجازه هنا فى هذا المعسكر ، آباء وأبناء وإخوة وأبناء عمومة . . أسرا بأكملها ! ونحن كأعضاء فى منظمة التحرير الفلسطينية لن نتخلى أبدا عن هذا الشرف ، فنحن نفخر بكوننا أعضاء فى منظمة التحرير الفلسطينية ، وسنقوم بتحويل هذا المعسكر إلى مدرسة « للطرف الآخر » أيضا . لقد كان تحدياً كبيراً أن نثبت لهم أننا آدميون !! ومن البديهى أنهم قد أجريت لهم عملية غسيل مخ من خلال الدعاية . كان علينا أن نثبت لهم أننا لا نقل عنهم ذكاء وتعليما . وأننا نحمل نفس القدر ، بل قدراً أكبر من الحب لنفس الأرض . . و . . لا أريد أن أصل إلى حد القول . . .

□ إلياف : دعنا نقل نفس الحب .

■ صلاح : حسنا . ولكن عيناك هامتان جدا بالنسبة لك ، وكذلك عيناى بالنسبة إلىّ . وعندما افقد عيناى فأنهما سيكونان أكثر معزة بالنسبة لى . إننى أقول ذلك على سبيل المقارنة وإن كنت أنت مثلا تعيش فى خيمة ، بينما أعيش أنا فى العراء . من الطبيعى إذن ، أن تكون عواطفى أكثر حدة . . .

□ إلياف : أفهم ذلك .

■ صلاح : أتمنى أن يكون السلام وشيكا ، وإن كانت لا توجد لدينا أوهام فى هذا الشأن . على الأقل لقد مدت الجسور . . وسوف نستمر فى النضال بكرامة من أجل حقوقنا .

وتحدث صلاح بمزيد من التفصيل عن الظروف فى المعتقل ، وعن الاحتياجات العاجلة وقال : « إن ما طرأ على المعاملة من تحسن قد تم انتزاعه فى واقع الأمر من إدارة المعتقل ، من خلال تصميم المعتقلين ومثابرتهم » . وفى النهاية سأل إلياف صلاح بلطف عما اذا كانت لديه أى رسالة خاصة يريد أن يبعث بها الى زوجته .

■ قال صلاح : « أخبرها إننى حزين لكونها وحيدة اليوم بعد وفاة والدتها ووجودى بالمعتقل . فإن على المرء عندما تكون لديه زوجة مثل دينا أن يحاول أن يكون جديراً بها . إننى أدعو أن تظل محتفظة بمعنوياتها العالية وألا تفقد الأمل . فإننى عندما أقول إننى سأكون آخر من سيغادر هذا المكان ، فليس هذا لأننى لا أفتقدها ، بل لأننى على العكس لا استمتع بشىء

لا تشاركنى فيه ، ولأننى أحبها أريد أن أكون أمينا نحو التزاماتى . . وأن أكون آخر من يترك هذا المكان » .

جلست استمع فى حرج ودهشة إلى هذا التأكيد لما كنت أعرفه جيداً ، وإن كان قد أسعدنى سماعه فى هذه الظروف . وكان كل ما أتمناه أن تؤخذ رسالة صلاح بمعناها الحقيقى الواضح من جانب كل الأطراف المعنية فى هذا الصراع الطويل .

□ الأمريكيون أول من يدخلون أنصار

كان الصحفيون الأمريكيون هم أول من تمكن من دخول معسكر أنصار ، ممثلين فى مندوبى « النيويورك تايمز » و« شيكاغو هيرالد تريبيون » . ولم يسمح لهم بهذه الزيارة إلا فى شهر مارس أى بعد ثمانية أشهر من إنشاء المعتقل . وقد نشرت « النيويورك تايمز » ، فى طبعتها الصادرة فى ٢ أكتوبر ١٩٨٣ ، تحقيقاً صحفياً عن زيارة تالية جاء فيه : « . . . **الرمال تتخلل كل شىء وتتحول فى الشتاء إلى أوحال ، تتصاعد من المنطقة رائحة بشعة وكريهة من المجارى والقمامة** » . وكان ذلك بعد مضى ستة عشر شهرا كاملا ، وكان من الواضح ، خلال زيارتهم الأولى ، أن سلطات المعسكر لن تسمح لهم بالاتصال بالمعتقلين الذين استطاعوا مع ذلك رؤية الصحفيين وهم يتفقدون عن بعد « المنظر العام للمعتقل » . وكان لابد من اجتذاب اهتمام الصحفيين بأى ثمن . كان الوقت يمر متثاقلا فى أنصار . ويتحدث صلاح عن مسألة القرارات الإجماعية للجنة الدفاع عن حقوق المعتقلين ، وضرورة إتخاذ قرارات عاجلة فى بعض الأحيان ، فيقول :

« كان موقف اللجنة إجماعيا . كنا نتخذ دائما موقفا مشتركا خلال اجتماعاتنا . إلا أن الأمر كان يقتضى إتخاذ قرارات عاجلة فى بعض الأحيان . ومنها مثلا اليوم الذى قمنا فيه بإحراق الخيام . إننا لم نقم بإحراق الخيام لأننا كنا متعطشين للعنف ، بل لأن ذلك كان سلاحاً فعالا فى تلك اللحظة . ولم يكن هناك حينذاك قرار إجماعى بهذا المعنى . ولكن الثقة المتبادلة التى أخذت تنمو بيننا نتيجة التطبيق الدائم للسياسة الصحيحة ، دفعت المعتقلين للتجاوب التلقائى فى مثل هذه اللحظات الحرجة . وعلى سبيل المثال ، تصادف أننى كنت واقفاً أتحدث مع مندوب الصليب الأحمر عند البوابة ، وكل منا يقف على أحد جانبى السور ، عندما اخبرنى البعض بأن فريقاً كبيراً من الصحفيين يقوم بزيارة أنصار فى ذلك اليوم . . فالتفت على الفور نحو المبنى الوحيد المشيد بالحجر فى المعسكر ، وهو مقر القائد الاسرائيلى للمعسكر ، ورأيت هناك بالفعل جمهرة من الناس . لم أكن أحب أن أتخطى مندوب الصليب الأحمر ، لكننى لم أكن أريد فى نفس الوقت أن أضيع هذه الفرصة

الثمينة . أخذت اتطلع حولى باحثاً عن أى شخص ليقوم بأى عمل أو بادرة تجذب انتباه الزوار ، وقد كانوا على بعد خمسين ياردة فقط . فجأة اقترب منى أحد المعتقلين فطلبت منه على عجل أن يذهب ويشعل النار فى أى شىء . . فى الأغطية أو فى أى شىء يجده فى متناول يده . فارتبك الرجل وبدلا من أن يتصرف على الفور ، ذهب للتشاور مع رفاقه . وكان علىّ أن أفعل شيئا سريعاً ، قبل أن يبتعد الصحفيون ، فاستأذنت من مندوب الصليب الأحمر واندفعت لإحضار بعض الأغطية ، والوقود الذى كنت أطلب دائما من الشباب توفيره من الكيروسين المخصص للإضاءة . وكنا نحتفظ فى « القسم الخامس » بمشاعل مغموسة فى الكيروسين وجاهزة للاستعمال ، فقمت بإشعالها بنفسى ثم بإشعال النار فى الأغطية مع بعض المعتقلين الذين كانوا حولى . كان الصحفيون عندئذ يستعدون بالفعل للانصراف ، ولكنهم عندما لاحظوا الهرج استداروا نحونا وأشاروا إلينا ، واستطعنا أن نطمئن بأننا قد اجتذبنا انتباههم .

بدأت اخاطبهم بالانجليزية ، بينما كان كل من حولى يرددون ما أقول ، ويهتفون : « نريد أن نقابلكم . . النجدة » . . وما إلى ذلك ، كنا نشبه فى الواقع « روبنسون كروزو » وهو يحاول جذب انتباه السفن المارة بجزيرته النائية المنقطعة عن العالم . وبعد ساعة أو ساعة ونصف تقريبا ، استدعانى قائد المعتقل ، فذهبت إليه ، والتقيت بمراسلى صحيفتى « الواشنطن بوست » و« شيكاغو هيرالد تريبيون » . وقد أسفر ذلك عن نشر تحقيق صحفى جيد فى صحيفة « الهيرالد تريبيون » فى مارس ١٩٨٣ . وكان من بين ممثلى وسائل الإعلام العالمية الذين حاولوا الزيارة ، « جوناثان ديمبلبى » و« جون لوكاريه » و« آمنون كابليوك » . كما زاره « آمنون دانكر » ، من صحيفة « معاريف » ، وكتب مقالا عن أنصار . وقد نجح البعض فى زيارة المعتقل ، على حين أخفق البعض الآخر . وتحضرنى ، بصفة خاصة ، سيدة لفتت نظرى بحساسيتها وذكائها ، وهى السيدة « كورديليا ايدفاردسون » ، التى تعمل مراسلة لإحدى الصحف السويدية . وقد زارت المعسكر مع « ديفيد شيبلر » ، مراسل صحيفة « نيويورك تايمز » فى تل أبيب ، وكانت من بين الذين أعتقلوا وعذبوا فى معتقل أوشفيتز النازى . وربما كان من المؤلم بالنسبة لها مقارنته بأنصار ، لكنها علقت بقولها : « نعم . . إنه يذكرنى بأوشفيتز ، على الأقل من ناحية المظهر . . ولو أننى شخصيا لست من المؤمنين بهذا التشابه . كل ما أتمناه أن يوجد الشخص الذى يستطيع أن يتبين وضع « أنصار » ويضع معاناة الرجال هناك فى إطارها المناسب » .

كما حاول بعض الصحفيين العرب المستقلين زيارة المعتقل دون أن يوفقوا فى ذلك .

كما حاول أبو جهاد أن يرسل فريقا من الصحفيين لكنهم قوبلوا بنفس الرفض . فقد أصبح الاسرائيليون أكثر حساسية تجاه وسائل الإعلام بعد أن زالت نشوة النصر وخبا وهج الهالات المحيطة بالعسكريين ، ولاسيما وأن المسؤولين عن المعسكر كانوا يخشون الآثار الخطيرة لأى تحرك جماعى يقوم به المعتقلون .

استمر معتقل أنصار ، مع تعاقب الفصول ، وتقلبات الموقف ، منذ حلول العام الجديد ، ثم خلال الربيع والصيف ، وحتى خريف ١٩٨٣ . وبحلول شهر فبراير كانت قد تجمعت لدى الأسرى مجموعة كبيرة من المشغولات اليدوية من صنعهم ، وأعدوا مجموعة من الوثائق التى استطاع صلاح إخراجها . كما كان الانقسام الكبير فى قيادة فتح على وشك الحدوث ، ومن هنا أخذت انعكاسات هذه الأزمة تفرض نفسها على المعتقل . ومع إيمان صلاح بضرورة كفالة استقلالية الرأى وحرية المناقشة ، فقد كان صارماً جداً بالنسبة لأية محاولة لاستخدام العنف بين المعتقلين نتيجة لأى خلاف ربما يطرأ . وكان من المقرر عقد الاجتماع السادس عشر للمجلس الوطنى الفلسطينى فى الجزائر ، خلال النصف الأخير من شهر فبراير ، وهكذا عم أنصار أمل جديد ، وأخذ الجميع يتطلعون إلى حل للخلافات الجوهرية وإلى إرسال رسائل التأييد إلى القيادة . فقد أرادوا أن يثبتوا لمئات المندوبين الذين يحضرون الاجتماع من كل أنحاء العالم أن الكيان الفلسطينى لم يتصدع ، وأن هناك كيانا يمثلهم لم يتفكك ولم يتطرق إليه الوهن رغم كل التحديات ، تحديات المعاناة والاستجواب والاعتقال .

كان للاتصالات التى أجراها « إمرى » - ولمشاركة الأسرى أنفسهم فيما أبذله من جهود مثابرة ودؤوبة لم تكن خافية عليهم - الفضل فى ظهور بوار أمل فى الإفراج . كان الربيع على الأبواب ، وعادة ما يتعذر على الانسان - أيا كانت ظروفه - أن يكبح إستجابته لإيقاعات الطبيعة . كنت فى قمة نشاطى وتفاؤلى . ومع ذلك لم يكن بمقدور أى أمل من هذه الآمال الوهمية التى لا ترتكز إلى أساس أن يحمى أنصار من التعرض لاضطرابات مدمرة .

وقد بلغ الأمر بأبى جهاد حداً أصبح معه متشككاً فى فعالية الوساطات وجدواها - أيا كان الوسيط الذى يضطلع بها . ورأى أن مسألة التبادل ينبغى أن تشكل جزءا من المفاوضات الأكثر شمولية التى يجريها « فيليب حبيب » ، مبعوث الولايات المتحدة الأمريكية الذى كان عندئذ فى زيارة للمنطقة . ومع كل احترامى لأحكام أبى جهاد النابعة من بصيرته ، كنت اختلف معه فى الرأى بالنسبة لهذه النقطة . وقد أوضحت ذلك فى رسالة إلى صلاح ، وأضفت :

« أتمنى ألا تذهب جهودى هباء ، وأن اتمكن من النجاح ومن بلوغ الهدف وإنجاز المهمة . . قبل حبيب . . ومن المؤكد أننى لا أتطلع إلى ذلك سعياً إلى تحقيق « سبق » ، بل لأننى بحكم وضعى لا يمكن أن أنظر إليكم ، لا أنت ، ولا الآلاف المحتجزين فى أنصار وفى سجون الأراضى المحتلة ، على اعتبار أنكم مجرد أرقام . أنت تعلم ذلك . فلماذا نستسلم لليأس ، ونترك لغيرنا مهمة تولى شؤوننا بعد أن بلغنا هذه المرحلة ؟ وهو ما يرجع أساساً إلى ما بذلناه من جهود فردية ، أدعو الله أن يوفقنا ويسدد خطانا » .

□ احتجاج « فى يوم الأرض »

يُعد يوم ٣ مارس يوماً مجيداً يحتفل به جميع الفلسطينيين ، ولا سيما فى الأراضى المحتلة ، إذ يوافق ذكرى « يوم الأرض » . وفى أنصار حركت هذه الذكرى المشاعر الوطنية بما تنطوى عليه من تحد ، والشعور بالحق فى الأرض . وكان من الطبيعى أن يندلع احتجاج أسفر عن القبض على مزيد من المعتقلين لإعادة استجوابهم . وقد نظمت بينهم احتجاجات واسعة النطاق ، احتدمت واستمرت لغاية شهرى مارس وأبريل إلى أن أدت فى نهاية المطاف إلى توقف ممارسة الاستجواب ـ التى كانت أكثر الممارسات إزعاجا للأسرى وإثارة لتذمرهم وسخطهم . وكان « يوم الأسير الفلسطينى » مناسبة أخرى من مناسبات التظاهر والاحتجاج بين الأسرى . وكانت لجنة الدفاع عن الأسرى حريصة على استغلال أية فرصة من هذا النوع . وقد جاء فى إحدى الرسائل التى كان يجرى تبادلها بين الأقسام ، وتصادف أن كانت هذه الرسالة موجهة الى صلاح : **« حين شاهدك الأسرى اليوم وأنت تتصدى للعدو ، وقد وقفت عارى الصدر ، اشتعل حماسهم مرة أخرى بعد أن كان قد بدأ فى التضاؤل والانكماش ، وكاد يتلاشى من شدة اليأس »** . ولكم طال الانتظار . . فقد تولد فى نفوس المحتجزين الأمل فى الإفراج عنهم منذ نوفمبر ١٩٨٢ . أى قبل عام كامل من الإفراج !

وثمة مشكلة أخرى كانت تضاهى فى حجمها مشكلة وقف الاستجواب ، وهى المشكلة المتعلقة بالإفراج عن المدنيين ، ولا سيما اللبنانيون منهم . وقد ظلت هذه المشكلة على حالها فلم تتم تسويتها ، كما لم تعرها السلطات أى عناية أو اهتمام بالرغم من الوعود الزائفة التى قدمتها للمعتقلين اللبنانيين بغية استقطابهم ، ومن ثم تفتيت وحدة الأسرى وتضافر جهودهم .

وقررت لجنة الدفاع عن حقوق الأسرى إخطار قائد المعسكر بأنه فى حالة عدم الاستجابة لهذا المطلب ، سوف تتصاعد الاحتجاجات على نحو خطير قد يصل فى هذه المرة إلى حد تدمير الأسوار .

وكانت إدارة المعسكر قد بدأت ، بعد رحيل الكولونيل روزنفيلد ، تبدى انزعاجا وقلقا بالغين إزاء وضع اللجنة القوى ، ومكانتها الراسخة ، وما تتمتع به من علاقات وصلات تربطها بالأسرى الذين تمثلهم . ويبدو أن الاسرائيليين كانوا قد قرروا المبادرة إلى اتخاذ تدبير عاجل ، لا سيما وأنهم كانوا يفكرون أيضا فى إعادة تنظيم الأقسام . ومع ذلك فقد بدا هذا التصرف مستغربا فى وقت تردد فيه كلام كثير عن المفاوضات ، وكان من المتوقع أن يقوم « امرى » بزيارة إلى المعسكر كجزء من مساهمته فى حل المشكلة كممثل للمستشار النمساوى برونو كرايسكى .

وذات يوم ، جاء مندوب من اللجنة الدولية للصليب الأحمر على غير توقع ليبلغ لجنة المعتقلين بأنها مستدعاة لاجتماع عاجل . وشعر صلاح أن ثمة شيئا غريبا ـ أو مريبا على حد تعبيره ـ ونبه زملاءه إلى ضرورة أن يكونوا فى غاية اليقظة ، وأن يظلوا جبهة واحدة إذا لم تتم إعادة اللجنة إلى المعسكر . وتحقق ظن صلاح ، وتم « إبعاد » الرجال الأربعة عن المعسكر ، وما لبثت إدارة المعسكر أن بدأت محاولاتها ومساعيها بحثا عن « عناصر متعاونة » من بين بقية الأسرى لتشكيل لجنة بديلة . ويقول صلاح فى هذا الشأن : « **كانوا يظنون أنصار أشبه بحوض سمك أو مزرعة يمكنهم فيها تفريخ الجواسيس** » ! إلا أن الأسرى قد أعربوا عن احتجاجهم عاليا وفى إصرار . وكتبوا على سقوف خيامهم شعارات تقول : « **أعيدوا لجنتنا** » . ولم يستجب للاسرائيليين أحد ، باستثناء قلة قليلة جدا تجاهلها الزملاء وأراقت ماء وجهها . وكان صلاح نفسه يؤمن دائما ، ويطبق ما يؤمن به من أن أى شخص يضعف لأى سبب من الأسباب ويقطع نصف المسافة فى الطريق الى العدو ، لا ينبغى نبذه وإبعاده ، بل ينبغى العمل بصبر ومثابرة على إعادته الى الحظيرة . ولم تكن قوة الإرادة هى العنصر الوحيد الذى ساعد صلاح ، بل ساعدته أيضا قدرته على التصور والتخيل . وقد كتب ثلاث نشرات على شكل كتيبات باسم « دليل المناضل » عرض فيها هذه النظرية وشرحها ، كما عرض وسائل أخرى للتصدى لتكتيكات العدو ولضغوطه فى السجن . وهو يقول فى هذا الشأن إنه لابد « للأسير » **من أن يستجمع كل قواه ويحافظ عليها ، وأن يقدر نوايا سجّانيه ويحلل أسلوبهم فى التفكير ، وبذلك يمكنه أن يجهض تكتيكاتهم ويحبطها . كما يجب عليه تجنب الأفكار التى تؤدى إلى اليأس والقنوط . ومما يساعد المناضل « الأسير » تحليه بالوعى السياسى والالتزام** . كما جاء فى الجزء الثالث من كتيب « دليل المناضل » فقرة هامة عن كيفية تعامل الأسرى والمعتقلين مع بعضهم البعض داخل ظروف الأسر إذ تقول : « **نحن ننتمى إلى أمة مورس عليها الظلم بكافة صوره وأشكاله . ومن البديهى . . بل من الواجب أن نرفض الظلم أيا كان مصدره وأيا كان المتعرض له . . إن الظلم الذى عانينا منه وما زلنا ، كفيل بأن يعمق حسّنا ووعينا**

بالعدالة وضرورة ممارستها كأمرين ضروريين لا لسلامة مسيرتنا الوطنية والثورية فحسب بل للمحافظة على وحدتنا كشعب . فالوحدة والعدالة أمران متلازمان لا يمكن ، كما لا يجوز أن نفصل بينهما .

ومن بديهيات العدالة كما هو متعارف عليها أن يكون الاتهام الموجه لإنسان ما مبنيا على وقائع وأدلة مادية ملموسة . . إلخ . إن عدم إدراك الفرق بين من سقط لفترة ، نتيجة التعذيب والإكراه والظروف العصيبة التى خلقتها ظروف الحرب الهمجية ، وبين عملاء ضلعوا فى الخيانة ولا يزالون ، هو ظلم فادح .

المناضل الحقيقى هو من يعطى من أخطأ فرصة العدول عن خطئه . . فلا يجب أن نصنع من أنصار ساحة للصراعات الدامية والإشاعات والتشويه . . فى قلعة فشل العدو فى تحطيمها » .

وكلما كان يتم استدعاء أسير لاستجوابه ، كان بقية الأسرى يلجأون إلى أسلوب ترديد الأناشيد والهتافات والشعارات ، لتذكير إدارة المعسكر بأن أنصار تقف وقفة رجل واحد ، كالكتلة المتلاحمة فى مواجهة العدو ، بصرف النظر عما قد يكون بين الأسرى من خلافات داخلية . وهكذا كانوا يضعون طعام الأسير الغائب خارج الخيمة . ويتم تجديده يوميا منذ ذهابه وإلى أن يعود سالما . وكان لتلك المقاومة الدائبة بشتى مظاهرها فعالية ملموسة .

وثمة سبب آخر لإبعاد اللجنة هو أن الإدارة كانت تريد تنفيذ مخططها الخاص بإعادة تنظيم المعسكرات والأقسام وتحديد رجال « أحمد جبريل » وعزلهم ، وهذا عمل لم يكن من الممكن أبدا أن يسمح به صلاح وأعضاء اللجنة ، أيا كان الثمن . وقد استخدم الإسرائيليون فى مداهمتهم للأقسام ـ التى بدأت « بقسم ٥ » الذى عرف باسم « قسم الضباط » رغم وجود مجموعة متنوعة من الأسرى فيه ـ الغازات المسيلة للدموع ، ولكنهم واجهوا مقاومة ضارية . ومع ذلك فقد تلقت أنصار ضربة قاصمة فى ذلك الحين . وكان صلاح قد نبهنى إلى ما يمكن أن يحدث فى رسالة شعرت فيها بحزنه العميق مما أدى الى مضاعفة طاقتى وجهودى ، ودفعتنى نحو الأمام اندفاعا لا يمكن أن يستوقفنى فيه أى تفكير فى ثمن ما أفعله أو فى عاقبته . قال صلاح متنبئا بما سيحدث : « سوف تتساقط أشجار الصنوبر الشامخة ، الواحدة تلو الأخرى » .

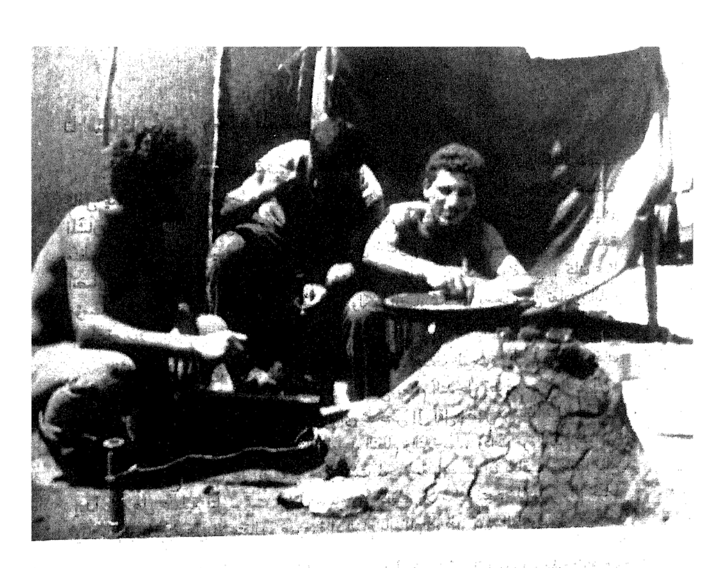
◻ مشاكل تحقيق وحدة المعتقلين

لقد كان من الصعب تحقيق الوحدة بين عشرة آلاف شخص ، بين أفراد شعب كامل يمثل إلى حد ما نموذجا مصغرا للعالم العربى ، فمنهم المسن والشاب من مختلف المشارب والانتماءات والمهن . ومن ثم ، فإنه حين وقع الانشقاق أو الصدع الكبير فى بنيان منظمة التحرير الفلسطينية ، اعتقدنا ، نحن فى الخارج ، أنه ربما يستحيل على وحدة أنصار أن تصمد فى مواجهة هذه الصدمة ، وما يترتب عليها من تفكك وتفسخ . كان عبئا مؤسفاً يزيد من خطورة وضع متفجر أصلا ، ولكن أنصار تمكنت بمعجزة من تفادى آثاره السلبية .

فقد جاهد صلاح بدأب ومثابرة فى سبيل تحقيق هدف الوحدة والتماسك . وكان حريصا على وضع قاعدة يلتزم بها الجميع ، وتقضى بعدم التدخل قط فى حرية الانتماء ، إلا أنه كان شديد الحزم والصرامة إزاء لجوء أى شخص إلى أقل مظهر من مظاهر العنف . وكان يوقع عقاباً شديداً على من لا يلتزم بقواعد النظام والتلاحم . وذات مرة أعلن طواعية أنه مستعد لتوقيع عقاب على نفسه ، حتى يثبت لمجموعة رفضت أن يعاقب رجالها نظير إقدامهم على عملية قتل ـ تمت خلال مشاجرة وكانت بلا شك نتيجة للتوتر والإحباط وللأضرار المترتبة على الاعتقال ـ ضرورة الالتزام بالنظام فى ظل كافة الظروف .

وقد ظلت أنصار على اتحادها حتى حين أحضر الإسرائيليون « سعد حداد » ـ وهو ضابط لبنانى كان يعمل منذ عدة أشهر لحساب إسرائيل ـ إلى المعسكر ، لاستغلال فرصة وجود لجنة الدفاع عن حقوق الأسرى فى أحد سجون الداخل . وحاول سعد حداد استمالة الأسرى اللبنانيين واقناعهم بالانشقاق والبحث عن مصالحهم الخاصة . ولكنه فشل فشلا مزريا . والواقع أن السلطات الإسرائيلية لم تكف أبدا عن محاولة إثارة كافة أنواع التصدعات والانشقاقات بين الأسرى ، وكانت زيارة « حداد » لأنصار هى منتهى ما وصلت إليه هذه المحاولات ، وكانت المحاولة الأخيرة .

سعى صلاح إلى تحقيق التضامن والمحافظة عليه فى أنصار ، وبذل جهوداً كبيرة فى هذا السبيل ، معبرا بذلك خير تعبير عن معتقداته وقناعاته الشخصية . وقد أعطانى ، خلال إحدى زياراتى له ، رسالة إلى « أبى موسى » ، وهو أحد قادة الجناح المنشق ، أو « حركة الإصلاح » ، وقد سلمته الرسالة خلال رحلة قمت بها إلى دمشق . وأبدى « أبو موسى » ، الذى كان قلقا جداً على صلاح ، تقديره للرسالة ، وإن لم يؤثر ذلك تأثيراً



الحياة داخل معتقل « أنصار » .

يذكر على استمراره فى انتهاج نفس الخط مما أدى للأسف إلى حصار القيادة الشرعية فى طرابلس بشمالى لبنان ، وإلى اشتعال قتال شرس وعنيف بين جناحى منظمة التحرير الفلسطينية .

كان لموقف صلاح أصداء عملية فيما بذلته من جهود تلقائية على الصعيد الخارجى ، وما قمت به من مساع ومحاولات للمحافظة على علاقات مفتوحة وقوية مع قادة وأعضاء المجموعتين على السواء ، ليس فقط لمعرفتى القريبة بهم جميعا ، ولكن لأنه فى هذه المرحلة من تاريخ العرب بوجه عام ، والفلسطينيين بوجه خاص ، كان التضامن يمثل ضرورة أساسية غير قابلة للنقاش أو الجدل .

فى شهر أبريل قام « امرى » بزيارة إلى معسكر أنصار ارتفعت معها آمال الأسرى إلى الذروة . وغادر المعسكر حاملا هدية رمزية صغيرة له ، وأخرى لزوجته من مشغولات

الحرف اليدوية للأسرى . وكان صلاح ، على الرغم من احترامه لمجهودات امرى ولشخصيته ، يستمد آماله من الأرضية الأكثر صلابة لمجهوداته ولمجهودات اللجنة . كما كان يثق بما أبذله من محاولات ، وإن طرأت فى بعض الأحيان تقلبات غير متوقعة على مجهوداتى ، رغم استناد هذه المحاولات أيضاً إلى موازين حساسة يمكن أن تنقلب رأساً على عقب نتيجة لأى انفجار يتعذر التحكم فيه ، قد يحدث فى المعسكر من جراء الضغوط المستمرة على المعتقلين ومن توجسهم من مستقبل مجهول . وكتب صلاح إلى أبى عمار يقول : « **أنصار الآن على حافة كارثة** » . لقد مرت قصة « **الإفراج** » بتطورات كانت لا تفتأ تتصاعد حتى يخال للمرء حيالها أنه يشهد إعصارات لا قبل لأحد بالسيطرة عليه .

حين تم إبعاد لجنة الدفاع عن حقوق الأسرى ، من المعتقل وإلى الزنازين ، وجه أبو جهاد تحذيرا إلى إسرائيل . إذ أعلن أن سلامة الأسرى الستة الذين تحتجزهم منظمة « فتح » ـ دانى جيلبوا ، وريوفين كوهين ، وإيلى أبو الطبول ، وإيلى مونتبيلسكى ، ورافى حزان ، وآفى كرونفيلد ـ مرهونة بمعاملة الأسرى العرب . ورفض أحمد جبريل فى الوقت نفسه ، السماح للجنة الدولية للصليب الأحمر بزيارة الأسيرين اللذين كان يحتجزهما . كانت سياسة قادتنا تحتاج إلى موازنة دقيقة بين شتى الاعتبارات ، الأمر الذى لم يتحقق بصفة دائمة فى هذه المرحلة ، مما أدى ، فى بعض الأحيان ، إلى نتائج معاكسة تماما للنتائج المرجوة . ولقد حققت التهديدات والمواقف المتشددة الغاية المنشودة ، إلا أنها تسببت فى الوقت نفسه ، فى حدوث آثار جانبية أخرى . وأحس المعتقلون بأن مجهودات كثيرة قد تبددت هباء وضاع معها وقت ثمين بسبب تساؤلات لا جدوى منها ترسلها القيادة ، الأمر الذى كان يبدو غريباً ومنافياً للمنطق فى ضوء الثقة الكاملة التى يضعها الجميع فى اللجنة ، وفيما تنتهجه من سياسات .

كان الإحباط واضحاً فى صوت صلاح حين استمعت إليه مسجلا على شريط أذاعه الصحفى الإسرائيلى « آمنون كابليوك » فى شهر أبريل ، كما ظهر ذلك من خلال العديد من رسائله ، سواء إلى القيادة أو إلىّ . كان الصحفى آمنون كابليوك قد حضر الاجتماع الذى عقده المجلس الوطنى الفلسطينى فى الجزائر ، قبل ذلك بثمانية أسابيع . وقد قال عنه صلاح : « لقد افترضت فيه الصدق حين أطلعنى على صورة فوتوغرافية التقطت له مع أحمد جبريل » . وكتب كابليوك فى وقت لاحق يقول : « **بدت أنصار ، وكأنها الدولة الفلسطينية مجسدة . . وليس معسكر اعتقال** » . وقد قام كابليوك برحلات أخرى الى بلدان عربية حتى منعته السلطات الاسرائيلية من السفر ، بموجب قانون يحرم المواطن الاسرائيلى الذى يلتقى مع أى عضو من أعضاء منظمة التحرير الفلسطينية من السفر .

□ مشروع الأنفاق فى المعتقل

لم يكن من طبيعة الأمور أن تهدأ الأوضاع فى أنصار فى ظل التوتر الداخلى والتباطؤ الخارجى . وقد تم فى شهر مايو ، إنجاز أجزاء من مشروع الأنفاق التى هرب من خلالها عدد كبير من المعتقلين . وكان صلاح قد قام بتنفيذ مشروعات مماثلة فى قرية « الكرامة » ، فى وادى الأردن عام ١٩٦٨ قبل أن تتعرض هذه القرية لإحدى العمليات الهجومية الخاطفة التى كان الجيش الاسرائيلى يدبر لها وينفذها « على نحو مثير » . وقد دأبت وسائل الإعلام الأجنبية على تعظيم « جرأة » عمليات الاختراق التى يقوم بها الجيش الاسرائيلى فى الأراضى العربية ، وكان جمهور المشاهدين والمستمعين ، وكذلك القراء يلتقطون ويتقبلون الشعارات ، مثل « النفاثات الإسرائيلية تسحق قواعد الإرهابيين » إلى ما غير ذلك ، ناسين ما أحدثه الهجوم من مذابح وعدد ضحاياه من المدنيين الذين حصد أرواحهم دون تمييز . ولم يكن الهجوم الخسيس الذى تعرضت له إحدى المدارس بمصر فى قرية « بحر البقر » الصغيرة فى الدلتا ، أثناء توقف القتال بين مصر واسرائيل ، مثالا منعزلا أو فريدا لنوع العدوان الاسرائيلى المتكرر على شتى البلاد العربية ـ فلسطين ، الأردن ، مصر ، العراق ، تونس . . . إننى أذكر المرات العديدة التى كنت انتظر واستقبل فيها صلاح فى بيتنا فى صيدا ، حين كان يعود معفرا وقد تقرحت يداه بعد أن افتتح وشارك فى أعمال حفر الخنادق فى مخيم « عين الحلوة » بصيدا فى السبعينات . فقد كان يعتقد أن وجود شبكة من الطرق التى تمتد تحت الأرض يعد أمرا لا غنى عنه فى مخيم كمخيم عين الحلوة ، يواجه خطرا دائما ـ وقد تعرض بالفعل لغارات اسرائيلية مكثفة ومستمرة على مر سنوات طويلة وحتى الاجتياح الاسرائيلى الذى دكه دكا عام ١٩٨٢ .

وكانت إدارة معسكر أنصار قد شعرت بنشاط غير عادى كما سمعت أصواتا غير عادية ، فقامت بأعمال بحث وتنقيب غمرت خلالها عدة خيام بالماء ، واكتشفت نفقين ما لبثت أن سدتهما . وأحس المعتقلون أن ساعة الصفر تقترب ، فبادروا إلى التعجيل باتخاذ الترتيبات والاستعدادات اللازمة . وبدأوا بالفعل عملية الهروب فى يوم ٤ أغسطس ١٩٨٢ . ويقول صلاح إن اختيار الذين هربوا ارتبط إلى حد كبير بالأفراد أنفسهم ، وفقا لتقديره لمدى حاجتهم الى الحرية ولقدرتهم على التحمل . وهرب عبر النفق بالفعل اثنان وسبعون شخصا وتمكن أكثر من ستين شخصا من بينهم من أن يصلوا سالمين ، بينما تمكنت قوات العدو من قتل أربعة منهم . أما الثمانية المتبقون فقد ألقى القبض عليهم مرة أخرى وأعيدوا إلى المعسكر . ولم يكن هذا الأمر مخيبا لآمال الأسرى فحسب بل دفع بادارة المعسكر أيضا إلى اتخاذ تدابير أمنية جديدة . وكان الكولونيل « باك » ، الذى خلف

« روزنفيلد » ، على حذر مما قد يحدث بعد ذلك عند حلول ذكرى الغزو يوم السادس من شهر يونيو بعد أيام قليلة .

وإزاء ذلك اقترح صلاح تنظيم مظاهرة تبدأ بإشعال النار فى خيمة واحدة فى كل « قسم » ثم قياس رد فعل إدارة المعسكر والتحرك بما يتناسب معه . وما أن بدأت الترتيبات حتى أفلت الزمام تماما ، ولم يعد بمقدور أحد السيطرة على الموقف . إذ بدأ الأسرى يشعلون النار فى خيمة تلو الأخرى الى أن تأجج المعسكر كله بالنيران ، وظل يحترق طوال الليل بينما اكتفى أعضاء الإدارة والحراس بموقف المراقب أو المتفرج ، شأنهم شأن مندوبى اللجنة الدولية للصليب الأحمر ، وعدد من الصحفيين وجميع أهالى القرى المحيطة . وعلى الرغم من قصور التغطية الإعلامية فى أغلب الأحيان (يقول صلاح : « **لم يكن ثمة أحد يعنى بما يحدث . وكانت التبريرات التى تقدمها السلطات عند وقوع أى حادث فى المعسكر تلقى التصديق أو القبول المقترن بالرضا . فإذا قتل أحد الأسرى ، لا يعنى بأمره ولا يتذكره أحد فى العالم الخارجى سوى أسرته التعسة اليائسة** ») **فقد حظيت الأحداث فى أنصار ، فى هذه المرة ، بتغطية جيدة . أما أنا فكل ما همنى عندئذ هو أن أنصار تحترق ! أنصار التى أصبحت تعنى الكثير بالنسبة لى من خلال ارتباطى الوثيق بحياتها وأحداثها اليومية ، ومن خلال شجاعة رجالها وبسالتهم ، أنصار التى كنت أتعشم أن أسهم فى تحرير أسراها . هل يكون رمادها هو كل ما يتبقى من مجهوداتنا ؟**

ولحسن الحظ أنه تبين عند طلوع فجر اليوم التالى ، الموحش المقفر ، أن الحريق لم ينجم عنه أية خسائر فى الأرواح . أما الحريق فقد كلف الحكومة الإسرائيلية أكثر من مليونى دولار !! ولابد أن المعسكر قد بدا أشبه بصحراء مقفرة تناثرت فيها بعض الخيم الصغيرة البديلة . ولم تتغير جغرافية المعسكر فحسب بل تغير أيضا كل نظامه وأسلوب المعيشة فيه . فقد تحقق نوع من الاستقلال الذاتى الجديد ، وإن لم يستمر هذا الوضع طويلا . والواقع أنه أتاح للإدارة فرصة التعديل وإعادة الترتيب وإعادة بناء المعسكر فى موقع جديد ، مع اتخاذ تدابير أمنية أشد صرامة فى ضوء كل الأحداث التى أوضحت قدرة الأسرى الكامنة على التصدى والتحرك عند الحاجة .

رفض المعتقلون الذين كانوا قد تعرضوا خلال أسرهم لشتى عوامل القلقلة أن يغادروا المعسكر ، ولكنهم اقتيدوا بالقوة إلى الموقع الجديد ، وتم نقلهم إليه فى شاحنات مغلقة تكدسوا فيها . وكان « وادى جهنم » ، حيث الموقع الجديد ، محجرا مهجورا يزيد عمقه على سبعين متراً ، وتحيط به ، على الجانبين ، حواجز صخرية منحدرة . وكانت

الصخور والرمال تشكل حاجزا أمام مدخل المعسكر ومخرجه . والأسلاك تكسو جانبى الجرف العميق لمقاومة محاولات التسلق . إلا أن بعض الأسرى قد رأوا أن المعسكر الجديد أفضل من السابق لزوال الأسلاك الشائكة ، وأنه أشبه بقرية يمكنهم التجول فيها بقدر أكبر من الحرية !

وفى هذه المرحلة كان الإعياء قد تمكن من صلاح مما استدعى إدخاله المستوصف أكثر من مرة . ومع ذلك فقد ارتأى أن الحيلولة دون انهيار معنويات رفاقه المعتقلين ، قد أصبحت ضرورة أكثر إلحاحا بعد أن تردت محادثات الإفراج إلى طريق مسدود . ومن ثم فقد استمر فى مخاطبتهم واطلاعهم على كل ما يستجد من تطورات . وقد حدثنى الأسرى عن الكثير من خطبه التى اتسمت بالحماس وسلامة الرؤية والتى استنفر فيها الهمم ، وقد وصلنى نص مسجل لإحداها ، وإن كان الانشقاق فى الحركة قد هدد بتفكك الأسرى فى المعسكر . وكاد تأخر المحادثات الذى ألقى اللوم بشأنه على أحمد جبريل بصفة خاصة يؤدى إلى نفس النتيجة أيضا . وبقى الأسرى فى « وادى جهنم » تحت رحمة الحراس أكثر من أية مرة سابقة . إذ كانوا يلجأون لشتى أساليب الأذى : من فتح وإغلاق محابس المياه التى تمر فى المواسير الممتدة أسفل الجرف ، لإزعاج الأسرى والتلاعب بأعصابهم .

إلا أن إخماد جذوة الأمل فى النفوس ليس بالأمر السهل ، ولم يكن كذلك . وقد قام أحد المعتقلين ، وهو المهندس « زهير شحادة » ـ الذى استشهد فيما بعد ـ بصنع نموذج لطائرة عندما كان فى أنصار ، وقد فكوه هو وبعض رفاقه لدى نقلهم ، وأعادوا تجميعه فى « وادى جهنم » . هذا النموذج يعتبر طائرة كاملة لا ينقصها سوى المحرك ، لكى تحلق بصانعها وتخرجه من هذا السجن الصخرى الى الحرية .

□ بناء أنصار جديدة

ومر شهر يوليو ومن بعده أغسطس وتلاهما سبتمبر وقد استبدت بالجميع حالة من القلق والإحباط . كانت لجنة الدفاع عن حقوق الأسرى قد تمكنت من استعادة السيطرة على الموقف بوجه عام . ويتبين ذلك بوضوح من المراسلات المتبادلة بين الأسرى التى تعبر أيضا عن مساندتهم لمسؤولى اللجنة !

وتعبر الرسائل المتبادلة بينى وبين صلاح خير تعبير عن الأحوال فى هذه الفترة . كانت عمليات نقل المعتقلين ، وإعادة بناء المعسكر قد زادت من زعزعة استقرارهم النفسى ، إلا أن الانتقال إلى وادى جهنم قد بدا لنا ـ نحن حيث كنا نتابع الوضع من

الخارج ـ باعتباره أسوأ الأحداث وأكثرها مدعاة للتشاؤم . لم يكن بمقدورنا أن نفهم كيف يمكن لقوم كانوا يبدون اهتماما بالغا بتسوية المشكلة ، وتأكدوا الآن من سلامة أبنائهم ، أن ينتهجوا سياسة مغايرة تعسفية وقصيرة النظر .

وفي محادثة هاتفية مع آهارون أشرت إلى موضوع « بناء أنصار جديدة » وسألته عما يعنيه ذلك . فأجابني بالتواء وتهرب : « يبدو أنهم يعتزمون استبقائهم لفترة طويلة » . وقلت له : « هذا أمر مثير للسخرية ! وسوف يتسبب في تفجير كل شيء » . كان ذلك في أول أكتوبر .

وهكذا بدأ على نحو ينذر بالشر ، الانتقال إلى أنصار المحصنة التي تم تعبيد طرقها تفاديا لعمليات الحفر حتى لا يتكرر حادث النفق ، كما أقيمت حولها أسوار عالية وامتد عبرها ، داخل الأسوار ، خط فاصل أبيض ، كان الغرض من تحديده هو فرض مظهر جديد من مظاهر قوة الجيش الإسرائيلي وجبروته وفرض نظام أمني جديد . وكانت مجموعة من الأسرى قد حفرت ساترين في المعسكر « المؤقت » في الوادي على أمل أن تتمكن من الهرب أثناء نقل رفاقهم . وقد بادر زملاؤهم الذين علموا بما يخططون له ، ومن بينهم صلاح ، بإثنائهم عن هذه الفكرة وتحذيرهم منها ، لاسيما منذ أن تردد أن المفاوضات ستبدأ قريبا ، وهو ما يعني أنهم سيبذلون بذلك جهداً ضائعاً فضلا عن أنه ينطوي على مجازفة لا داعي لها في مثل تلك المرحلة .

ووجه قائد المعسكر عدة تحذيرات أعلن فيها أنه سوف يتم « تطهير » الموقع القديم تطهيراً كاملا . وكان الجميع على يقين من أنه لم يتبق أحد في ذلك الموقع بعد النصائح والتحذيرات الموجهة من كافة الأطراف ، ومع ذلك فقد كانت الصدمة كبيرة حين أستدعي صلاح إلى الموقع ، وقيل له إن بعض الأشخاص قد قتلوا بطريق الخطأ أثناء قيام إحدى الجرافات بتمهيد الأرض . ثم تركوه ، هو والدكتور « عماد طروية » ، لكي يبحثا ، وقد استبدت بهما حالة من الهياج ، عن الجثث وسط الأنقاض حيث عثرا على إصبع هنا ورأس مبتورة وبه جرح غائر هناك . وكان مجموع ما عثروا عليه ثلاث جثث فقط . وكان أحد الشهداء الأربعة قد سمع صوت الجرافة وهي تقترب منه ، فخرج من مكمنه وأخذ يلوح لسائقها لكي يتوقف . إلا أن السائق لم يعره اهتماما واستمر في التقدم نحوه . وقد بررت إدارة المعسكر هذا الحادث باستخفاف وببساطة متناهية ، وكانت حجتها أنه تم توجيه تحذيرات كافية ، وفضلا عن ذلك فإن سائق الجرافة كان قادماً لتوه من « صور » حيث كان ينتشل جثث ورفات العسكريين الإسرائيليين الذين قتلوا هم والقائد العسكري خلال عملية هجومية من أعمال مقاومة الإحتلال وقعت ضد أحد المباني ،

واستخدمت فيها سيارة ملغومة . ولم يكن هناك ما يجعل القارىء أو المستمع العادى يعلم شيئا عن استشهاد نحو عشرين من المعتقلين العرب الأبرياء الذين كـانوا محتجـزين فى السراديب لاستجوابهم .

وكان هذا الحادث كارثة بالنسبة لنا . أما بالنسبة للاسرائيليين ، فقد كان حجة تذرعوا بها لإخفاء جريمة متعمدة . وأصبح ازدراء الإدارة واستخفافها بأرواح الأسرى أكثر وضوحا فى تلك المرحلة ، وكانت الخطوط الفاصلة البيضاء الممتدة داخل المعسكر تتيح المجال لنوع من الأعمال « التأديبية » الوحشية أقدم عليها الحراس الذين كانوا يقفون فى أبراج المراقبة . فقد كان هؤلاء يشرعون فى إطلاق النار حينما كان المعتقلون لايلتزمون بالمسافات المحددة بينهم وبين الخطوط البيضاء الفاصلة . وكان مما يثير الألم فى النفس حالات المعتقلين المصابين من الأصل بالصمم ، أو الذين فقدوا سماعاتهم أثناء عملية التطويق أو الاحتجاز ، فكل أولئك عانوا من جراء مخالفتهم للأوامر التى كانوا لا يتمكنون من سماعها ، وبالتالى لا يستطيعون تنفيذها على الفور . ومن ثم فقد كانـوا يعتبرون مذنبين ويتعرضون لتوقيع العقاب عليهم . وقد أصيب أحد عشر شخصا فى اليوم الأول . وبعد بضعة أيام هرع أسير شاب لالتقاط رسالة من شقيقه سقطت عبر الأسلاك بالقرب من أحد الخطوط الفاصلة ، فما كان من أحد الحراس فى برج المراقبة إلا أن صوب بندقيته وأصاب الشاب فى رأسه ، فسقط شهيدا آخر فى أنصار .

وحين نستعرض فى المحصلة كافة العناصر - الأشخاص والأحداث والخصـائص المميزة التى تشكلت منها أنصار ، يبرز خطان متوازيان واضحان ، وإن كانا مختلفين عبر الصورة ككل . يمثل الخط الأول السلطة الشرسة الفظة بما لها من قاعدة قوية وإمكانات لاجتذاب القوة والمقدرة والوسائل ، والتى يصيبها الضعف فى بعض فترات المواجهة . أما الخط الثانى فهو يمثل جمعا من الأشخـاص الذين يتعـرضون لأعمـال القهر والإرهـاب والتجريد من الإنسانية ، والذين يقفون فى صمود من أجل استرداد حقوقهم وحريتهم ، ويستخدمون كافة الوسائل المتاحة لهم سعيا إلى بلوغ هدفهم المنشود .

وكان الجانب المتمثل فى نزع الصفة الإنسانية أو التجريد من الإنسانية أمرا مؤلما فى نظر صلاح . وقد ظهر هذا الجانب فى مجمل معاملة الإدارة للأسرى ، وكان صلاح يقاومه بكل ما أوتى من عزم كلما رآه يطل برأسه . ولم يحدث قط أن نبعت ردود فعل صلاح من منـطلق شخصى ، بل كـان منبعها الـوحيد دائـماً هو الغضب إزاء خلل مـا فى العمل الجماعى - أو بعض الأعمال غير المدروسة - يهدد بأن يحدث تأثيراً عكسيـاً . وقد قـال



صلاح وراء أسلاك معتقل أنصار ـ ١٩٨٢ .

صلاح فيما بعد : « كلما سئلت عن تجربتى فى أنصار ، أجد نفسى عزوفاً عن التركيز على الأمور الشخصية . لقد كانت أنصار تجربة خاضها شعب بأكمله ـ سواء كان لبنانيا أو فلسطينيا ـ وعانى أفراده جميعا وكأنهم شخص واحد . إلا أن الهدف الذى كان العدو يرمى إلى تحقيقه ، وهو أن يجعلنا تابعين له ، وأن يؤكد تفوقه فى الماضى والحاضر والمستقبل ، لم يتحقق » .

وكان تحقيق الوحدة والتلاحم الكاملين يعنى الانتصار فى المعركة الرئيسية ضد العدو . فهذا هو معنى الإنجاز والانتصار ، كما يتجلى فى القصة الكاملة لأنصار . لقد جاهد رجال أنصار جهادا طويلا وشاقاً . وهم يستحقون ما نالوه من تقدير لمجهوداتهم واعتراف بهم ، مثلما يستحقون أن ينعموا بالاستقرار على أرض وطن أدعو أن يحصلوا عليه فى المستقبل القريب ، مثلما يستحق اللبنانيون منهم بلداً أكثر أمنا ووحدة واستقراراً .

٨ رسالة إلى الاجتماع

تطلب شهر ديسمبر المزيد من الترحال الذى كان فى بعض الأحيان بدافع شخصى بحت هو أن أكون مع ابنتى . وكنا ـ هى وأنا ـ حيثما وجدنا أو سافرنا فى انشغال مسبق بمشاعرنا الداخلية ، من حيث قلقنا بشأن الوضع السياسى فى العالم العربى عامة ، وبالذات بشأن أنصار .

وكان الأصدقاء الذين يعرفوننا جيدا يعرفون أيضا التزامنا بقضية المعتقلين من حيث المبدأ وقد أشركناهم فى ذلك الاهتمام . أما بالنسبة لمعظم الناس فلابد وأننا ظهرنا أمامهم كثنائى غير مبال !! وقد حاولت من جانبى ألا أحمل عالية ثقل الوضع بقدر استطاعتى ، غير أنها شاركتنى كل فكرة وكل خلجة وكانت عونا معنويا عظيما لى طيلة تلك الأعوام العصيبة ولا تزال .

كنت أشعر بالذنب خلال سفراتى ، بينما العائلات فى لبنان تعيش فى توتر وقلق ، يعادل إن لم يكن يفوق توترى ، وفى ظروف من الحاجة والعوز ، بل الخطر المحدق . الأمر الذى لم يكن يسمح بمقارنة نفسى بهم . إلا أن ما خفف عنى بعض هذا الشعور هو أننى فى الحقيقة لم أكن بأقل منهم ارتباطا بموضوع المعتقلين بل أكثر ، خاصة على الصعيد العملى . بالإضافة الى محاولتى الدائبة المستمرة لتقديم ما أستطيع تقديمه لإيجاد حل لمشكلتنا المشتركة .

تسلمت قائمة من « جبريل » خلال شهر ديسمبر تشمل أسماء رجاله المفقودين ، وفى العشرين من نفس الشهر أرسلتها للمعنيين لمراجعتها . وعدت إلى القاهرة فى ٣١ ديسمبر . وقمت بتسجيل شريط لصلاح بالرغم من أننى كنت أشك فى إمكانية تسلمه

له . إذ كانت مراسلاتنا تعتمد ـ غالباً ـ على المصادفة والحظ . كان ذلك التسجيل ـ مثله مثل ما كنت أدون من رسائل أو ملاحظات ـ يوهمنى أن هناك خيطا ثابتا فى الاتصال بيننا . وكانت نبرات الصوت فى الشريط مجهدة وتزخر بالكآبة حيث كنت أقول :

« ليتنى تمكنت ونحن على مشارف العام الجديد من أن أبعث اليك برسالة أكثر تفاؤلا ، ولكننى لا أملك إلا أن أعترف بأننى حزينة ، لما لحق بك وما زال يلحق بك ، وما قد أصابنى وما زال يصيبنى مع الفارق فى المقارنة بالنسبة لتجربتك ، ولكن أرجوك أن تتأكد أن ذلك لا يعنى اليأس أو الإحباط . . إنه فقط حزن عميق ودفين لغياب الأحباء . . أمى . . وأنت » . .

اتصلت بالأخ « فهمى » (مساعد صلاح فى منظمة الأشبال ببيروت) فى دمشق وأخبرنى أن هيئة الصليب الأحمر الدولية كانت هناك هذا الأسبوع لطرح موضوع التبادل وأنه كان يتمنى لو كنت هناك ، وعلىّ أن أحاول الوجود خلال زيارتهم القادمة لسماع ما سيقولون .

وقد تمكن فهمى من الوصول إلى المرتفعات اللبنانية ومعه معدات الفرقة الموسيقية ، ثم توجه بها إلى دمشق حيث قام بتسليمها إلى مكتب منظمة التحرير الفلسطينية هناك . إلا أننى خلال كل هذه الفترة كنت أشعر بوجود شىء غامض يحيط بموضوع التبادل ، كما لو كنت فى فترة زمنية تمتد فيما بين الأحداث الفعلية وصداها : فقد كنت على الدوام متقدمة خطوة على الأحداث لكن رجع الصدى يعود ليذهلنى للحظات . وكنت أعلم مسبقا ما ستقوله هيئة الصليب الأحمر الدولية . وبالرغم من أن « فهمى » كان صديقاً مؤتمناً إلا أننى لم أكن قد أفشيت له بكل التفاصيل .

واستمر الشريط يقول :

« لقد قلت لفهمى ـ أرجوك يا فهمى . . . إننى متعبة جداً من جراء القلق المستمر والسفر المتواصل بدون هوادة لذا فإننى أرجوك إن أمكن أن تذهب وتقابل « جبريل » بنفسك ، وتطلب منه أن يحدد لى موعداً لأرى الأسيرين .

أما إذا تمكن الآخرون من الوصول إلى شىء فإننى أتمنى لهم التوفيق ، ولكننى كنت أحب أن أتمم ما بدأته كما أنه يؤلمنى أن تضيع كل مجهوداتى هباء ، وأهم شىء الآن . . . هو الإفراج عنك وعن باقى الإخوة وبأسرع ما يمكن » .

كان ذلك إشارة منى إلى مجهودات المستشار النمساوى « برونو كرايسكى » . فقد استشعرت أنها ستستغرق وقتا طويلا على ضوء كل المعوقات غير المتوقعة ، والتى بدأت تظهر على الساحة باستمرار فى كلا الجانبين على مدى الأشهر الطويلة ، هذا بالرغم من كون كرايسكى شخصية عالمية لها احترامها . والذى لا أستطيع أن أفهمه ، وأجده مثبطا للعزم باستمرار هو تشعب الاتصالات والمبادرات خصوصا عندما تظل غير مترابطة أو متصلة ، وبالتالى لم تكن تحكمها أى استراتيجية مركزية .

ثم استطردت قائلة فى الشريط :

« إننى سأتوجه لرؤية أبو عمار حال عودته إلى دمشق إذ أنه لم يقابل كرايسكى فى الفترة الأخيرة . لقد نجحت مجهوداتنا الخاصة فقط فى دفع الناس إلى التعرف على مشكلة الأسرى والتعاطف معها ، أما بالنسبة للنتائج الفعلية فلم يكن هناك من سبيل سوى القنوات المباشرة التى نهجتها . وسأتلقى بعض الأسماء الأخرى لتقديمها للأخ أحمد جبريل خلال بضعة أيام قليلة . . وأرجو أن يوصلنا هذه إلى نتيجة . . على الأقل خطوة للأمام » .

« لقد حاولت أن أتصل هاتفيا بجيراننا فى صيدا ، وقد اندهشت بل وفرحت لاستطاعتى القيام بهذا الاتصال ، وقد تسلموا بالفعل رسالة منك عن طريق هيئة الصليب الأحمر الدولية ، وهدية خشبية من انتاج « أنصار » ، مثل تلك الهدية الثمينة التى تسلمتها فى بداية هذا الشهر . وقد أثر فى مشاعرى كثيرا فكرة أن الوحدة العائلية بيننا وبين أصدقائنا الجيران ما زالت قائمة . . وأنك تحتفظ بها حية فى مخيلتك حتى وأنت فى السجن . . وهكذا تختلط ابتسامة الذكريات السعيدة مع الدموع ، ولا أستطيع أن أقول أيهما قد فاز بالجولة اليوم !! . وقد كان الحديث مع « كاملة وأبو أحمد » مبعثا للاطمئنان ، ولكن محاولة تصور المنزل بدون وجودك فيه تجربة أخرى غريبة ومؤلمة بعد كل ما مرّ بنا منذ شهر يونيو » .

« ومن خلال الرسائل المنتظمة ـ ولو أنها كانت متباعدة ـ والتى قد تسلمتها من أبو أحمد وكاملة ، « محمود فارس وزوجته » ، علمت أن كل شخص فى صيدا كان فخورا بك . وهاهم يؤكدون مرة أخرى ما كنت أعلمه وأتوقعه ، علما بأن نزاهتهم لا يمكن أن تسمح لهم بالاختلاق أو المبالغة . وقد اتصل

« عصام السرطاوى » هاتفيا وهو يبدو صديقا مهتما وودودا ، وقد قال إنه كان من المفروض أن يقابل شخصا فى « فيينا » ويحصل منه على شريط فيديو مسجل لك فى أنصار ، وأن هذا الشخص سيأتى الى « باريس » هذا الأسبوع ، فهل باستطاعتى يا ترى أن أكون هناك غدا ؟ . . ذلك أمر مستحيل . لذا فقد اتفقنا على اللقاء فى اليوم التالى ، فمهما كانت الصعوبة فلا يمكننى أن أدع مثل تلك الفرصة تفوتنى ، فما أكثر المرات التى واجهت فيها عقبات أكبر ، وظروفا أكثر صعوبة خلال الأشهر الماضية . فليس إذاً بالصعب علىّ أن أهرع على عجل لسماع التسجيل المذكور واستمع إلى صوتك . . إذ أن الاجراءات المعقدة للحصول على تأشيرة وتذكرة للسفر ثم الحجز تظل بمثابة مشاكل طفيفة بالنسبة لضرورة السفر وأهميته . وقد اتصلت بآهارون للتعرف على خلفية الشخص حامل التسجيل الذى ذكره لى عصام ، فأخبرنى أنه جدير بالثقة ، وهو يؤمن بالسلام العادل ويعمل من أجله . ومهما كان الأمر فقد كان يهمنى أن ألقى ذلك الشخص الذى كان من القلائل الذين تمكنوا من دخول أنصار ، ومن رؤيتك ، لأنه سيستطيع أن يطلعنى على طبيعة الأشياء فى أنصار. كان الله معك ومعنا جميعا . إننى خجلى من الشكوى ، ولكننى أشعر بأننى بلغت نهاية طاقاتى » .

. . « صباح الخير . . إنه اليوم الأول من يناير ، وأنا على أهبة السفر فى نهاية اليوم ، وقد أردت فقط أن أسجل بضع كلمات أخرى لك . . تتنازعنى مشاعر البهجة الطاغية من جانب ، والقلق والخوف مما سأسمع من جانب آخر ، وقد أخبرنى عصام هاتفيا كيف أنك قد رفضت أن تتميز بأى معاملة خاصة ، أو أن تقبل حتى التفكير فى إمكانية الإفراج الفردى عنك .

إننى مستعدة للتضحية بأى شىء من أجل حريتك ومن أجل حريتكم جميعا . .

كم هى مقيتة للغاية فكرة السجن ، وكم هى كالغصة فى الحلق فى مدخل العام الجديد حيث يتطلع الجميع إلى الأفضل . . جبريل مريض . . لذا فإننى لم أتمكن من رؤيته بعد » .

« مساء الخير إننى أتحدث إليك من باريس ، وسنشاهد شريط الفيديو غدا لأنه يحتاج إلى غرفة خاصة مجهزة ، وسأرسل إليك ملحوظة صغيرة مع

« إلياف » . ولعلم « عصام » بمدى حبك للكتب فقد التقط مجلدا من مكتبته وقمنا سويا بتدوين كلمتين قصيرتين إليك . . فما عسانا أن نقوله أكثر من ذلك ؟ وقد وعد السيد إلياف أن يحمله إليك » .

□ حقيقة مهمة إلياف

اكتشفت فيما بعد وفقط مؤخرا أن السيد إلياف بالرغم من كونه معروفا بالتطوع من أجل مشروعات السلام إلا أن حكومته قد طلبت منه أن يقوم بزيارة « أنصار » والحصول على بعض الاثباتات القوية عن سلامة الأسرى ، والتى يمكن أن تقدم بعد ذلك إلى منظمة التحرير الفلسطينية كقرينة ، وربما تكون عـاملا إيجـابيا فى عمليـة الإفراج عن الجنـود الإسرائيليين الستة .

وقد ذكّرت صلاح أيضا خلال هذا الشريط الطويل بتلك الحادثة التى كانت قد حدثت لنا سويا فى إحدى أمسيات شهر يناير من العام السابق أثناء عودتنا بالسيارة من احتفال بذكرى انطلاقة الثورة الفلسطينية ـ ١ يناير ١٩٦٥ ـ والذى أقيم فى مدرسة سوق الغرب فى المدينة التى تحمل نفس الاسم ، وكنا قد وصلنا لإحدى المنحنيات الحادة فى دوران الطريق الملتوى ، وإذا بالسيارة تنزلق فوق بعض الصخور غير الثابتة على حافـة الطريق ، وكدنا نهوى فى الوادى السحيق . لقد كانت تلك إحدى البقع الجميلة فى جنوب لبنان ولكنها كانت موحشة فى ظلام تلك الليلة ، وكان أحد الأصدقاء قد لقى حتفه هناك فى حادثة سيارة قبل ذلك ببضعة أسابيع قليلة . وقد تمكن سائقنا من التوقف فى الحال ، وعلى بعد خطوات قليلة من الحافة ، وإن لم تكن السيارة التى خلفنا قد تمكنت من الانحراف فى الوقت المناسب حيث وقفت على بعد خطوات بجوارنا ، ولو كانت حتى قد لمست عربتنا لكنا بالتأكيد اندفعنا نحو الهاوية . . لقد كانت لحظة رهيبة ، وقد شعرت بعد ذلك وعلى الدوام أن علىّ واجب يلزمنى بتحقيق شىء يستحق هذه المنحة التى وهبها الله لنا بمنحنا حياة جديدة .

كان يستقل السيارة التى خلفنا فى الركب الذى كنا نسير معه فى طريق عودتنا كل من « دافيد كورنيل » ، والروائى المعروف باسم « جون لوكاريه » الذى كان يقيم معنـا لبضعة أيام ، والذى كان له العديد من الأصدقاء اليهود ، إلا أنه فجأة أراد أن يرى الجانب العربى للصورة . وقد جاء إلى لبنان فى المقام الأول ليبحث ويتعايش مع خلفيه رواية « قارعة الطبول الصغيرة » حيث كان قد أرسل لى نَصّها الأولىّ قبل أن تنشر ، وكان ذلك أثناء وجود صلاح فى السجن . وقد حاول صلاح فيما بعد أن يبعث برسالة إلى لوكاريه ليعتذر له

عن عدم استطاعته قراءة النص . وقد كتب لوكاريه فى مقدمة الرواية التى ظهرت فى مارس ١٩٨٣ يقول :

« إن مضيفى فى صيدا ، القائد الفلسطينى صلاح التعمرى يستحق كتابا خاصا به ، وأتمنى أن يكتبه هو نفسه فى يوم من الأيام . وسأكتفى فى كتابى هذا بالتنويه بشجاعته وامتنانى له ولمساعديه من أجل اتاحتهم الفرصة لى للتعرف على الوجدان الفلسطينى » .

ويستطرد الكتاب فى الفقرة التالية قائلا :

« البعض من الفلسطينيين قد مات بينما أخذ آخرون إلى السجن ، والباقون من المحتمل أن أغلبهم قد أصبحوا مشتتين أو بدون مأوى . وكان الفتيان المقاتلون الذين قاموا على رعايتى فى الطابق العلوى فى صيدا قد ثرثروا معى كثيرا ونحن فى حدائق البرتقال ، وعلمت أنهم من اللاجئين الذين لم يقهرهم القصف المضنى على المعسكرات فى الرشيدية والنبطية . ومما سمعته ، فإن مصيرهم لا يختلف كثيراً عن مصير نظرائهم الذين ترد حكايتهم فى هذه الرواية » .

استمتعت فى يوم ١١ يناير ـ ذلك التاريخ المشهود ـ بقضاء أمسية بهيجة ممتعة من خلال الرقصات الشعبية للفرق المدرسية . وكنا أنا وصلاح قد حضرنا معسكرا صيفيا كمسؤولين عن مجموعة من الخارج قادمة لزيارة الأطفال الفلسطينيين خلال الصيف السابق . ولكن هذه الليلة كانت مختلفة وكان الأداء بارعا بصفة خاصة ، حيث وجدت أداء أحد عازفى « الفلوت » من صيدا بنغماته الحزينة مؤثرا إلى أبعد حد . بينما كان ابنه الصغير يرقص على الأنغام رقصة الدبكة الفلسطينية . وكان صوت الأب يبدو وكأنه انعكاس لكل أحزان الشعب الفلسطينى فى الشتات . وتذكرت مشروعى لإعداد كتاب يجمع عادات ورقصات الفن الشعبى الفلسطينى كجزء من مشروعى الأكبر لتسجيل الموسيقى والفلكلور والعادات لكل بلد من البلدان العربية . كانت الفكرة تدور فى مخيلتى منذ أن كنت فى الخامسة عشرة من عمرى ، ولكن للأسف ظلت تلك المشاريع غير كاملة إلى الآن .

وكثيرا ما أتساءل كلما استرجعت ذكرى هذه الكارثة التى كانت على وشك الوقوع على حافة الجرف ، عما إذا لم تكن تلك النهاية أفضل لنا نحن الاثنين ، أن نسقط معا هناك فى الوادى ، ونحصل بتلك النهاية السريعة على السلام الأبدى ونوفر أحزان الأيام المقبلة .

فى شهر يناير كان لى لقاء مع مجلة « الشرقية» ، وأدارت الحوار السيدة « منى سراج » زوجة صديقنا الفنان « يوسف فرنسيس » حول الوضع الراهن ومشكلة الأسرى . وقد قابلت « عرفات » مرة فى القاهرة ، ثم مرة أخرى فى منتصف الشهر عندما جاء لمقابلة الملك « حسين » فى عمان ، وبعدها سافرت مرة أخرى الى دمشق لأقف على مدى تقدم الأمور . وكان الأخ الكريم عبد الإله الأثيرى الذى يسر لى زيارة الأسرى الاسرائيليين الستة ـ من أكثر الأشخاص الذين التقيت بهم حساسية وفاعلية فى ذلك المجال . وقد أخبرنى أن فتح قد أعدت أخيرا قائمتها الشاملة للأسرى .

أثناء ذلك أخبرت آهارون من خلال حديث هاتفى ، أننى قد ألتقيت بأبى عمار الذى كان قد تسلم بالفعل شريط الفيديو فتأثر بالهدايا التى صنعها الأسرى، وخصوصا صخرتى المفضلة المنحوتة التى تمثل خارطة فلسطين المصلوبة . وكان على علم تام بفاعلية مجهوداتنا ويوافق عليها ويباركها . ولكنه فى نفس الوقت استمر فى التقدم خلال عرض كرايسكى من أجل إضفاء صفة الشرعية والدعم المسؤول لمطالبنا .

قبل ذلك بأسبوع كنت قد شرحت لآهارون مدى اليأس الذى أصابنى من جراء الظروف والبيروقراطية من قبل الجانب التابع لـه . فلم تلق الاقتراحـات التى أعدهـا أبو عمار بشأن التبادل أى إجابة . وقد قلت له إن حسن النية فى التعامل التى نعرضها يبدو أنه لا صدى لها .

□ لقاء مع كاملة فارس

حملت نهاية شهر يناير بعض البهجة بالنسبة الىّ عندما حضرت « كاملة فارس » جارتى العزيزة الغالية فى صيدا لزيارتى فى عمان . كانت زيارة طال انتظارها . . أمضت معى يومين جعلنا نسترجـع خلالهـا كل مـا دار من أحداث خـلال الأشهر المـاضية ، وذكريات جيرتنا الحافلة بالأحداث والطوارىء بقدر ما كانت حافلة بالمودة والسعادة . . وكما هو معتاد فى مثل هذه الظروف فقد أضفينا عليها إشعاعا ورديا !

وحصلت منها أيضا على معلومات مباشرة ودقيقة حول ما حدث فى الجنوب اللبنانى خلال الستة أشهر السابقة ، من تفاصيل الفزع الذى حدث خلال المراحل التالية للغزو ، كذلك الحوادث الفردية التى مست الكثيرين ممن أعرفهم شخصياً . وكشف كل ذلك عن الوجه الحقيقى للحرب البشعة . كما استمعت منها أيضا عن المحاولات المستميتة لصلاح للإفلات من العدو والبقاء فى الجنوب بصرف النظر عن المخاطر الكبيرة ، حتى يمنح الناس

ما يستطيع من المساندة مهما كانت محدودة . وتبينت أن أصدقاءنا وجيراننا قد تذكرونا بالود والخير بالرغم مما مروا به من أحداث ومن مآسيهم الشخصية من جراء فقد عائلاتهم أو منازلهم أو وظائفهم ، كما تذكروا الأيام السابقة عندما كانت الحياة تسير طبيعية بشعور من الحنين .

وقد سلمتنى أثناء هذه الزيارة خطاباً كان صلاح قد كتبه فى الليلة التى سبقت وقوعه فى أيدى العدو ، واعتبره بمثابة وصيته الأخيرة لى . وقد تركه لدى كاملة وأبو أحمد على أمل أن يرسلوه إلىّ عندما تتاح لهم الفرصة .

وقد بدأ خطابه بقوله :

« ربما تكون هذه هى الليلة الأخيرة التى أقضيها هنا فى المنزل . . الدار التى كنت أقاوم باستمرار الارتباط بها فى ظل تلك الظروف غير الواضحة المعالم لشعبنا ، فهل يا ترى قد قدر لنا ألا نلتقى مرة أخرى ؟ . . أتمنى لك الشجاعة والجلد ، أما بيتنا العزيز الذى لن ترغبى غالبا أو ربما لن تتمكنى من البقاء فيه . . فقومى ببيعه وانفقى المبلغ على الأشبال والزهرات ، وفرى لهم الكتب والآلات الموسيقية . . دعيهم يحصلوا على شىء يضىء عقولهم ويرفع من معنوياتهم » .

فى شهر فبراير كنت قادمة من عمان فى طريقى الى القاهرة عندما تلقيت مكالمة هاتفية من شخص لم يكن اسمه مألوفا لدىّ والذى سأعّرفه باسم « على* » كما كان الأسرى فى أنصار يطلقون عليه . وقد طلب منى أن أقابله فى جنيف إذ كانت لديه أخبار عاجلة ومستندات من أنصار يتحتم عليه تسليمها لى على الفور لأقدمها فى المؤتمر السادس عشر للمجلس الوطنى الفلسطينى ، والذى تقرر أن يعقد فى الجزائر خلال يومين !

كان علىّ أن أقوم خلال ساعة بتغيير شامل لبرنامجى من حيث العثور على تذكرة للسفر ثم اللحاق بالطائرة ، حتى وصلت إلى جنيف فى حالة بالغة من الإجهاد بالرغم من كونى غالبا متأهبة لمواجهة التحديات .

قابلنى الرجل فى المطار ، وسرعان ما اكتشفت أنه شخص فاضل وحساس ، وليس أبدا تلك الشخصية المريبة التى كنت أخشاها ، والتى تخوف منها عقلى الباطن فى البداية .

رافقنى السيد « على » إلى الفندق الذى اقترحته لسبب بسيط هو أنه يحمل لى

* ويمكننى بعد وفاته المفاجئة قبيل طبع النسخة العربية من كتابى أن أقدمه باسمه الحقيقى وهو « أرفيه هوجليه » .

ذكريات عائلية قديمة منذ تلك الأيام التى كنت أسافر فيها مع والدىّ وأنا طفلة ، ثم وأنا طالبة فى الجامعة بعد ذلك . ثم التقينا بعد ذلك بفترة وجيزة فى مطعم على الغداء ، حيث تم كشف النقاب عن القصة ، وعن المستندات التى كان يحملها أيضا . لقد أحضر من أنصار ما اعتبرته كنزا كاملا من مصنوعات الأسرى الحرفية اليدوية بالإضافة لكل ما حمل من المستندات والخطابات . وكنت قد تسلمت خلال شهر ديسمبر مشطا خشبيا منقوشا عليه رسم مؤثر ليد ممتدة نحو يد أخرى مجنحة عبر الأسلاك الشائكة كرمز للحرية . رأيت أمامى مجموعة كاملة من الأمشاط كل منها متميز وفريد فى تكوينه . قام بصنعها أحد هؤلاء الأشخاص الذين لم يكونوا بالنسبة إلىّ مجرد أرقام ، ولكنهم كانوا كيانات عزيزة تجمع بيننا روابط التاريخ العربى المشترك والمبدأ ، والإيمان بحقوقنا ومستقبلنا ، والذين قد أصبحوا الآن أكثر قربا وتلاحماً بعد اشتراكهم فى محنة عام ١٩٨٢ . وقد أضافت معرفتى الشخصية ببعض من قاموا بصنع تلك التحف والأدوات قيمة أكبر عليها وأحييت فى مخيلتى معاناتهم .

كان هناك إلى جانب الأمشاط بعض المصنوعات الدقيقة الأخرى تفنن المعتقلون فى إيجاد موادها وفى صناعتها من الخرز ، ومسابح تم تنفيذها بمهارة فائقة من خيوط الجوارب القديمة بعد فكها وإعادة تشكيلها ، بالإضافة للأساور النحاسية المنقوش عليها أسماء الأحباء . وقد كانت المنتجات اليدوية لأنصار تستحق كتاباً كاملاً خاصاً بها ، ذلك أن القدرة التى أوجدت تلك البراعة الملحوظة فى العثور على المواد التى قاموا باستعمالها وأيضاً فى تشكيل الأدوات البدائية المستخدمة فى النحت والنقش والزخرفة ، كانت مذهلة . كانت المنتجات من التحف والصور المحفورة على بعض الأقراص الصغيرة بقصد ارتدائها كدلايات ، تسرد القصة بأكملها لاشتياق هؤلاء الأسرى إلى الحرية ، وإلى أرض الوطن المفقود وإلى الأهل . كانت هذه الأشياء تمثل تجمع الأحباء مرة أخرى إلى جانب اليأس الذى كان واضحا فى نحت صغير يسمى « السجين » ، حيث يظهر على أحد جانبى القرص سجيناً جاثياً على ركبتيه فى يأس ، بينما على الجانب الآخر للقرص نفس الشخص يصلى . وفى بعض الأحيان كانت هذه الأشكال غير مألوفة كتماثيل لحورية البحر ، أو لوحات ملونة عليها رسوم لفتيات . وعندما أُفرج عن صلاح مع حوالى خمسة آلاف أسير آخر من أنصار خلال عملية تبادل الأسرى التى تمت فى ٢٣ نوفمبر ١٩٨٣ ، حمل معه معدات أنصار من مناشير ومبارد . . الخ ، وكلها ابتدعت من مواد بدائية مثل مواسير معدنية تحولت إلى مناشير لقطع الأخشاب التى حصلوا عليها من الأقفاص التالفة ، أو قواعد المراحيض ، بالإضافة إلى الملاعق والسكاكين التى شُكلت لتتحول إلى أدوات مختلفة . وأخيراً وليس آخراً أحضر صلاح معه مفتاح أنصار الذى كان قد أقسم على أن

يأخذه معه بعد أن يتم الإفراج عن آخر رجل ، وبالطبع ظل هذا المفتاح عزيزاً جدا علينا ، وتذكاراً رمزياً .

كانت هناك أيضاً من بين أعمال الأسرى بعض اللوحات القليلة المؤثرة ، والتى نفذت على قطع من نسيج الخيام البالية . وكان من أحب هذه الأعمال إلى نفسى لذوقها الفنى وأسلوبها البسيط وعمق تأثير الرسالة التى تحملها ، تلك اللوحة التى تظهر من خلالها يد ممتدة فوق الأسلاك الشائكة وأصابعها تشير إلى علامة النصر ويحيط بها شعار « أنصار للفجر تغنى » . كما كانت هناك أيضا لوحة أخرى تعكس منظراً عاماً لصيدا ، وعمل ثالث يمثل سجيناً كسيحاً يجلس أمام إحدى الخيام ، وعمل رابع يمثل يداً ضخمة ممتدة تقطر منها الدماء . . كذلك كانت هناك لوحة أخرى لكلب أسود صغير جالس فى تفكير عميق ، وقد علمت فيما بعد أن هذا الكلب قد أصبح تميمة المعسكر .

وأخيراً كان من بين اللوحات لوحة شديدة الشاعرية تمثل رأساً لفتاة تحيط به النباتات ، وبها إهداء موجه إلىّ يعبر عن التقدير . وقد قام بتنفيذها أحد أعضاء الفريق الطبى من بين المعتقلين ، وكان أيضا عضوا فى لجنة الدفاع عن حقوق المعتقلين .

وقد استخدم الأسرى معجون الأسنان لتحضير أرضية لوحاتهم ، أما الفلفل الأحمر المجفف فقد استعملوه فى الحصول على اللون الأحمر . كما استعملوا للتلوين أيضا بعض الأقلام التى كان قد أحضرها طاقم هيئة الصليب الأحمر الدولية ، كما إننى قمت مرّة بإرسال البعض منها مع كميات صغيرة من الخرز .

وقد أوضحت هذه المنتجات اليدوية تقدماً وتطوراً ملحوظاً فى المهارات من خلال هذه الأشكال البدائية للمنتجات اليدوية فى البداية كالأمشاط ومباسم السجائر ، حيث تدرجت وتطورت بعد ذلك إلى أشكال منحوتة نحتاً جيداً . كما أنها كانت تعكس أيضاً المراحل المختلفة للتطورات أو التقلبات فى حالة الأسرى النفسية ، والتى كانت تتأرجح ما بين الأمل واليأس والإحباط . كانت هناك أيضاً خطابات للعائلات ، وقد تمكنت من توصيل البعض منها فيما بعد ، ولكن من أهم ما وصلنى كان سجلا كاملا ودقيقاً للمرضى فى أنصار . وقد قمت بتسليمه فى الحال بعد ذلك إلى الدكتور « فتحى عرفات » رئيس جمعية الهلال الأحمر الفلسطينى . وقد كان الأطباء فى المعسكر من أكثر المعتقلين بطولة ، خصوصاً ذلك المثل الذى قد ورد ذكره بالفعل عن الدكتور عماد طروية الذى كانت له زوجة وعائلة صغيرة قد تركها خلفه ، إلا أنه رفض أن يرحل حتى يتم الإفراج عن جميع الأسرى ، بالرغم من أنه قد تقرر الإفراج عنه من قبل ذلك بكثير . كان مقر عمله فى

بيروت ، ولكنه أصر على القدوم إلى الجنوب كرئيس لمجموعة الإسعاف بعد أن بدأ الغزو حيث تم القبض عليه هناك ، وكان أحد دعائم المعسكر القوية بما يتميز به من شخصية فاضلة دمثة ذات عمق وحساسية .

كانت هناك عدة أمثلة أخرى تنم عن الشجاعة والالتزام وإن لم تذكر هنا بالأسم ، لكن الجميع يذكرها بالاحترام والتقدير العميق .

□ استكمال القوائم الطبية

كانت القوائم الطبية قد استكملت بدقة ، وقد اتضح من هذا التقرير كم كان العمل الطبى شاقا للغاية من حيث إمكانية الحصول على الإمدادات الطبية اللازمة بالإضافة إلى الإفراج عن الحالات الحرجة ، وهو ما لم يكن يتم إلاّ فى حالة الاحتضار حيث يتم إرسالهم للموت بين ذويهم !!

وقد شعرت بالراحة لدى سماعى أن هذه الظروف قد تحسنت بدرجة معقولة بعد مضى شهرين ، عندما شهد صلاح بذلك أثناء لقائه مع « آمنون كابيلوك » الصحفى الإسرائيلى الذى زار أنصار فى أبريل ١٩٨٣ . كما أنه تم خلال هذه المرحلة أيضاً وضع حد لعملية الاستجواب ، من خلال المجهودات التى لم تكل للجنة الدفاع عن حقوق المعتقلين ، يساندها المعتقلون أنفسهم ، كما يساعدها أيضا فى بعض الأحيان فهم وإدراك بعض المسؤولين بالمعسكر مثل الكولونيل روزينفيلد . ولكن ، وكما أكد صلاح بشدة ، فإن التحسن فى ظروف المعسكر كان يعود لمجهودات المعتقلين الشخصية أولاً وأخيراً ، حيث كتب صلاح يقول فى ذلك :

« لقد فزنا بقدر المستطاع من الحقوق بعرقنا ودمائنا نحن شخصياً . ولم يكن أى من هذه الحقوق هدية منحت لنا . لقد توقف المسؤولون عن الضرب والمعاملة الجسدية المهينة بعد أن قاسى الكثيرون منها فى ذلك المكان الذى أطلقنا عليه اسم « الجورة » داخل المعسكر . وقد تواجدت أنا شخصيا فى هذه الحفرة مثل غيرى من رفاقى المعتقلين . إلا أن حقوقنا على ضوء معاملة أسرى الحرب ، أو أى مستوى آخر ما زالت غير واردة ولم يتم تحديدها ، ونحن لا نزال ـ كما هو معروف عنا ـ نفخر بانتمائنا لمنظمة التحرير الفلسطينية ، ونريد أن نعامل على هذا الأساس ، أو على الأقل طبقا للبند الثالث أوالرابع من اتفاقية جنيف » .

كانت الأمسية التى قضيتها بعد الاطلاع على بعض المعلومات الجديدة فى جنيف من خلال السيد « على » وما حمله لى مؤلمة ومثيرة ، إلا أنها بالرغم من ذلك كانت تجربة ثرية . وقد عدت بعد لقائى بذلك الشخص الكريم إلى الفندق لأستعد فى الصباح الباكر للسفر إلى الجزائر . ولكن الذى حدث بعد ذلك ، قد يضيف بعض الترويح الساخر لذلك الوضع المشحون ، وقد ظل بالنسبة إلىّ حادثاً مبهماً وغامضاً إلى اليوم ، حتى لو كان قد حدث على سبيل المصادفة البحتة . ذلك اننى كنت كعادتى على وشك الاستعداد للنوم ببعض القراءة ، وإذا برنين الهاتف يقطع السكون وسمعت موظف الاستقبال يقول لى :

- **« سيدتى . . اهبطى إلى البهو فى الحال »**

فسألته عن السبب ، وأنا فى حيرة ، وقد بدأ النعاس يتملكنى ، فأجابنى قائلا :

- **« يتم الآن إخلاء الفندق ، فقد وصل إلينا فى التو تحذير من وجود قنبلة ، ومن فضلك اهبطى »**

وقد تصادف أن كانت غرفتى فى نهاية ممر ضيق ومظلم إلى حد ما ، لذا فإن فكرة الخروج فى ذلك الوقت من الليل سواء كانت مقصودة أم لا ـ كما فى الروايات البوليسية ـ لم تكن بالأمر المستحب أو حتى المعقول .

لم يكن الأمر ليستغرق منى أكثر من خمس دقائق لأستعد ، وأقرر ما أصطحبه معى ، وما يجب علىّ أن أتركه ، ولكن رنين الهاتف أخد يلح مرة أخرى ، وإذا بموظف الاستقبال يقول :

- **« سيدتى . . عليك أن تهبطى فى الحال وبدون المزيد من التأخير »**

لم تكن لهجته فى الاستعجال مطمئنة بأى حال من الأحوال ، فارتديت الحذاء ذا الرقبة القصيرة ، والذى يعتبر ضرورة فى ليالى الشتاء الباردة ، ثم أخذت أدور حول نفسى فى الغرفة فى تردد بين الخروج للمجهول أو البقاء فى أمان داخل غرفتى ، وأخيراً التقطت الحقيبة الصغيرة التى تضم كل الأشياء التى تسلمتها قبل ذلك ، وهرعت للخارج ثم إلى أسفل نحو القاعة .

سرعان ما شعرت بالراحة التامة لوجود النزلاء الآخرين هناك ، حيث كان بعضهم يرتدى ملابس النوم والشباشب ، الأمر الذى وضح أننى لم أكن المقصودة وحدى بهذا الكمين ، بالرغم من ظروفى الحالية التى تسمح بورود هذا الاحتمال .

لم تلبث مخاوفى الداخلية أن تحولت إلى ملل بالغ وإجهاد نظراً لأننا مكثنا فى القاعة

انتظاراً لأن يتم نقلنا جميعا فى أمان إلى فندق آخر ، ثم العودة مرة أخرى فى ساعة متأخرة من هذه الليلة .

كنت فى الواقع أحب الطيران وأعتبره حافزا لى من أكبر الحوافز نظراً للطريقة التى ينتشل بها الإنسان ويحلق به بعيدا عن كل شىء حيث يصفو التفكير . وقد ظللت أحب الطيران بالرغم من حادثة تحطم الطائرة الذى كنت قد تعرضت له مع والدتى فى مطار عمان عندما كنا فى طريقنا إلى بيروت عام ١٩٧٣ .

☐ توصيل رسائل الأسرى للقيادة

كانت زيارة الجزائر فرصة رائعة بالنسبة لى بالرغم من المسؤولية الثقيلة التى كنت أحملها ، مسؤولية توصيل رسائل الأسرى من أنصار إلى القيادة . وشعرت أن مجرد زيارة الجزائر ستكون عاملا مضاداً للتعب والإجهاد ، وأننى سوف استنشق فيها نسيم الحرية . فالجزائر بالنسبة إلىّ تمثل الحرية بعد سنين طويلة من الكفاح ضد الاحتلال والإستعمار الفرنسى ، ولم تزل منذ حصولها على استقلالها من فرنسا عام ١٩٦٣ .

كانت زيارتى الأولى للجزائر « أرض المليون شهيد » الذين سقطوا فى معركة التحرير ، قد تمت فى عام ١٩٦٣ حيث كنت ضمن مجموعة من معهد الدراسات العربية العليا التابع للجامعة العربية ، وكنا فى طريقنا لرحلة قصيرة لشمال أفريقيا ، وعلى وجه الخصوص إلى ليبيا وتونس . وكانت ضمن المجموعة صديقة وزميلة عزيزة هى « بتول الخطيب » من العراق ، وقد قررنا سويا الانفصال عن الآخرين فى نهاية الرحلة لنطير إلى « المغرب » لرؤية بعض الأصدقاء الآخرين مثل الأخ « محمد التازى » وزوجته « مريم » - والذى أصبح فيما بعد سفيرا لدى الأردن لفترة ست سنوات ، ثم عين بعد ذلك سفيرا فى القاهرة - وأيضا لزيارة ذلك البلد الذى يعتبر من أكثر البلدان العربية عراقة . وكنت قد تسلمت منذ فترة قصيرة تأكيداً مفاجئاً من الملك حسين بأننى سأتمكن من رؤية ابنتى بعد مرور ست سنوات من الإخفاق فى الاتصال .

سمح لى هذا النبأ السعيد بأن أقوم بمثل هذه الرحلة بنفس هادئة ، وأن أبقى بعيدة عن والدىّ وصحبتهم لمدة أسبوع آخر . ولحسن الحظ كان على الطائرة المتوجهة إلى المغرب أن تمر على الجزائر ، وكان من المحتمل أن تهبط هناك لنزول بعض الركاب ، والتقاط البعض الآخر .

كان صراع الجزائر الطويل قد انتهى قبل بضعة أيام من تلك الرحلة ، ذلك الصراع

الذى كان من أعظم الملاحم البطولية فى التاريخ العربى الحديث . وكنت أتابع الحرب كأى عربى آخر فى انفعال إلى جانب ذلك القرار الذى اتخذته لنفسى بالنسبة لمقاطعة كل ما هو فرنسى ، ولم يكن هذا بالتضحية الكبرى بالمقارنة لما قدمته الجزائر من أرواح أبنائها . ولم يتوقف الجزائريون أبداً عن ذكر مساهمتى المتواضعة من خلال ذلك القارب الذى وضعه والدى تحت تصرفهم ، وكان يمتلكه ويطلق عليه اسم « دينا » ولكنه آثر أن يستعمل هذا القارب فى حمل السلاح للجزائر أثناء كفاحها .

فى غمرة حماسى لدى الإعلان عن الاستقلال ، ولكونى كنت فى مثل هذا الجوار القريب منهم ، فقد قمت بإرسال برقية للقيادة التى كنت قد التقيت بها فى القاهرة من قبل ، قلت فيها :

« أبعث إليكم بأخلص التهانى ـ وأنا أطير فوق الجزائر فى طريقى من تونس إلى المغرب ـ بمناسبة استقلال الشعب الجزائرى ، وأخلص التمنيات لكم بالتوفيق فى المستقبل » .

ثم نسيت كل ما يتعلق بهذه الرسالة فور إرسالى لها .

كانت الطائرة تسير بارتفاع منخفض لذا فقد كانت الرحلة طويلة وكئيبة ، يتخللها العديد من المطبات الهوائية الأمر الذى كان يدعو للملل فى حالة الهبوط أثناء تلك الرحلة ، فى أى مكان سوى الجزائر بالطبع ، فقد كنا نتمنى أن نصل إلى المغرب وننهى الرحلة . وبينما الطائرة تستعد للوقوف لاحظنا أنا « وبتول » وجود ثلة من الجنود المصطفة . وعند ممر المطار كانت هناك مجموعة تبدو وكأنها شخصيات رفيعة الشأن ، ولم أصدق نفسى عندما صعد أحد الأشخاص إلى الطائرة ليطلب منا النزول ، فنظرنا بعضنا لبعض فى دهشة واستغراب عندما رأينا « بن بيلا » أولا ثم « محمد خيضر » وبعض الأعضاء الآخرين من القيادة يقفون على عتبة سلالم النزول ، حيونا بحرارة حيث أصطحبونا فى استعراض لحرس الشرف .

كان شرفاً غير متوقع لأن جيش التحرير الجزائرى لم يكن جيشا للاستعراضات . وقد أمضينا حوالى نصف الساعة فى المطار حتى تم النداء على رحلتنا ، ثم عدنا مرة أخرى إلى الطائرة مع وعدنا للإخوة المضيفين بالعودة مرة أخرى لزيارة الجزائر فى نهاية جولتنا التى ستستغرق أسبوعا فى المغرب .

☐ أهمية المؤتمر السادس عشر

كان المؤتمر السادس عشر للمجلس الوطنى الفلسطينى واحداً من أهم جلسات هذا المجلس ، خصوصاً وأنه اشتمل على بنود تحدد سياسته تجاه الدول العربية ، وخصوصا بالنسبة لمصر بعد اتفاقية كامب دافيد ، بالإضافة إلى رفضه الصريح لقرارى هيئة الأمم المتحدة رقمى ٢٤٢ و ٣٣٨ ، نظرا لتناولهما المشكلة الفلسطينية على أنها مشكلة لاجئين فقط لاغير ، دون الاعتراف بأى حق فى استرجاع الأرض ، أو فى الحكم الذاتى للشعب الفلسطينى .

تابعت اللقاءات فى اهتمام واستغراق ، ولكن مع وجود قدر كبير من التوتر . ولم يكن أى قرار بالنسبة إلىّ مهما بلغ من الأهمية أو الاستعجال ليتساوى مع أهمية وإلحاح قضية الخمسة آلاف معتقل فى أنصار ، والثلاثة آلاف معتقل الآخرين فى مختلف سجون ومراكز الاعتقال الإسرائيلية . ولم يكن وزنى للأمور مبالغ فيه . إذ أن بعض هؤلاء الرجال كان المفروض أن يحضروا هذا الاجتماع ، ويشتركوا فى إصدار قراراته !

انتظرت فيما بدا وكأنه دهر ، قبل أن أتمكن من نقل الرسالة إلى الاجتماع ، إذ أن القائمة الطويلة من الخطب الرسمية المستفيضة حول التضامن من جانب الوفود كان من الضرورى استكمالها أولا ، وفى نفس الوقت استعرضتُ كل الرسائل الموجهة إلى المجلس . وعندما حان الوقت المتاح للكلمات غير الرسمية ، استدعيت لألقى كلمتى من منبر الاجتماع . وقد كان شعورى بأهمية ما كان علىّ أن أنقله الى المستمعين قد تغلب إلى حد ما على خجلى وفزعى من المنصة . وبعد الجمل الافتتاحية لتحية رئيس المجلس وأعضائه ، كان خلاصة ما استطعت أن أضعه فى صورة ملائمة قد اندفع على النحو التالى :

« لقد أتيت إليكم برسالة من إخوانكم فى معتقل أنصار . . . رسالة لمساندتكم ودعمكم وهم أحوج ما يكون إلى الدعم ، ذلك أن بينهم مرضى يعانون من مرض السرطان والالتهاب الرئوى ، وكسور العظام التى لم تعالج منذ شهور ، وهم ثابتون راسخون فى صمودهم .

وأود أن أعتذر لإخوانى فى السجون الإسرائيلية ومعسكرات الاعتقال إذا كان هناك قصور غير مقصود يرجع إلى أن الوقت لم يسعفنى لتنسيق المعلومات التى وصلتنى منذ

ساعات فقط . . وإن كنت أعتقد أننى على علم بمعظم ما يعانى منه أسرانا . ولكننى أعترف لكم الآن أنه وحتى بالنسبة إلىّ بما لى من اهتمام مباشر نظراً لوجود زوجى فى أنصار ، أو بالنسبة إلى كل أسير مكافح ، أقول إن الأنباء كانت مفزعة بحيث هزّت تماماً كل وجدانى ومشاعرى ، وإذا حاولت أن أحيطكم علما بكل التفاصيل ، فإن الوقت لن يسمح بذلك ، وسيكون الأمر غير محتمل بالنسبة لكم .

لذا فإننى سأذكر فى إيجاز فقط أن العشرات من المعتقلين المرضى ينتظرون العلاج الطبى منذ أسابيع وشهور ، والصليب الأحمر الدولى لا يهتم بالرعاية الطبية ، ولكن اهتمامه ينحصر فى حماية الأسرى فقط وحصر أعدادهم ، لذا فإن الرعاية الطبية تظل مسؤولية القوات المحتلة . ويمكن تحديدها وعلى أحسن تقدير بأنها أدنى بكثير من مستوى المقاييس الضرورية من حيث الحجم والسرعة والكفاية ، هذا بصرف النظر عن الإهمال وممارسات المهانة البالغة من قبل حراس المعسكر . وفيما يتعلق بموضوع الإفراج عن الأسرى ، فإننى لن أثيره ، إذ أنه بات يحتاج فقط إلى بعض الشكليات التى أرجو ألا تستغرق الكثير من الوقت ، وسنعمل من جانبنا على الإسراع فى الإجراءات من أجل ألا نسمح لليأس الشامل أن يزحف إلى نفوس إخواننا الذين وهبوا دمائهم ومستقبلهم لعزة شعبنا ولكل الشعب العربى ، وما زالوا وهم فى هذه المحنة يدينون بالولاء لقضيتهم . وأود أيضا أن ألفت النظر فى إيجاز إلى وضع ربما يكون أكثر خطورة ، ذلك أن الخمسة آلاف معتقل فى أنصار لا يجدون الأرض التى تستقبلهم ، والتى يمكن أن يتوجهوا إليها عندما يتم الإفراج عنهم ، وأنه لمن غير المعقول أن يستطيع الشعب العربى أن يكون بمعزل إلى هذا الحد عن هذه الحقائق ، أو أن يكون شديد التراخى فى الاهتمام بمصالح وحقوق أبنائه ، وكيف يمكننا أن نلوم العدو إذا كنا نحن والدول العربية قد خذلنا أبناءنا ولم نوفر لهم الأرض بدون دراسات ومفاوضات قد تستغرق الأسابيع ، وتؤدى إلى تمزق هذه النفوس الأبية الصامدة .

والأسوأ من هذا ـ ولعل دافعى فى قول ذلك هو ما صادفته وقاسيت منه ـ هو أسلوب الإعاقة والتوقف عند الشكليات . . فلندع الصحراء تكون مأوى لهم على أسوأ الافتراضات ، ولنستبدل معسكر الاعتقال بمعسكر عربى على أرض عربية بدلا من كونه معسكرا اسرائيليا ، فإن رمال الصحراء العربية الشاسعة ستكون أحنّ عليهم ، وأرحم من ذل العدو حيث تظلهم السماء العربية التى لا حدود لها .

ويشهد الله إننى قد بلغت الرسالة ، وليكن هذا اللقاء بداية جديدة نحو جبهة

فلسطينية موحدة ومتينة ، تربط بين كل أطراف حركة التحرير . . ولتكن هذه هى بداية للوحدة . . لا نهايتها . . آمين » .

وبعد مضى عامين كان علىّ أن أرسل كلمة إلى الشيخ « عبد الحميد السايح » رئيس المجلس الوطنى الفلسطينى خلال الاجتماع السابع عشر للمجلس فى عمان لأذكره بأن موضوع باقى الأسرى فى سجون الأرض المحتلة ما زال قضية يجب أن تعالج بشمولية ، وقد قلت له فيها :

« أرجو أن يتم تحديد شخص يمثل المجلس فيما يخص موضوع سجنائنا فى زنزانات العدو ومعتقلاته ، ولتكن أنت ذلك الشخص ، لتقوم بهذه المهمة الإنسانية والقومية بالنسبة لسجون الأراضى المحتلة ، أو لمعتقل أنصار الذى ما زال قائما ويحوى المزيد من المعتقلين الذين يجلبون إليه كل يوم .

إننى أود اليوم أن أذكر الأعضاء الحاضرين أن معتقل أنصار الذى كان من شروط اتفاقية تبادل الأسرى أن يتم إغلاقه لا يزال إلى الآن يستقبل المعتقلين الذين بلغ عددهم حتى اليوم حوالى عشرة آلاف شخص . وهذا بالإضافة إلى أن السجناء الذين اختطفوا من المجموعة التى تم الإفراج عنها فى ٢٣ نوفمبر ١٩٨٣ ومن أبرزهم « زياد أبو عين » ـ وكما ذكر أبو عمار ـ ما زالوا معتقلين ، الأمر الذى ينافى القوانين الدولية . وهم ينتظرون منا المتابعة والمثابرة والمزيد من العمل والسعى لإتمام اطلاق سراحهم . إن مسألة سجنائنا ومعتقلينا بين أيدى العدو ليست بالموضوع الذى يأتى فى المرتبة الثانية من الأهمية تحت أى ظرف ، فإن أشجع رجالنا فى الصفوف الأمامية من الكفاح ، هم الذين يتعرضون لمواجهة التحدى ، وبالتالى هم أول من يقع فى قبضة العدو .

إن وضع هؤلاء الأسرى خصوصا فى المعتقلات التى تم بناؤها أخيراً ، مثل سجن « نفحه » ، غاية فى السوء لأنها تفتقر إلى العامل البشرى على أساس كونها سجونا « آلية » لا تماس فيها ما بين المعتقل وحراس الموقع (مهما كان ذلك التماس سيئاً أو سلبياً أو مستفزاً بالنسبة للسجين) » .

خلال الاجتماع السابق فى الجزائر كانت مسألة الأسرى قد تمت مناقشتها بالتفصيل مع أبى عمار وأبى جهاد ، كما أننى قمت أيضاً ببعض اللقاءات مع التليفزيون المحلى ، والصحف حيث تحدثت حول قضية الأسرى .

وقد أقمت معرضاً للملصقات التى أُرسلت من أنصار بمساعدة العديد من الشخصيات النسائية المشاركة فى المؤتمر . كما قابلت أيضا أحمد جبريل وناقشت معه موضوع زيارتى المقترحة للأسيرين اللذين فى قبضته ، وقد حصلت على وعد مؤكد منه أننى سأراهم حال عودته إلى دمشق خلال بضعة أيام . وكنا ـ ولحسن الحظ ـ قد تركنا ـ جانبا ـ مشكلة القوائم فى الوقت الحالى ، وقد بدا لى أن النجاح قد أصبح قريبا وإن كانت لا تزال هناك بضع خطوات للوصول إليه ـ ولم أكن أملك سوى التوجه إلى الله بالدعاء ثم السير قدما إلى الأمام .

□ مناقشة شروط التبادل فى الجزائر

لم يكن موضوع « التبادل » قد نوقش فى هذه المرحلة . وكان الأمل فى إتمام ذلك يبدو بعيد المنال وملامحه غير واضحة . كان أحمد جبريل قد أعد قائمة وقدمها إلى هيئة الصليب الأحمر الدولية (وقد أعطانى نسخة منها) وتشمل أسماء مائتين من رجاله الذين أكد أنهم مفقودون ، ولم يكن قد سمح للصليب الأحمر بزيارة الجنديين الإسرائيليين الأسيرين ، تلك الزيارة التى كانت شريطة استكمال هذه القائمة . لهذا كانت هناك حاجة لمزيد من التمحيص بالنسبة للأسماء والاستفسارات التفصيلية للغاية حول هؤلاء المفقودين الذين لم ترد أسماؤهم ما بين قائمة هيئة الصليب الأحمر الدولية ، أو القائمة الواردة من أنصار خصوصا تلك التى أرسلها صلاح ، والتى كانت السبب فى زيارتى الثانية فى نوفمبر .

كان من سخريات القدر أننى لكى أتمكن من الحصول على رد على استفساراتنا ومطالبنا بأسرع ما يمكن ، وأتحرى الدقة فى استكمال وفحص القوائم أن أعتبر أن وجود صلاح أسيرا داخل أنصار ضرورة وعونا كبيرا فى المهمة التى أخذتها على عاتقى . إذا كان يعنى أن أتلقى ردا سريعا وواضحا ومنتظما بقدر ما تسمح به الظروف . إلا أن صلاح كان قد بلغ أشد درجات الإرهاق ، ونفد صبره بشأن مسألة القوائم بنفس القدر الذى دفع بزملائه نحو الغضب واليأس إلى الحد الذى حدا بالأسرى الذين تم الإفراج عنهم خلال عملية التبادل الثانية إلى عدم الاكتراث أو الاعتراف بالتقدير لأحمد جبريل ، عندما التقى بهم شخصيا فى مطار طرابلس فى ليبيا ، وهو الذى كان قد نجح فى إنجاز صفقة التبادل الثانية تلك بصبر ومهارة لا يمكن إنكارهما ، وإن كان ذلك قد تم على حساب انتظار الأسرى عاما آخر للحاق برفاقهم المحررين عام ١٩٨٣ . كما أننى أعترف أيضا بما أصابنى من شعور بالإحباط الشديد لكل العراقيل ، وخصوصاً عندما لم أتمكن من الحصول على أية

ردود واضحة من أى من الرفاق المسؤولين الآخرين فى غياب الأخ أحمد جبريل رغم أن صلاح كان قد أكد لى :

« ألا يمكنهم لو سمحوا ألا يصروا على أسماء المفقودين بعد ما سبق أن وصلهم منا من تطمين لأن العديد منهم موجودون هنا بالفعل فى أنصار وتحت أسماء وهمية ، ولا يريدون الإفصاح عن أنفسهم ، ولا يعرف العدو شخصياتهم ، أما الآخرون فإنهم حتى لم يتم القبض عليهم (وهناك البعض الذين يقيمون بالفعل فى دمشق) . »

وقد قمت أخيراً بتوصيل ذلك إلى المسؤولين إلى جانب رسالة من الرجال المعنيين بالأمر مما دفع الأمور بعد ذلك نحو التقدم فى شىء من اليسر .

جاءت مرحلة من المراحل كانت لجنة الدفاع عن حقوق الأسرى فى أنصار قد تمكنت فيها من التفاوض بشأن الإفراج عن أحد أعوان جبريل المقربين ليعمل كرسول لحمل الاحتجاجات الجماعية بشأن المطالبة بضرورة القيام بتخطى كل العقبات ، وأن يتركوا جانبا كل التفاصيل الصغيرة ، ويعملوا فى جدية للشروع فى مفاوضات الإفراج . وكان كل هذا يعنى بالنسبة إلىّ المزيد من الاتصالات الهاتفية ، والسفر فى كل اتجاه . وعموما فقد قمت بما يزيد عن اثنتين وعشرين رحلة إلى دمشق وأكثر من رحلة للأراضى المحتلة . وكانت ضرورة التنقل السريع تصيب المرء بالدوار ، وكنت أشعر وكأن عالمى هو المطارات التى أجرى عبر ممراتها وأصعد وأهبط سلالمها وسلالم الطائرات . وكانت الخطابات التى أدوّنها لصلاح والتى قد يتسلمها أو لا يتسلمها يتم أغلبها فى المطارات . ورد فى أحد هذه الخطابات :

« لقد وصلت فى التوّ إلى القاهرة ، وإننى أدوّن لك هذا من المطار ، ولا أعرف إلى أين ستكون وجهتى القادمة » .

لقد مررت بمرحلة طويلة من الشعور بعدم الرغبة فى كتابة أى شىء . نظراً لأنه لم يكن لدّى الجديد لأقوله حول المفاوضات أو الإفراج ، لأننى كنت قد تحدثت وكتبت وسعيت كثيراً ، إلى الحد الذى تمنيت فيه الصيام عن الكلام . أو بمعنى آخر كنت أمسك أنفاسى فى انتظار ما قد يحمله كل يوم ، عندما تبدأ الأشياء فى التحرك نحو المفاوضات العاجلة والحل السعيد ، وكأننى كنت أخشى من أن كلمة ، أو ربما حتى التنفس قد يغيرا مجرى الأمور .

كان القلق والشجن اللذان يحيطان بالموقف والمعاناة التى يحتملها صلاح وكل

الأسرى الآخرين فوق الاحتمال . ولكن من بين كل هذا كنت أذكر بعض الملاحظات التى كان صلاح يحاول أن يخفف بها حدة الضغط خلال موقف ما ، وعندئذ كنت ابتسم للذكرى ، ثم يدفعنى تأجج الذكرى إلى الاستمرار فى الابتسام . كان الإحساس بالعجلة والمسؤولية يقودنى من يوم إلى آخر ومن دولة إلى دولة أخرى . ومن خلال خطاب آخر كتبته لصلاح أخبره فيه أننى قد اختطفت ثلاث ساعات فقط ، كانت بين رحلات الطيران ، وقضيتها فى المنزل بالقاهرة لأحاول أن أكتب خطابا إليه .

كان يبدو من جانبنا أن هناك افتقاراً إلى إدراك مدى إلحاح الموقف ، وبالنسبة لموقف أحمد جبريل كان هناك ما يمكن اعتباره محاولات متأنية من المراوغة والمماطلة كنوع من استعراض القوة والعند نحو الجانب الآخر ، وربما نحو البعض منا الذين كان يعتقد أنهم ليسوا على قدر من الحرص الكافى . ولكننى بالرغم من ذلك أجده محقاً فى سلوكه الرئيسى ومخلصاً فى الاهتمام برجاله .

□ حنكة أحمد جبريل

كنت دائما أجد أحمد جبريل متفهماً ، وقد أعجبت بضربته القوية عندما أعلن أنه قد أمسك بأسير ثالث يدعى « خيزى شاى » لم يكن وجوده قد أعلن من قبل ، الأمر الذى مكنه من أن ينجح فى ضمان تبادل ألف معتقل آخر من الأراضى المحتلة .

كان علينا أن نصر من خلال الشروط النهائية لعملية التبادل فى ٢٣ نوفمبر ١٩٨٣ على الإفراج عن النساء الأسرى ، بالإضافة لهؤلاء الذين صدرت عليهم أحكام طويلة ، والمعوقين صحيا أيضا . وقد نجحنا فى الحصول على معظم مطالبنا ، ولكن العديد من الرجال ، وأغلبهم من منظمة جبريل تم اختطافهم خلال عملية الإفراج ، وهم فى طريقهم إلى المطار ، وأعيدوا بصورة غير شرعية إلى السجون الإسرائيلية حيث مكثوا عاما آخر لم أكف خلاله عن ملاحقة مشكلتهم بشتى الوسائل ، ومن ضمنها محاولة تشكيل لجنة دائمة لمتابعة شؤون الأسرى . وكانت تلك محاولة من جانب اسرائيل للضغط على جبريل للإفراج عن الأسيرين « سالم وغروف » ، وللتعرف على أخبار « خيزى شاى » الذى كانوا يعتقدون أنه أسير فى أحد المواقع السرية ، وعندئذ قام جبريل بزيادة الضغط من جانبه عن طريق عدم السماح لهيئة الصليب الأحمر الدولية بزيارة الصبيين الإسرائيليين .

وفى يوم من أيام الربيع توجهت أنا وأخت أحمد جبريل إلى دمشق ثم إلى لبنان ، ثم منها إلى التلال التى كانت قواته قد احتلتها مرة أخرى ، وذلك لمناقشة آخر التطورات

بالنسبة للأسرى وتسليم رسالة حملتها له . وكان مشهد المكان يزداد كآبة ووحشة كلما تقدم بنا المسير ، حيث كانت الأزهار البرية على جانبى الطريق تبدو وكأنها وجود شاذ فى هذا العالم المحاط بالحرب والدمار .

كان قصف المدافع يتردد صداه فى الوادى العميق ، وبينما نحن جلوس فى شرفة الدار الجبلية ذات الطابق الواحد المنخفض والمغطى سقفه بالقرميد ، والذى كان مركزاً لقيادة جبريل ، إذا بقصف مدوٍّ يطرق أسماعنا أعقبته جلبة وهرج على بعد بضع مئات من الأمتار عند أسفل الطريق . ثم ظهر بعض الرجال يحملون شخصاً على نقالة وشعرت بغصة عميقة مفاجئة فى قلبى تفرضها دائما رهبة الموت ، واندفع جبريل هابطاً نحو رجاله الذين كانوا يحيطون بالنقالة ، ثم صعد إلى أعلى ليؤكد أن الرجل قد أستشهد ـ إنه حدث يومى طبيعى فى مناخ من العنف والاقتتال . ولكن من الطبيعى أن ذلك سيكون قاسياً على إحدى العائلات التى لابد وأنها كانت تنتظر عودة الشهيد الراحل فى مكان ما . وصاحبتنى قسوة هذه الساعة طوال اليوم ، وكأن السماوات قد أظلمت فجأة بالرغم من أن الحشائش ورقعة النباتات المنتشرة فى ذلك الحين كانت خضراء وذهبية تتألق تحت أشعة الشمس .

وقبل العودة إلى دمشق أبديت رغبتى فى رؤية « أبو موسى » الذى كان أحد أعضاء القيادة وصديقا لصلاح ، وكنا نرحب به كزائر دائم التردد على منزلنا . وقد كان ضابطا سابقا فى الجيش الأردنى ، ويتميز بالشجاعة الفائقة ، وشخصية البدوى العربى الحقيقى . ولكنه للأسف كان واحدا من المجموعة التى انشقت عن الجسد الشرعى لمنظمة التحرير الفلسطينية . إلا أنه كان فى الواقع مخلصا لأصدقائه ومعارفه ، وبصرف النظر عن الآراء والظروف التى قد وضعتنا أخيرا فى وجهات نظر متعارضة .

أعلنت رغبتى ، فقال جبريل أنه سيتصل به عن طريق جهاز اللاسلكى ويخبره أننا فى الطريق اليه . وسارت بنا العربة تملؤنى فرحة العودة إلى لبنان ، والدخول إليه من هذا الموقع الجغرافى غير المتوقع الذى كانت بعض فصائل المقاومة قد تقدمت إليه .

كانت طرقات « سوق الغرب » فى ذلك اليوم موحشة حيث انتشرت فيها آثار القنابل والدمار التى شوهت المنازل الجميلة والمبانى ذات الطابع المعمارى اللبنانى الأصيل . ولم يبق فى ساحة الدمار تلك سوى الشجر الذى تتراقص ظلاله على الأرصفة حول المبانى التى شوهها القصف والاقتتال .

وفى أثناء صعودى الدرج إلى الطابق العلوى حيث كان « أبو موسى » منتظرا ،

نظرت من خلال إحدى النوافذ نحو ما كان فى يوم من الأيام حديقة خلفية للمبنى . وكانت الصورة التى شاهدتها تعد تسجيلا شاملا للحرب . إذ كان يمتد حولها سور من الأسلاك الشائكة يذكر المرء بالأسلاك الشائكة فى أنصار وحصارها الفعلى ، وطلقات الاضطراب الصاروخية التى تطلقها تلك الذكرى داخل رأسى ، ورأيت على ذلك السور بعض الملابس الممزقة وقطعا من الخرق القديمة الملونة . . بنية . . وحمراء . . وزرقاء . . . تراكمت فى الحديقة المهجورة ، وكذلك دمية مشوهة معلقة تتأرجح على السلك . كانت دمية طفلة رحلت . . وجهها مرسوم بألوان صارخة وفمها أحمر . . أحمر بلون الدم ورأسها مدلاة وأطرافها خائرة . . كانت مثل اللقطة الختامية فى أحد أفلام « هيتشكوك » . كانت صدى للواقع الذى يحيط بنا جميعا . . ولكن أين تلك الطفلة صاحبة الدمية الآن يا ترى . . ؟

أشحت بوجهى عن المنظر وتابعت صعودى إلى الطابق العلوى حيث رحب بى أبو موسى شخصيا .

تتالت دوامة الأحداث بعد ذلك على الصعيد العام كما على صعيد موضوع تبادل الأسرى ، بحيث تركت ذكرى تفصيلات تلك الفترة بصورة مشوشة فى ذاكرتى .

كنت قد قررت خلال نوفمبر أن ألتقى بأحمد جبريل منذ اعتقاله للجنديين الإسرائيليين « جوزيف غروف ونسيم سالم » ، وكنت بالطبع شديدة الاهتمام بمحاولة تذليل أية عقبات فى قضية الأسرى ، فكلما كانت الصورة أقل تعقيدا ، سهلت الأمور بالنسبة لموضوع « التبادل » . وكنت أظن أنه يمكن عمل الكثير فى هذا المجال بالرغم من عدم تبلور فكرة اتفاق التبادل خلال هذه المرحلة تبلورا كاملا ، إلى جانب أن جبريل كان واحدا من الشخصيات القيادية القليلة لمنظمة التحرير الفلسطينية من مؤسسى الحركة فى ١٩٦٥ الذى لم أقابله أبدا ، ولسبب ما لم تسنح لى الفرصة لذلك فى بيروت . ولكنى منذ تلك اللحظة تقدمت «كالبلدوزر» حسب قول صلاح . وقد خشيت من أن يكون عدم التعرف على جبريل راجعا إلى التقصير من جانبى إلى حد ما . وفكرت مليا فى أن قضية الأسرى يجب أن تناقش معه إلى جانب مناقشتها مع القادة الآخرين ، إلا أن عدم معرفتى به شخصيا كان عاملا محرجا بالنسبة لى .

كان النزاع خلال هذه المرحلة بين القيادة الرسمية لمنظمة التحرير الفلسطينية وبين منظمة جبريل « القيادة العامة » قد أصبح أكثر وضوحا ، لذا فقد شعرت أنه سيكون من المستحيل على أى عضو رسمى من « فتح » أن يلفت نظره إلى أن أى عقبة يضعها سوف تعوق تقدم قضية الأسرى والتعامل معها كقضية فلسطينية تشمل جميع الأطراف .

كانت تهمنى مصداقيتنا وصورتنا فى مواجهة عدو يحاول فى ثبات أن يستفيد من انشقاقنا واختلافنا ، بالإضافة لمواجهة عالم كان يتذرع باستمرار بأنه لا يجد الالتحام والتماسك فى الكيان الفلسطينى ليتحدث ويناقش الأمر معه ، ويتخذ من ذلك ذريعة لإرجاء التسليم بالحقوق الأساسية لشعب بأكمله ويعرض مستقبل الشرق الأوسط كله للخطر . كنت أعتقد أننى أستطيع من خلال حيادى الكامل حيال كلا الطرفين فى المنظمة واحترامى لهما إلى جانب تفهمى لأى إصرار منطقى يظهر من قِبَل جبريل فى مواجهة سياسة العالم المتصلبة نحو قضايانا ، أن ألتقى به وأتحدث معه .

وتم اللقاء فى مكتبه بدمشق بعد الظهر . وكانت مقابلة مثمرة . كان يعلم أن أعداد الأسرى هائلة لم يسبق لها مثيل ، وأن صلاح من بينهم ، وقد عبر عن تعاطفه ومساندته . وفى الحقيقة كان دائما يتحدث عن صلاح بإعزاز وبتقدير خلال لقاءاتنا على مدار العام التالى . وعندما تسلم شريط الفيديو الخاص بزيارة « إمرى » لأنصار ، ومقابلته لصلاح تكرم بعرض الشريط علىّ ، وكانت لفتة منه لاقت أكبر تقدير فى ظرف كان الجميع فيه مشغولين بشتى المشاكل .

أخذت أخبره عن مجهوداتى الشخصية المحدودة فى حملة الإفراج وجمعية مناصرة الأسر التى تكونت فى لندن ، والتى وإن لم تكن قد توصلت إلى شىء هام ، إلا أنها تحاول مع أشخاص ومنظمات أخرى يتعاطفون مع قضيتنا بوضع الحقائق أمام أكبر عدد ممكن من الجمهور . وكنت قد أخذت معى أحد الملصقات التى قمت بتصميمه وإعداده وعرضته عليه ، فتطوع بوضع إمكانيات الطباعة فى منظمته تحت تصرفنا ، بالإضافة لامكانية تصميم أى شىء احتاج إليه فى هذا المضمار . وكنت فى غاية الشكر والإمتنان له . إلا أن عامل المسافة واختلاف الجداول الزمنية ، وما إلى ذلك لم يتح لى أبدا أن أستفيد من فرصة هذا العرض الكريم .

ونظرا لعدم معرفتى الوثيقة به ، لم يكن فى استطاعتى أن أخبره طوال هذه الرحلة بشأن زياراتى « للأرض المحتلة » . وكنت مترددة فى هذه الرحلة أن أخاطر بذكرها ، ولكنى كنت واثقة أنه بذكائه الحاد والوسائل التى تحت تصرفه كان عالماً بالأمر ، وإن كان بلباقته لم يشر قط إلى تفاصيله .

□ عام عاصف

كان العام التالى عاصفاً ، إذ لم يتضمن مفاوضات التبادل فقط ، ولكن شهد حدوث الانشقاق فى صفوف منظمة التحرير الفلسطينية خلال شهر مايو ، الأمر الذى دفع

بجبريل إلى موقف معارض ومضاد تماماً لعرفات وغالبية القادة مما أدى إلى قيام اقتتال حقيقى مرير . ولم تكن هناك ـ كما ذكرت ـ فرصة أو مدخل لإعلان أو مناقشة أمر الزيارات .

وقد ذكرت له أننى قد قمت بزيارة الأسرى الستة الآخرين الذين فى قبضة فتح ، وأننى سوف أكون شاكرة لو مكننى من زيارة الاثنين اللذين فى قبضته .

وقلت له إنه لما كان من سياسته ، فى ذلك الوقت ، عدم السماح لهيئة الصليب الأحمر الدولية أن تقوم بزيارة الأسيرين لحين قيامها بتقديم أنباء رسمية بشأن رجالنا فى أنصار والمناطق المحتلة ، فمن الأفضل لو استطعت أن أؤكد للجميع أنهما بخير ، وهذا لن يؤثر على موقفه القوى . وقد كنت أحمل له التقدير الصادق ، حيث شرحت له بصدق ، وبساطة كيف أن زيارتى تلك وتأكيدى للعالم أن الأسيرين بخير سوف توضح لهم صورة أخرى لشخصيته غير تلك الصورة السائدة حاليا من أنه رجل عنيد وفظ .

وقد وافق ووعد بالقيام بالترتيبات اللازمة لهذا اللقاء فى الحال . وأخبرته أننى سأظل على اتصال ربما من خلال « فهمى » الذى كان نائبا لصلاح فى منظمة الأشبال فى بيروت . كما أننى سأعود عندما تكون الزيارة قد أصبحت ممكنة .

تصادف أن الأمر قد أخذ يتقدم فى تثاقل حتى شهر مارس من العام التالى . ولم يكن التأخير بالنسبة لما كنت أسعى إليه يرجع إلى أى مساومات أو اشتراطات حسب تقديرى ، ولكن لم يلبث أن بدأ الجميع وحتى الأسرى ، يعتبرون جبريل مسؤولا مسؤولية كبرى عن جمود عملية المفاوضات . وكانت خطاباتى الشخصية لصلاح سواء تلك التى أرسلتها ، أو الخطابات الأخرى التى احتفظت بها كمرجع لهذه الفترة تفيض بالإحباط من جراء تلك المماطلة العامة والتسويف ، التى كنت أعرف أنها خلال مرحلة معينة تعرقل سير العملية بأسرها وبلا مبرر .

لكننى لم أفقد قط إيمانى ورجائى فى الله سبحانه وتعالى . ولم أعتقد أن الأخ أحمد جبريل سيخل بوعده لى . وبالفعل لم يفعل والتزم بوعده حتى النهاية .

خلال اجتماع منظمة التحرير الفلسطينية فى فبراير بالجزائر ، قابلت جبريل مرة أخرى لأضع أمامه تلك الصورة البشعة للأحوال فى أنصار ، وقد نقلت إليه أنه يعتبر مفتاح هذه القضية ، كما كان يدرك هو ذلك بدون شك .

من المعروف أن جبريل كان دقيقاً وصلباً . وحاولت إقناعه بأن ما كنت آمل فيه ليس أن يلين أو يستسلم لضغوط العدو ، وإنما أن يبدى قدراً من المرونة ستكون فى النهاية لصالح رجالنا . ووعد بأن زيارة الأسيرين الإسرائيليين سوف يتم ترتيبها فور عودته لدمشق من ليبيا . وقد استغرق تحقيق ذلك نحو أسبوعين . لكن الأسبوعين بالنسبة لى وللمعتقلين فى أنصار ولأسرهم ، لا يقاسان بالمقاييس الزمنية العادية ، وإنما بمقياس مضاعف بل مُركّب .

وقلت فى خطاب كتبته إلى صلاح فى فبراير ١٩٨٣ : « أهم شىء الآن هو أن يفى جبريل بوعده قريبا وقد ازدادت المسألة تعقداً من جراء أن ابن أخت جبريل الشاب « مراد بشناق » وقع فى قبضة الإسرائيليين فى لبنان ، رغم أن جبريل لم يضع أبدا خلال مفاوضات التبادل أى شروط خاصة تتعلق بقريبه ، غير ما ينطبق على باقى الأسرى».وقد حدث أن أُطْلِقَ سراح « مُراد » مع الألف سجين الذين تفاوض جبريل بشأنهم فى عملية تبادل منفصلة ، وبعد الإفراج عن أسرى أنصار وعددا من سجناء الأرض المحتلة وبين عمليق التبادل قام بإرسال خطاب إلىّ لأقدمه إلى صلاح كان نصه :

« الأخ المناضل صلاح التعمرى
اللجنة القيادية لمناضلى أنصار المحررين
الرفاق المناضلين المحررين من معتقل أنصار ، وسجون العدو الصهيونى فى الأرض المحتلة .

إننا نتوجه بالتحية لكم والاعتزاز بصمودكم فى معارك لبنان ، وفى معتقل أنصار ومعتقلات العدو الصهيونى فى الأرض المحتلة ، ونشارك شعبنا الفلسطينى الاعتزاز بكم وفرحته بتحريركم وعودتكم إلى صفوف ثورتكم ومتابعة دوركم النضالى فيها حتى إستعادة كل حقوق شعبنا المغتصبة فى عودته إلى وطنه وتقرير مصيره على أرضه .

إننى باسمى وباسم اللجنة المركزية للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ـ القيادة العامة ـ ومكتبها السياسى إذ نعبر عن اعتزازنا بنضالكم وصمودكم الذى أصبح مثالا يحتذى به لجميع الثوار الفلسطينيين ، نهنئكم ونشعر وإياكم رغبتكم الملحة فى العودة إلى ساحة الصدام الأساسية فى لبنان لمتابعة العمل المشرف الذى اعتقلتم وحررتم من أجله فى مواجهة العدو الصهيونى الذى لا يزال يحتل لبنان ، ويتنكر لحقوق شعبنا الوطنية ، واضعين كل ما يلزم لتحقيق غايتكم النضالية هذه ، لمتابعة نضالكم الذى بدأتم به سويا حتى النصر .

وما يحز فى نفوسنا أنه لا يزال عدد من أبطالنا فى معتقلات وسجون العدو من معتقلى أنصار وغيره ، نعاهدكم ونعاهدهم بأننا سنتابع العمل الدؤوب من أجل إطلاق سراحهم وتحريرهم ليمثلوا موقعهم النضالى فى ثورتنا الفلسطينية المظفرة .

تحية لجميع أبطالنا المحررين ، وتحية لنضالهم على طريق إستعادة كامل حقوق شعبنا الوطنية .

تحية لصمود أبطالنا فى سجون العدو الصهيونى

وإنها لثورة حتى تحرير الأرض والإنسان » .

أحمد جبريل
الأمين العام للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين

وعلمت حينذاك أن الجبهة الديمقراطية أيضا قد أمسكت برهينة من أحد الإسرائيليين الدروز يدعى « سمير » . وبناء على ذلك اتصلت بالجبهة حيث استقبلونى بحفاوة وأخوة ، ووعد « ياسر عبد ربه » نائب « نايف حواتمه » أن أسيرهم سيتم وضعه تحت تصرف فتح وبلا شروط ، عند اللزوم ، وهكذا أبعدت عقّبة أخرى من الساحة . وقد شعرت بالسعادة لاستطاعتى الإمساك بمعظم الخيوط معا بخلاف أى من الوسطاء الآخرين ، وبناء عليه أكون فى موقع أفضل بالنسبة لتنسيق الأمور والدفع بعجلتها للأمام .

وقد تم تأكيد هذه النقطة ، وذلك الموقف الطيب لى فيما بعد عندما التقيت بنايف حواتمه شخصيا فى الجزائر .

□ الحــل الوحــيد

كنت احتاج الآن إلى المزيد من فضل الله وحمايته وأن يمنح الصبر لمن فى أنصار إذ أن الموقف قد بلغ حد الغليان ، وقد يتفجر الموقف فى أى لحظة . وللأسف كان الخلاف بين الفصائل قد بدأ ينعكس داخل المعسكر ، ولو بنسبة ضئيلة مما جعل مهمة صلاح معركة جبارة للحفاظ على الوحدة ، وتحويل الخلافات الداخلية نحو العدو المشترك .

بعد ذلك بفترة وفى خلال شهر يوليو كتب صلاح يقول لى :

« الحل الوحيد هو تصعيد المشاعر نحو العدو وبصرف النظر عن النتائج » .

وفى نفس المضمار كتب يقول لأبى عمار :

« لابد وأنك بدون شك قد سمعت ما حدث فى أنصار . وكل ما أتذكره بشأنها والذى يسبق واقعة انتزاعى منها بالقوة هو الخيام المشتعلة والأغانى الوطنية . ثم ذلك الصمت التام فى أنصار ، كما فى الزنزانة الانفرادية التى تمت إعادتى إليها .

كل ذلك يرجع بالكامل إلى المماطلات بالنسبة للأسيرين الاثنين ، بالرغم من كل التوضيحات التى قدمناها والتحذيرات بشأن حقيقة الوضع ، وكل مجهوداتنا الهائلة للتماسك والحفاظ على وحدة الأسرى ومعنوياتهم أيضا . وإننى لا أعرف ماهو الموقف فى الوقت الحالى ، ولكن هل يجوز السماح بانهيار كل هذا الذى اجتهدنا وكافحنا من أجل بنائه . إننى يمكن أن أعتبر ذلك كارثة قومية تسببت فيها السياسة الصهيونية بالإضافة إلى بعض المسؤولية التى تقع على عاتق البعض منا . وأننى آسف إذا كانت كلماتى عنيفة بعض الشىء ، ولكننى أعرف أنه لو كان لدى الجميع ما تتمتع به أنت من حساسية وبعد رؤية لم نكن لنواجه مثل هذا المصير اليوم .

لقد أخبرتنى « دينا » أنها قد قامت بزيارة الأسرى الاثنين ، ولكننى لا أستطيع أن أستمر فى تعزيز مركزنا داخل أنصار على مجرد الوعود ، إذ أن الأمر يتعلق بالآلاف من المدنيين كما يشمل أيضا تلك الكوادر التى تشعر أنها قد خُذلت .

أنك أنت الشخص الوحيد الذى يستطيع أن يقوم بالمبادرة المناسبة ، فإن الأسلوب الذى يتم به الآن تناول المشكلة ماهو إلا أحد الأساليب العقيمة غير المنطقية .

إن أنصار هى مصدر قوة بالنسبة لك فلا تجعلها تصبح عبئا عليك » .

وفى شهر مارس كتبت لصلاح أقول :

« إن السباق مع الزمن ومع كل ثانية تمر يعتبر شيئاً مفزعاً ، وأتمنى ألا أخذل فى النهاية ، إننى لا أستطيع أن أشرح لك بالتفصيل هذا السباق الذى تحركه رغبتى فى أن أجنبك كل ثانية من المعاناة ! فحتى التنفس إن لم يكن وظيفة عضوية تلقائية لما كان هناك

وقت للقيام به ! صدقنى . . . إننى لا أبالغ ولكن لا شىء يصعب علىّ بالنسبة لك . . وفى سبيل المحافظة على كرامتكم جميعاً ، وإننى أتمنى لو كان رصيدى من القوة والجهد أكبر مما أملك حتى أضعه أيضا تحت تصرفك وتصرف الإخوة المعتقلين » .

وفى محاولة لتوضيح مدى اهتمامى الدائم من أن التعاملات فى كل الجوانب يجب أن تحافظ على الأبعاد الإنسانية ، سألتقط فقرة من إحدى الاتصالات الهاتفية لى مع آهارون بارنيع تمت فى نوفمبر ١٩٨٢ أقول له فيها :

« لماذا يحاول الآخرون أن يبدأوا من جديد شيئا قد بدأناه نحن بالفعل ، وقطعنا فيه شوطاً ؟ » .

وفى مكالمة لى بعد ذلك قلت :

« لا أتحمل أن ينقلب الأمر كله إلى مشهد تمثيلى أو حديقة حيوانات أو سيركا ، ذلك ومع احترامى للجميع إذ أن رجالنا من ناحية محتجزون وراء الأسلاك كالدواب فى حديقة الحيوان ، وأنتم ، أولادكم إذا لم تتقدم المفاوضات سيكونون عرضة بالضرورة للمزيد من التشهير ، مما سوف يؤدى إلى أن يصبحوا أعضاء فيها « يشبه السيرك » !

فقال مؤيدا :

« نعم إن هذا قد يصبح مثل المزايدة فى أحد الأسواق من أجل رطل من الطماطم » .

فقاطعته قائلة :

« من الغريب أن تقول أنت ذلك ، لأننى كنت الآن أفكر فى أننى أشعر - بالنسبة لموقف رجالنا - أننى أجوب الأسواق بسلة من الطماطم التالفة التى لا يرغب فيها أحد ، والتى هى بالنسبة إلىّ بضاعة أثمن من أن تتعرض لمثل هذه اللامبالاة » .

كان هذا ما دفعنى لأن استمر وفى إصرار فى الضغط عن طريق محاولاتى الشخصية ، إذ أننى أتطلع إلى أكثر من الحرية كنتيجة لمعاناة معتقلينا وأسرانا ، فقد كنت معنية قبل كل شىء بكرامتهم ووحدتهم الى جانب سلامتهم وراحتهم البدنية والذهنية . كنت أتمنى الحرية لكل أسير .

٩ الطريق إلى مفاوضات التبادل

بمجرد انتهاء جلسات المجلس الوطنى الفلسطينى ، توجهت من الجـزائر إلى لندن . وتصادف أن كانت عاليه هنـاك لقضاء بضعـة أيام . تبـادلت معها الأخبار بلهفة وشوق لدى وصولى . وكان والدها الملك حسين فى زيارة قصيرة للندن هو الآخر ، فتحدثت معه طويلا ، وكان موضوع المعتقلين من أهم الموضوعات التى تطرقنا إليها فى الحديث .

مرت أيام فبراير متثاقلة وجاء مارس ، والموقف لا يزال متأرجحاً ومائعاً والأسرى يضجون بالشكوى . سافرت إلى عمان مع ابنتى ، ومن هناك توجهت إلى دمشق . كان الأخ أحمد جبريل قد تأخر فى طرابلس ، ولم يكن بوسعى أن أفعل شيئا ذا بال فى غيابه ، إلا أننى سعدت بلقاء بعض مساعديه الذين أبـدوا اهتمامـا حقيقيا بقضيـة المعتقلين . وعرفت أن كثيرين منهم قد أمضوا فترات طويلة فى السجون الإسرائيلية . قالوا بتعاطف : « إننا نعلم جيدا ما هو الأسر » . وحين التقيت بهم فى المرتين التى زرت فيها الرهينتين أثرت فىّ إنسانيتهم وموقفهم من الأسيرين . ومع ذلك فقد كان علىّ أن أقضى كثيراً من أيام القلق ومن ساعات السفر ، وأن أقـوم بثلاث رحـلات أخرى ، عـلى الأقل ، إلى دمشق ، قبل أن تتاح لى فرصة الالتقاء بالأسيرين الإسرائيليين .

فى مارس توجهت مرة أخرى إلى الأرض المحتلة ، يحدونى هدف أساسى هو محاولة التوفيق بين القوائم الثلاث ، ذلك أن نجاحنا فى التقريب بينهـا لتصبح متـطابقة قـدر الإمكان كان يعنى خطوة جديدة لحسم هذا الموضوع الذى طال مداه دون نتيجة محددة . وكنت قد أرسلت ، قبل ذلك بثلاثة شهور ، قائمة أحمد جبريل ، ولكنه اعتبر الرد الذى تلقاه غير كاف ، وطلب باصرار معلومات جديدة عن رجاله المفقودين . كنت أعلم أن

صلاح لن تسره هذه الرحلة ، ولكن لم يكن هناك مناص من الذهاب ، إذ كانت لدى صلاح أدق وأكمل قائمة بمعتقلى « أنصار » وكانت لدى آهـارون القائمـة المتقدمـة من « قوات الدفاع الإسرائيلية » ، بينما كنت أحتفظ بنسخة من قائمة أحمد جبريل ، الذى اشترط الحصول على معلومات محددة عن رجاله المفقودين قبل السماح للصليب الأحمر بزيارة الأسيرين الموجودين لديه .

بعد وصولى ، وبعد رحلة مضنية ومثيرة قضاها صلاح فى الطريق من أنصار معصوب العينين مكتوف اليدين ، تحدثت معه طويلا دون أن نتمكن من إنجاز عملنا فى مطابقة القوائم ، فأرجأنا استكمال المناقشة إلى اليوم التالى . وبينما كانوا يقتادونه ليعودوا به إلى المعتقل ، نظرت إليه طويلا وهو يجتاز الدهليز مرة أخرى خلال إحدى الرحلات التى كنا جميعا نمثل خلالها وكأننا فى جو الحرية ، وقد أحاط به حراسة عن كثب . . وحاولت أن أكتم مشاعر الغضب ، إذ كنت أترقب رؤيته فى اليوم التالى .. ولكن اليوم التالى حمل مفاجأة لم تكن فى الحسبان ، ذلك أنهم لم يأتوا بصلاح . فلنزوة غريبة اجتاحتهم اعتبروا حضوره ولقاءه بى مرة ثانية أمرا غير ضرورى . استولى علىّ الغضب والإحساس بالمهانة ، وقلت لآهارون وآماليا ، اللذين كنت أجلس فى بيتهما : « لن أرحل ، فأنا لا أعرف ماذا سيترتب على ذلك . . لكننى أرفض أن أكون آلة يحركها الآخرون » . وأجرى آهارون محادثة تليفونية حادة مع شخص ما من المسؤولين . وجاء صلاح ، واستكملنا مراجعة القائمة ، وتحدثنا عن الخطوة التالية التى ينبغى اتخاذها مع وضع كل الاحتمالات فى الحسبان . وأكد لى صلاح مرة أخرى أن خطورة الموقف تقتضى المبادرة إلى التحرك دون إبطاء ، وهو ما سبق أن أكده لى فى خطاباته . ولم أكن بحاجة إلى تذكير ، فقد كنت أبذل كل ما فى وسعى ، وأعطى كل جهدى فى سبيل تحقيق هذه الغاية .

لكن شهر مارس كان شهرا صاخباً فى معتقل أنصار ، إذ تتابعت فيه احتجاجات المعتقلين واحداً إثر الآخر ، ونقلوا صلاح مرة أخرى إلى الحبس الانفرادى فى « جاديـرا » واستبد القلق بالإسرائيليين خوفاً على جندييها المفقودين . ومع ذلك فقد كنا على مشارف مرحلة جديدة ، كنت أرجو أن تسير فيها الأمور دون مزيد من المعوقات . وكنت أنوى التوجه إلى الولايات المتحدة للالتقاء بالجاليات العربية والفلسطينية هناك ، لكننى حين وازنت الأمور قررت أن وجودى فى المنطقة بقرب الأحداث ومتابعة موضوع المعتقلين سوف يكون أجدى كثيرا .

□ زيارة الجنديين المفقودين

وأخيرا لاحت أولى بوادر الانفراج التى أدّت فعلا إلى بدء المفاوضات لإطلاق سراح المعتقلين . فقد أبلغونى ، خلال إحدى زياراتى العديدة لدمشق ، أن الترتيبات قد اتخذت لزيارة الأسيرين الإسرائيليين .

وكانت فرحتى كما كان تفاؤلى كبيرين لدى سماعى لهذا النبأ ، لكن كل ما حدث بدا أشبه بالحلم . فقد تعلمت من النكسات الكثيرة التى حدثت قبل بلوغنا هذا المنعطف ، ألاّ أنخدع بالأمانى ، وألاّ أصدق إلا ماأراه يحدث أمامى فعلا .

هكذا تعددت رحلاتى إلى دمشق . وتعددت المكالمات الهاتفية وأقداح القهوة فى الفنادق مع مَندوبى الصليب الأحمر . . وتعددت زياراتى لأبى جهاد فى بيته ، ولأحمد جبريل فى مكتبه . وبين الشد والجذب واليأس والرجاء تعاقبت الفصول . فتارة أصادف فى رحلتى الشتاء بجليده وقتامته ، وأحس بصدى مشاعرى تردده الأرض البركانية السوداء المحيطة بمنطقة « الشيخ مسكين » فى منتصف الطريق بين عمان ودمشق . وتارة أخرى أتوقف كى أتامل زهور الربيع من الأقحوان وشقائق النعمان والسوسن ، فى الطريق بين عمان وجرش . وتارة ثالثة أرنو إلى زهور المشمش والتفاح بلونها الزاهى فى بساتين الغوطة ، وأحس أنها موشكة على الذبول مثل آمالى .

توجهنا بالسيارة إلى حيث كان يوجد الأسيران الإسرائيليان . ولست أستطيع بطبيعة الحال ـ بدافع من الأمانة ـ أن أصف تفاصيل الطريق ، أو أفصح عن المكان حرصاً على أمن أشخاص وثقوا بى كل هذه الثقة ، وشعرت تجاههم بتقدير وامتنان بالغين حتى قبل رؤيتى للأسيرين . انتظرنا بضع دقائق قبل أن يفتح الباب ، ولابد أننى كنت غارقة فى أفكارى إذ وجدت أمامى فجأة شاباً نحيلا طويل القامة يميل إلى الشقرة ، إنه جوزيف (يوسكا) غروف كما عرفت بعد قليل .

جلسنا وبدأنا نتحدث ، كان يرتدى الملابس الرياضية وينتعل جذاء من المطاط ويبدو بصحة جيدة ، مثل الستة الآخرين الذين قابلتهم قبل بضعة شهور . عرفنى بنفسه بدمائه متحدثا بانجليزية لا بأس بها ، لكنه كان قلقا على عائلته التى لم تكن تعرف على الأرجح شيئا عن مصيره نظراً لعدم السماح للصليب الأحمر بزيارته حتى ذلك اليوم .

اكتشفت خلال حديثنا أنه يهوى القراءة ، وقد اخترت له فيما بعد بعض الكتب



الأميرة دينا فى زيارة للأسير الاسرائيلى « جوزيف غروف » (١٩٨٢) .

وأرسلتها إليه بموافقة المسؤولين . واستغرقت الزيارة نحو عشرين دقيقة حاولت خلالها أن أطمئنه بأن الجميع يسعون بجد من أجل إطلاق سراح الأسرى والمعتقلين ، وبأننا نأمل أن يحدث ذلك فى وقت قريب وأنه ليس ثمة داع للقلق أو اليأس . لكننى حرصت أن أوضح له بلطف أن موقف حكومته المتعنت يشكل إحدى العقبات التى تسبب الأذى والقلق لمئات ، بل آلاف ، من السجناء والمعتقلين العرب وعائلاتهم . أردت بذلك أن أوضح له الصورة وأؤكدها دون أن أثقل على من كان أسيراً لا حوله له ولا طول .

لم أتمكن فى ذلك اليوم من مقابلة الأسير الثانى « نسيم سالم » فقد كان مريضاً . وقد أبلغنى المسؤولون عن الحراسة أن الجنديين الأسيرين كانا يقيمان معاً فى البداية ، إلا أن الاختلاف بين طبائعهما ومستوى تعليمهما ، جعل « غروف » يصاب بالضيق والتوتر ويطلب أن يبقى بمفرده .

وقد تأكدت لى صحة هذه الأخبار من « غروف » نفسه خلال زيارة لاحقة ، إذ أكد لى أن « نسيم سالم » قد أصيب باضطراب عصبى ، وأصبح عدوانيا . كما علمت أن طبيباً عربياً متخصصاً فى الأمراض العصبية يتولى علاجه . وقد حاولت بعد ذلك ، كما سعت اللجنة الدولية للصليب الأحمر ، إلى تدبير زيارة سريعة لأحد أطباء الصليب الأحمر . ولكننى علمت فيما بعد أن « نسيم » سبق أن أصيب باضطرابات نفسية قبل أسره . وهو يعيش فى أمان الآن وبعد الإفراج عنه فى كنف أسرته .

تطلّب ترتيب الزيارة التالية مدة أطول ، وشملت هذه المرّة الأسيرين معاً . حين دخل « سالم » إلى نفس الحجرة التى سبق أن التقيت فيها « بغروف » ، بدا الفارق بين الشابين واضحاً . كان يرتدى نفس الزى الرياضى . ولكن على خلاف « غروف » النحيل الأشقر الشعر ، كان « سالم » ضئيل الجسم أسود الشعر . علمت أنه ينتمى لأسرة مصرية الأصل من اليهود كانت تقيم بالاسكندرية . وبدأنا نتحدث فى هذا الموضوع . تطرقت فى حديثى إلى هويته لعلنى أجد نوعاً من الأرضية المشتركة حتى أبعث فى نفسه قدراً ، ولو ضئيلا ، من الاطمئنان . كان « سالم » لا يجيد الانجليزية كما كان إلمامه بالعربية محدوداً ، فلم يكن الحديث سلسا معه كما كان مع « غروف » . لكن المهم أنه كان بحالة طيبة وكان يبتسم .

أما « غروف » فقد بدا خلال هذه الزيارة الثانية أكثر قنوطاً . إذ كان يعتقد ، مثلنا جميعا ، أن الأمور تسير ببطء شديد . حدثنى عن كتاباته وأنشدنى قصيدة يحكى فيها كيف حلم ذات يوم بأنه أصبح حراً ، ثم استيقظ ليجد نفسه شاخصاً إلى المصباح الكهربائى فى حجرته ـ حجرة الأسر ، وكم ذكرنى هذا بأحلام صلاح فى زنزانته .

قال غروف :

حلمت ذات مرة حلماً سعيداً ،
مالبث أن غدا مريراً وكئيبا ،
ذاب كما تذوب قطعة ثلج فى الصحراء ،
وإذا بى قابع فى جحر ،
يغمره ضوء كشمس الظهيرة
فى صيف القطب الجنوبى

يحكى صلاح فى مذكراته عن أحلام كان يرى نفسه فيها يلعب كالطفل حراً طليقاً ، ويرى أمه وقد جاءت لزيارته وتشجيعه . وذات مرة وبعد أن توفيت والدتى وقبل أن يبلغه نبأ وفاتها ، رآنى فى الحلم وقد ارتديت ملابس الحداد السوداء . أما أكثر الأحلام التى

أثارت ألمى وإشفاقى حين رواها لى ، فكان حلمه ذات مرة بفرس مرسومة فى كتاب تركه على مكتبه فى صيدا . . تحركت الفرس على صفحة الكتاب ثم تركت الصفحة وهو على ظهرها وانطلقت محلقة كالسهم حتى بلغت الشمس والحرية ، وإذا به يستقيظ فجأة ليجد أن أشعة الشمس الوهاجة التى رآها فى الحلم ، ليست فى الواقع سوى ضوء مصباح الفلوروسنت فى زنزانته !!

رأيت الأسيرين للمرة الثالثة والأخيرة حين زرتهما برفقة فريق من رجال الصليب الأحمر والطبيبة السويسرية التى حضرت لزيارة الأسيرين . كانت أمسية لاتنسى ، إذ أوشكت فيها أن أفقد حياتى فى حادث ولم يكن ذلك للمرة الأولى ! فقد قفزت السيارة وتوقفت فجأة ، واكتشفنا أننا على شفا حفرة عميقة . . نجونا . . وخرجنا . . كان القمر بدراً والنسيم يداعب أغصان أشجار الفواكه . أخذنا نتبادل الحديث ، وكانت فرصة تعرفت فيها على الطبيبة الرائعة . ظلت أعصابنا مع ذلك مشدودة ، وعيوننا على عقارب الساعة خشية أن نتأخر عن الموعد المحدد ، فلا يسمح لنا بمقابلة الأسيرين فى تلك الليلة . كان الإفراج عن أبطالنا فى أنصار مرهونا بهذه الزيارة . . أما متى تتاح لنا فرصة أخرى للزيارة فأمر فى عالم الغيب . لكن الأمور انتهت ، والحمد لله ، على خير إذ أمكن سحب السيارة وسرعان ما كنا فى طريقنا .

كنت آمل ـ وسعيت بكل جهدى ـ أن يكون هذان الأسيران ضمن أول دفعة لتبادل الأسرى ، لكنهما ظلا محتجزين عاماً آخر ، حتى تم تبادلهما مع أسير آخر يدعى خيزى شاى مقابل ألف سجين عربى فى الأراضى المحتلة فى الصفقة الرائعة التى أنجزها أحمد جبريل . وشملت تلك الصفقة أيضا « أكو موتو » عضو منظمة « الجيش الأحمر اليابانى » الذى نفذ عملية مطار اللد فى عام ١٩٧٢ .

□ الموقف يغلى فى أنصار

فى هذه الأثناء كان الموقف يغلى فى أنصار . ففى ١٨ أبريل ، قاموا بنقل أعضاء اللجنة إلى سجون الداخل . وبدأت المظاهرات ، ولم تتوقف إلاّ بإعادة أعضاء اللجنة إلى المعتقل . وقد سمعت تفاصيل كثيرة عن هذه الأحداث من الذين شاركوا فيها . وتلقى صلاح بعد عودته رسالة تقدير من معتقل يدعى « أبو رضا » .

فى أعقاب زيارتى لأحمد جبريل والأسيرين الإسرائيليين « غروف وسالم » ، أخبرت بأن قيامى بزيارة أخرى للأرض المحتلة قد يؤدى هذه المرة الى تحرك حاسم فى موضوع التبادل . لم تكن تلك باللحظة التى يتوقف فيها المرء ليسبر حقيقة مشاعره ، ومع ذلك فقد

ساورنى قلق بالغ . إذ كنت أعلم بمدى الاستياء الذى سيشعر به صلاح حين يعلم بالأمر وبأنى على وشك القيام بزيارة أخرى لأرضنا السليبة . كل ما كنت آمل فيه أن تكون النتيجة النهائية متناسبة مع كل ما تحملناه من مخاطر وآلام ، ذلك أن زياراتى وما كانت تسببه لصلاح من ألم ممعن لاتزال عالقة بذهنه حتى اليوم كأسوأ ذكرى تلازمه من فترة الاعتقال .

سافرت فى ٢٤ أبريل ، كان يوماً ربيعياً مشرقاً ، تألق البحر المتوسط فيه بزرقة لازوردية موشاة بضياء الشمس الذهبية ، تماما كما كان فى صيدا يوم الغزو حين داهمتنى الأحداث المروعة من كل جانب ، والانطباعات والحقائق المتضاربة ، الغزو والدمار ، ووجود صلاح الملموس المطمئن بعد تغيبى عنه فترة ، والأخطار المحدقة بنا على كافة المستويات ، ومفارقة حضورى فى ذلك الوقت بالذات بما استتبع ذلك من قلق بالنسبة له . . كل هذا أمام الخلفية الهادئة للبحر الذى شهد على امتداد القرون الكثير من الأفراح والأتراح ، وينطوى فى صمت على ما شهده من أسرار وأحداث .

ذهبوا بى تلك المرة إلى فندق وسط المدينة ، وكان أفضل فندق أقيم فيه خلال الزيارات التى قمت بها حتى الآن . لكن آهارون لم يكن موجوداً فى المطار . . هل يقدر لى أن أرى صلاح ؟ لم أدر إلى أى شىء يمكن أن تتجه آمالى . ولكن عادة ما يكون الوقت فى هذه الرحلات القصيرة مشحوناً لا يتيح للمرء الإغراق فى التكهنات ، فلا يملك سوى أن يضغط مشاعره فى كل مرة يواجه فيها مثل هذه المواقف الصعبة . أبلغونى أننى سأقابل شخصا بوسعه أن يقدم إجابات نهائية للبدء فى حل موضوع الأسرى .

صعدت إلى أحد الطوابق العلوية ، وجلست أمام مائدة للاجتماعات مع ثلاثة رجال سبق لى أن التقيت بهم أثناء التعرف على الصور الفوتوغرافية للأسرى ، وخلال عملية مطابقة القوائم والتحقق منها ، وفى المطار ، كانوا جميعا أعضاء فى قسم شؤون عائلات الأسرى (فى الجيش الإسرائيلى) . قالوا إن عائلات جنودهم المفقودين قد « أحالت حياتهم إلى جحيم » وذلك من خلال مراجعاتهم التى لاتكل بالنسبة لأولادهم . ومهما كان محتملا أن يحدث من اللغو فى هذا الوقت بالنسبة لاتصالى بأفراد من العدو ، فلم أعر الأمر أهمية إذ كانت الفرحة المرتقبة لرؤية الآلاف من أسرانا أحراراً ، والسجون الإسرائيلية مفرغة توازى بالنسبة لى أى ثمن وأى نقد من الممكن أن يلحقنى ، وذلك رغماً عن يقينى بضرورة مجهودى وصحة خطواتى وتصرفاتى .

كان الشخص الرابع الذى انضم إلينا هو السيد « مارينسكى » ، الذى زار « أنصار » مرة والتقى بصلاح ولجنة الدفاع عن الأسرى وحذرهم وأنذرهم من جراء

تظاهراتهم ونشاطهم . وعلى الرغم من أننى كنت أبذل جهـودى « متطوعـة » فى المقام الأول ، فقد اعتبرت نفسى - انطلاقا من قناعتى الشخصية - جزءا من فريق « الإفراج » ، لاسيما بعد أن بارك أبو عمار وأبو جهـاد جهودى وطـالبانى بـإلحاح بـالاستمرار فيهـا ، واستجابة منى لنداء « أنصار » الصامت وإن كان أبلغ من كل كلام .

استهل السيد « مارينسكى » الاجتماع معربا عن تقديره البالغ لجهودى ، مؤكداً أننا جميعا نعمل فى سبيل غاية إنسانية ، ثم استشهد ببيت من السوناتا الرابعة لشكسبير :

ليكن اللقاء بين العقول الصادقة
دون عوائق . .

وأحجمت عن الرد بأبيات أخرى لشكسبير استعدتها فى ذاكرتى ، تقول :

فلنكن خصوماً شرفاء
نتقاتل ببسالة ، ونجلس إلى المائدة كأصدقاء

ضايقنى أن أعلم بعد ذلك أن عائلات الأسرى الإسرائيليين لم تتلق بعد ما يطمئنها على أبنائها . كانت « السرعة السلحفائية » للجهاز البيروقـراطى فى كل مكـان تفرض نفسها على كل شىء ، وتطحن حياتنا جميعاً .

بعد أن طرحت بعض الأفكار الأولية ، بدأ السيد مارينسكى فى الحديث ، عن العرض المقدم من جـانبهم ، والذى يتلخص فى استعـدادهم للنظر رسميـا فى إجراء مفاوضات من خلال اللجنة الدولية للصليب الأحمـر بشأن تبـادل الأسرى والمسجـونين والجنود الاسرائيليين المفقودين ، مؤكداً أن المفاوضات لابد أن تشمـل مناقشـة مصير هؤلاء الجنود المفقودين . وأوضح بعد ذلك أن هذا « الاستعداد للنظر » لايعنى بحال من الأحوال قبولهم للشروط الواردة فى رسالتنا التى نقلت إليهم . وأضاف أن هذا « الاستعداد للنظر » لاينم بحال من الأحوال عن اعتراف - مباشر أو غير مباشر - بمنظمة التحرير الفلسطينية من جانب حكومته ، وأن المناقشات سوف تجرى بالتالى فى « إطار إنسانى بحت » .

أما مطالبنا فشملت الإفراج عن جميع معتقلى أنصـار، ١٢٥٠ سجيناً فى سجـون « الداخل » ، وتسليم أرشيف مـركز الأبحـاث الفلسطينيـة الذى استـولى عليه الجيش الإسرائيلى من مقر المركز وحمله معه عند انسحابه من بيروت ، وأن تقوم اللجنة الدولية للصليب الأحمر بإخطار منظمة التحرير الفلسطينية رسمياً بموافقة الطرف الآخر على كفالة حق البقاء فى لبنان للراغبين فى البقاء فيه بعد الإفراج عنهم .

□ حرص يثير الضجــر

وعلى الرغم من أن كل شيء بدا واضحاً ، فقد كان حرصهم على صياغة العبارات بلغة قانونية محكمة كفيلا بإثارة ضجر الإنسان العادى ونفاد صبره . وقد تمسكنا نحن بنفس الحقوق فيها بعد ، وكنا فى ذلك على حق أحيانا ، ولكنه أدى فى أحيان أخرى إلى تسويف لامبرر له ، وإلى إطالة أمد معاناة الأسرى والمعتقلين ، وهو مادفع صلاح لأن يكتب لى قائلا : « لماذا يحاول الذين فى الخارج أن يهدموا ما بنيناه هنا بدمنا وعرقنا » . وفضلا عن ذلك ، كنت من جانبى قد مللت تذكيرهم لنا مرة تلو الأخرى بأن هذه الاتصالات الإنسانية لاتعنى بحال من الأحوال الاعتراف بمنظمة التحرير الفلسطينية ، إذ كنا نشعر أن ما نبذله من جهود ، وسيرنا فى الشوط إلى هذا المدى لا يعنى على الإطلاق أى اعتراف من جانبنا بإسرائيل ، أو أننا نقر ما استخدمته من أساليب تعسفية بل إجرامية فى لبنان أو ضد المعتقلين .

توجهت بالطائرة إلى تونس لأعرض المقترحات على أبى عمار ، وكان موقفه لماحاً وإيجابياً للغاية إذ قال : « موافق . . سيرى على بركة الله » . وسرد مرة أخرى شروطه قائلا : « شروطى هى الإفراج عن أنصار زائدا ١٢٥٠ سجيناً فى سجون الأرض المحتلة ، زائدا الأرشيفات التى سرقت من مركز الأبحاث الفلسطينية ببيروت » . وأوضح أن هذا لا يعنى تقليص دور لجنة الدفاع عن حقوق الأسرى ، مؤكداً أن « مشاركة اللجنة واشتراك صلاح فى مفاوضات التبادل أمران أساسيان » ، وأن عملية التبادل لا تنطوى على أية أبعاد أو دلالات سياسية .

أسعدنى أن أتمكن من حمل هذه الرسالة من أبى عمار حتى يكون لدىّ رد « بموافقتنا » عند عودتى ، إذ كان أبو عمار يتحدث حينذاك بوصفه القائد الذى يمثل الجميع . وكنت حريصة أشد الحرص على أن نواجه الطرف الآخر كجبهة موحدة فى هذه القضية ، وفى كل المواقف الأخرى . ومن هنا سعيت جاهدة للعمل على تقديم الأسرى الإسرائيليين الثمانية كمجموعة واحدة ، وللحيلولة دون تجزئتهم إلى ستة أسرى ، تحتفظ بهم « فتح » ، وأسيرين فى حوزة « القيادة العامة » . وكنت حريصة على تأكيد هذه « الجبهة الموحدة » فى مواجهة مارينسكى ، لا من باب التحايل ، بل بقناعة تامة من حيث المبدأ والإمكانية ، وإن خالجتنى بعض المخاوف .

وفى مايو طمأننى أحمد جبريل إذ قال لى :

« ١ ـ نحن نصر على مشاركة ووساطة اللجنة الدولية للصليب الأحمر ، إنطلاقا من تجربتنا الناجحة معها وبما تحظى به من اعتراف عالمى .

٢ ـ ينبغى أن تمنح اللجنة المشكلة من أبى جهاد (خليل الوزير) وعبد المحسن أبو ميزر ، وطلال ناجى ، وأبى ماهر اليمانى ، تفويضاً مطلقاً ، وأن تشرع فى عملها على الفور بغية الوصول إلى حل سريع بشأن مفاوضات التبادل والإفراج .
٣ ـ نحن نعتبر الأسرى الثمانية كتلة واحدة ، لاستة واثنين .
٤ ـ شروطنا الرئيسية هى :
(أ) الإفراج عن جميع معتقلى أنصار ، على أن تتولى لجنة الدفاع عن حقوق الأسرى موضوع القائمة الخاصة بهم .
(ب) الإفراج عن ١٢٥٠ سجيناً فى الأرض المحتلة (أى الداخل) . مع استعدادنا للتنازل عن أى نقاط ثانوية ، وتخفيض العدد إلى ثمانمائة سجين .
(جـ) أخذ أولويات الموضوع بعين الاعتبار .
(د) ألا يكون للإسرائيليين حق الاعتراض على إطلاق سراح أى سجين .
(هـ) ليس للسلطات أن تعيد إلقاء القبض على أى سجين أطلق سراحه لمحاكمته بتهم سبق توجيهها إليه .
(و) السماح للسجناء الراغبين بالبقاء فى الأراضى المحتلة مع عائلاتهم .
٥ ـ يمكن « لفتح » أن تبحث عن طرق بديلة شريطة ألا يكون لها أى طابع سياسى .
٦ ـ يمكن أن نوافق على اشتراك محام يهودى غير إسرائيلى فى المفاوضات .
٧ ـ سنظل نتمسك بتحفظاتنا إلى حين قبول « الطرف الآخر » لشروطنا » .

كنت حينذاك فى زيارة أخرى لدمشق ، تلك المدينة العريقة التى اعتبرت لعقود طويلة ، ومنذ اندلاع المقاومة العربية الشاملة ضد الحكم العثمانى فى العشرينيات ، قلب العروبة النابض . وقد قام جمال باشا وزمرته بتنفيذ حكم الإعدام فى كثيرين من المواطنين العرب فى ساحة دمشق الرئيسية التى عرفت فيما بعد « بساحة الشهداء » . وأصبح ضريح يوسف العظمة ، الذى حارب الفرنسيين وسقط فى ساحة القتال فى معركة « ميسلون » الشهيرة ، مزارا يحج إليه كل الذين يقدسون تاريخنا . وأذكر أن والداى صحبانى لزيارة هذا الضريح فى عام ١٩٣٨ ، وقد زرته فيما بعد مرات عديدة تقديرا للبطولة العربية . كما أذكر أيضا متحف « العظم » وما يحتويه من مقتنيات ثمينة تبين التراث والفن العربى الأصيل ترجع إلى عهد ما قبل الاستقلال . ويقع المتحف وسط الحى القديم بدمشق ، وهو نموذج للبيت الدمشقى التقليدى بحجراته المكسوة بالخشب المزخرف وأسقفه المزينة بالنقوش الملونة ، والأوانى من زجاج الأوبالين التى تزين الأرفف ، ومقاعده التى تكسوها الطنافس والوسائد المغطاة بالحرير الدمشقى الموشى بخيوط الذهب والفضة الزاهية الألوان بحيث تخلق توازناً فنياً مابين الخزانات المطعمة والمناضد والمسطحات الخشبية الداكنة . كل

مافيه جميل يحمل الخطوط العربيـة التقليديـة المريحة للعين بمـا تنطوى عليـه من تناسق وبساطة ، وعدم إسراف وتعقيد . وتتوسط ساحة المتحف نافورة يتراقص فيها الماء على نغم خرير مرح ولكنه ذو شجن وحنين إلى التاريخ . فى نفس الوقت تنعكس فى صفحة مياهها زرقة السماء وما يعبرها من سحب . هناك يمكن للمـرء أن يجلس وسط الخضرة والزهور مستسلما لأحلام الأيام الغابرة .

المتحف الحـربى هو الآخـر له سـاحة هـادئة أكـثر اتساعـا ، تحيط ببـركتـه الكبيـرة حوانيت صغيرة تعرض بعضا من أروع المصنوعات اليدوية السورية : الطنافس الملونة والمنسوجات اليدوية الدقيقة ، والزجاج المصنوع يدويا ، واللوحات الخشبية البديعة مما كانت تزدان به الدور فى سوريا ولبنان فى عصر مضى .

ويوجد خارج المدينة مصنع أكبر للزجاج ، أخذنى صلاح لزيارته منذ عدة أعوام ، وفيه يمكن أن يشاهد المرء الطريقة الأخاذة التى تتحول بها كرات عجينة الزجاج الملون إلى أطباق وزهريات وأباريق كبيرة تتألق بألوانها العنبرية والزرقاء والخضراء واللازوردية . وهناك أيضا الأسواق القديمة ، حيث توجد محلات العطارة الحافلة بالتوابل المختلفة الألوان والروائح التى تبعث فى الشوارع الضيقة أريجا يثير الدوار ، وحيث يمكن أيضا للناظر أن يمتع عينيه برؤية « السروجية » وهم يصنعون السروج المطعمة والأغطية المطرزة بالزخارف العربية .

كنت ألوذ بتلك الأماكن حين ينال منى الإحباط خلال زيارتى للمدينة العريقة . كما كنت أزور أيضا متحف الآثار حيث توجد قطع رائعة من جميع العهود العربية التاريخية إلى جانب ما نتج عن الحفريات الأثرية القيمة . . والقائمة حتى اليوم فى سوريا . وعندمـا رأيت ولأول مرة مجموعة من القوالب الزجاجية التى جُلبت من أرضية أحد هذه المواقع ، أدركت لأول مرة معنى ماورد فى القرآن الكريم عن « بلقيس ملكة سبأ » حين توجهت للقاء الملك سليمان فى القدس ، وكيف أنها رفعت ذيل ردائها ظناً منها أن الأرضية الزجاجية لبهو القصر بركة مياه ضحلة !

لم يكن الصخب والألوان والأتربة فى الأحياء القديمة بالشىء الجديد علىّ ، إذ كنت أشعر أننى فى جو مألوف لى ، فقد كانت هذه الأحياء تذكرنى بالأحياء الشعبية الأصيلة فى القاهرة الحبيبة ، كما كانت بعض الأحياء الحديثة فى دمشق تذكرنى ببعض الأحياء السكنية فى قاهرة الأربعينيات ، بما كانت تتسم به من أناقة وهدوء .

□ اللقاء بلجنة المفاوضات

فى مايو ، بدأت الالتقاء بأعضاء اللجنة التى شكلت لمناقشة موضوع المفاوضات والإعداد لها ، وكان العقيد « أبو زياد » ، أحد مساعدى أبى جهاد ، هو المسوول الأول عن قضية الأسرى ، إذ تولى من قبل مسؤولية الجنود الإسرائيليين الستة . وقد التقيت به عدة مرات فى دمشق لمناقشة الوضع ومحاولة دفع عجلة الأمور ، إلا أنه اضطر للتخلى عن مهمته بعد إصابته إصابة خطيرة كادت تودى بحياته خلال هجوم على مقر قيادته ، قام به عضو من المجموعة المنشقة على منظمة التحرير الفلسطينية . وقد سررت بلقاء هذا الصديق القديم خلال الاجتماع السابع عشر للمجلس الوطنى الفلسطينى الذى عقد فى الجزائر فى مارس ١٩٨٧ . لكننى كنت أحس فى ذلك الحين أن مواقف وردود أفعال وسرعة استجابة الكثيرين لخطورة الموقف وإلحاحه لا تتناسب مع مقتضيات الظروف . إلا أن الذين فقدوا وطنهم وعاشوا ساخطين وسط الجراح اليومية ودفنوا الآلاف من الرفاق ، والذين يعانون الآن مغبة وقوعهم فى تلك القبضة الغاشمة والشرسة ، قبضة الغزو من جانب العدو - فضلا عن معاناتهم من انشقاق داخلى - قد لا يستطيعون إبداء الاستجابة المتوهجة الفعالة المؤثرة التى كنت أدرك أنها أمر حيوى ولا غنى عنه فى تناول مشكلة الأسرى ومعالجتها .

ومن بين الأعضاء الآخرين فى اللجنة : « طلعت ناجى » ، الرجل الثانى فى القيادة العامة التى يرأسها أحمد جبريل ، و« عبد المحسن أبو ميزر » ، الذى كان رجل القانون فى المجموعة . وقد شرعت اللجنة فى مباشرة عملها إلى أن أسفر هذا العمل عن صفقة التبادل التى تجسدت ملامحها فى مايو ١٩٨٣ . ولكن قبل الوصول إلى قمة الإنجاز ، كان شهرا مارس وأبريل قد انقضيا فى أخذ ورد لا نهاية لهما حول طلبات واشتراطات وخلافات مستحكمة فى كل مرحلة ، وعلى كافة المستويات . وربما كان بعض هذه الأمور طبيعيا وحتميا ، ولكن من المؤكد أن المداولات كثيرا ما تطرقت إلى أمور لا جدوى منها أو اتسمت بالبطء ، من الجانبين على السواء . وقد أدى ذلك إلى شعور الأسرى فى أنصار بالإحباط والسخط ، وقد تجسد لى يأسهم وحنقهم فى رسالة بعث بها صلاح يتساءل : « ماذا يحدث ؟ ولماذا كل هذا التأخير » . لقد كان الشعور بخيبة الأمل الذى استبد بالأسرى عندئذ شعورا يعجز عنه الوصف .

وفى مايو أيضا جاء اقتراح من الممثلين الإسرائيليين بأن تتم زيارة جديدة لجنودهم المأسورين لَديْنا ، قد تفيد فى التوصل إلى مزيد من التركيز فى المناقشات والدفع بعجلتها من حالة الركود إن لم يكن التوقف ، فى تناول قضية الأسرى . وعلى الرغم من أنه كان من المفترض نظريا أننى تغلبت على بعض تحفظاتى ومخاوفى الأولى ، فإن هذه الزيارة كانت من

أكثر الزيارات إيلاما لى إذ كنت أعلم أننى لن أرى صلاح خلالها . فقد أكد لى بوضوح ينطوى على الإصرار ، ولا يدع مجالا للشك أننى إذا فكرت فى الذهاب إلى الأرض المحتلة مرة أخرى فلن أراه . وكان من المفروض أن يشكل هذا الموقف من جانبه رادعا كافيا يثنينى تماما عن أى تفكير فى ذلك . ولكن عندما كان علىّ أن أختار بين الامتثال لمشاعره ورغباته المشروعة والمنطقية ، وبين إمكانية الإسهام فى قضية حاسمة تتعلق بمصائر الآلاف من رجالنا فى الأسر وهو أحدهم ، لم يكن بوسعى إلا أن أختار البديل الثانى مهما كلفنى هذا الاختيار من ألم .

بدا عندئذ أن هناك اقتناعا وجدية يعززها موقف جبريل تعزيزاً كاملا . وكان من الطبيعى أن أنقل انطباعاتى وتفاؤلى إلى الأسرى ، عن طريق اللجنة ، وكذلك إلى نفر قليل من زوجات الأسرى كنت أعرفهن وأستطيع الاتصال بهن . وفجأة حدثت انتكاسة ولحسن الحظ أنها لم تدم طويلا ، إلا أنها قد أثارت ردود فعل خطيرة فى أنصار ، كما أثارت قلقى البالغ ، وشعورى بأننى أتحرك ذهاباً وإياباً فى مزيد من رحلات مكوكية لا طائل منها .

أجريتُ محادثة هاتفية مع « أبو ميزر » من القاهرة ، على أمل أن أطمئن إلى وصول الخطاب الرسمى الذى طال انتظاره من « الطرف الآخر » بشأن موافقته على بدء المفاوضات ـ والذى كنت قد علمت سرا أنه سيتم تسليمه قريباً عن طريق اللجنة الدولية للصليب الأحمر ـ ولكننى تلقيت صدمة كبرى حين علمت أن الخطاب قد أعيد على أساس أنه مرفوض . وهرعت فى اليوم التالى إلى دمشق لأكتشف أن « الطرف الآخر » قد أضاف بالفعل بنداً طارئاً كان يعلم علم اليقين أنه سوف يشكل عقبة . فقد كانوا يحاولون الربط بين مشكلة المفقودين ، وبين سائر البنود على نحو يستحيل معه فعلا بدء العمل أو التفاوض بأدنى أمل فى التوصل إلى أى حل . كنت قد سئمت مشاعر الإحباط واليأس التى كانت تنتابنى فى مواجهة الطرق المسدودة المرة تلو الأخرى وأنا أعلم انعكاسات تلك العراقيل غير المنتظرة على المعتقلين .

□ اتصال جديد بالطرف الآخر

وهكذا وجهت مشاعرى إلى وجهة أكثر فعالية ، وبادرت على الفور إلى إجراء اتصال مع « الطرف الآخر » لتوضيح مدى خطورة الموقف ، معقبة بسؤالهم عما إذا كانوا جادين حقاً . وقد أوضحت ذلك فى رسالة إلى صلاح ، وأضفت بشىء من الأمل : « **وإننى أنتظر أن يصلنى غدا رد إيجابى** » . ووصل الرد ولكن زادت عندئذ مراوغات الجانبين حول الصياغة القانونية ، مما أسفر عن نتائج وخيمة . . ويكفينى هنا أن أقول إن هذه النتائج

أدت إلى حرق أنصار فى شهر يونيو . كانت ثمة أسباب واستفزازات ثانوية أخرى أسهمت فى هذه النتائج ، إلا أن التسويف والمماطلة كانا بمثابة الريح التى أشعلت ألسنة اللهب الأولى ، وحافظت على اشتعالها حتى أتى الحريق على آخر خيمة فى أنصار فى موجة غضب عارمة جسدت احتجاج الأسرى وسخطهم . وكان صلاح قد حذر من انهيار « أشجار الصنوبر الفارعة » وحدد لنا موعداً أقصى لا ينبغى تجاوزه ، وقد انقضى هذا الموعد منذ فترة طويلة .

وما أن بدأت الأمور تترابط على نحو كفيل بإرضاء الطرفين حتى ظهرت مراوغات وتبريرات جديدة من قبل البعض من طرفنا ، وهو ما يعنى أن الأمور لم تكن تسير سيراً طبيعياً ، وأن البعض لم يكن يقدر الموقف تقديراً سليماً . فقد أصبحوا يتحدثون الآن عن ضرورة أن تجرى المفاوضات فى دمشق ، وهو ما يعنى أن يقوم ممثل اللجنة الدولية للصليب الأحمر ، وكل من كان عليه أن يكون همزة وصل بين الطرفين ، برحلات مكوكية غير معقولة مستهلكا بذلك وقتا من العبث أن يضيع هباء على هذا النحو . كان الأمر برمته يتحول إلى ما يشبه المهزلة . وكنت أشعر بأنه لم يعد أمامنا وقت نضيعه ، وأنه لابد من سحب الموضوع كله من دمشق ونقله إلى جنيف التى كانت تبدو المكان الوحيد المنطقى والذى لا يقبل الجدل . وأبلغت أبا جهاد بما يدور فى رأسى ، فسلم بأن الحل الوحيد هو مواجهة الأمور مباشرة وتشكيل لجنة جديدة .

□ الانشقاق يؤثر على القضية

كان الانشقاق قد بدأ يؤثر على كل شىء ، حتى على القضية « المقدسة » ، قضية الأسرى فى أنصار ، كما أحدث آثارا ، وإن كانت طفيفة ، فى الأراضى المحتلة . وكم كرهت مواجهة هذا الواقع ، وكم يؤلمنى أن أذكره اليوم ، ومن ثم فقد ركزت جهودى بإصرار وعناد على ضرورة المحافظة على الوحدة ، وتلقيت تأكيدات متكررة من جبريل تفيد أن جماعته ستنضم إلى مفاوضات الإفراج . كان ذلك مبعث شعور بالارتياح الكبير ، وبخاصة أنه بمقدورى أن أبلغ ذلك لصلاح فى أنصار ، وأن أطمئن الآلاف ممن لا يعد الإفراج بالنسبة لهم مجرد استرداد للحرية الشخصية فقط ، بل يعنى أيضا الاطمئنان على مستقبل عائلاتهم ومصائرهم ، ووحدة الصُف .

وما أن أدرك أبو عمار أن عليه أن يشكل لجنة جديدة ، أو يجرى على الأقل تعديلا فى اللجنة القديمة ، حتى شرع فى العمل . وقد عُينّ القانونى الكبير السيد « جمال الصورانى » ، رئيسا للجنة التى ضمت فى عضويتها « نبيل الرملاوى » ممثل منظمة التحرير

الفلسطينية فى جنيف ، والملازم « نور على » ، والعقيد « فخرى شكور » ، ومندوبين عن جبريل أحدهما « أبو حازم الشهابى » ، كما عينت « أنا » عضوا فى اللجنة ، وإن كنت أفضل الاضطلاع بدور أكثر حرية وأقل إلزاما بحيث تصبح اتصالاتى التليفونية المستمرة ـ التى كنت أجريها لإلقاء الضوء على نقاط الخلاف بين الطرفين وللقضاء على أوجه سوء الفهم ، أو العمل على دفع الأمور قدما ـ أقل صعوبة وأكثر طبيعية من وجهة نظرى .

□ صلاح يتصل بالقيادة

ولكن انقضى شهرا مايو ويونيو . وفى شهر يوليو ، بدأ « الطرف الآخر » يبدى نفاد صبره ، ووافق أخيرا على ما طلبه صلاح منذ فترة طويلة وهو الاتصال بقيادته مباشرة لدفع عجلة الأمور . ولكى يتم ذلك ، كان لابد من إعادة صلاح إلى الداخل « المحتل » ، نظراً لأن الاتصال التليفونى من أنصار سيكون بالغ التعقيد ، إن لم يتعذر تماماً . وقد أخطرت بذلك وسافرت فى السابع من يوليو . وعاودتنى مشاعر الاضطراب والقلق والشك . ولكننى كنت أعرف على الأقل فى هذه المرة أن صلاح سوف يخفف من حدة احتجاجه على سفرى ، الذى لم أكن أنا الأخرى أستسيغه . وكان بمقدور صلاح بطبيعة الحال أن يتصرف بمفرده على خير وجه . ولكن كان من الضرورى بالنسبة لى فى هذه المرحلة ، أن أتابع بنفسى كل ما يجرى ، وأن أشارك وأساهم بكل طاقتى وقدراتى .

انتظرنا ، فى صباح يوم ٨ يوليو ، أن يتم الاتصال الهاتفى ، ومن حسن الحظ أن « نبيل الرملاوى » كان موجودا بالمكتب . وكان من الطبيعى ألا نسمع ، أنا وسائر الحاضرين ، سوى جانب واحد من المحادثة . ولولا جدية الموقف وأهميته البالغة والملحة ، لغلبنا الضحك فى أحيان كثيرة . « هل يمكننى التحدث إلى نبيل من فضلك ؟ قل له صلاح » . ثم أضاف بلهجة متعجلة : نعم ، نعم ، هو يعرف ، أريده لأمر عاجل ، عاجل جداً ، نـ . . . عم . . أهلا ! نبيل ! صلاح التعمرى يحدثك . لقد سمحوا لنا أخيراً بإجراء هذا الاتصال بعد جهود مثابرة استمرت ثلاثة أشهر .

إن التصريحات الأخيرة التى سمعناها ـ تصريحات أبو ميزر ـ بشأن تبادل الأسرى ، شديدة الإبهام والغموض. نحن نعرف أن « جمال الصورانى » هو الذى يترأس الآن لجنة تبادل الأسرى . كما نعلم أن أبو عمار أعطى الضوء الأخضر لبدء مفاوضات التبادل ، ومن ثم ، فإنه لا يمكن أن . . . دعنى أوضح لك شيئا ، نحن نعلم علم اليقين ، من خلال ما تلقيناه من رسائل وتأكيدات ، أن أبو عمار أعطى الضوء الأخضر ، وكذلك فعل أبو جهاد ، وأحمد جبريل ! أود لو سجلتم هذه المحادثة (وهو ما كان يتم فعلا) .

الجدل الذى يدور الآن يتركز كله حول الشكليات وما أغنانا عن هذه المجادلات ، فهى ضارة ومدمرة .

إن أنصار بها خمسة آلاف رجل تركوا وراءهم خمسة آلاف أسرة . وهذه مسألة ليست باليسيرة . فلسنا سلعة أو قطعا خشبية صماء تنتظر حتى ينتهى بعض القوم من مناقشاتهم « المترفة » حول النقطة والشولة والفواصل والشكليات .

يبدو أن « الصوراني » يريد أن يبدأ من الصفر . وهذا أمر مستحيل . . نعم إنه أمر مستحيل تماما ، وغير مستساغ على الإطلاق ، دعنى أقل . . دعنى أقل لك ما هو أكثر من ذلك . لقد شقينا وجاهدنا وتحملنا ما لا طاقة لنا به ، وما يتجاوز كثيرا قدرتنا على التحمل ـ فالأسلاك الشائكة من ورائنا ، والبنادق الآلية أمامنا مصوبة نحو صدورنا . هل نحن مطالبون بأكثر من ذلك ؟

ثم علت نبرات صوته حتى أصبحت أقرب إلى الصراخ وهو يقول :

« يوجد ثمانية أسرى (فى جانب) مقابل خمسة آلاف (من رجالنا) فى الجانب الآخر . فضلا عن جميع سجناء الداخل . . !!

دعنى أحاول أن أوضح لك ما أقصده . إنكم تتحدثون عن شروط مسبقة . وقد وضع أبو ميزر هذه الشروط ، ويبدو أن الصوراني قد وقع فى نفس الشرك الذى نصبه لنا « الطرف الآخر » ، وإذا سلمنا بأن الطرف الآخر يلجأ إلى الخداع والحيل ، فإن الطريقة الوحيدة التى تمكننا من كشف ألاعيبه وفضحها هى أن نبدأ فى التفاوض فوراً ودون إبطاء .

آسف إذا كنت قد أخذت من وقتك الكثير وأثقلت عليك بكل هذه الأمور . وأتمنى أن نسمع منكم قريبا . . أن نتلقى منكم أنباء تطمئن الإخوان هنا . . وكما قلت لك فإننا أقوياء وصامدون كعهدكم بنا دائما . وأتعشم أن يُسمح لنا بالاتصال بكم من حين لآخر حتى يمكننا متابعة الموقف .

أما عن الوضع هنا فهو كالآتى : ليس لدينا خيام . وقد أصبح الشتاء على الأبواب . هل يمكنك أن تتصور كيف سنقضى الشتاء القادم هنا ؟ نحن ـ على سبيل المثال ـ لم نذق طعم اللحم منذ اثنى عشر شهراً . (وجدير بالذكر أن صلاح نفسه كان قد أصبح نباتيا قبل أسره بحوالى عام) .

هنا ، خلف الأسوار الشائكة يعيش شعب كامل يضم المرضى والمدرسين ونظار المدارس والطلبة والمحامين وجميع الفئات . لقد مر بأنصار حتى الآن خمسة عشر ألف شخص . . ألا ينبغى أن تكونوا على دراية بذلك !

إن الخطابات التى ترسلها الأسر عن طريق اللجنة الدولية للصليب الأحمر تثير الإحباط لما تفيض به من مرارة . فبعض الزوجات ، من بين الآلاف من زوجات الأسرى ، تطلبن الطلاق ، فى حين تشكو زوجات أخريات من أن أبناءهن أصبح مصيرهم الشارع ، بعد أن افتقدوا المدرسة والعائل والإمكانات . . وهذه الأمور جميعها بالغة القسوة ، وشديدة الوطأة على النفس ، وتفوق قدرة البشر على التحمل .

إننى لا أتحدث عن هذه الظروف بدافع الرغبة فى التأثير عليكم ، فنحن نرفض أن نُستخدم كوسيلة لممارسة الضغط على منظمتنا . نحن نرفض ذلك تماماً ونفضل عليه الموت . وسوف نكون مستعدين لمواجهة الموت لو أن ثمة سبباً « وطنياً » يبرر هذا التأخير . أما إذا كانت المسألة مجرد أهواء شخصية وسوء تقدير ، فإن كل ما شيدناه سوف ينهار . . فإذا كان أبو ميزر هو السبب الأساسى فى التأخير حسبما يدعى البعض فإن الصورانى يتردى الآن إلى نفس « الهاوية » .

إننى أعتمد على حسن تفهمك ، وعلى قدرتك على سرعة الاتصال بالقيادة . أرجوك أن تبلغهم أنه لا يمكن تقديم الشروط بالطريقة التى اتبعها أبو ميزر ، والتى يستمر الصورانى فى انتهاجها . قل لهم إنه لا يمكن لأحد أن يقبل الشروط المسبقة الثلاثة على النحو الذى قدمت به . فلا مجال لفرض أى شروط مسبقة على « الطرف الآخر » وهو الذى يحتجز بالفعل خمسة آلاف رهينة !»

وتصاعدت نبرات صوته وهو يقول : « هذه هى الحقيقة » ، ثم أضاف : « ولابد أن يدرك ذلك أبو عمار ، وأبو جهاد والجميع ، وأن يضعوا هذه الحقيقة نصب أعينهم ! لقد بعث لنا جبريل عدة رسائل يؤكد فيها استعداده للتفاوض ! والأسرى يعرفون ذلك . فهم يلمون بجميع جوانب الموقف . وقد تلقينا تأكيدات تفيد بأن جبريل لن يضع أية عقبات . والسبيل الوحيد إلى كشف حقيقة جميع الأطراف ، وتوضيح كافة الجوانب هو بدء المفاوضات .

إن الرسالة الموجهة من هنا تنص على ما يلى : « نحن مستعدون لأن نأخذ فى اعتبارنا مطالب منظمة التحرير الفلسطينية ، وهو ما يعنى أنهم وافقوا من حيث المبدأ على

طلباتنا الرئيسية الثلاثة ـ « أنصار » و ١٢٥٠ من سجناء الداخل و « الأرشيفات » ـ وقد طلب أبو ميزر شخصياً الحصول على هذا النص بالذات عن طريق اللجنة الدولية للصليب الأحمر . والآن يحدث تراجع . فماذا جدّ فى الأمر ؟

لقد وافق « الطرف الآخر » على الشروط من حيث الجوهر . والأسرى هنا يتساءلون : « ماذا أخذنا مقابل الطيار الذى تم تبادله فى مرحلة سابقة من الحرب ؟ كم كان عدد أسرانا الذين أطلق سراحهم حينذاك مقابل هذا الطيار ؟ ولماذا لم يحدث فى ذلك الوقت أى تأخير فى المفاوضات ؟

لابد أن تدركوا جميعا أن الوضع (هنا) لا يستقر على حال . وأن « الطرف الآخر » لا يفتأ يلقى اللوم علينا . وحيث أنه لا توجد لدينا أجهزة راديو ، أو أية مصادر إعلامية أخرى ، فإنك تجد خمسة آلاف شخص من جنسيات مختلفة ، وأنواع شتى متلهفين لسماع أى شىء وقابلين للتأثر بالإشاعات ، وهو ما يعنى أن الوضع لا يحتمل أى تسويف أو مماطلة .

أرجوك أن تقول لهم إن أنصار . . أنصار التى حميناها . . .

وهنا ، طغت على صوته نبرة تجيش بالانفعال والتأثر :

« . . . أنصار التى بذلنا أرواحنا فى سبيل المحافظة على معنويات الرجال فيها . . حرام عليهم أن يدمروها . وإذا كان أبو عمار قد وافق ، فما هو سبب التأخير ؟ لا تسمحوا لأنفسكم بالاستغراق فى الشكليات . دعونا نبدأ ، ولو بالأسرى الستة فقط ، كمجرد بداية . دعوهم يجلسوا ويناقشوا الأمور عن طريق اللجنة الدولية للصليب الأحمر .

وبمجرد أن يسمع السجناء « الخمسة آلاف » واخواننا المحتجزين فى السجون الإسرائيلية وأفراد عائلاتهم ، بهذه البداية فسوف يستعيدون الأمل والثقة .

إن ما يحدث فى الوقت الراهن يتعذر تحمله ولا يمكن أن يستمر . فلا يجوز أن تطول فترة الانتظار والترقب التى تعيشها أخواتنا المحتجزات فى سجن النبطية ، إننى لا أفهم موقف اللجنة الدولية للصليب الأحمر . إن « الطرف الآخر » يريد أن يحملنا على الاعتقاد أنها وضعت شروطا مسبقة . فهل هذا صحيح ؟

إن ما أود أن أقوله مرة أخرى هو : « لماذا لا يجلسون إلى مائدة المفاوضات لمناقشة

موضوع الأسرى ؟ وإذا افترضنا أن العدو سيرفض البنود التى تنطوى على شروط مسبقة ، فماذا يحدث عندئذ ؟ هل يظل الرجال الخمسة آلاف فى أنصار ؟ وهل تظل كل أسرهم عرضة للدمار والهلاك فى الجنوب ؟ منطقيا إننى لا أتقدم فقط باقتراحى . . بل أدعوكم ، باسم جميع الأسرى ، إلى ضرورة عقد الاجتماعات فورا والإعلان عنها دون إبطاء .

لا أعتقد أن جماعتنا تدرك مدى خطورة ما يحدث . أرجو أن يكون مفهوما وواضحا أننا لا نعيش فى أمان هنا . . نعم . . لسنا فى أمان . إننى أتحدث من منطلق مسؤوليتى عن هؤلاء الناس ، عن الأسرى ، وتمثيلى لهم ، وبدافع من هذه المسؤولية . لقد أصيب خمسة وعشرون شخصاً خلال الأسابيع الماضية . فماذا يريدون ؟ وما هو المطلوب ؟ هل يتعين أن يلقى نصفنا حتفه ، وأن ينتهى المطاف بالنصف الآخر عند العدو ، قبل أن يدرك أحد مدى خطورة الأمر ؟ لا أخفيك أن هذا هو ما أخشاه .

إن « الطرف الآخر » مستعد ـ حسبما فهمنا منهم ـ للجلوس إلى مائدة المفاوضات ومناقشة جميع النقاط ، وهذا واضح فى صورة رسالة أبو ميزر ، والتى حملتها إلىّ اللجنة الدولية للصليب الأحمر ، كما يتجلى أيضا فى الرسالة التى تلقيتها من أبو جهاد ، أن العدو يلقى اللوم علينا . . والدور الذى تضطلع به اللجنة الدولية للصليب الأحمر يثير الحيرة . ومن ثم ، فإننى أوجه نداء باسم الأسرى الخمسة آلاف فى أنصار ، وباسم أخواتنا الأربع والعشرين فى النبطية ، وباسم جميع الموجودين فى المخيمات ، والذين بدأوا يستنزلون اللعنات علينا ، أوجه نداء أؤكد فيه ضرورة أن نبادر دون إبطاء إلى بدء المفاوضات !

إن بدء المفاوضات يأتى فى المقام الأول ، وبعد ذلك ينبغى عليكم أيضا أن توضحوا للرأى العام أسباب التأخير ، على ألا يتم ذلك من خلال عبارات غامضة ، بل يراعى فيه الوضوح مع ذكر الأسباب ، واحد ، اثنين ، ثلاثة . . وهكذا . . كأن تقولوا لقد اقترحنا ما يلى . . . واقترح « الطرف الآخر » كذا وكذا . . إننى أحدثك بصراحة وتلقائية لأن « الاستذكاء » لن يفيد فى شىء . لن يفيد على الإطلاق !

هل تعلم ماذا يقول بعض الأسرى هنا ؟ إنهم يقولون : لو أن بعضا من زوجاتهم (يقصدون زوجات القادة) كن محتجزات فى النبطية ، أو لو أن لهم إخوة محتجزين معنا هنا فى أنصار ، لاختلف الأمر عندئذ ! نعم يا نبيل ، تلك هى الحقيقة المرة . أما نحن ، فليس لدينا ما نقوله لكم سوى إن كل يوم يمر على احتجازنا هنا ، يشهد انهيار أسير ، وبالتالى ، انهيار أسرة .

ومنذ أسبوع واحد فقط شيعنا زميلا إلى مثواه الأخير ، وأصيب خمسة وعشرون آخرون ، كما سبق أن ذكرت لك ، بعضهم أصيب بجراح بالغة الخطورة أحدثت تشوها أو إعاقة . كما تتفشى هنا الأمراض التى استنزفت قوانا وأنهكتنا . ومعنا أكثر من سبعمائة طالب ضاعت عليهم سنتان دراسيتان . كما يوجد ضمن الأسرى فى أنصار مجموعات من الأشقاء ، يقدر مجموع أفرادها بألف شخص ، فهل تعلم معنى وجود ألف شقيق فى السجن ؟ بعضهم مجموعات تضم ثلاثة أو خمسة أشقاء ، وبعضهم أسر تتكون من أب وأربعة أو خمسة أبناء أرغموا بالقوة على أن يتركوا عائلاتهم ؟ هل يمكنكم أن تدركوا معنى ذلك ؟

ثم ، ماهى صلة المفاوضات بعدم تمكن المنظمة من أن تجد بلدانا توافق على إيواء الذين أطلق سراحهم منذ عام ؟ (فقد كان البنغلاديشيون والأتراك ، وبعض الايرانيين والأكراد يواجهون صعوبات فى الحصول على موافقة حكوماتهم على عودتهم إلى بلدانهم) .

لقد قلتم إن اليمن الشمالية مستعدة لاستقبال بعضهم . ولم يكن ذلك هو المقصود . وقيل لنا إن اليمن الجنوبية توافق على استقبالهم ، وتبين أن هذا الزعم أيضاً غير حقيقى . . هذا ، حسبما علمنا من اللجنة الدولية للصليب الأحمر » .

وهنا ، تم تحويل المحادثة إلى « زهدى الطرزى » ، ممثل منظمة التحرير الفلسطينية فى الأمم المتحدة :

« نعم يا أخى العزيز ، زهدى ، إن « الطرف الآخر » يمارس ضغوطه علينا يومياً . استحلفك بالله ألا تدعوا ما شيدناه بالجهد والعرق والدم يسقط وينهار من أجل شكليات ثانوية . نحن صامدون فى صلابة كعهدكم بنا ، وكما تتوقعون منا ، مؤكدين بذلك ثقتكم الغالية فينا . إننى أتحدث بصراحة وتلقائية لأننى فى وضع يتيح لى أن استطلع المستقبل بكل ما يحمله من نذر تثير قلقى ومخاوفى . وفيما يتصل بمراد - على سبيل المثال - (ابن شقيقة أحمد جبريل الذى وقع فى الأسر فى شهر يناير والمحتجز فى الأراضى المحتلة) فإن مشكلته قد حلت جزئيا . وقد بعث برسائل إلى أسرته ، وسوف يزوره الصليب الأحمر قريباً جداً .

ما أشبهنى اليوم برجل بلغ من شدة حرصه على الحيلولة دون انهيار صرح مشيد ، أن جعل من يديه حاجزاً واقياً لذلك الصرح !! أقسم بالله أن هذا هو ما يحدث فعلا . لقد

نسجت من جسدى حبل إنقاذ مددته إلى الإخوان فى أنصار ، إننى أقدم لهم الأعذار ، ثم أعمل التفكير لكى اهتدى إلى أعذار جديدة . إننى أشجعهم بكلمة . . إلا أن الكلمات قد فقدت الكثير من معناها . ومن ثم لم يعد أمامنا شيئا نفعله سوى أن نندفع مخترقين الأسلاك الشائكة . . . ونموت ! ولكن فى سبيل أى شىء نضحى بأرواحنا ؟ ليتنى أجد من يجيبنى على هذا السؤال . . فى سبيل أى شىء ؟ لقد ذكرْ أبو اياد فى حديث أدلى به منذ بضعة أيام أن المفاوضات قطعت شوطاً طويلا ، وهذا كلام لا أساس له من الصحة ! ربما يكون القصد منه هو رفع معنوياتنا . ولكننا نعرف الحقيقة ونعايشها يومياً ، ومن ثم فإننا بحاجة إلى ما هو أكثر من الكلام والقول ، نحن بحاجة إلى فعل .

إن كل ما يمكننى استنتاجه هو أن أبو عمر (جمال الصورانى) يريد أن يبدأ من الصفر ، وهو ما لا يمكن قبوله أبدا .

إننى لا أثق فى الصليب الأحمر دون تحفظ . فمعاملاته معنا الآن فى أنصار تأخذ شكلا مؤسفاً جداً .

إذا كانوا جماعتنا يرغبون حقا فى العمل ، عليهم أن يحددوا موعداً ، قريباً قدر المستطاع ، للجلوس إلى مائدة المفاوضات ، وبدء التفاوض لكى يكشفوا حقيقة موقف « الطرف الآخر » أمام شعبه ، وأمام الرأى العام . .

ومجمل القول أن الواقع المجرد الذى لا مهرب منه هو أن العدو يحتجز خمسة آلاف أسير وأكثر ، كرهائن ، من بينهم النساء الأربع والعشرون اللاتى زجوا بهن فى سجن النبطية .

خمسة آلاف رجل ، وأربع وعشرون إمرأة ، فضلا عن سجناء الداخل ! إن « الطرف الآخر » يمكنه بطبيعة الحال أن يجلس مستريح البال ، قرير العين . ومن ثم فإن الحل الوحيد هو أن تبدأ المفاوضات . هل وضح لك ما أعنيه ؟ ؟ »

وأغلب الظن أنه فى لحظة ما حولت المكالمة مرة أخرى إلى « الرملاوى » .

« لقد جاء ممثلو « الطرف الآخر » بالأمس فقط للقائنا فى أنصار ترافقهم مجموعة من الصحفيين ، وقالوا لنا إن منظمة التحرير الفلسطينية هى التى تتحمل المسؤولية الكاملة عن أى تأخير لأنها تتمسك فى اصرار بالشروط المسبقة ، كما ترفض إلى الآن الجلوس إلى مائدة المفاوضات لكى تتفاوض عن طريق اللجنة الدولية للصليب الأحمر .

كما أعتقد أن اللجنة الدولية للصليب الأحمر تلعب دوراً غريباً يستعصى علىّ فهمه لابد لنا من الاستقصاء عنه مستقبلا . فقد كان لهذا الدور عواقب وخيمة حطمت معنويات رجالنا . وأنا مسؤول عن كل كلمة قلتها . ويبدو أنهم سوف ينقلوننا إلى موقع آخر خلال يومين ، ولا يمكن أن يتم ذلك دون إراقة دماء . ثمة أمور ينبغى أن تكون محل تفهمكم وتقديركم » .

□ الرجوع لوادى جهنم

عدت من كلٍ « زياراق » ـ تلك الرحلات المضنية الشاقة على النفس ـ منهكة ولكن مطمئنة ، وقد قويت عزيمتى أيضا لما لمسته فى صلاح من قوة وثبات فى مواجهة العدو . فهذه الرحلات لم تعزز فحسب شعورى بالرضا الذاتى ، بل كانت علامات « فعلية » جاءت فى وقت توطد فيه إيمانى بشعبى العربى ـ الفلسطينى وبشجاعته وبصلابته ، وأصبح إيماناً أشد رسوخاً وتتعذر زعزعته . وكان اطمئنانى على صلاح أثناء هذه الرحلات جزءاً من الصورة العامة الأشمل والأوسع نطاقاً . فهل كان من الممكن أن أنكر واقع كونه زوجى ، وأننى مهتمة به ؟

أُعيد صلاح إلى أنصار فى نفس ذلك اليوم يرافقه الكولونيل « باك » ، ثم توجه إلى « وادى جهنم » حيث تم نقل الأسرى ، لكى يتحدث إليهم ، وينقل إليهم أخبارا مطمئنة ، ويشد من أزرهم ، ويطمئن إلى صمودهم وتلاحمهم . وقد خاطبهم قائلا :

« كان من المقرر أن نتحدث غدا .

نحن هنا معا ، خلف نفس القضبان ، نواجه نفس المصير ونتحمل نفس الآلام . أنتم تعلمون أننا كافحنا منذ ثلاثة أشهر أو يزيد لكى يسمحوا لنا بالاتصال بقيادتنا فى الخارج . وقد ثابرنا بعزم وتصميم . ولابد أن العدو قد يئس من إثارة اليأس فى نفوسنا . وقد وعدونا مرارا ، ولكننا كنا نفشل دائما فى إجراء اتصال هاتفى . ولكن أخيرا ، وبعد طول انتظار تمكنت اليوم من الاتصال بمكتب منظمة التحرير الفلسطينية .

وقد تحدثت إلى ثلاثة من زملائنا أعضاء فى لجنة التبادل ، أحدهم عضو اللجنة التنفيذية . وأود أن أؤكد لكم مقسماً بشرفى أنه لا توجد خلافات بشأن المشاكل الرئيسية المتصلة بالتبادل ، فقد قيل لى إن الأمر لا يتجاوز بعض التفاصيل الشكلية .

إن قادتكم يقفون معكم . وعلى الرغم من كل ما يواجهونه ، فإنهم يمدون لكم أيديهم عبر السياج والأسلاك الشائكة .

ففى هذا المجال ، وفيما يتصل بالتبادل ، ليس ثمة فارق بين أبو عمار ، أو أبو جهاد ، أو أحمد جبريل . فهم يقفون وقفة رجل واحد . ويهمهم جميعاً أن تكونوا فى أحسن حال ، وهم يسعون إلى تحريركم . إن طبيعة اللجنة الدولية للصليب الأحمر وجهازها الإدارى يتسمان بالبطء . وهكذا فإن وصول الرسائل إلى الجهة المرسل إليها يستغرق حوالى أسبوعين ، كما يستغرق وصول الرد نفس هذه المدة تقريبا . وهذا سبب من أسباب تأخر المفاوضات .

وإذا كان البعض منا لا يفتأون يرددون أن قيادتنا نسيتنا وأهملتنا ، فهذا زعم باطل .

لقد ترددت أصداء أناشيدنا فى الخارج . وثمة قوم وأصدقاء ومجتمعات ومنظمات فى الخارج يعملون من أجلنا هناك ، فى أوروبا وفى الولايات المتحدة الأمريكية حيث انتشرت الاعلانات والمطبوعات والاحتجاجات !

إن قيادتنا تهتم بأمرنا وتسعى إلى تحريرنا .

لسنا منسيين أو مهملين ، وإذا أراد أى فرد منكم أن يتراجع ، فليكن هذا اختياره الشخصى ، ولا يلومنّ القيادة على ذلك .

لقد راعينا ، نحن أعضاء لجنة الأسرى ، التزام الصدق والأمانة معكم . وأنتم رجال أشداء وشجعان ! فكيف لنا أن نسلم ونفقد الأمل فى هذه المرحلة ؟ كيف لا نظل صامدين ثابتين على العهد ؟

وماذا سنقول لقيادتنا ، وللعالم إذا نحن سلمنا وفقدنا الأمل ؟ هل نقول لهم إننا سلمنا بعد خمسة عشر شهرا ؟

هل نقول لأخواتنا فى النبطية إننا استسلمنا للكلل والوهن ؟ هل نقول ذلك لأخوات أثبتن شجاعة لا تقل ، إن لم تزد ، على شجاعة الرجال ؟ هل نقول لهن ذلك وهن « أخوات الرجال » ؟ !

إن هذا الأسر مهما طال فلن يدوم ، شأنه شأن ما نعانيه من مهانة ، وهذا الليل

سينجلى ، وسوف نسقط هذه السياج فى نهاية المطاف ، ولن يتبقى من معسكر أنصار شىء سوى ترابه العربى الطاهر ، وأسطورته الخالدة !

إن قيادتنا ، فى الخارج ، تواجه العدو : فهى تواجه قوى الامبريالية بكل أساطيلها وأسلحتها . ولسنا أقل شجاعة ، ولا أقل رجولة . نحن « مقاتلون » بكل ما تحمله كلمة المقاتل الحقيقى من معنى ، المقاتل الحقيقى الذى لا يعادل قوته سوى جلده وصبره على تحمل الآلام ، والذى يتطلع إلى المستقبل يحدوه الأمل .

إن هذه الأيام الشاقة المضنية التى نعيشها فى الأسر ، سوف تشكل مستقبلا أخصب ذكرياتنا وأغلاها .

إنكم لا تضيعون وقتكم سدى هنا .

فأنتم تشيدون هنا إرثا سوف يفاخر به أبناؤكم . إرث يفوق من حيث قيمته تلك الماديات التى يخلفها مواطنونا العاملون فى الكويت أو فى غيرها لعائلاتهم . وفى المستقبل ، حين يصادف أبناؤكم من يسألهم : **« أين كان والدكم » ؟ سيقولون : « كان فى أنصار . . فى مدرسة أنصار . . فى ذلك المكان المقدس . . فى أنصار . . فى الكعبة التى هى أنصار . . فى ذلك المحراب . . محراب أنصار »** .

لن نركع . ولن تركع أنصار . إن ما نحتاجه هو أن نظل على إيماننا بهويتنا وبجذورنا . لابد أن يفقد العدو أى أمل فى إمكانية أن يبعث فى نفوسنا اليأس والإحباط .

إن كل يوم يمر عليكم هنا يوطد جذوركم ويرسخها فى هذا التراب الطاهر ، هذا التراب الذى رويناه بدمائنا !

إن أنصار أمانة بين أيديكم . لقد بنيتموها بدموعكم وعرقكم . فلا تسمحوا لأحد ، أيا كان ، بتدميرها .

أنتم « الأحرار » الحقيقيون ، على الرغم من كل هذه السياج والتحصينات . ولولا ذلك لما حشد العدو كل هذه الأسلحة فى مواجهتكم .

إننى أقول لكم إن هذا الأسر مهما طال فلابد له أن ينتهى ، ومهما بدا الليل المظلم طويلا وثقيلا ، سوف يبزغ الفجر حتما ، وقد أصبح النصر فى متناول أيدينا ! فلن يدوم السجن إلى الأبد ، ولن يُخلد السجانون .

ليس هناك ما يدعوكم إلى نشر الإشاعات . فإذا كانت لديكم أى شكوك أو أسئلة تعالوا إلينا ـ إلى القيادة المشتركة ـ للاستفسار عنها .

وأؤكد لكم أنه لا توجد أية خلافات جوهرية بشأن البنود الرئيسية للتبادل ، بل مجرد أمور فنية . وقد قلت لكم منذ البداية « انسجوا من أجسادكم حبلا لصعودكم » وقد فعلتم .

لم يحدث فى التاريخ أن جاهد أسرى فى سبيل استرداد حريتهم ، مثلما جاهدنا معا هنا . لقد مهدنا الطريق إلى الحرية وفرشناه بدمائنا وعرقنا ودموعنا . ومدت قيادتنا لنا يد العون عبر الأسلاك الشائكة ؟ فهل نحجم عن مد أيدينا لملاقاة هذه الأيدى الممدوة لنا . . ثم نقول إن أصحابها نسونا ؟

إنهم يذكرون أنصار التى لم تغب عن بالهم قط فى خضم المخاطر التى تحدق بهم ، والقنابل التى تمطرهم . علينا إذن أن نقف فى ثبات ، صفاً واحداً ، وأقسم لكم بدماء شهدائنا أنكم أقوى من العدو بكل أسلحته ، وبكل مسانديه من أصحاب السطوة والنفوذ .

أنصار لن تركع . . أنصار لن تركع . . أنصار لن تركع . . وأنها لثورة حتى النصر ! »

شرعت فى كتابة رسالة إلى صلاح فى الطائرة وهى تتحرك لمغادرة مطار اللد :

« أتعشم ألاّتكون رحلتك مرهقة ومضنية مثل كل مرة يعيدوك فيها إلى أنصار بعد معاناة الزنزانة . لست أدرى ماذا أقول . . ماذا يمكننى ، أو ماذا لا يمكننى قوله ! ومع ذلك فإن كل ما أود أن أقوله هو أننى لابد أن اكتب لك ! لابد لى من الاتصال بك ! تعلم أننى لم أكتب كثيراً منذ أول كتاباتى وتسجيلاتى التى تفيض انفعالا واضطراباً . . والتى لم تتسلمها أبداً . . والتى أحتفظ بها لأعطيك إياها فور خروجك الذى آمل أن يتحقق فى أقرب وقت ممكن ، وفى ظل أفضل الظروف ، وعلى نحو يحفظ كرامتك وكرامة جميع إخواننا .

وأقول إن مشاركتك التفكير على الورق وعن طريق رسائل لا تصلك وبدون أن تقرأ أنت هذا الورق فعلا ، لم تعد ، بالنسبة لى ، أمراً كافياً . أما عن موافاتك بالأخبار ، فإن جعبتى خالية منها تماماً ، أو بالأحرى من أى جديد

يستحق الذكر . وفضلا عن ذلك كله كانت المطارات مغلقة لفترة طويلة ، وكانت الطرق مسدودة فقررت أن أصوم عن الكلام ، وكذلك عن الكتابة !

لقد ذكرت لك ذلك فى شهر رمضان . أما الآن فإننى أستبشر خيراً لاعتقادى أن الأمور قد تتحرك وتنشط من خلال اتصالك الهاتفى بجنيف ، ومن ثم فقد عادت طاقتى وحماسى إلى التدفق مرة أخرى .

إننى أقدر لك حرصك على ألا تتميز وحدك بتلقى رسائل منى أو بأية لفتة قد أعبر بها عن عواطفى نحوك ، بينما لا يصل إلى زملائك سوى القليل جداً من الخطابات . ولذلك تجدنى أستخدم فى بعض الأحيان لهجة آلية عملية !

أحمل معى تسجيلا لمحادثتك التليفونية ، وشريط فيديو يصور « مراد » لكى يطمئن عليه الأخ أحمد جبريل وسائر أفراد أسرته » .

□ اتصال بالصليب الأحمر فى جنيف

فى شهر أغسطس ذهبت مع عاليه إلى سويسرا لمدة ثلاثة أيام ، وكان معنا ابنها « حسين » البالغ من العمر عاماً واحداً ، ومربيته السيدة « نورا جريج » التى كانت مربية عاليه . فقد تركت لها ابنتى أمانة غالية لا يزيد عمرها على سبعة أشهر - عام ١٩٥٦ .

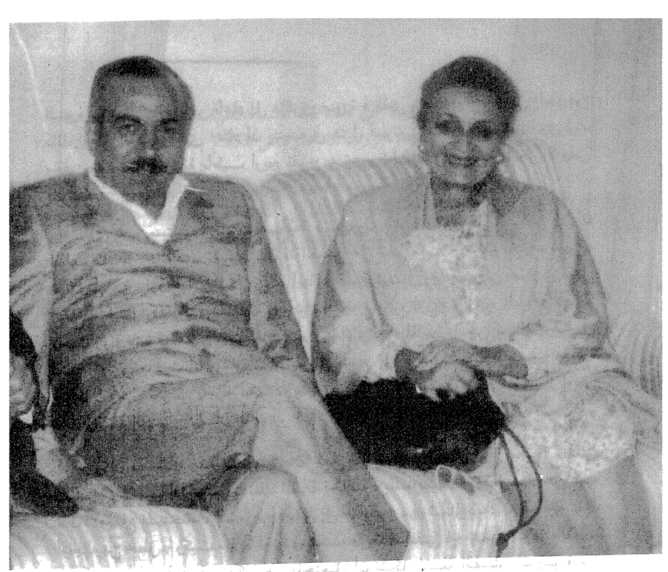
التقيت بموظف فى اللجنة الدولية للصليب الأحمر ، كنا قد اتصلنا به هاتفيا عدة مرات ، ودارت بيننا أحاديث عن الظروف فى أنصار وشكاوى الأسرى وطلباتهم . وكانت النصيحة التى أسداها السيد « كينج » هى التذرع بالصبر - ولكنها ، فى هذه الحالة ، لم تكن بالنصيحة الموفقة أو المناسبة على الإطلاق . كنت أضطر ، فى بعض الأحيان ، إلى أن أضحك بدلا من أن أصر أسنانى من شدة الغيظ ، أو أنخرط فى البكاء ! واتصلت بسوريا ، وكانت عاليه ، التى حضرت المحادثة ، لا تصدق أذنيها وهى تسمع حديثا يستهله طرفاه بتبادل التعليقات على الأحوال الجوية ! فقد كان موقفا ينطبق عليه القول العربى المأثور : « شر البلية ما يضحك » . وفى أواخر شهر أغسطس ، توجهت إلى عاصمة أوروبية أخرى لكى أتلقى مزيداً من الرسائل والمشغولات اليدوية من أنصار . وكنت أود البقاء لفترة أطول فى هذه العاصمة ، لولا إلتزامى بتسليم تلك « الحمولة القيمة » من الرسائل والمشغولات . فى تلك الليلة ، تطلعت وأنا راقدة فى سريرى إلى

البدر وهو يتوسط السماء ، فأعاد إلى ذاكرتى صورة « الفتى » صلاح وهو يتأمل البدر من ذلك الركن القصى الذى اعتاد أن يتنحيه فى منزل أسرته فى بيت لحم - كما روى لى - وحفت به نسمات رقيقة بأطيب أريج تفوح به زهور الجنوب فى منطقة البحر الأبيض المتوسط .

وفى شهر سبتمبر ، نشرت صحيفة « نيويورك تايمز » مقالا عن أنصار . إلا أن الموقف ظل على حاله دون تغيير . كان قد انقضى على اتصال صلاح هاتفيا بجنيف شهران خبت خلالهما بوارق أمل كثيرة . فمنذ أسابيع قليلة كنت فى جولة مع أبى عمار فى سهل البقاع ، حيث أوقف الناس سيارته وراحوا يمطرونه بباقات الورود والزهور البرية والأرز ، وحيث زرنا عدة قواعد والتقينا بعدد كبير من الكوادر والمقاتلين الذين كنت أعرفهم فى لبنان . ولكن ما لبث أبو عمار أن اضطر إلى السفر إلى تونس بعد أن طلب منه مغادرة سوريا . وحين تعرض رجاله أيضا للإبعاد وتركزوا فى طرابلس ، غادر أبو عمار تونس فجأة وانضم إليهم . كما كان هناك أبو جهاد وأسرته وأعضاء آخرون من القيادة .

وكان من شأن هذه التطورات أن تجعل من عملية الاتصال أمرا عسيراً جدا فى المستقبل ، لا سيما إذا استمرت تلك المسألة الخاصة « بالمفاوضات » . قررت ، على ضوء تلك الأوضاع المستجدة ، السفر من دمشق إلى طرابلس ، فى شمالى لبنان ، غير آبهة بما قد أواجهه من خطر . ركبت سيارة أجرة وسلكت طريقاً صادفتنى فيه مجموعات من القوات العسكرية وقطع المدفعية . وكان من المحتمل أن تشكل نقطة التفتيش الموجودة عند طرابلس عائقاً يتعذر إجتيازه . فقد واجهت ، لدى وصولى إليها ، أسئلة متلاحقة عن الجهة التى أقصدها ، وشخصية الأصدقاء الذين أذهب لزيارتهم . ولكن انقضى الأمر بسلام وتحركت بالعربة بين الحواجز المكونة من أكياس الرمل ، فى طريقى إلى المدينة . توقفت عند أول مكان استطيع منه الاتصال . وقد أجريت اتصالا هاتفياً بمقر أبى عمار ثم وقفت فى انتظار سيارة تم إرسالها لى . وقبل حوالى عشر دقائق من وصول السيارة ، ضاعف من دوى القصف المستمر ذلك الصرير والطنين المزعج للستائر المعدنية للحوانيت التى سارع أصحابها إلى إغلاقها . وفى غمضة عين ساد الهدوء الشارع الذى خلا تماماً من المارة . كانت طرابلس تعيش بذلك يوماً « روتينياً » من الأيام التى عاشتها فى تلك الفترة تحت القصف المدفعى عبر الحدود السورية والغارات الجوية التى تشنها الطائرات الإسرائيلية .

وكان من الطبيعى أن أشعر بالحزن والأسى وأنا أرى القتال يشتعل من جديد ، ويشكل خطراً يهدد جميع مخيمات اللاجئين الفلسطينيين ، وكذلك القيادة والسكان



مع أبو جهاد فى داره بتونس قبل استشهاده بساعات .

المدنيون فى طرابلس . وفيما يتصل بمفاوضات التبادل كان اندلاع القتال تطوراً يحدث فى أسوأ وقت . ولكن حين أعربت لأبى عمار عن قلقى إزاء حالة الركود التى تردى إليها موضوع المفاوضات ، أبدى دهشته ، وقال لى إن بقية أعضاء لجنة التبادل فى طريقهم الآن إلى جنيف . ويبدو أن أحدهم لم يتمكن من الالتقاء بى أثناء تنقلاتى ، أو لم يتمكن من إبلاغى مرة أخرى . كان علىَّ أن أشد الرحال على عجل ، وألحق بأول طائرة تقلنى إلى جنيف ، خاصة وأننى عضو فى وفد التفاوض .

وقبيل أن أغادر طرابلس أصر أبو جهاد على أن أتناول طعام الغداء مع أسرته ، وبقدر ما سعدت برؤية « أم جهاد » ، بقدر ما شعرت بالقلق عليها نظرا لخطورة الموقف . لقد تطوعت باللحاق بزوجها على أرض المعركة مجازفة بحياتها . وكانت تؤدى عملا رائعا فى المخيم . ولطالما أثارت « أم جهاد » إعجابى الشديد بتمكنها من أداء كافة مهامها على خير وجه مع ا[illegible]خاطها فى الوقت نفسه برقتها وحنانها وأناقتها وهدوئها . كانت أم جهاد

تتحمل مسؤوليات كبيرة ، وتقوم بنشاطات عديدة داخل المعركة . وبالذات فى إطار اتحاد المرأة الفلسطينية ، ومؤسسة أسر الشهداء . وبعد أن تناولت وجبة شهية من المأكولات التى كانت أم جهاد تَبرع فى إعدادها ـ والتى كثيرا ما تناولتها فى ضيافتهم فى دمشق ، أو فى عمان فيما بعد ـ ودعتهم لكى أسافر إلى دمشق . ومرة أخرى أشعر بالخجل وأنا أجد نفسى أرحل بمفردى ، مثلما حدث فى عام ١٩٨٢ فى صيدا ، بينما يواجه الآخرون وضعا بالغ الخطورة . إلا أن واجبى كان يقتضى منى التوجه إلى مكان آخر .

وكان أبو جهاد قد اتخذ الترتيبات اللازمة لتمكينى من زيارة الجنود الإسرائيليين الستة مرة أخرى بحيث يتسنى لى أن أؤكد أثناء المفاوضات أننى رأيتهم فى حالة طيبة . وقد سرنى أن أرى الشبان الأسرى الستة فى صحة جيدة ، وهم يدخلون الحجرة الواحد تلو الآخر ، بخطى خفيفة ونشيطة . كما سعدت برؤية حراسهم الذين كنت قد تأثرت كثيرا فى السابق بمعاملتهم الطيبة لأسراهم حين التقيت بهم فى سهل البقاع ، قبل حوالى عام مضى . ولما كان الأسرى والحراس فى سن متقاربة ، فقد بدوا وكأنهم مجموعة متجانسة . أعربت للجنود الأسرى عن أملى فى أن يطلق سراح الجميع ويعودوا إلى ديارهم خلال أيام . كانوا على علم بجميع التطورات ، ومع ذلك لم يكن بمقدورهم أن يمنعوا الشعور بالإحباط من التسلل إلى نفوسهم نتيجة لكل التقلبات التى عاشوها مثلنا خلال دوامة الحرب . فقد كانت تقلبات تحمل من المفاجآت ما يصدق عليه المثل العربى الدارج « طاسة حامية وطاسة باردة » .

غادرت دمشق فى السادسة والنصف صباح ذلك اليوم ، ولكننى عدت إليها فى الثامنة والنصف مساء ثم سافرت إلى لندن وجنيف . وفى الطريق تلقيت رسائل من صلاح مضى على كتابتها شهر .

وصحبتنى فى رحلتى إلى جنيف صديقة من الطفولة المبكرة هى الأخت « سعدية سليم » السودانية الأصل التى لم تكن تعرف شيئا عن تفاصيل أحداث العام السابق .

كنت أشعر بأننى تحملت بمفردى أعباء كثيرة وأننى احتاج الآن لإنسان قريب منى يمدنى بالمساندة ويؤازرنى ، وهذه مهمة وإن بدت من أخف المهام إلا أنها كانت بالغة الدقة والحساسية ! وقد ظلت « سعدية » صديقة وعوناً وسنداً لى حتى اليوم .

وصلنا إلى جنيف وذهبنا إلى الفندق ، ثم اتصلت بالمكتب ، كما اتصلت « بنور » الذى كان ينزل فى فندق آخر . وبعد ذلك استغرقت فى نوم هادىء ، نوم من ينعم براحة الضمير ، واستيقظت لكى أستقبل صباحاً يحمل لى أملا جديداً .

١٠ مفاوضـــات جنيـــف

بعـد مـايـو ، مـرت الأيـام فى تثـاقـل شـديـد الـوطـأة إذ لم يحـدث شىء بخصوص اتصال صلاح بنبيل الرملاوى فى مكتب منظمة التحرير بجنيف ـ والذى كان من المأمول أن يؤدى إلى تحريك الأمور على الفور ، والبدء الفعلى للمفـاوضات لـلإفراج عن عـدة آلاف من المعتقلين . ولا شك فى أن هـذه الرسـالة ـ بالحاحها ، وبما كانت تنطوى عليه من دلالات ـ كانت هى العامل الرئيسى الذى أغلق الباب أمام أى تفاؤل زائف أو اتجاه للتسويف . فقد أبرزت بوضـوح أولويـات الموقف الشامل ، والأهمية التى تحتلها قضية المعتقلين فى إطار هذا الموقف . وكانت القيادة تدرك دوما ضرورة العمل بغية التبكير ـ قدر الإمكان ـ بتبادل الأسـرى ، ومن هنا سعت الى تحريك هذا الموضوع واستجابت لعـدة مبادرات ، من جـانب المستشار « كـرايسكى » وبضعـة وسطاء آخـرين ، للشروع فى هـذه العملية . لكن تعنت الجـانب الاسرائيـلى والعروض الهازلة التى قدمها ، والتى شككت أحيانـا فى جديتهم ، كـانت ـ إلى جانب الانقسامات فى صفوف منظمة التحرير الفلسطينية ـ العامل الرئيسى الذى حال دون سير العمل فى هذا الاتجاه بسلاسة ودون انقطاع .

وفى صباح ٦ أكتوبر ١٩٨٣ التقينا فى مكتب السيد « نبيل الرملاوى » ، ممثل منظمة التحرير الفلسطينية فى جنيف ، بوفد من اللجنة الدولية للصليب الأحمر يقوده رئيسها المرموق السيد « جان هويفلجر » ، ويضم السيدين « بيتر كينج » و « ميشيـل كانييـو » . وكان أحد أعضاء الوفد قد زار ، فيما أعتقد ، معتقل أنصار إلا أن هذا الموضوع لم يطرح خلال المحادثات . ولما كان الوفد الاسرائيلى يقيم فى مكان آخر ، فقد كان على السيد « هويفلجر » أن يتحرك جيئة وذهابا ، ناقلا المقترحات والاستيضاحات وحاملا رسائل

الاستنكار والاحتجاج من جانب إلى آخر . وقد أعانته خبرته الطويلة فى هذا المجال ، وما يتحلى به من دماثة وقوة شكيمة فى آن واحد أن يواصل عمله بجلد طيلة الوقت اللهم إلا لفترة وجيزة حين أوشك صبره أن ينفد مع دنو المفاوضات من نهايتها .

كان يوما خريفيا منعشا ، فى هوائه لسعة ، قارس بعض الشيء لكن شمسه كانت ساطعة كالآمال التى تجيش فى صدورنا . وكان سيرى الحثيث من الفندق الى المكتب ، وتلهفى على استباق أحداث الساعات القادمة ، يقويان من عزيمتى . وكنت أنظر إلى الناس ماضين إلى أعمالهم ، راجلين أو على دراجاتهم أو فى سياراتهم ، والحمام فى الميادين يلتقط ما يقدمه له المارة من طعام ، والزهور اليانعة فى نهاية الموسم ، فيغمرنى الأمل فى أن تتوج جهودنا بالنجاح ، ونتمكن من تحرير رجالنا وإعادتهم إلى حياتهم المألوفة . كنت مفعمة بالامتنان والرضا لأننا استطعنا ـ أخيرا ـ أن نصل إلى نقطة بداية ، وكان هذا الشعور يزيد خطواتى ثقة وسرعة !

بعد تبادل التحية بين الذين لم تسنح لهم فرصة الالتقاء منذ الوصول إلى جنيف ، ومع ممثلى اللجنة الدولية للصليب الأحمر ، شرعنا فى العمل . كانت التعليمات والتوصيات التى أصدرها أبو عمار ، بوصفه ممثلا لمنظمة التحرير الفلسطينية بكل فصائلها ، واضحة وصارمة. وكان أبو عمر (جمال الصورانى) متحفزا وحريصا على توظيف قدراته ـ كقانونى ضليع ـ أفضل توظيف ممكن . كذلك كانت الفرصة متاحة له ، وهى فرصة استمتع بها ، لكى يتبارى مع الطرف الآخر فى المحاجاة والأخذ والرد . (ومع كل احترامى لأبى عمر ، كنت أفضل شخصيا منهاجا وخطوات أسرع نظرا لمعرفتى بالأوضاع فى معتقل أنصار وبوضع سجناء الداخل) . وكان العميد « فخرى شكور » يتميز بصرامة الرجل العسكرى بنظرته المحددة للأمور وجديته التى لا تترك مكانا للهزل ، لكنه كان مع ذلك دمثا رقيق الحاشية . أما أبو حازم الشهابى وزميله ، اللذان كانا يمثلان أحمد جبريل ، فكانا يتميزان بالرزانة ويتحليان بكفاءة عالية .

كنا فريقا متآلفا إلى أقصى حد . وكنت و« نور على » ، زوج شقيقة صلاح ، أكثر الجميع اهتماما على المستوى الشخصى ، فقد كنا نصبو إلى إطلاق سراح صلاح ، مع جميع رجالنا الآخرين ، فى أسرع وقت ممكن . ولكن هذا ، على أهميته ، لم يكن السبب الوحيد الذى جعلنا نتطلع إلى إنجاز الأمور بسرعة وحسم ، إذ كان موقفنا نابعا أيضا من نظرتنا العامة وطبعنا الذى يجعلنا نسعى إلى إنجاز الأمور بسرعة طبيعية ، وتجنب إثارة مسائل معوقة دون داع .

كان « نور » شعلة تتوهج بالحيوية والحماس . وعلى الرغم من تحفظه وعزوفه عن الكلام الكثير ، فقد كان عميق الإحساس حاد الذكاء ، مقداما لا يسكت على الظلم ولا يتردد فى التصدى له . وكان من أصغر الذين انضموا الى منظمة التحرير الفلسطينية سنا ، إذ إنضم اليها وهو فى السادسة عشرة من عمره . كما كان ، هو وزميله « بلال » الذى قتل فى غزو ١٩٨٢ ، من أصغر الضباط الذين تولوا قيادة قوات المركبات الآلية فى جنوبى لبنان . وقد استشهد « نور » خلال العدوان المشين الذى شنته القوات الجوية الاسرائيلية على مقر منظمة التحرير فى تونس فى أكتوبر ١٩٨٥ . وكانت وفاته خسارة فادحة ألمت بأسرته وأقاربه وأصدقائه جميعا . ومازال صلاح يحس بألم الوَحْشَة بعد فقد هذا الأخ والصديق . وقد ترك نور أما ثكلى وإخوة وأخوات وزوجة وفية وطفلين رائعين . وأصبح ابنه « باسم » الآن فتى يانعا يتميز برهافة الحس ، أما ابنته دينا ، سميتى التى تصغر أخاها بعام ، ففتاة جميلة ورثت عن أبيها ذكاؤه ، وسرعة بديهته ، وهى بعيدة تماما عن النزق الطفولى الذى يثير أحيانا نفورنا من بعض الأطفال .

□ مطالب المنظمة

وحين عدت ، لدى إعدادى لهذا الكتاب ، إلى مذكراتى ومضابط المفاوضات وجدت نسخة نور التى ذيلها بملاحظاته ، وأحسست كأننى أعيش الأحداث مرة أخرى . وقد حددت منظمة التحرير الفلسطينية مطالبها على النحو التالى :

١ ـ إطلاق سراح جميع المعتقلين فى معتقل أنصار ، والإفراج عن ٢٤ من النساء المعتقلات فى النبطية ، وعن المعتقلين الآخرين فى صور وصيدا والأماكن الأخرى .

(أ) يبقى جميع المفرج عنهم من معتقل أنصار فى لبنان .
(ب) يبقى فى لبنان جميع الفلسطينيين المقيمين أصلا فى لبنان .
(جـ) يمكن للمعتقلين الفلسطينيين ، الذين لا يقيمون أصلا فى لبنان ، أن يغادروا لبنان .
(د) ـ يغادر لبنان المعتقلون غير الفلسطينيين الذين لا يقيمون أصلا فى لبنان .

٢ ـ الإفراج عن ألف ومائتين وخمسين (١٢٥٠) سجينا فى السجون الإسرائيلية وفقا للقائمة المقدمة من منظمة التحرير الفلسطينية .
(أ) ألا يجبر أى معتقل فلسطينى ـ فى أى ظرف من الظروف ـ على مغادرة الضفة الغربية أو قطاع غزة .

(ب) أن يغادر الضفة الغربية وقطاع غزة المسجونون غير الفلسطينيين الذين سيفرج عنهم من السجون الاسرائيلية .

(جـ) ألا تصدر على أى من الفلسطينيين المفرج عنهم أية أحكام أو عقوبات بالسجن لاتهامات سابقة على الإفراج عنهم .

٣ - إعادة كافة الوثائق والكتب والمحتويات ، وكافة الأشياء التى استولى عليها الإسرائيليون من مركز الأبحاث الفلسطينية فى بيروت .

٤ - استعداد منظمة التحرير الفلسطينية للإفراج فورا عن الأسرى الإسرائيليين الستة ، واستعدادها أيضا لبذل قصارى جهدها للإفراج عن الأسيرين الإسرائيليين الآخرين .

٥ - سوف تبذل منظمة التحرير الفلسطينية قصارى جهدها للحصول على معلومات عن خمسة جنود إسرائيليين (آخرين) مفقودين .

وكان الرد ، الذى نقلته أولا الى أبى عمار ، وأرسل كتابة الى عبد المحسن أبو ميزر من خلال مندوب الصليب الأحمر فى دمشق ، على النحو التالى :

« إن حكومة إسرائيل مستعدة للنظر فى إجراء مفاوضات ، من خلال اللجنة الدولية للصليب الأحمر سواء فيما يتصل بتبادل الأسرى والمسجونين ، أو فيما يتصل بالجنود المفقودين الذين نعتقد ، وفقا لما لدينا من معلومات ، أنهم أو أن بعضهم على الأقل فى أيدى منظمة التحرير الفلسطينية ، وعلى أن تكون المناقشات بشأن مصيرهم جزءا لا يتجزأ من أية مفاوضات .

واستعدادنا للنظر فى عقد هذه المفاوضات لا يعنى بحال من الأحوال قبولنا للشروط التى وضعتها منظمة التحرير الفلسطينية . كذلك فإن استعداد حكومة اسرائيل للنظر فى عقد هذه المفاوضات ، من خلال اللجنة الدولية للصليب الأحمر ، لا يعنى بحال من الأحوال اعترافا مباشرا أو غير مباشر بمنظمة التحرير الفلسطينية ، وإنما ينحصر فى اطار إنسانى يستهدف حل مشكلة الجنود المفقودين أثناء العمليات الحربية ومشكلة السجناء والمعتقلين » .

وقد عادوا إلى ابلاغنا هذا الرد ثانية من خلال السيد « هويفلجر » الذى عقب عليه بقوله : « إننى لا أناقش عادة ، ومن حيث المبدأ ، المقدمات التى تقوم عليها أية رسالة أقوم

بتسليمها . ولكن الاقتراح الذى تلقيتموه اليوم ليس بالتأكيد أسوأ رد يمكن توقعه » . وأضاف أن الطرف الآخر قد أكد استعداده للتوصل إلى حل شامل يتضمن تسليم جنودهم الثمانية مقابل جميع المعتقلين فى أنصار ، والسجينات الأربع والعشرين فى النبطية ، والمعتقلين فى صيدا ، والأرشيفات . وقد استثنوا رجال أحمد جبريل ، وأغفلوا ذكر مسجونى الداخل . فاذا كانت هذه الشروط مقبولة ، فإنهم يؤكدون رغبتهم فى بدء التنفيذ فى أسرع وقت ممكن .

وفى صباح الاثنين استهل جمال الصورانى الاجتماع بالإعراب عن دهشته إزاء تجاهل الوفد الإسرائيلى لاستفساراتنا بشأن الرجال الستة الذين قتلوا بوحشية فى معتقل « أنصار » . واعتذر هويفلجر قائلا إنه لا يتذكر ، على وجه الدقة ، الأعذار التى تعلل بها الوفد الإسرائيلى ، وذكر أن الإسرائيليين قد كرروا ردهم السابق . واعترض الصورانى ، مؤكدا إصرارنا على الحصول على قوائم تفصيلية بأسماء الموتى والقتلى والذين تعرضوا للتعذيب فى معتقل أنصار ، قبل الانتقال إلى أى موضوع آخر . وأضاف أن موقف الطرف الآخر لا يزال غير واضح فى الوقت الذى قمنا فيه بالرد على جميع استفساراتهم ، ولاسيما فيما يتصل بالمفقودين ، فى حدود المعلومات المتاحة لنا ، ذلك أننا نرغب بصدق وإصرار فى التوصل الى حل إنسانى بالنسبة لرجالنا ولأسراهم على السواء .

« فإذا كانوا مستعدين حقا لإطلاق سراح جميع المعتقلين فى أنصار والنبطية وصور وصيدا ، وإعادة « أرشفيات » مركز الأبحاث الفلسطينية ، فإننا مستعدون أيضا للإفراج عن الأسرى الستة . إلا أننا مازلنا نطالب بإطلاق سراح « سجناء الداخل » على نحو أوضحناه فى اقتراحنا الأول . وفى اعتقادنا أن مطالبنا تشكل ، فى مجملها ، خطوة إلى الأمام وخطوة مناسبة ، تكفل السلامة للجنود الإسرائيليين الستة ولمعتقلينا فى « أنصار » وللآخرين جميعا » .

« وعلى ذلك فإننا نحتاج إلى تحرك سريع للحصول على قوائم نهائية ودقيقة بعدد وأسماء وجنسيات المعتقلين فى أنصار والنبطية ، وعملية نقل المفرج عنهم من غير اللبنانيين والفلسطينيين المقيمين فى لبنان ، ومن الفلسطينيين الراغبين فى مغادرة لبنان ، ومن الجنسيات الأخرى ، حتى يمكن وضع خطة وجدول زمنى وتحديد كيفية نقل الجنود الاسرائيليين الستة ، الموجودين لدى فتح من طرابلس » .

وأضاف نبيل الرملاوى أن هذه الخطوة تعد منطقية ومعقولة كخطوة أولى فى إطار الحل الشامل لقضية الأسرى ، وأن الخطوة التالية المتعلقة بالجثث وبالمسجونين فى الأرض

المحتلة ، سوف تولى العناية الواجبة عند إنجاز هذه الخطوة الأولى ونجاحها .

وأكد الصوراني مرة أخرى مطالبتنا بإغلاق معتقل أنصار طالما أنه سيتم الإفراج عن جميع المعتقلين فيه . وقال إن مسألة الجثث ستناقش في مرحلة تالية لبحث امكانية تسليمها مقابل المسجونين في الأرض المحتلة . وأعرب الصوراني عن رفضه القاطع لاستبعاد المعتقلين التابعين لجماعة أحمد جبريل قائلا : « إن جبريل فلسطيني ، ومنظمة التحرير الفلسطينية تمثل جميع الفلسطينيين . ولست مستعدا لتقديم أي تنازل في هذا الشأن فأنا ، كمتحدث باسم منظمة التحرير الفلسطينية ، أتحدث باسم جميع الفلسطينيين وليكن هذا واضحا » .

وغادرنا « هويفلجر » قائلا إنه سينقل مقترحاتنا ويعود إلينا .

بعد هذا اللقاء الأول ، مع اللجنة الدولية للصليب الأحمر ، توالت اجتماعاتنا صباح وبعد ظهر كل يوم من ٦ أكتوبر إلى ٢٣ نوفمبر ، باستثناء فترة وجيزة قطع فيها الوفد الإسرائيلي المباحثات وغادر جنيف ، ثم عاد ليستأنفها بعد بضعة أيام بدت لي دهرا طويلا لا ينقضي .

□ ضرورة التوصل لاتفاق

في اليوم التالي عاد السيد هويفلجر الى مكتب منظمة التحرير ليقول إن الأطراف الثلاثة المشاركة في المحادثات لابد لها أن تتوصل الى تفاهم إجماعي ، أو نسبي على الأقل ، بشأن وضع خطة تفصيلية للإفراج عن المعتقلين والأسرى وتأمينهم . وطلب منا أن نطرح أفكارنا ومقترحاتنا . وكان « الطرف الآخر » قد اقترح - كخطوة أولى - نقل الجنود الستة إلى مكان آمن ، نظرا لتعرض طرابلس لقصف دائم ومتزايد ، وأن تقوم بزيارتهم اللجنة الدولية للصليب الأحمر التي لم تتح لها فرصة رؤيتهم منذ ١٤ أكتوبر ولا تعلم عنهم شيئا منذ ذلك التاريخ . وطلب هويفلجر ترتيب هذه الزيارة في أسرع وقت ممكن ، نظرا للظروف الملحة والمحفوفة بالمخاطر ، كما رجانا أن نطمئنه بوصفه ممثلا للصليب الأحمر ، على سلامة الجنود الستة وحالتهم الصحية ، متعهدا بأن ما سنبلغه له سيظل طي الكتمان .

وأكد له الصوراني أن الأسرى الستة بخير ويتمتعون بصحة جيدة ، إلا أن الاتصال الهاتفي بطرابلس قد أصبح متزايد الصعوبة ، وأننا نحاول تدبير وسيلة أخرى للاتصال . وفي مرحلة لاحقة من المحادثات ، حين تلبد الموقف في جنيف بنذر الإحباط والقلق ،

وتزايدت خطورة الوضع فى طرابلس ، وأحسسنا أن برعم الأمل الغض ، الذى بدأ يجيش فى صدورنا ، قد تعصف به الرياح فى أية لحظة ، فكرت فى السفر بنفسى الى طرابلس للحصول على رد نهائى من أبى عمار . وقال نور إنه لن يسمح بهذه المخاطرة ، فالطريق الوحيد هو السفر بحرا من قبرص ، والسفن معرضة دائما لخطر الأسر من جانب الاسرائيليين ، وأبدى استعداده للسفر بدلا منى . وأخيرا حسم هويفلجر الأمر ، وقرر السفر بنفسه . وقضينا نحن الجانب الأكبر من ساعات الليل محاولين الاتصال بطرابلس . ولحسن الحظ ، نجحت فى الاتصال بأبى عمار وتحدثت إليه مرتين : الأولى حين لان « الطرف الآخر » فى موقفه ، فقبل إضافة خمسين سجينا من مسجونى الداخل إلى القائمة ، والثانية حين وافقوا ، فى مرحلة لاحقة ، على زيادة العدد الى ثمانية وسبعين سجينا بعد أن طالب أبو عمار بالإفراج عن مائة سجين ، كعدد رمزى ، من سجناء الداخل .

أضفت إلى ما سجلته عن اتصالاتى مع « الجانب الآخر » مايلى :

« إن الرد الذى تلقيناه منكم محل تقدير من حيث الشكل ، أما من حيث المضمون فهو لا يزال دون المستوى . هذا رأيى الشخصى وليس الرأى الرسمى . والحق أننى أعتقد أن زيادة عدد سجناء الداخل الذين تعرضون الإفراج عنهم من خمسين الى ثمانية وسبعين أمر يقرب من الهزل ! »

« فيما يتعلق بموقفنا ليس لى أن أقدم إجابات ، فهذا اختصاص السيد هويفلجر ، فهو المكلف بنقله . ولكننى أستطيع مع ذلك أن أقول إننا مجمعون على رفض أية مساومة بشأن « أنصار » ، أما عدد الذين يفرج عنهم من سجون الأرض المحتلة فيمكن أن يكون موضوعا للنقاش ، وإن كنا نسعى - بطبيعة الحال - إلى إطلاق سراح أكبر عدد ممكن من رجالنا وأخواتنا المعتقلات » .

« لماذا لم نتلق ردا على استفساراتنا بشأن الذين ماتوا فى أنصار والذين تم إبعادهم ؟ »

« إذا كان قد بدا خلال أية لحظة من هذه المناقشة أننى لم أتوخ الحرص الكافى وقدمت لكم شيئا يمكن أن يفيدكم ، فقد كان قصدى الوحيد هو مصلحة الأسرى - من كلا الجانبين فيما آمل ! »

فى اليوم الرابع للاجتماعات ، أعلن « أبو عمر » ، رئيس وفدنا ، عن بادرتين

طيبتين ، فقال إن الجزائر أبدت استعدادها لاستقبال المعتقلين الفلسطينيين ، وأن أبو عمار قد أعد خطة كاملة لنقل الأسرى من الجانبين بمساعدة الايطاليين . وعندئذ بدأ ممثلو الصليب الأحمر فى مناقشة التفاصيل الدقيقة ، فسألوا مثلا عمن سيتولى مسؤولية استقبال وتسليم الأسرى .

وسأل بيتر كينج : هل تقتصر « العملية » الايطالية على النقل ، أم أنها تشمل أيضا تسليم جميع الأسرى ، والتحفظ المؤقت عليهم وتسليمهم ؟ .

ورد جمال الصوراني : إنها لا تعدو أن تكون مسألة نقل وحماية ، فتسلم الأسرى وتسليمهم ، بكل ما ينطوى عليه ذلك من تفاصيل ، هو مسؤولية اللجنة الدولية للصليب الأحمر . وقد وافق ياسر عرفات على ما توصلنا إليه من نقاط ، ولكنه يطالب بالإفراج عن مائة سجين ، كعدد رمزى - من سجون الداخل . والواقع أننى أخطأت إذ لم أتشاور معه قبل أن أعطيكم ردى بالأمس . والرئيس « ياسر عرفات » حريص على التوصل الى نتيجة فى أقرب وقت ممكن ، نظرا لأن استمرار وقف إطلاق النار أمر لا يمكن ضمانه . فإذا كنا راغبين فى إتمام الصفقة ، فإن النقل جاهز والجزائر جاهزة وأنتم جاهزون . وكذلك نحن . وقد تكون هناك أيضا إمكانية لنقل الأسرى الستة على سفينة ايطالية من طرابلس .

بيتر كينج : أعتقد أنه من المهم أن ننقل ما أبلغتمونا به الى الطرف الآخر .

جمال الصوراني : إن العدد الرمزى هو مائة سجين ! وبالمناسبة ماذا كان ردهم على المقترحات التى قدمناها بالأمس ؟

بيتر كينج : لاشىء حتى الآن .

جمال الصوراني : « إذن أرجوك ألا تخبرهم بأى شىء مما ناقشناه اليوم ، وذلك الى أن نتلقى ردا على الاستفسارات التى نقلتها إليهم بالأمس بشأن تفصيلات نقل بعض الأسرى . فاذا وافقوا على ذلك ، فإننا نستطيع أن نستمر .

□ قرار من الرئيس عرفات

وفى يوم السبت ١٣ أكتوبر أبلغنا بيتر كينج أن مندوبا عن الصليب الأحمر قام بزيارة الأسرى الاسرائيليين ، وأنه عنى بوجه خاص بالوقوف على حالة الأسير الذى بلغنا أنه

يعانى من مشاكل صحية تستدعى علاجا سريعا . وقال إنهم فى انتظار قرار من الرئيس عرفات فى هذا الشأن ، وأن الأطباء الأربعة الذين زاروا المريض يتفقون على ضرورة نقله من مكانه الحالى نظرا لتعذر علاجه فى طرابلس .

كنا نصل أحيانا إلى طريق مسدود ، وفى أحيان أخرى كان إقدام أحد الجانبين على بادرة طيبة أو تقديمه لتنازل يقابل بالتقدير من الطرف الآخر . وخلال هذا كله ، كان هويفلجر يسعى ، بعزم واصرار ، لشق طريقه فى متاهة الأحداث والكلمات . والحق أننا دخلنا المحادثات بنية صادقة ودون أيةأفكار مضمرة . وكان أبو عمر (جمال الصورانى) صادقا فى وعوده ، وفى سعيه للحصول على أكبر قدر ممكن من المعلومات عن المفقودين . وهو موقف شاركه فيه وفدنا كله الذى كان حريصا على إنجاز المفاوضات بأسرع ما يمكن وبما يرضى جميع الأطراف .

وفى ١٤ أكتوبر ، عاد السيد هويفلجر إلينا برد مكتوب من « الجانب الآخر » ، ذكروا فيه أنهم مستعدون لمواصلة المفاوضات بنية صادقة بغية الوصول إلى حل سريع وعملى . ولكنهم أضافوا أن المقترحات المقدمة منهم لا تسرى إلا على هذه الجولة من المفاوضات،وأنه فى حالة فشل هذه الجولة فإن هذه المقترحات لن تكون سارية فى أية مفاوضات مقبلة . وذكروا أنهم غير مستعدين لقبول تصريحات عامة أو غير محددة بشأن جنودهم المفقودين ، والأسيرين الموجودين لدى أحمد جبريل ، وطلبوا معلومات واضحة عنهم .

كان من الطبيعى أن تثور مجادلات ومماحكات حول الألفاظ والتسميات . كنا نتحدث عن « **معتقل أنصار** » بينما كانوا ينكرون أن لديهم أية « **معسكرات للاعتقال** » . وكنا نعترض على حديثهم غير المحدد عن « بضعة آلاف من أنصار » و« بضعة عشرات من مسجونى الداخل » . وقد أعتبروا عرضنا بتسليم أسير واحد وجثة واحدة مقابل ثلاثة آلاف من معتقلى أنصار ، اقتراحا « استفزازيا » ، بينما اعتبرنا موقفهم من ردنا موقفا « غير لائق وغير مقبول » ! وهكذا مضت الأمور فترة تزيد على شهر .

وعلى الرغم من أن « الطرف الآخر » كانت لديه أسبابه فى بحثه الدائب عن « المفقودين » ، وطرح هذه المسألة كشرط مسبق أول الأمر ثم لأن موقفه حتى تحول الى رجاء بشأن الجثث ، فقد كان هذا التغير الدائم فى اللهجة والأسلوب محبطا ومرهقا . كان جنودهم الستة معرضين لخطر حقيقى من جراء القصف فى طرابلس ، وأصيب واحد منهم بانهيار عصبى نتيجة لذلك . ومن هنا ، كانوا يطالبون بنقلهم إلى مكان أكثر أمنا . وكنا

نحن نعرف أن الموقف فى أنصار محفوف بأخطار قد تنفجر فى أية لحظة . ومع ذلك فقد استمروا فى المساومة . وقد علمنا من مصادر مختلفة ، منها الأنباء المنشورة فى الصحف الاسرائيلية ، أن أكثر من ٣٠٠ معتقل قد نقلوا من « أنصار » إلى « الداخل » ، وبديهى أن هؤلاء كانوا المعتقلين الذين لا يريد الإسرائيليون أن تشملهم الصفقة . وقد أثار هذا العمل سخط اللجنة الدولية للصليب الأحمر ، وعلق عليه أبو عمر قائلا إنه لو استمرت الأمور على هذا النحو لما أصبح فى أنصار ، بعد فترة قليلة ، معتقلون للتفاوض بشأنهم أو إطلاق سراحهم .

وقد كرر أبو عمر - مرة أخرى - مطالبتنا بإغلاق معتقل أنصار بمجرد إطلاق سراح المعتقلين(*) ، مؤكدا خطورة الموقف كما نقلته إلينا لجنة المعتقلين ، كما علمناه على وجه التحديد من صلاح التعمرى رئيس اللجنة . ومع اعترافه بأن الموافقة على إطلاق سراح السجينات ، وإعادة أرشيفات مركز الأبحاث الفلسطينية تعد موقفا أيجابيا ، فإنه لم يكف عن الاستفسار « عن المكان الحالى الذى يوجد به صلاح التعمرى الذى علمنا أنه نقل من أنصار » . وقد أكدت لنا اللجنة الدولية للصليب الأحمر أنه أعيد الى المعتقل . كما لم نكف عن الاستفسار عن حالة مراد بشناق ، ابن أخت أحمد جبريل ، وطالبنا باصرار بأن يقوم الصليب الأحمر بزيارته . وقد وعدوا بذلك لحسن الحظ ، وقام الصليب الأحمر بزيارته ، كما زار « غروف وسالم » المحتجزين لدى أحمد جبريل .

□ استمرار التراشق حول الكلمات

توقف القتال فى طرابلس بضعة أيام ، مما جعلنا نأمل فى تحقيق بعض الخطوات الملموسة خلال وقف إطلاق النار المعرض للانهيار فى أية لحظة . وحذرنا « الطرف الآخر »

(*) كان هذا شرطا من الشروط الرئيسية التى تولى الصليب الأحمر نقلها ، وهو شرط لم تنفذه إسرائيل ، إذ أعيد فتح المعتقل بعد قليل ليستقبل أفواجا جديدة من المعتقلين عند جلاء القوات الإسرائيلية من لبنان . وقد أطلق المعتقلون الفلسطينيون الجدد ، الذين اعتقلوا فى غزة عامى ١٩٨٧ و١٩٨٨ ، على معتقلهم الذى يغص بمئات من المعتقلين اسم « أنصار - ٢ » ، وظروف هذا المعتقل لا تقل سوءا ، إن لم تكن أسوأ ، من ظروف « أنصار » . وقد اعتذرنا من ناحيتنا إذ لم نتمكن - لأسباب خارجة عن إرادتنا تماما - من تسليم جثث الجنود الإسرائيليين الثلاثة كما تعهدنا خلال المفاوضات .

ومع استمرار الانتفاضة المباركة فى الأرض المحتلة صعدت السلطات الإسرائيلية موجة اعتقالات الأهالى بحيث أصبح هناك معتقل « أنصار - ٣ » الذى يعانى فيه المعتقلون شتى أنواع التنكيل . ففى إحدى المرات تعرض أكثر من أربعين رجلا منهم إلى البطح على الرمال الساخنة ، وتركوا تحت الشمس ساعات طويلة ، وكاد عدد منهم يفقد حياته نتيجة لذلك .

مرة بعد أخرى من هذا الخطر موضحين أننا لا نستطيع أن نضمن استمرار وقف إطلاق النار . وخلال هذه الأيام القليلة وصلت الجهود التى كنت أبذلها بعيدا عن الأضواء ، بتشجيع « نور » ومباركة أبى عمار ، إلى ذروتها . كانت تلك الأيام عصبية مشحونة بالتوتر ، حيث افتقدت أمى فى تلك اللحظات العصيبة ! كما افتقدت عونها وحنانها ! لكن شجاعتها وقوة عزيمتها كانا فى ذاكرتى ضوءا غامرا ينير طريقى ويشد أزرى .

استمرت « التراشقات » الهامشية حول الكلمات والصياغات . وعلى الرغم من أن التسميات والصياغات قد تكون بالفعل وثيقة الصلة بالموضوع المطروح للمناقشة ، إلا أنها تبدو فى « غمار المعركة » أمورا صغيرة . واستمر الحال على هذا المنوال حتى حسم هويفلجر الأمر حين اقترح أن يتقدم كل من الجانبين بمقترحات دقيقة مكتوبة حتى لا يضيع الوقت فى مجادلات جانبية طويلة . وذكر أن الانجليزية ليست اللغة الأصلية لكل من الجانبين مما قد يؤدى إلى أخطاء غير مقصودة تحدث أزمات لا ضرورة لها .

وحين وضعنا حداً للتراشقات الكلامية ، أصبح من الصعب على الوفد الإسرائيلى أن يتملص من مناقشة القضية الأساسية . والواقع أن هذا التسويف لم يكن مفهوما بالنسبة لى ، ولا شك أنهم كانوا يسعون من خلاله إلى الحصول على مزيد من المعلومات بشأن المفقودين ، ولكن لا شك أيضا أنهم كانوا مترددين فى الإفراج عن العدد الذى حددناه من المعتقلين !

وفى ١٦ أكتوبر ، وعد السيد هويفلجر بناء على تأكيدات من الجنرال « تامير » رئيس الوفد الإسرائيلى ، بإنهاء « حرب الكلمات » ! وكان الصورانى قد ذكر أنه ينوى الانسحاب اذا استمرت هذه المماحكات . وحين أعود بذاكرتى إلى تلك الأيام لا أكاد أصدق أننا أمضينا ما يزيد على ستة أسابيع نلف وندور حول الموضوع !

كان من أشد الأمور إيلاما بالنسبة إلينا ، والتى كانت موضع احتجاجنا المستمر ، مطالبة الإسرائيليين بأن تجرى المفاوضات فى سرية تامة ، ومحاولتهم الدائمة الإيعاز إلى المعتقلين بأن منظمة التحرير الفلسطينية لا تبالى بمصيرهم . وعلى الرغم من رغبتنا فى حماية المفاوضات من تدخل وسائل الإعلام الذى قد يكون سلاحا ذا حدين ، فقد وضعنا هذا فى موقف بالغ الحرج . كذلك كانت استفساراتنا عن رجالنا المفقودين فى أنصار وعن موضوعات أخرى ، مثاراً لخلافات شديدة ، وقد ظل الإسرائيليون يراوغون طول الوقت دون أن يقدموا ردا على هذه الاستفسارات .

وذات يوم جاء بيتر كينج ليقول إن السيد هويفلجر كان يرغب فى مقابلتنا لكى يبلغنا

بأنه قرر السفر إلى طرابلس للالتقاء بعرفات ، وحسم المسائل المعلقة التى ظلت طويلا دون حل ، ولكن الطبيعة المفاجئة لهذا القرار ، وضرورة التعجيل بالسفر لم يتيحا له الوقت للالتقاء بنا .

وهكذا انتقل محور النشاط كلية إلى طرابلس حيث حدثت تغييرات فيما يتعلق بعملية النقل ، إذ تقرر أن يتولاها الفرنسيون . وكانت الأيام التى سبقت سماعنا لأنباء الإفراج عن المعتقلين أياما مشحونة بتوتر مضن ومتزايد ، ما كان لنا أن نحتمله لولا إحساسنا بأن طيف الأمل الغامض الذى داعب نفوسنا يوشك أن يتحول وكأنما بمعجزة ، إلى حقيقة ! تقرر فى النهاية ألا ينضم صلاح إلى وفدنا ، فقد رئى أنه من الأفضل والأجدر أن يبقى فى « أنصار » كى يتولى السيطرة على الموقف الدقيق هناك ، ويقوم بمراجعة القوائم النهائية واعتمادها وفقا للأوامر التى أصدرها ياسر عرفات . وقد أدار أبو عمار التفاوض بتصميم وحنكة وهو تحت القصف فى طرابلس حتى خرج الأبطال الصامدون إلى بر الحرية .

أسفت لعدم مجىء صلاح للاشتراك فى وفد المفاوضات ، لكننى غالبت حزنى قائلة لنفسى : « سوف أراه - بإذن الله - بعد بضعة أيام » .

١١ أحـــــرار !

« لقد أطلق سراحهم ... إنهم أحرار ! » . ظل صدى هذه الكلمات يتردد في ذهني كالنغمة المتكررة . حاولت جاهدة أن أغالب ما خالجني من مرارة . لكنني لم أستطع أن أغفر للذين تسببوا في حرماني من فرحة عشت في انتظارها سبعة عشر شهرا . كان قد حدث تأخير ، أو سهو ، في إبلاغ أعضاء « لجنة التبادل » ببدء عملية الإفراج ، وبأن ثلاثا من طائرات شركة « إيرفرانس » قد أقلعت من مطار اللد متجهة إلى الجزائر العاصمة . وهكذا لم يكن لدى أي أمل في الوصول قبلهم ، أيا كانت احتمالات عثوري على طائرة تنقلني الى الجزائر في ذلك اليوم ، ومهما يكن من سرعة هذه الطائرة ، ومن المعوقات التي قد تتسبب في تأخير وصول طائراتهم .

وصلت إلى مطار هواري بومدين في الجزائر بعد نصف ساعة من هبوط آخر الطائرات الثلاث التابعة لشركة « إيرفرانس » ، والتي كانت قد توقفت في القاهرة بعد إقلاعها من مطار اللد . حين وصلت كان الهدوء يشمل كل شيء : ألقيت كلمات الترحيب وسكنت الهتافات ، وتفرقت جموع المستقبلين . خالجني شعور مرير بالحسرة إذ فاتتني المشاركة في استقبالهم .

كان صلاح قد رد على كلمات الترحيب التي وجهها الوفد الجزائري بكلمة ألقاها وهو لايزال بعد على سلم الطائرة . وحين استمعت فيما بعد الى تسجيل لكلمته ، لاحظت أنها بعيدة كل البعد عما يمكن أو عما يتوقع أن يصدر من سجين فور الإفراج عنه ، وفي أول كلمة يلقيها بعد استرداده لحريته . لم ينس صلاح أن يذكر بالتقدير أفرادا من اليهود بدرت منهم مواقف إنسانية تجاه المعتقلين . أدرت شريط التسجيل ، ورحت أنصت إليه باحثة ، دون جدوى ، في ثنايا كلماته عن أدنى شعور بالمرارة . وعجبت لقدرة النفس البشرية على السمو فوق السلبيات والاحتفاظ بأصالتها وموضوعيتها وشفافيتها .

وكنت قد أمضيت ليلتى الأولى ، بعد زيارتى له أثناء اعتقاله ، فى قراءة مذكراته . ولقد اعتصر الألم قلبى حينذاك ، لكننى أدرك الآن أن ما كتبه لم يكن مجرد كلمات ، فقد عانى وجاهد لكى يجعل من زنزانته « رحما » يخرج منه « أكثر طهرا وصلابة » كما قال فى مذكراته .

وجدت ، لدى وصولى ، من استقبلنى وقادنى مباشرة إلى حيث كان يوجد عضوا القيادة اللذان جاءا لاستقبال الوافدين ، وهما « أبو أياد ، ونايف حواتمه » . كنت أتوق لرؤية معتقلى أنصار بعد الإفراج عنهم ، لكنهم توجهوا بى إلى « دار الضيافة » وهى فيللا جميلة تزدان بالقيشانى وتحيط بها زهور الياسمين . شعرت بالحرج والضيق إذ وجدت نفسى تحت الأضواء ، وما كنت أريد ذلك . لقد منحنى العمل الذى أؤديه بعيدا عن الأضواء شعورا بالرضا يكفينى مدى العمر ، حسبما قال صلاح فى رسالة من رسائله . لكننى الآن أشبه بدمية آلية يرحبون بها هنا ، ويتجهون بها إلى هناك . كنت أتحرك دون رغبة أو إرادة ، ولم يكن من اللائق أن أسأل عن مكان الإخوة المحررين . . أين هم ؟ وأين صلاح ؟ قلت لنفسى إن هذا سوف يأتى فى وقته . انتظرت ، وتبادلت الحديث مع الحاضرين ، ولكن حين واتتنى الفرصة كاشفت أبا أياد بحقيقة ما يخالجنى من مشاعر بعد أن فاتتنى لحظة وصول الإخوة المحررين ولم أتمكن من المشاركة فى استقبالهم بالمطار . وحين همّ الجميع بالانصراف أمسك أبو أياد بيدى قائلا : « تعالى ! لنذهب إلى صلاح » ، قلت : « لا ، ليس هذا ماقصدت » . والحق أننى كنت لا أزال حزينة ، فاض بى الكيل ، ونال منى الإرهاق ، فقد حانت لحظة رد الفعل ، وبدأت معاناة الأيام الماضية تحدث أثرها . ولكننى كنت أدرك أن الليل لايزال أمامى - بل أمامنا جميعا - طويلا ؛ أمام المحررين فى وضعهم ومقامهم الجديد ، وأمامنا نحن الذين انتظرناهم أشهرا طويلة .

سارت بنا العربة طويلا بمحاذاة الشاطىء ، عادت لتقطع من جديد الطريق الممتد من المطار إلى المدينة ، حتى وصلنا إلى ثكنات « خروبة » التى وضعتها الحكومة الجزائرية تحت تصرف ضيوفها المفرج عنهم من معتقل أنصار ومن سجن الأرض المحتلة . اجتزنا البوابات الحديدية ، ودلفنا إلى فناء فسيح ، ثم ترجلنا متجهين إلى حيث كان يوجد أعزاؤنا المحررون .

□ المعجـــزة تتحقـــق

ها أنذا أسترد أنفاسى ، أخيرا ، وأستعيد قدرا من الهدوء . نظرت من حولى إلى



مجموعة من أسرى أنصار بعد الافراج عنهم فى الجزائر .

مجموعات الرجال والنساء وهم يتجولون ويتحدثون ، وأنا لا أكاد أصدق ما أرى . لقد تحققت المعجزة وتحول السراب الذى ظللنا نلاحقه شهورا طويلة إلى حقيقة ماثلة للعيان . فها هم المحررون ، وكلهم أحرار ! أحرار ! نظرت إليهم بمشاعر تفيض بالفرحة والاطمئنان . وددت لو تواريت وأصبحت غير مرئية . كنت أريد أن أتفحص مليا كل وجه من وجوههم وأن أقرأ ما ارتسم عليه من تعبيرات ، دون أن أفرض عليهم وجودا دخيلا . ها أنا فى مواجهة نحو ألفى شخص من الستة آلاف الذين طالما عاشت أطيافهم فى مخيلتى من خلال معايشتى لمعاناتهم يوما بعد يوم . ها هم أمامى الآن وجها لوجه ، حقيقة ولحما ودما . لكنها كانت فرحة يشوبها الأسى ، كلما تذكرت الرجال الذين اختطفهم الاسرائيليون فى مطار اللد . دخلنا إلى أحد المبانى وقادونا إلى إحدى الغرف . وكنا لا نزال فى الممر لم ندخل الغرفة بعد ، حين فوجئت بصلاح واقفا أمامى باسما مرحا ومرحبا : « أهلا ! » . وكأننا لم نفترق لحظة ، وكأن كل هذه الشهور الماضية لم تكن أبدا !

فى اليوم التالى استمعنا إلى مزيد من كلمات الترحيب بالمحررين . فتحدث « محمد شريف مساعديه » باسم الجزائر ، وتحدث « أبو أياد » نيابة عن منظمة التحرير الفلسطينية ، وخاطب « صلاح » الحاضرين باسم رفاقه المحررين . كانت لحظة مشحونة بالمشاعر الفياضة ، وجال بصرى بين وجوه أعرفها ، ووجوه أراها لأول مرة . . . وجوه لم أرها من قبل إلا بعين الخيال . تبادلنا أول الأمر كلمات وأفكار متناثرة ، وسرعان ما كان الكلام يتدفق بيننا ، وها هى ضحكاتنا ترن - أخيرا ! - مجلجلة . كنت سعيدة برؤية فتيات الأرض المحتلة اللاتى حكم عليهن بالسجن لفترات طويلة ، قضين جزءا منها فى السجون الاسرائيلية ، وكانت لهن الأولوية على قائمة الإفراج والتبادل . « زكية شموط » ، الزوجة الوحيدة بين السجينات ، كان محكوما عليها بالسجن المؤبد ، وأبنتها الصغرى - وهى الآن صبية يانعة فى السادسة عشرة من عمرها - مولودة فى السجن . كان زوجها سجينا هو الآخر ، وقد أصيب باضطراب عصبى نتيجة لقسوة الحياة وراء الأسوار .

كان حب « زكية » لبلدها ، فلسطين ، حبا فطريا وراسخا وعميقا ، ينم عنه فى صوتها الجميل حين تشدو بأناشيد وأغانى الوطن السليب والثورة . وهى تقوم الآن بجولات مع وفود نسائية ، تزور بلدانا كثيرة ، وتحضر مؤتمرات تخاطب المشاركين فيها بمنطقها البسيط وأسلوبها العفوى ، وتعرض عليهم قضيتنا العادلة ، قضية فلسطين ، وتحكى لهم عما يعانيه المسجونون والأسرى ، وعن ممارسات الاحتلال الاسرائيلى . أما باقى المعتقلات المحررات فهن « تيريزا حلسة » ، و« نادية الخياط » ، و« حنان مسيح » ، و « عطاف يوسف » . وقد جمعتنا الظروف بعد ذلك على أرض الحرية فى لقاءات كثيرة . لقد كنت لا أتوانى عن الإعجاب بصمودهن ودهشتى به .

□ ثلاثة مندوبين لأحمد جبريل

وحضر ثلاثة مندوبين عن منظمة أحمد جبريل ، كنت قد تعرفت عليهم فى دمشق ، للقاء المحررين من رجالهم - أولئك الذين أفلتوا من عملية الاختطاف فى المطار - والترتيب لعودتهم . كان لقاء شبه عائلى مع رفاق عشنا معهم خلال الأشهر الماضية ساعات لاتنسى تخللتها المناقشات ، والأخذ والرد إلى جانب التفاهم والإنجاز . وقد بعث أبوجهاد أحمد (أحمد جبريل) معهم رسالة تقدير موجهة إلى صلاح ، رد عليها برسالة منه .

لكن فترة الابتهاج الأولى لم تدم أكثر من ثلاثة أيام . ففى اليوم الرابع رأيت صلاح ، ضمن رفاق آخرين ، يحمل حقيبته إلى سيارة كبيرة كانت فى انتظارهم كى تنقلهم

الى مدينة « تبسه » فى جنوبى الجزائر ، بالقرب من الحدود التونسية ، فقد كانت قد استقرت فى هذه المدينة قوات منظمة التحرير الفلسطينية التى غادرت بيروت ، وقد خصصت بها مساكن ، تقع على مسافة بضعة أميال من المدينة ، للمحررين الذين لحقت بهم أسرهم .

وقررت أن أستقل الطائرة لألحق بهم . ورغم تحذيرى من مشقة الرحلة ومن عدم أمان ممر هبوط الطائرة فى « تبسه » ، كان من الصعب أن يثنينى هذا التحذير عن قرارى . منحتنى الأسابيع التى قضيتها هناك سعادة غامرة . كان الإخوة يطرقون الباب أحيانا فى أى ساعة من ساعات النهار أو الليل قاصدين صلاح لحل مشكلة تواجههم . وهكذا سارت الأحوال على نفس المنوال الذى كانت عليه فى « أنصار » حتى فاض الكيل بصلاح ونفد صبره ، فما كان منه إلا أن علق على الباب ورقة كتب عليها « يرجى مراعاة طرق الباب فى أوقات مناسبة . . فهذا مسكن عائلى !!! » . لقد تبدد حلم صلاح فى أن ينعم بحرية حقيقية بعد الإفراج عنه . كان يحلم بفترة استجمام ولو قصيرة ، وهو ما لم يستطع تحقيقه حينذاك ، ولم يتحقق حتى الآن ، فقد ظل « مسكننا العائلى » فى المعسكر ملتقى لجميع الراغبين فى مقابلتنا من الإخوة ، ولكل الذين نود أن نراهم . فلم يكن صلاح بالإنسان الذى يتهرب من المسؤولية أو يدير ظهره لقومه ، أو ينأى بنفسه عنهم ، فهو إنسان وهب نفسه لقضيته والتحمت خيوط حياته بنسيج شعبه .

كنا نقضى أمسياتنا مع الرفاق - فى مسكننا غالبا أو فى مسكن أحدهم نستمع اليهم وهم يحكون عن تجاربهم ونسجل أحاديثهم . كما سجلنا شريط فيديو قام شاب من معتقلى أنصار السابقين بتصويره تصويرا متقنا ينم عن موهبة فنية . ولكم أحببت الاستماع ، ضمن ماكنت أستمع اليه ، الى تلك القصص المرحة التى كان يرويها « يحيى خطاب » ، وهو فتى يناهز السادسة عشرة ، يفيض بالحيوية والتوقد ، لا ينضب له معين ، ولا يهاب الإقدام على أى عمل مهما كانت مشقته . كان يحيى شعلة متوهجة فى « أنصار » . تسلق ذات مرة صارى العلم وانتزع من فوقه العلم الاسرئيلى ليضع بدلا منه علم فلسطين . وقد عاد ، بعد أشهر قليلة من إطلاق سراحه ، إلى أحد مخيمات بيروت . يتملكنى القلق عليه وعلى رفاقه مع تواتر أنباء الاقتتال الذى لا يزال محتدما على تلك الساحة المشتعلة .

كانت القصص التى رواها الأسرى المحررون تثير الأسى تارة وتبعث على الضحك تارة أخرى . وتنطوى أحيانا على جوانب طريفة . ولكنها كانت محزنة فى أغلب الأحيان إلى حد لا يملك المستمع معه إلا أن يغتصب من نفسه ابتسامة مريرة . حكى المحررون عن إنسانية بعض الحراس وعن شراسة معظمهم ، كيف نادى أحد أولئك الحراس ، وكان

يهوديا سوريا ، على المعتقلين وسألهم عن السوريين من بينهم . فتقدم كثيرون مطمئنين إلى أنهم يتعاملون مع شخص ينتمى أصله إلى نفس بلدهم ، فما كان من الرجل إلا أن أوسعهم ضربا وهو يقطر حقدا وغلا . سمعت كل شىء عن الاحتجاجات والأغانى وحادث البلدوزر ، و « الجورة » والهروب وأخبار العائلات ومشاعر الحزن ، وما أبداه الطبيبان « عماد طروية ، ونبيل المصرى » من مثابرة وجلد ، وما كشف عنه صلاح من شجاعة وقدرات قيادية فذة . أما الطبيب الآخر ، وهو الدكتور « نظمى » ، فكان قد سافر إلى بلد آخر ، ولم تتح لى معرفته إلا من خلال الرسائل التى بقى يوافى صلاح بها . ولم يكن ما سمعته جديدا ، إذ سبق أن بلغنى من خلال الرسائل ، لكننى أستمع إليه الآن من أصحاب التجربة مباشرة .

ولم تنته مع ذلك مشاكل « أنصار » . كل ما حدث أنها انتقلت من حالة « التجميد » التى كانت عليها فى المعتقل الى أرض الواقع حيث كان لابد من مواجهتها ، والمبادرة إلى إيجاد حلول عملية لها . كانت مشاكل المرضى متعددة وبالغة التعقيد ومن بينها حالات كثيرة تتطلب علاجا متخصصا ، الأمر الذى يقتضى فرز الحالات المختلفة لاتخاذ التدابير المناسبة لكل حالة . وتولى صلاح الجانب الأكبر من هذه المسؤولية . أما الذين لم يكن لهم وطن يستقبلهم ، فقد ظلت مشاكلهم معلقة لاتجد حلا ، بعد أن واجه عشرات من المعتقلين السابقين رفض بلدانهم الأصلية ، أو أى بلدان أخرى ، استقبالهم وإيوائهم . وكان ضمن هذه المجموعة أربعة أتراك . وحين علمت بوجودهم ، أحضرت لهم شرائط كاسيت لأغان تركية .. وكان من دواعى سرورى أن أحدثهم بلغتهم . كنا نحمد الله كلما وافقت بعض البلدان المضيافة ، مثل السويد ، على استقبال عدد من المحررين ، إلا أن فراق أناس ربطت بيننا وبينهم أواصر الألفة كان شاقا على النفس .

□ مشكلة جوازات السفر

وكانت مشكلة جوازات السفر مشكلة حيوية أخرى . وبعث الملك حسين رسالة الى صلاح بصفته رئيس لجنة الدفاع عن حقوق المعتقلين أبلغه فيها ترحيبه باستقبال مائتين وخمسين من المفرج عنهم بتصريح جماعى ، على أن تحل مشاكلهم الفردية بالتدريج بعد وصولهم الى عمان . وكانت لفتة وخطوة إيجابية قدرها الجميع ، وذكروها بالعرفان والتقدير ، وإن كان حل هذه المشاكل قد اقتضى بعض الوقت .

ولكن أيا كان الجهد المبذول ، ومهما يكن من أمر العقبات ، فقد كان رائعا أن نرى أسرا يلتئم شملها من جديد ، ومعتقلين يعودون الى حياة طبيعية أو قريبة من الطبيعية .

وبلغت عملية تطبيع الأوضاع بين الأردن والفلسطينيين ذروتها خلال الدورة السابعة عشرة للمجلس الوطنى الفلسطينى ، التى عقدت فى نوفمبر ١٩٨٤ فى عمان . والواقع أن الفشل فى إعادة العلاقات الطبيعية والأخوية بين الشعبين ، إلى جانب كونه وضعا غير طبيعى ، من شأنه أن يؤدى إلى مزيد من التفتت فى الكيان العربى ـ وهذا وضع يناسب كثيرا تلك الدول التى لاتمل ترديد شعارات طنانة عن « العدل » و « الحرية » ، بينما تنتهج فى حقيقة الأمر نفس السياسة البالية ، سياسة « فرق تسد » .

ومن منطلق قناعتى الشخصية أقول إن الدورة السابعة عشرة برهنت بوضوح ، على صدق نوايا الملك حسين ، وهو أمر شكك فيه البعض فى بلدان العالم العربى مدفوعا بمصالح ذاتية . والحق ، أننى موقنة أن الملك حسين ليس بالرجل الذى يفتعل الحماس لأية قضية أو لأى موقف دون اقتناع حقيقى . فهو أقرب إلى المجاهرة بالاختلاف الحاد ورد الفعل العنيف منه إلى محاولة إخفاء ما يؤمن به وراء ستار من التظاهر بالمساندة ، واستخدام عبارات المجاملة أو اللجوء إلى الدهاء . صحيح أن السياسة قد تقتضى تطويع المواقف لخدمة المصالح ، أو تغيير التكتيكات . لكننى أشير ، فى هذا المقام ، الى قناعة أساسية غير قابلة للتأثير عليها

قوبل صلاح فى الجلسة الافتتاحية ، التى حضرها جلالة الملك حسين وأبو عمار ، بالهتاف والترحيب الحار من الحاضرين الذين وقفوا لتحيته ، واستقبله رئيس المؤتمر السيد « سليم رعنون » فاتحا ذراعيه ومهللا : « أهلا ببطل أنصار » . وكان هذا تأكيدا جديدا لرأيى وتقييمى ، وبعضا مما يستحقه صلاح من تقدير للكفاح الذى خاضه فى « أنصار » طيلة شهور . كان مجرد اعتراف ضمنى بدور صلاح من جانب رفاقه . أما بالنسبة لى ، فلم يكن ما فعله صلاح ينطوى على أية مفاجأة على الإطلاق . إذ كنت أعرف عن كثب تصميمه والتزامه وقوميته وشجاعته إلى جانب إحساسه المرهف نحو المريض والمعوز . . وأمانته وتمسكه بالعدالة فى جميع الظروف .

مازلت أحمد الله تعالى أن أبقانا أحياء لنشهد ذلك اليوم . ومن المؤسف والمخيب للرجاء أن الوفاق الأردنى ـ الفلسطينى لم يستمر طويلا ، لأسباب وضغوط مؤسفة أيضا لا يتسع المجال لذكرها . إلا أن مؤتمر القمة العربى الطارىء ، الذى عقد فى ٧ أكتوبر ١٩٨٧ فى عمان ، قد حقق بعض التقارب ، كما كان بلا شك خطوة مشهودة على طريق عودة مصر إلى الكيان العربى ، ولدحض ما يحلو للبعض ترديده عن العرب وكيف تنقصهم المقومات اللازمة لبناء وحدة حقيقية وطيدة الأركان .

ولاشك أن الإسرائيليين سوف يستمرون فى ترديد أن الضفة الشرقيه لنهر الأردن ـ

أى المملكة الأردنية الهاشمية ـ هى الوطن البديل والمكان الطبيعى والمنطقى للدولة الفلسطينية .. ولاشك أيضا أن الفلسطينيين سيظلون على رفضهم القاطع للمجور على سيادة دولة عربية ، أو قبولها كبديل عن وطنهم السليب . فقد كان هدفهم ، ولايزال ، هو السعى ، بشرف وأمانة ، إلى تحقيق الاتحاد بين مختلف البلاد العربية ، فى ظل التضامن والتفاهم ، وليس السعى ، كما يدعى البعض ، إلى انتهاج سياسة تقوم على العدوان وإثارة الفرقة .

ومازلت آمل أن يمتد بنا الأجل حتى نرى عالمنا العربى ، وقد توحدت مصالحه ، وتحرر من المخاوف والحقد ، وأصبح هنيعا بوحدته ، يوظف موارده الطبيعية لتحقيق الرخاء والاستقرار والسلام ، بدلا من أن يبدد طاقاته فى مشاحنات عقيمة . إن تحقيق هذا الحلم يرتهن ، بطبيعة الحال ، بأوضاع عالمية تتخطى حدود المنطقة ، ولعله يكفينا فى المرحلة الراهنة أن نتطلع الى الوجود ككيانات قوية متماسكة ، تتمتع بأكبر قدر متاح من الحرية فى عالم يسوده الأمن والسلام ، وليس كقطع شطرنج فى لعبة موازين القوى .

□ الشـــتاء فى تبســـه

وقد حاولنا ، خلال إقامتنا فى « تبسه » ، الإفادة من بعض التقارير التى بعث بها صلاح من « أنصار » . وقد سلمت إلى الدكتور « فتحى عرفات » ، رئيس ومؤسس لجنة « الهلال الأحمر الفلسطينى » ، قدرا كبيرا من الأوراق ، يتضمن قائمة تفصيلية بأسماء المرضى والأمراض التى يشكون منها . وقد استبشرت بهذه البداية فتوجهت إلى بيتنا فى القاهرة لجلب أوراق أخرى ، وقوائم قد بُعث بها إلىّ من داخل المعتقل .

حين عدت الى معسكر تبسه بعد أيام قليلة ، كان الشتاء القارس قد حل ، وكانت طبقة رقيقة من الجليد تكسو أرض « مطار وهران » حيث هبطت بى الطائرة . ومن هناك توجهت بالسيارة الى تبسه ، ومازلت أذكر رحلتنا عبر المناطق الريفية ومرورنا بالقرى الأخاذة الجمال بطابعها الأصيل وحياتها الجياشة ، وكيف أخذت بسحر مسجد صغير أزرق المئذنة يرقد فى حضن الجبل ، ويشد الأنظار بألوانه الزاهية أمام خلفية التلال المكللة بالجليد الناصع البياض . وحين وصلت السيارة إلى بوابات معسكر تبسه أحسست ، وكأنما أعود إلى دارى . كان الجو شديد البرودة ولكن دفء الأهل والأصدقاء كان ينتظرنى بالداخل .

كان من أجمل وأعذب ما تقع عليه العين فى هذا المعسكر طفلة القائد ذات العامين

وهى تتدحرج على درج عربة السفر (الكارفان) التى أقام فيها والداها بعد أن تركا لنا غرفتها ، وقد تدثرت بمعطف يعلوه غطاء رأس ، ثم وهى تخطو على الأرض بخطى واثقة . كان الجميع يتفاءلون بهذه الصغيرة وكانت والدتها ، وهى سيدة لبنانية شابة ، عنصرا بالغ الإيجابية فى المعسكر لما تتحلى به من ذكاء وبساطة وود . وقد انعقدت أواصر الألفة بيننا ومازالت صداقتنا مستمرة حتى الآن . وكانت هناك سيدات أخريات يقمن بالمدينة ، من بينهن زوجة طبيب ، أم لطفلين ، وقد نظم اتحاد النساء الفلسطينيات فى الجزائر زيارة لمعسكرنا رافقته خلالها بعض السيدات الجزائريات من وزارة الشؤون الاجتماعية .

وفكر صلاح فى تأسيس دار حضانة وشرع على الفور فى التنفيذ . وكان هذا العمل مصدر سعادة وشعور بالرضا لكل من شارك فيه . وتحمسنا ، نحن النساء ، للمشروع فنزلنا إلى سوق المدينة لشراء الستائر والأقمشة اللازمة لإعداد الزى المطلوب ، والمكاتب والكتب والأقلام واللعب . وتطوع عدد من الزوجات ـ يحمل بعضهن مؤهلات تربوية ـ بالتدريس فى الفصول ، وضمت حضانتنا نحو أربعين طفلا . وقد بلغنى ، بعد عامين أن أحوال الحضانة لاتزال طيبة . ولكننى لم أتمكن للأسف من العودة لزيارتها ، وقد بلغنى ، بعد ذلك ، أن المعسكر بأكمله قد نقل الى مكان آخر .

أما الرجال ، فكانوا يمارسون الرياضة ويجتمعون للسمر والمناقشة لإيجاد حلول لمشاكل حياتهم اليومية . وأصبح المطبخ الجماعى ـ الذى وظف فيه أحد معتقلى أنصار السابقين كل مواهبه فى فن الطهى ـ يغطى ، على أكمل وجه ، احتياجات الموجودين ومن أهمها اللقاء فى غرفة الطعام الفسيحة المجاورة .

وقد ظل أبو عمار دائم الترحال منذ خروجه من طرابلس ، حتى تمكن أخيرا من زيارتنا فى شهر يناير بعد ثلاث محاولات فاشلة للهبوط بطائرته الصغيرة على الممر المغطى بالجليد فى سهل « تبسه » . وكان الاستقبال حارا بعد طول الترقب والانتظار . وقام أبو عمار ، الذى يعرف الجميع مدى حبه للأطفال ، بزيارة الحضانة ، ثم اتجه إلى مكتب قائد المعسكر ، حيث هرع إليه المعتقلون السابقون ليعرضوا مشاكلهم وشكواهم . وشعرنا عندئذ بأن من حقهم جميعا بعد المحنة التى عاشوها ، وبعد أن انتظروا طويلا ، أن تتاح لكل فرد منهم فرصة الحديث إليه . ولكن كان من المتعذر أن يتحقق ذلك خلال بضع ساعات .

وبعد الظهر ، توجه الجميع الى القاعة الكبيرة المسقوفة حيث خاطب أبو عمار



الأميرة دينا وياسر عرفات وصلاح فى عمان فى صيف ١٩٨٤ .

الجمع الغفير الذى كان فى انتظاره . وأوضح أبو عمار جميع الأسباب التى أدت الى تعثر المفاوضات بشأن المعتقلين ، وكل ما صاحبها من قلق وما أقتضته من جهود ، حتى توجت فى النهاية بالإفراج عن المعتقلين . وتحدث بإفاضة عن حصار بيروت ومعارك لبنان التى قطعت دابر كل شك فى سعى اسرائيل إلى التوسع بما يزيد كثيرا على الخمسة والعشرين ميلا التى سبق أن حددتها كضمان « للحدود الآمنة » . كما أشاد بما أبداه الشعب الفلسطينى من شجاعة ، وببساطة الشعب اللبنانى وجلده وتضحياته ، وتحدث عن تصوره للمستقبل .

□ صلاح يسافر مع أبى عمار

مر اليوم بأسرع مما كنت أتصور . وكان أبو عمار قد طلب من صلاح أن يستعد للسفر معه بعد ظهر ذلك اليوم . وقد اقتضت الاستجابة لهذا الطلب مزيدا من العجلة

والقلق والأسئلة التى تظل حبيسة الصدر . والأهم من ذلك أنها كانت تعنى بالضرورة أن نودع حياة وجدنا فيها الاستقرار والسعادة حتى فى مثل هذا المعسكر النائى ، لنبدأ من جديد رحلات فى شتى الاتجاهات ، أخذت تتزايد على مدار الشهور .

تملك كلانا الشعور بأن مسؤولياتنا ومهامنا لم تنته . وخلال الأسابيع القليلة التى قضاها صلاح بعد ذلك فى عمان ، عاد ليتابع بنفس المثابرة والأمانة ، مختلف مشاكل زملائه من المعتقلين السابقين ، والمسائل الناجمة عن بعض التفاصيل التى لم تحسم فى صفقة التبادل . وعلى الرغم من أنه لم يعط نفسه أية فرصة للراحة ، وكان يبذل قصارى جهده للعناية بمشاكل زملائه ، فقد أحب صلاح البلد ، وشعر بأنه بين أهله .

وعشت تلك الفترة القصيرة فى عمان بحلوها ومرها . فقد اجتمع شمل صلاح بوالدته وشقيقاته وأفراد آخرين من أسرته . وغمرتنى السعادة لفرحة هذه السيدة التى انتظرت بصبر وصلابة عودة ابنها البكر والأسير إلى قلبها ، دون شكاية أو تذمر . ولقد صدق رسول الله ، ﷺ ، حين قال : « **أحب أبنائى صغيرهم حتى يكبر ، ومريضهم حتى يشفى ، وبعيدهم حتى يقرب** » . إنها المرأة العربية فى أروع صورها ، ونموذج للأم الفلسطينية التى لاتتردد فى تقديم أبنائها فداء للقضية .

رحب بنا أيضا أفراد أسرتى فى عمان . سعدت بصحبة عاليه ، وسررت إذ وجدتها قد استعادت ابتسامتها المشرقة بعد أن انتهت بعودة صلاح وزملائه ، إحدى المشاكل التى كانت تؤرقها .

وأخيرا ، عدنا إلى القاهرة لدارنا ، الذى لم يعد منذ رحيل والدى المنزل الذى عهدته ، ولكن وجود صلاح جعله ينبض بالحياة والدفء والأمان مرة أخرى . ولابد أن العودة كانت تجربة غريبة بالنسبة إليه بعد كل ما حدث . فالقاهرة كانت ولاتزال ، قلب العالم العربى ، على الرغم من الأشياء الكثيرة التى تغيرت منذ حرب ١٩٦٧ ، أى منذ رحلنا للانضمام إلى صفوف المقاومة . وهى مثوى ذكريات صلاح فى سنوات الدراسة ، ذكريات الشباب بكل ما تجيش به من تفاؤل ، فضلا عن الذكريات القاسية لإنسان مر بتجربته . والقاهرة هى عالمى أنا أيضا ، وكنا نأمل أن نقضى فيها جانبا كبيرا من وقتنا . كذلك كانت عمان « مرفأ » لنا ، وربما يصدق ذلك على صلاح أكثر مما يصدق علىّ ، إذ تقيم هناك والدته وشقيقاته ، فضلا عن أن أهل الأردن ومناخها أقرب الى أهله ومناخ وطنه ، على حين تناثر الأصدقاء القدامى الذين كانوا يقيمون فى القاهرة . ولكن كان أهم ما فى الأمر أن صلاح أصبح حرا . . حرا ، حرا !

وبينما كنا مشغولين بالبحث عن قطعة أرض صغيرة فى الريف ، فى ضواحى عمان ، أو فى مكان أبعد منها لنبنى عليها دارا يمكنه أن يزرع حديقتها ، ونستطيع أن نزرع فيه الخضراوات والفاكهة ، وأن نربى الحيوانات الأليفة ونستمتع بهواياتنا فى القراءة والكتابة ، ونعود الى اهتماماتنا وإلى مشاركة كل منا الآخر فى اهتماماته ، كان على صلاح أن يسافر من جديد . ووجدنا أنفسنا نحمل عصا الترحال مرة أخرى .



الخاتمة

بقلم صلاح التعمرى

اتحايل على جسدى ومساحة الزنزانة الخانقة . . . أكوّر جسمى . . . أستلقى على جانبى . . . اتخذ من ساعدى وسادة . . . يرتطم خدّى وصدغى بالقيود الصلبة . أعود إلى وضعى السابق . . . جالسا على الأرض . . . مستندا بظهرى إلى الحائط . . اتأمل بضع قطرات من الدم تنزّ من معصمى . . ورقبتى تكاد لا تحمل ثقل رأسى . . . ولا أدرى . . . لا أدرى أى موضع فى جسدى يؤلمنى أكثر . . . معصمى . . . كاحلى . . . ظهرى . . . رقبتى . . . عيناى ؟

فقد تجسد الألم الفعلى والمعنوى فى كل ذرة من كيانى . . .

أنين خافت يتناهى إلى مسمعى . . . تنتبه حواسى . . . يتحول وجودى إلى حاسة سمع . . ويردد صوت الأنين الداخلى « لست وحدك » . . . يتواصل الأنين . . . وأنسى مع تواصله ألمى . . . تواصل يداى العبث بالقيود . . . فى محاولة يائسة للتخلص منها . . . وفى نفس الوقت للتأكد من وجودها . . . فهى لم تفارقنى ليلا ونهارا . . . لأيام طويلة . . . وكأنها جزء منى !

ومن خلال هذا الوجود الذى أصبح الواقع المرفوض يختلط فيه بذكريات ورؤى من عالم الحرية السابق . . . ينطلق عقلى مخترقا الجدران الصماء . . . ولونها الأحمر الموقع . . . يبحث عن أجوبة للأسئلة الكثيرة التى تدوى بداخله . . . يبحث عن بدايات . . . وما أكثر البدايات لحياة متعددة الفصول .

لماذا أنا هنا ؟

أين أنا ؟
كيف حدث ذلك ؟

أقول لنفسي . . . لا عجب ! فهذا واقع كل فلسطيني ! الظلم والتنكيل ومحاولات الإذلال والاحباط هي مصير كل فلسطيني !

يستقر عقلي على إحدى البدايات .

ليلة الخامس من يونيو عام ١٩٨٢ . . . بعد المغيب . . . اتجول في المدخل الشمالي لمدينة صيدا مع مجموعة من « الأشبال » ، استطلع الوضع . . . استقر في موقع لا يفصله عن البحر سوى سور قليل الارتفاع يسمح لنا بمراقبة البحر ، والشاطىء الممتد من ميناء صيدا وحتى مصب نهر الأوّلي شمال صيدا على طريق بيروت . . . وقد أصبحت الغارات التي استمرت على المخيمات الفلسطينية وضواحي مدينة صيدا طيلة النهار أكثر عنفا ووحشية مع هبوط الظلام . . . تشارك القطع البحرية الصهيونية ، الطائرات في صب نيرانها ، في حين ظلت راجمات الصواريخ والمدافع المضادة للطائرات تواصل عملها .

ترتج الأرض من تحتنا من شدة القصف الذي وصل حد الجنون ، أنظر إلى وجوه الفتية الذين يزيدهم توتر الحالة وتصاعدها ، رباطة جأش وتماسكا وحماساً . . . اتابع إشارة أحدهم باتجاه مصّب نهر الأوّلي الذي يبعد عنا ما يقرب من ثلاثمائة متر . . . لأرى عبر الظلام أشباحا تتسلل إلى الشاطىء ، دبابات لفظتها القطع البحرية لتستمر في زحفها نحو المرتفعات . . . لقد بدأ الإنزال الذي مضى في طريقه ليكمل تطويق مدينة صيدا من جميع الجهات .

يصوّب الفتية قاذفاتهم نحو الدبابات في استبسال . . . ثم يهرعون رغم القذائف المتساقطة إلى خط القتال الجديد على طريق صيدا - جزين ليأخذوا مواقعهم لملاقاة العدو .

انتظرت وسط هول ما يحدث فرصة من الهدوء النسبي لأتسلل إلى بيتنا القائم على نفس الطريق ، والذي تحول بدوره إلى خط أمامي . . . كما أصبح خلال ساعات كل شارع في صيدا ، وكل حارة خطا أماميا خلال ذلك الغزو .

انتحيت بزوجتي . . دينا . . . جانبا ، محاولا عدم إزعاج جيراننا الذين تجمعوا في دارنا . . أوجزت لها الموقف على عجل . . . طلبت منها بحزم مغادرة صيدا . . . إذ لم



صلاح ودينا وعالية بعد الافراج - فى عمان ٢٧ أكتوبر ١٩٨٤ .

أستطع أن أجازف بتركها فى هذا الخضم الجهنمى ، ووالدتها تقضى أيامها الأخيرة فى أحد مستشفيات القاهرة .

تمنعت . . . وازددت إصرارا . . . فأنا أعلم كم تألمت حينما توفى والدها قبل وصولها إلى جانبه بدقائق عام ١٩٦٣ . ولا أريد لها أن تمر بنفس التجربة مع والدتها التى كانت أما حنونة لكلينا . عندما بلغنى نبأ وفاتها - فيما بعد - وأنا فى زنزانتى فى « جاديرا » كان معينى قد نضب على أثر ما شاهدته وعانيته أنا وآلاف من أبناء شعبى . . . وكنت بالفعل قد فقدت رغبتى فى الحياة .

. . . توسلت عيناها بحزن ، وكأنها تقول دون أن تنبس بكلمة « دعنى أبقَ لأشاطرك المصير . . . أو فارحل معى » . لم يكن معقولا أن أضعف أمام توسلها الصامت ، فقد كان الوقت الضيق يستلزم القرار الحاسم فى وجه الهجمة الزاحفة ، ووابل الموت الممطر .

تأهبت على عجل لمغادرة بيتنا . . . وجيراننا وكل ما كان يكوّن بالنسبة لنا حياة بسيطة ملتزمة رائعة . . . بقيت تفتقد كل لحظاتها بما حملت من مخاطـر أو سعادة حتى اليوم . .

تبادلنا الوداع فى ضوء الفجر الخافت ، وهدوئه الرهيب فى ذلك الصباح . كان الوقت فجرا . . . وكان للفجر مكانة فى حياتنا . .

يبقى عقلى خارج الجدران (جدران الزنزانة) مع الفجر وذكريات الفجر .

« صباح الخير » . . كانت تبادرنى حين أعود لبيتنا فى صيدا . . . حين كان الفجر يحمل بشائـر الراحـة بعد ليلة بـالغة العنـاء فى « العرقـوب » . . . أو فى صور . . أو النبـطية . . . أو ليلة حـريق مصفاة « الـزهرانى » للبتـرول . . . و « حارة النـاعمة » المطوقة . . .

« بل فجر الخير » ! كنت أرد !

أما هذا الفجر . . . فجر السادس من يونيو فله طعم آخر . . . يحمل نذر القتال والدمار . . . أكاد أشعر بـطعمه المـر كالحنـظل فى فمى . . . ويبقى سؤال مريـر يلح علىّ . . هل نجحت وموسى ـ زميلى وسائقى الشاب المناضل الملتـزم ـ فى الخروج من الحصار الذى قد بدأ يطوّق صيدا ؟

وبقدر قلقى على سلامتها كنت أفكر فيا سوف يصيبها هى من قلق لعدم تمكننا من تقسيم الـورقـة التى تكتب عليهـا شهـادة أن « لا إلـه إلاّ الله وأن محمـدا رســول الله » وتقسيمها عادة عند السفر لنجمع شطريها من جديد عند اللقاء .

هل نجت بالفعل من مخاطر ذلك اليوم . . . بعد أن اجتازت أكثر من مخاطرة خلال الأعوام العشرة السابقة . كانت شجاعتها تدعو للدهشة حتى بمقاييسنا نحن الذين قد عاصرنا أشد المواقف خطورة . ومن ضمن ما تصدت له من مواقف محاولة الـوصول إلينا ، ونحن محاصرون فى مدينة صيدا القديمة عند بداية الحرب الأهلية اللبنانية . . . ومخاطرات اجتياز الحواجز ونقاط التفتيش المختلفة بين صيدا وبيروت . . . وفى الطرق الجبلية . وبالإضافة إلى شجاعتها كنت أقدّر الأسلوب المتميز الذى تواجـه به الأمـور مترفعة عن الصغائر . وتزداد فى نظرى عظمة لشجاعتها الأدبية التى توازى شجاعتها الجسمانية . إذ كانت تسعى دائما نحو ما تؤمن به بتصميم يقترن بوداعة الايمان الحقيقى .

فكنت أشعر فى بعض الأحيان أننى لا أستطيع أن أطول هامتها من حيث النضوج الفكرى والعاطفى .

. . . قال لى السجان وهو يفتح باب الزنزانة :
« إن زوجتك هنا » .

وسرعان ما أغلق الباب ليتركنى مع دهشتى وتساؤلاتى وقلقى . إذ تبادر إلى ذهنى أنها ربما تكون قد أصبحت هى سجينة فى زنزانة أخرى . واشتعلت النيران فى عقلى . . ولم أدر ماذا أفعل بنفسى . وعندما هدأت بعد مضى فترة من العذاب الذهنى غير قصيرة أدركت أن المقصود هو أنها قد وصلت على أرض وطننا السليب . . . غير آبهة من خلال قناعتها بالخطوة التى اتخذتها بكل اعتراضاتى على مجيئها ، وبالرغم من تقديرى لدوافعه إلاّ أنه ترك فى نفسى وحتى اليوم ألما .

كانت ترتدى السواد حدادا على والدتها عندما أخذونى لرؤيتها . وبدت دينا كعادتها متحفظة حتى فى هذا الموقف الذى كان يفوق التحمّل البشرى العادى . ترفعت عن إبداء مشاعر الألم ، وكل ما كان يجول بنفسها .

توقعنا بالطبع أن تكون الغرفة التى التقينا فيها مرصودة . . . ولذلك تحدثنا بإبهام فى أمور عادية . . . أما الأمور الهامة والمصيرية بالنسبة لقضيتنا ولنا ، فقد حاولنا ببعض الكلمات المختصرة . . . والكلمات الرمزية ، كتبت بعضا منها على الورق . . . كى تحملها مع تسجيل صوتى خافت ومقتضب للعالم الخارجى ، وللقيادة ، وكل من يعنيهم الأمر أيضا . ولقد استوعبت الوضع بشكل مذهل . . . وكأنما حديث أعيننا الصامت قد نقل إليها ، ووضح كل ما لم أستطع أن أفوّه به .

بعد مضى عام وأكثر على هذا اللقاء . . . وعندما جلسنا على أرض الحرية سألتها كيف تمكنت من الخروج بما حملتها من رسائل . فأخبرتنى فى ارتباك وخجل عن التفتيش الذاتى الذى تعرضت له ، وأنها بالرغم منه قد تمكنت من توصيله إلى العالم الخارجى . ثم أضافت أن تلك كانت تجربة أشعرتها بالمساواة مع باقى أفراد شعبنا الذين يتعرضون لمثل تلك المعاملة كل يوم . ولم أكن لأتصور بالرغم من معرفتى الحميمة بها أنها يمكن أن تبلغ ذلك الحد من العظمة . لقد كانت فى نظرى دائما رائعة .

وإننى اليوم وبعد مضى ما يقرب من خمس سنوات عندما يتسنى لى أن أخلد إلى بعض الراحة أو الهدوء ، واتذكر تلك الأحداث التى لا حصر لها ، والتى شاركت دينا

فيها ، وتناولتها بنفسها ، أجد أن أنفاسي تكاد تنحبس ! فكم كان الطريق الذى قطعناه معا طويلا وشائكا .

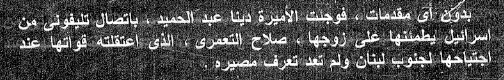
كانت شجاعتها وتحمّلها للمسؤولية والتزامها تفوق الوصف . تلك المسؤولية الوطنية فى حمل الأمانة . . . سواء فى صيدا . . . أو فى طرابلس . . . تحت الحصار والنار . . . أو داخل الأراضى المحتلة وتحت المراقبة . . . أو وهى فى طريقها إلى العديد من المطارات الجوية التى كان بعضها جديدا وغريبا بالنسبة لها . ذلك الاندفاع من طائرة إلى أخرى . . . ذلك التحدى للمستحيل . . . وذلك السباق مع الزمن لأداء ما التزمت به .

لقد كانت دينا دائما رائعة فى نظرى .

رقم الإيداع بدار الكتب
١٩٨٩ / ٢٩٣١

مطابع الأهرام التجارية القاهرة ـ مصر





بدون أى مقدمات ، فوجئت الأميرة دينا عبد الحميد ، باتصال تليفونى من اسرائيل يطمئنها على زوجها ، صلاح التعمرى ، الذى اعتقلته قواتها عند اجتياحها لجنوب لبنان ولم تعد تعرف مصيره .

وبعد أن تمالكت نفسها من وقع المفاجأة ، واتتها فكرة : لماذا لا تنتهز الفرصة وتذهب الى اسرائيل للاطمئنان على الأسرى ، وبحث امكانات الافراج عنهم . وفاتحت القيادات الفلسطينية فى هذا ، فأيدوا اقتراحها . وبدأت رحلة طويلة من العذاب لانقاذ نزلاء « معسكر أنصار » ، تكشفت خلالها عشرات الأسرار التى يرويها هذا الكتاب .

الناشر

مركز الأهرام للترجمة والنشر
مؤسسة الأهرام

التوزيع فى الداخل والخارج : وكالة الأهرام للتوزيع
ش الجلاء - القاهرة

مطابع ... القاهرة - مصر